ميشيل بوسي

مكتبة ٥٨٨

لن ننسى أبداً

رواية

المركز الثقافي العربي

«اسمي جمال. عربي، معوّق، أعزب.
كبش فداء مثالي، أليس كذلك؟»

هدية

للذين غشوا بمهارة ..

مكتبة | 588

ميشيل بوسي

لن ننسى أبداً

العنوان الأصلي للرواية:

Michel Bussi
N’oublier jamais

© Presses de la Cité,
un département de Place
des Editeurs, 2014
All rights reserved

الكتاب

لن ننسى أبداً

تأليف

ميشيل بوسي

ترجمة

عبد المجيد سباطة

الطبعة

الأولى، 2020

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-937-1

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 - 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت - لبنان

ص.ب: 5158 - 113 الحمراء

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 - 01 352826

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

ميشيل بوسي

مكتبة | 588

لن ننسى أبداً

رواية

ترجمة: عبد المجيد سباطة

المركز الثقافي العربي

إلى آرثر . . . الذي سيبلغ عامه الثامن عشر غداً!

قابلتَ فتاة جميلة على حافة جرف؟
إياك أن تمدّ إليها يدك!
قد يعتقدون أنك قمتَ بدفعها .

الدرك الوطني، السرية الإقليمية لضاحية إتروتا، سين-ماريتيم،
13 يوليو 2014

من السيد الملازم بيرتران دوناديو

إلى السيد جيرار كالميت، مدير الوحدة الدركية المكلّفة بتحديد هوية ضحايا الكوارث (UGIVC)، مؤسسة البحث الجنائي التابعة للدرك الوطني (IRCGN)، روسني سو بوا

السيد المدير،

شهدت ليلة 12 يوليو 2014، قرابة الثانية وخمس وأربعين دقيقة صباحاً، في منبع لا فالوز ديتيغ، ثلاثة كيلومترات غرب بلدة إيبور، انهيار جزء من جرف يقدَّر حجمه بحوالي 45 ألف متر مكعب. يمكن القول بأن هذا النوع من الانهيارات أقرب للمألوف في منطقتنا. وقد تأكدت فرق الإنقاذ -التي وصلت إلى الموقع بعد مرور ساعة كاملة- من أنّ الحادث لم يخلِّف أيّ خسائر في الأرواح.

ومع ذلك، فإنّ ما دفعنا إلى مراسلتكم، لم يكن عدم العثور على

جثث متنزهين بين الأنقاض، بل توصلُ رجال الإنقاذ إلى اكتشاف غريب. ويتعلق الأمر برفات ثلاثة هياكل عظمية بين الكتل المتناثرة على الشاطئ.

لم تعثر قوات الدرك الملتحقة بالمكان على أيّ قطعة ملابس بالقرب من العظام، ولا حتى متعلقات شخصية أخرى قد تسمح بتحديد هوية أصحاب الهياكل العظمية. قد نفترض بأن الأمر يتعلق هنا بمتخصّصين في المغاور علقوا في الجرف، ما دامت التضاريس الكارستية للسواحل الطباشيرية مرتعاً مألوفاً لهواة الرحلات البرية التحتأرضية. لكننا لم نتوصل في الأشهر أو حتى السنوات الأخيرة بأيّ إخبارية تفيد اختفاء متخصّصين في المغاور. قد تكون الهياكل العظمية أقدم من ذلك بكثير، وإن كانت المعاينة الأولية (قبل تحليل العينات مخبرياً) لا تدل على ذلك بأيّ شكل من الأشكال.

وجبت الإشارة هنا إلى أنّ العظام تناثرت بعد الانهيار على طول أربعين متراً على الشاطئ. وقد تولّت سرية الاستعلامات والتحقيقات القضائية، بتفويض من العقيد بريدان، مهمة أخذ عينات مختلفة من الهياكل العظمية. وقد أكّدت معاينتهم الأولية ما توصلنا إليه: لم تبلغ كلّ العظام المرحلة نفسها من التحلّل، ممّا يدلّ –رغم غرابة ذلك– على أنّ هؤلاء الأشخاص قد لقوا حتفهم في تجويف الجرف خلال فترات مختلفة ومتباعدة، عدة سنوات بلا شك. تبقى أسباب الوفاة مجهولة حتى الآن: فالمعاينة الظاهرية للعظام والجماجم لا تكشف عن أيّ ضربات مميتة قادت إلى الوفاة.

وبغياب أي دليل قهري أو نقطة انطلاق تسمح بتوجيه البحث نحو مسار محدّد، يستحيل علينا بدء تحقيق يكشف ظروف ما قبل وما بعد الوفاة. لتبقى الأسئلة مفتوحة: مَن هم هؤلاء الأشخاص الثلاثة؟ متى لقوا حتفهم؟ ما هو سبب الوفاة؟

لا داعي للقول بأنّ هذا الاكتشاف قد أثار فضول ساكنة المنطقة، الذين انشغلوا خلال الأشهر الماضية بحادثة أخرى مروعة، لا علاقة لها -على الأرجح- بالعثور على هذه الجثث مجهولة الهوية.

لكلّ هذه الأسباب، ورغم معرفتي، سيدي المدير، بمدى انشغالك بعددٍ من القضايا الأكثر استعجالاً، وترقّب العائلات التي تنتظر التعرّف الرسمي على أقاربها المتوفين حديثاً، سأسمح لنفسي بأن أطلب من المصالح المعنية -وبإصرار شديد- أن تولي هذا الملف عناية خاصة بما يمكّننا من التوصّل إلى هُوية الهياكل الثلاثة في أقرب وقت ممكن.

تقبّلوا مني، سيدي المدير، أصدق عبارات الاحترام والتقدير.

الملازم بيرتران دوناديو

السرية الإقليمية لضاحية إتروتا.

مكتبة
t.me/t_pdf

قبل خمسة أشهر، 19 فبراير 2014

- كن حذراً يا جمال، قد يكون العشب زلقاً على المنحدر.

لام أندريه جوزياك مالك فندق لاسيرين نفسه على التفوّه بهذا الكلام، كان واقفاً أمام مدخل فندقه مرتدياً معطفه. بالكاد تجاوز الزئبق في ميزان الحرارة الخط الأزرق المشير إلى درجة الصفر. لا أثر للرياح القوية، وبدا أنّ ديك الرياح الحديدي المثبت على العارضة في واجهة الفندق قد تجمد طوال الليل.

تابع أندريه جوزياك ببصره طلوع الشمس على الشاطئ أمامه، وطبقة الجليد الرقيقة على السيارات المتوقّفة أمام الكازينو، والحصى المتجمّع كالبيض المرتعش الذي تخلّت عنه زواحف عملاقة. بدا كما لو أنّ الشمس قد طلعت بصعوبة على الشاطئ، بعد المنحدر الميت في بيكاردي، على بعد مئة كيلومتر شرقاً.

ركض جمال مبتعداً، تابعه أندريه وهو يمرّ بالقرب من الكازينو مستهدفاً مرتقى شارع جان هيلي. نفخ في يديه باحثاً عن القليل من الدفء. لا بدّ من إعداد وجبة الفطور للزبناء القليلين الذين يقضون

عطلة فصل الشتاء قريباً من المانش[1]. في البداية شَعَرَ ببعض الاستغراب، أن يخرج شاب معوّق في ساعة مبكرة كهذه ليركض في المسار المخصَّص لهواة المشي لمسافات طويلة، بساقٍ قوية بارزة العضلات، وأخرى اصطناعية تمَّ تثبيت حذاء رياضي في نهايتها، لكن استغرابه تحوَّل إلى تعاطف حقيقي مع هذا الشاب. عندما كان في مثل سنّ جمال، أي أقل من ثلاثين سنة، كان يقطع مئة كيلومتر بالدراجة صباح كل يوم أحد، إيبور-إيفتو-إيبور، ثلاث ساعات أسبوعية لا يزعجه فيها أحد، فيما قرَّر الشاب القادم من باريس بساقه الاصطناعية الركض في الوديان الصغيرة مع طلوع الشمس، طبيعي أن يتفهّم أندريه ذلك.

ظهر ظلّ جمال مرة أخرى في زاوية الدرج الصاعد نحو المنحدرات، قبل اختفائه خلف أكياس القمامة في الكازينو. تقدم صاحب فندق لاسيرين خطوةً أخرى، قبل إشعال سيجارة وينستون. لم يكن ابن إيبور الوحيد المستيقظ في مثل هذا التوقيت، متحدياً برودة الطقس، فقد ظهر ظلّان لشخصين على الشاطئ، كانا قريبين من مياه البحر. سيدة عجوز يرافقها كلب صغير مضحك، من تلك النوعية التي يبدو أنها تعمل بالبطاريات وجهاز التحكّم عن بعد، كلاب مغرورة قد لا تجد أدنى حرج في إهانة النوارس بنباحها الهستيري، وعلى بعد مئتي متر تقريباً، رجل يدسّ يده في جيب سترة جلدية قديمة بنية اللون، يتطلع إلى الأمواج بنظرات ثابتة، كما لو كان ينتظر الوقت المناسب لتصفية حسابه مع الأفق البعيد.

---

(1) المانش: بحر يفصل فرنسا عن إنجلترا، كما يُطلق هذا الاسم على المنطقة الفرنسية المحاذية للبحر في النورماندي. -المترجم-

رمى أندريه عقب سيجارته ثم عاد إلى الفندق. لا يريد أن يقابله النزلاء بهندام مبعثر وشعر منفوش وذقن غير محلوقة، كما لو كان إنساناً ينتمي إلى عصور ما قبل التاريخ، ويسكن كهفاً غادرته زوجته منذ زمن طويل.

تسلَّق جمال سلاوي أعلى منحدر في أوروبا بانتظام يشبه بندول الإيقاع. مئة وعشرون متراً. تجاوز الفيلات الأخيرة، فتحوَّلت الطريق إلى ممرّ خاص بهواة المشي لمسافات طويلة. بدا المشهد مفتوحاً، وصولاً إلى إتروتا على بُعد عشرة كيلومترات. فرأى جمال خيال شخصين على الشاطئ، العجوز المتمسِّكة بكلبها الصغير، والرجل الذي يتطلع إلى الأفق. مع ثلاثة نوارس أخافَها نباح الكلب، ففضَّلت التحليق مبتعدة عشرات الأمتار، عابرة فوق رأس سلاوي.

تجاوز جمال العلامة الإرشادية لمخيم لوريفاج، فأثار انتباهه وجود وشاح أحمر معلّق على سياج، كما لو كان إشارة لوجود خطرٍ ما. كان ذلك أوّل ما فكر فيه.

خطر ما!

تحذير من انهيار أرضي أو فيضان أو جثث حيوانات ميتة.

مرّت الفكرة بسرعة البرق، هذا مجرد وشاح معلَّق على سلكٍ شائك، ربما نسيَه أحد المتجولين فحمَلَته الرياح القوية إلى المكان.

تردَّد في التخفيف من سرعته والالتفات لمعاينة قطعة الثوب المتدلية، كان على وشك متابعة ركضه. وكان من الممكن أن يختلف كلّ شيء وقتها، وتسير الأمور في منحى مغاير تماماً.

لكنه أبطأ فعلاً من سرعته، ثم توقف.

بدا أنّ الوشاح جديد، بلونه الأحمر الزاهي، فلمَسَه جمال باحثاً عن الملصق.

كشمير. بربري (Burberry)... قطعة الثوب هذه باهظة الثمن! نزع الوشاح عن السياج بحرصٍ شديد، فكَّر في العودة به إلى الفندق فيما بعد، فأندريه جوزياك يعرف كلّ سكان إيبور، وربما سيُخبره أحدهم عنه. وقد يحتفظ به جمال إن لم يظهَر صاحبه. داعبَ الوشاح وهو يواصل الركض. إذا تمكن من الاحتفاظ به، فهو لن يخاطر بارتدائه هناك في تجمّع الـ 4000[1]، كشمير يفوق ثمنه الخمسمئة يورو، قد يعرِّضه ذلك لخطر قطع رأسه!! لكنه سيعثر بالتأكيد على فتاة جميلة تقبَل الوشاح هديةً وتحرص على لفه حول عنقها.

وصل إلى المعقل الدفاعي القديم، فوجد على يمينه بعض الخرفان التي أدارت رؤوسها نحوه، يبدو أنها تنتظر ذوبان طبقة الجليد الرقيقة التي غطت العشب، فبدت ملامحها شبيهة بملامح زملائه في العمل الذين ينتظرون تسخين وجبة الغداء في الميكروويف.

لمحَ جمال الفتاة، بعد تجاوزه المعقل الدفاعي القديم بقليل.

قدَّرَ بسرعة المسافة بينها وبين المنحدر. أقلّ من متر! كانت تقف على حافة تطلّ على علوٍّ يفوق طوله مئة متر! كادَ أن يجنّ،

---

(1) تجمع الـ4000: تجزئة في لاكورنوف بمنطقة سان دوني، أصل التسمية هو تجمع الـ4000 سكن، بدأ إنشاؤها سنة 1956 واستغرق بناؤها 10 سنوات. -المترجم-

بعدما أضاف بعض المعطيات الأخرى إلى تقديره العام لخطورة الوضع، كزاوية الميل نحو الفراغ، وطبقة الجليد الرقيقة على العشب؛ الواضح والأكيد أنّ وقوف الفتاة هناك أخطر بكثير من وقوفها على حافة نافذة في الطابق العلوي من ناطحة سحاب تتألف من ثلاثين طابقاً...

- هل أنتِ بخير يا آنستي؟

تطايرت كلمات جمال في الفراغ، بعدما احتفظت الفتاة بصمتها.

كان يبعد عنها بما يقارب المئة وخمسين متراً.

كانت ترتدي فستاناً واسعاً أحمر اللون، لا يناسب برودة الطقس، لكنه ممزَّق إلى قطعتين، ترفرف واحدة كاشفة عن سرتها وفخذيها، فيما أظهرت الأخرى نحرها والجزء العلوي من صدرها وطرف الحمالات أرجوانية اللون.

كانت ترتجف.

جميلة جداً، لكن المشهَد أبعد ما يكون عن الإثارة بالنسبة إلى جمال. مذهلة، مؤثرة، رائعة، لكن الوضع لا يحتمل أيّ شعور بالإثارة الجنسية. وعندما استعاد تفاصيل ما جرى فيما بعد، لم يجد تشبيهاً أفضل من اعتبارها لوحة فنية ممزَّقة، أو تدنيساً وازدراء لا يُغتفر للجمال.

- هل أنتِ بخير يا آنستي؟ كرَّر سؤاله.

التفتَت، فتقدَّم نحوها.

بلغت بعض الأعشاب الطويلة منتصف ساقيه، فاعتبَر أنّ الفتاة لم تنتبه لساقه اليسرى الاصطناعية. كان أمام الفتاة، إذ لم يعُد يفصله عنها سوى عشرة أمتار، فيما اقتربت هي من الهاوية وظهرها للفراغ،

وقد تبيَّن له من آثار المكياج على خدّها أنها بكت كثيراً قبل أن يجفّ دمعها. وجدَ جمال صعوبة في ضبط سيل الأفكار المتناقضة والمتلاطمة داخل رأسه.

الخطر والحالة الطارئة، والعاطفة أيضاً بعدما غمَرته مشاعر قوية، إذ لم يقابل في حياته فتاة بهذا الجمال. وربما احتفظت ذاكرته إلى الأبد بتفاصيل الشكل البيضوي الجميل لوجهها، وقد أحاط به شلالان من الشعر المتطاير، مع عينين بلون الفحم وبشرة ثلجية بيضاء، بالإضافة إلى حاجبين جميلين وفمٍ دقيق، كثلاثة خطوط رسمتها أصابع مغموسة في الدم والسخام. كما حاول فيما بعد إعادة تقييم انطباعه هذا، معتقداً أنّ المفاجأة ودقّة الموقف وخطورة وضع الفتاة وضرورة مدّ يده نحوها كانت عوامل مؤثرة في حكمه، لكنه لم يعثر على إجابة مغايرة لما رآه منذ البداية.

- آنستي...

مدَّ جمال يده نحوها.

- لا تقترب، أجابته الفتاة.

قالتها بنبرة هي أقرب إلى الرجاء من الأمر، وبدا كما لو أنّ الجمرات قد انطفأت تماماً في عينيها السوداوين بلون الفحم.

- حسناً، تمتم جمال. حسناً، لا تتحركي، ما زال أمامنا متَّسع من الوقت.

ألقى جمال نظرة على فستانها غير المحتشم أساساً، فتخيَّل بأن الفتاة كانت في الكازينو بالأسفل، ومن المعلوم أنهم يحوّلون قاعة الحفلات المطلّة على البحر إلى ملهى ليلي.

هل يتعلق الأمر بسهرة لم تكن نهايتها كما تتمنى الفتاة؟ صغيرة السن، ناعمة ومثيرة. تملك هذه الشابة كلّ المقومات التي تجعلها

محطّ أنظار وشهوات الرجال. تمتلئ العلب الليلية بنماذج لمراهقين ورجال لا يرتادون هذه الأماكن إلّا للبحث عن فرائسَ من تلك النوعية. حاول جمال استعادة هدوئه وهو يقول:

- سأتقدّم ببطء ثم أمدّ لكِ يدي.

خفضت الفتاة بصرها لأول مرة متأملة ساقه الاصطناعية، فبدا أثر المفاجأة على وجهها، لكنها تمالكت نفسها بسرعة.

- لا تتحرك، وإلّا قفزت...

- حسناً، حسناً، لن أتحرّك...

تسمَّر جمال في مكانه، بل إنه حاول ضبط إيقاع تنفسه أيضاً، فيما تنقلت عيناه بين هذه الفتاة الغريبة التي لا تبعد عنه سوى بمقدار عشر خطوات، والعلامات الأولى للفجر البرتقالي في الأفق البعيد.

شبان يفقدهم الخمر عقولهم، فيتابعون بأعينهم كلّ حركة مثيرة في حلبة الرقص. هكذا فكَّر جمال، وقد يكون من بين هؤلاء الشبان مريض واحد، أو ربما عدّة مرضى، فاسدون بما يكفي لملاحقة الفتاة بعد مغادرتها للمكان، وقد يصل الأمر إلى محاصرتها واغتصابها.

- هل... هل تعرضتِ لمكروه؟

سالت الدموع من العينين السوداوين.

- لن تفهم. تابِعْ طريقكَ. ارحَلْ! ارحَلْ بسرعة.

فكرة...

مرَّر جمال يديه حول عنقه بحركة بطيئة، فيما تراجعت الفتاة بخطوة إضافية، لتصبح قدمها أقرب للفراغ.

بقي جمال واقفاً بلا حراك. كانت الفتاة أشبه بعصفور خائف

يجب احتضانه لطمأنته، عصفور سقط من عشّه فعجز عن التحليق مرة أخرى.

- لن أتحرك يا آنستي، لكنني سأمدّ هذا الوشاح نحوكِ ثم أمسك بطرفه، تشبّثي أنت بالطرف الآخر، وبعدها اتخذي قرارك.

تردّدت الفتاة وقد ظهرت علامات المفاجأة على وجهها مرة أخرى، فاستغلّ جمال الفرصة ليرمي قطعة الثوب الحمراء نحوها. متران فقط يفصلانه عن الشابة.

سقط الوشاح عند قدميها.

مالت بحِرص، وهي تغطي بثوبها الجزء الظاهر من نهدها المكشوف في احتشام مثير للسخرية، ثم نهضت منتزعة الوشاح الذي رماه جمال ناحيتها.

- بهدوء، قال جمال، سأجرّ الوشاح وألفّه حول يدي، وما عليكِ سوى التمسّك به والتقدّم نحوي لمسافة مترين. متران فقط بعيداً عن الفراغ.

تمسَّكت الفتاة بالوشاح بقوة أكبر.

أدرك جمال بأنه نجح في مسعاه، وأنه قام بالتصرّف المناسب والصحيح، فرمي الوشاح أشبه بإلقاء البحّار لعوامة نحو غريق. سينقلها إلى برّ الأمان ببطء، سنتيمتراً بعد آخر، وبدقة متناهية تمنَع انقطاع الخيط.

- بهدوء، كرَّر قائلاً. تقدَّمي نحوي.

فكَّر للحظة قصيرة بأنه أمام أجمل فتاة يراها في حياته، وقد تمكَّن من إنقاذ حياتها.

لحظة قصيرة، لكنها كانت كافية ليفقد تركيزه.

جرَّت الفتاة الوشاح ناحيتها بحركة مفاجئة، وهو ما لم يتوقّعه جمال أبداً.

كانت حركة مباغِتة وسريعة.

انزلق الوشاح من بين يديه.

أمّا ما جرى بعد ذلك فلم يستغرق أكثر من جزء من الثانية.

تجمّدت نظرات الفتاة، ثابتة لا يمكن محوها أو نسيانها، نظرات فتاة تطلّ من نافذة قطار متحرِّك.

نظرات منكوبة.

- لاااا! صرخ جمال.

كان وشاح الكشمير الأحمر الذي يرفرف بين أصابع الفتاة آخر ما رآه جمال، فقد سقطت الشابة في الفراغ في اللحظة الموالية.

حياة جمال هي الأخرى سقطت في الفراغ، لكنه لم يكُن مدرِكاً في تلك اللحظة حقيقة ذلك.

I

تحقیق

1

مذكرات جمال سلاوي

أنا شخص سيئ الحظ، وهذا معروف لدي منذ زمن طويل.

كثيرة هي الفرص التي ضلّت طريقها إليّ، ما دفعني إلى تخيّل هذه الحياة على شكل مؤامرة كبرى، لا تضمّ سوى مجموعةٍ من الأعضاء الذين أدوا اليمين مُعلِنين تحالفهم ضدي. وترأسها آلهة تشبه أستاذاً سادياً يعتدي على أضعَف تلميذ في القسم، فيما يلعب زملاء التلميذ دور المعذّبين المتحمسين، سعداء بنجاتهم من بطش الأستاذ، ومبتعدين بمسافة أمان كافية كي لا تصلهم الشظايا، كما لو كان هذا الحظّ العاثر وباء معدياً.

مرّت الأعوام، وفهمت.

هذا مجرّد وهم.

لن تقابل في حياتك آلهة شريرة أو أستاذاً يعاملك ككبش فداء.

لا الأساتذة ولا الآلهة يأبهون لك. أنت لا شيء بالنسبة لهم.

أنت وحيد.

لن تسقط العملة المعدنية على الوجه الذي تشتهيه إلّا إذا كرَّرتَ المحاولة أكثر من مرة، دائماً، وإلى الأبد.

أن تحافظ على إصرارك.
هي -في نهاية المطاف- لعبة احتمالات، وربما حظ أيضاً.

اسمي جمال.
جمال سلاوي.
لا أعتقد بأنه اسم قد يجلب الحظ لصاحبه.
مع أن...

قد ينتبه بعضكم إلى أنّ اسمي الشخصي يشبه اسم جمال مالك، الفتى الذي أدّى دور البطولة في فيلم **المليونير المتشرد**[1]، وإن لم يكن هذا وجه الشبه الوحيد بيننا. أنا وهو مسلمان نعيش في بلدين لا يعتبران الإسلام ديانتهما الرسمية، وإن لم يكن ذلك مهماً في جميع الأحوال. نشأ هو في دارافي، الحي الفقير في مدينة بومباي، فيما نشأتُ أنا في شريط بالزاك في مدينة الـ 4000 بلاكورنوف، ولا أدري صراحة إن كان هنالك وجه آخر للمقارنة بيننا. حتى عندما يتعلق الأمر بالبنية الجسدية. هو ليس وسيماً، بأذنيه المضحكتين وهيئته الشبيهة بهيئة عصفور خائف، وأنا أسوء حالاً، لا أملك سوى ساق واحدة، أو واحدة ونصف إن صحَّ التعبير، وتنتهي الثانية عند الركبة بطرف بلاستيك بلون الجلد. سأحكي لكم قصّتها يوماً ما.

---

(1) **المليونير المتشرد** (*Slumdog Millionnaire*): فيلم بريطاني من إنتاج عام 2008، حقق شهرة عالمية وحصد مجموعة من الجوائز، يحكي قصة شاب هندي، فقير وغير متعلم، يشارك في مسابقة مَن سيربح المليون، ويفاجئ الجميع بتمكّنه من الإجابة عن الأسئلة، الواحد تلو الآخر. -المترجم-

كانت هذه واحدة من المرات التي سقطت فيها العملة المعدنية على الوجه الذي لم أكُن أشتهيه.

لكن نقطة التشابه الرئيسة بيننا تقف أمامي الآن. لم يكن المعنى في حصول جمال مالك على ملايين الروبيات[1]، بل في لاتيكا، حبيبته، الجميلة كضوء النهار، بخاصة في مشهد النهاية، عندما التقى بها في محطة القطار بمدينة بومباي وهي ترتدي حجابها الأصفر. كانت هي جائزته الكبرى.

الشيء نفسه بالنسبة لي.

أقف الآن أمام فتاة مثيرة للغاية. وقد ارتدت قبل قليل فستاناً بلون الخزامى الزرقاء. يتراقص جسدها تحت الثوب الذي يكشف رقبتها ونحرها ويسمح لي بتأمّل جمالها لأطول وقت ممكن. كيف سأشرح لكم كل هذا؟ إنها الأنثى المثالية، يخيّل إليّ أنها غازلتني في أحلامي لآلاف الليالي، وانتظرت طويلاً قبل أن تظهر أمامي ذات صباح جميل.

سأتناول وجبة العشاء برفقتها.

في منزلها.

بدا كما لو أنّ ألسنة اللهب المنبعثة من المدفئة القريبة تداعب بشرة وجهها الأبيض الجميل. هناك أيضاً قنينة شامبانيا، بيبر- هايدسيك 2005. سنمارس الحب بعد ساعات قليلة، أو ربما قبل فراغنا من تناول وجبة العشاء.

سنمارس الحب هذه الليلة على الأقل.

وربما في الليالي القادمة أيضاً.

---

(1) الروبية: وحدة العملة الرسمية في الهند. -المترجم-

أو ربما في كل ما تبقى من ليالي حياتي، كحلم لا أعتقد بأنه سيتبخّر مع طلوع فجر الغد، وسيرافقني وأنا مستمتع بمياه الدش، وفي أثناء ركوبي المصعد القذر في شريط الـ 4000، وبعد وصولي إلى محطة الوقوف كورنوف-أوبرفيلير في خط الشبكة الحديدية الجهوية السريعة.

تمنحني الفتاة ابتسامة عذبة، ثم ترفع كأس الشامبانيا إلى فمها، أتخيّل تلك الفقاعات وهي تنزل لتستقرّ في أعماق جسدها. تلامس شفتاي ثغرها الرطب كحلوى فائرة.

لقد فضّلت خصوصية منزلها عوض ذلك المطعم الساحلي الجميل. ربما هي تشعر ببعض الخجل من الظهور برفقتي في المطعم، أمام نظرات الجميع ممّن سيستغربون مواعدتي، أنا العربي المعوّق، لأجمل فتاة في المنطقة. أتفهّم ذلك، وإن كنت غير مهتم بحسَدهم التافه. أنا أستحق هذه اللحظات أكثر من أيّ شخص آخر. لقد راهنت بكل ما أملك، وآمنت بحظّي كلما سقطت العملة المعدنية على الوجه الذي لا أرتضيه. لم أيأس أبداً.

وربحت في النهاية.

لقد قابلت هذه الفتاة لأول مرة قبل ستة أيام، وفي آخر مكان قد تتوقع مقابلة حورية رائعة الجمال فيه.

يبورت.

وطوال هذه الأيام الستة، كنت على وشك فقدان حياتي أكثر من مرة.

لكنني ما زلت على قيد الحياة.

ستة أيام تمّ اتهامي خلالها بالقتل. بارتكاب عدة جرائم قتل بشعة، حتى وجدتني على وشك تصديق ذلك.

أنا بريء.

كنت ملاحَقاً، محكوماً، مُداناً.

لكنني حر الآن.

سترون، ستجدون صعوبة في تصديق هذيان معوّق مسكين. وستبدو لكم تلك المعجزة أبعد ما تكون عن الواقع، وقد تجزمون بأنّ الرواية الرسمية للشرطة أكثر منطقية. سترون، سينهشكم الشكّ حتى النهاية.

ستعودون إلى بداية القصة، وتُعيدون قراءة هذه الأسطر معتقدين بأنني شخص مجنون، أو أنني أنصب لكم فخاً، أو أنني قمتُ باختلاق كلّ ما جرى.

أؤكد لكم بأنني لست مجنوناً، ولم أختلق شيئاً، ولم أنصب لكم أيّ فخ. كل ما أطلبه منكم هو أن تثقوا بي، حتى النهاية.

سترون، سينتهي كل شيء على ما يرام.

نحن اليوم بتاريخ 24 فبراير 2014. بدأ كلّ شيء قبل عشرة أيام، مساء يوم الجمعة 14 فبراير، في الساعة التي غادر فيها الأطفال مبنى المؤسسة العلاجية سانت-أنطوان.

2

أن تثقوا بي حتى النهاية؟

انهمر المطر البارد فجأة على المباني الثلاثة الحمراء للمؤسسة العلاجية سانت-أنطوان دو بانيولي، ومعها الحديقة التي تبلغ مساحتها ثلاثة هكتارات، والتماثيل البيضاء التي تخلِّد بعضاً من المنسيين الذين تبرَّعوا للمؤسسة طوال القرون الماضية. تحرَّكت بعض الظلال بشكلٍ مفاجئ، لتُعطي الانطباع بأنّ الأمطار أعادت إحياء المنحوتات. ركض الأطباء والممرضون وعدد من حاملي النقالات بمعاطفهم البيضاء باحثين عن مخبأ مناسب، فبدوا أشبه بأشباح تخشى على أكفانها من البلل.

لجأ بعضهم إلى الرواق، فيما اندسّ آخرون في عشرين مركبة متوقّفة في الممر الذي تغطيه الحصى، موزّعة بين سيارات صغيرة وميني فان وحافلة، وقد امتلأت أصلاً بالأطفال الصغار.

مساء كل يوم جمعة، يغادر المراهقون، الأكثر استقلالية، المكان لقضاء عطلة نهاية الأسبوع رفقة عائلاتهم. سيتمتعون ابتداء من يوم الجمعة هذا بعطلة نهاية الأسبوع، بالإضافة إلى خمسة عشر يوماً مدة عطلة فصل الشتاء.

ركضت مثل الآخرين باحثاً عن مخبأ، بعدما أوصلتُ غريغوري إلى سيارة الرينو سينيك، تاركاً كرسيه المتحرك الفارغ في العراء. واكتفيتُ بإلقاء نظرة على سيارة الإسعاف التي تحدَّت منارتها الأمطار، باحثاً بعيني عن أوفيلي، ثم دلفت إلى قاعة الموظفين المعالجين.

اعتصرت الأصابع المجمدة للزملاء كؤوس الشاي والقهوة، معظمهن زميلات إن تحرينا المزيد من الدقة، ممرضات ومربيات واختصاصيات في المرافقة والعلاج النفسي. لم توجه بعضهن الأنظار نحوي، فيما ركزت أخريات بصرهن عليّ مبتسمات، أتحدَّث هنا عن المدرِّستين الأصغر سناً، سارة وفاني، أمّا نيكول، الطبيبة النفسية، فقد اكتفت كعادتها بنظرة طويلة نحو ساقي المتيبِّسة. سأقول بأنني محبوب عند معظم فتيات المؤسسة، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة تختلف بحسب السن وطبيعة المشاعر والوعي المهني، يبدو أنني محبوب عند الشبيهات بالأم تيريزا[1] أكثر من الشبيهات بمارلين مونرو[2].

لحق بي رئيس المصلحة الحقير، المدعو جيروم بينيللي، ثم رمقني بنظرات متفحِّصة شبيهة بنظرات رجال الشرطة.

---

(1) الأم تيريزا (1910-1997): راهبة ألبانية-هندية اشتهرت بكثرة أعمالها الخيرية، حصلت على جائزة نوبل للسلام عام 1979. -المترجم-

(2) مارلين مونرو (1926-1962): ممثلة أميركية حسناء، بلغت ذروة مجدها الهوليوودي في خمسينيات القرن الماضي، وبقيت ظروف وفاتها في سنّ مبكرة غامضة إلى يومنا هذا، بين فرضيات الانتحار وتناول جرعة زائدة من المهدئات والاغتيال السياسي. -المترجم-

- لقد ذهبوا بأوفيلي، أنت فخور بنفسك الآن، أليس كذلك؟
لا، هذا ليس صحيحاً.

تخيلت سيارة الإسعاف المتوقفة، وأوفيلي التي تصرخ بكل قوتها ليبتعدوا عنها. مضت عدة ثوانٍ حاولت خلالها التفكير في بضع كلمات للشرح أو الاعتذار على الأقل، حتى يتركني بسلام. بحثتُ عن مساعَدَة يائسة من الموظفات الموجودات بالقاعة. لم يُنجِدْني أحد، واكتفت الفتيات بخَفض رؤوسهن.

- سنناقش كلّ هذا بعد العطلة، قالها بينيللي باقتضاب.

يمكنكم إضافة المديرين الفاشيين الصغار إلى الأساتذة الساديين والآلهة الشريرة في تلك القائمة التي تجمع كل المعذبين الباحثين عن الضحية الضعيفة المسكينة. جيروم بينيللي، ثلاثة وخمسون عاماً، مدير الموارد البشرية، والمتسبّب -على الأقل- في إيقاف أحد الموظفين ستة أشهر عن العمل، وإصابة موظفين اثنين بانهيار عصبي، وفصل ثلاثة موظفين بشكلٍ نهائي.

تسمّر أمام ملصق كبير للجبل الأبيض[1] قمت بتثبيته على الحائط في قاعة الموظفين. خطّ القمة بكامله، الجبل الأبيض، الجبل الملعون، إبرة منتصف النهار، سن العملاق، الإبرة الخضراء...[2]

- اللعنة، قال بينيللي، لن أشتاق لهؤلاء المراهقين الحمقى. مرحى... سأكون في كورشوفيل بعد أقل من عشر ساعات...

---

(1) الجبل الأبيض أو مون-بلان (Mont-Blanc): أعلى جبل في أوروبا الغربية، يقع على الحدود بين فرنسا وإيطاليا. -المترجم-
(2) أسماء قمم محيطة بالجبل الأبيض. -المترجم-

استدار ببطء شديد، كما لو كان يتعمّد التباهي بهيئته أمام الموجودات بالقاعة، ثم تأمّل إعاقة ساقي جلياً ليقول:

- وأنت يا سلاوي؟ ستقضي عطلتك في التزحلق على الثلوج؟ تجربة ممتعة، أليس كذلك؟ بساقك المزيفة هذه لن تستأجر سوى لوح تزلج واحد!

انفجر ضاحكاً. لقد وطئ بقدمه حقل ألغام... تردّد الآخرون في مشاركته الضحك. اكتفت الشبيهات بمارلين بإطلاق ضحكات خافتة، فيما عبّرت الشبيهات بالأم تيريزا عن سخطهن بصمت.

لم يجد بينيللي متّسعاً من الوقت لإضافة دعابة سمجة أخرى، بعدما رنّ هاتفه على أنغام أغنية **لدي شعور** (I gotta feeling) فأمسك به مزمجراً، ثم غادر المكان بتثاقل وهو يحدجني بنظرة أخيرة.

- سنصفّي حسابنا بعد العطلة يا سلاوي. الفتاة قاصر، لن أتغاضى عن أخطائك إلى الأبد.

الحقير!

في تلك اللحظة دلف إيبو إلى المكان، مغلقاً الباب في وجهه.

إيبو هو حليفي الحقيقي الوحيد هنا. يعمل حامل نقالات في هذه المؤسسة، كما يتولّى أمر الأقمصة الواجب ارتداؤها بالنسبة إلى النزلاء وفضّ النزاعات التي قد تحدث بينهم. وقد يساعدني أيضاً في بعض أعمال الصيانة كتعديل الرفوف ونقل الأثاث وتغيير عجلة سيارة الجومبر. يشبه عمر سي[1]. هو محطّ إعجاب الشبيهات بمارلين والشبيهات بالأم تيريزا على السواء، وسيم، لطيف، ظريف، رياضي.

---

(1) عمر سي (1978-): ممثل كوميدي فرنسي. -المترجم-

رياضي. . . هن لا يعلمن بأنه حتى لو ركض معي خمسة عشر كيلومتراً كلّ خميس من حديقة لاكوموف إلى غابة مونتمورينسي، فإنني أتجاوزه بسهولة في السرعة النهائية قبل خط النهاية.

ضرب إيبو يدي برفق.

- لقد سمعتُ ما قاله هذا الأحمق عن التزحلق، بعيداً عن سخريته، هل ستقضي عطلتك في الجبال يا جام؟

استدار نحو ملصق جبال الألب، متأمّلاً بياض الثلج في الملصقات التي ملأت بها جدران القاعة.

- إيبور. وبفضلك أنت!

- إيبور؟ واو! هل توجد مواقع للتزلج هناك؟

- هذه بلدة نورماندية يا صديقي. قريبة من إتروتا. ألف متر فرق ارتفاع على عشر كيلومترات. لكن لا وجود للثلوج أو منحدرات الرفع. . .

أطلق إيبو صفيراً طويلاً من دون إضافة تعليقٍ آخر، ثم وجَّهَ كلامه إلى المستمعات.

- لم يخبركم هذا الكتوم المسمى جمال بأنه رياضي على أعلى طراز! هذا البغل يرفض المشاركة في المسابقات البارا-أولمبية التي قد تجلب لمؤسسة سانت-أنطوان الشرف والمجد والميداليات، لكنه وضع لنفسه هدفاً بأن يكون أوّل شخصٍ بساقٍ واحدة يصل إلى خط النهاية في سباق الجبل الأبيض. . .

انتبهتُ إلى أنّ نظرة الفتيات نحوي قد تغيَّرت بسرعة كبيرة، فيما أصرّ إيبو على مواصلة كلامه.

- أصعبُ سباقٍ في العالم، لكن هذا الصغير واثق من قدراته، أليس كذلك؟

انتقلت نظرات الفتيات إلى الملصق الذي يجمع بين اللونين الأبيض والأزرق، فيما غابت عيناي أيضاً في القمة التي يتجاوز طولها ثلاثة آلاف متر. بحر الجليد، فالورسين، وتلفريك إبرة منتصف النهار. مئة وثمانية وستون كيلومتراً من المشي، تسعة آلاف وستمئة متر فرق ارتفاع، سباق تصل مدّته الإجمالية إلى ست وأربعين ساعة. . . بساقٍ واحدة. هل أنا قادر على إنجازٍ كهذا؟ أن أتجاوز قدراتي وأنسى آلامي؟ تعاطفَت الممرضات معي وقد بللت الدموع أعينهن. اعتراني الخجل كفتاة عذراء. لاحقتُ بعيني تفاصيل غير مرئية في الحائط بملاطه الأبيض الخشن، وآثار العفونة والصدأ على السقف.

- جام أعزب أيضاً، أكمل إيبو. مَن منكنّ جاهزة لمرافقته؟ إيبور، اللعنة!

غمزني بعينه، فيما بقيت واقفاً في تحفّز.

- هيا يا فتيات. . . واصل بإصرار، هل من متطوّعة؟ أسبوع ولا في الأحلام رفقة بطل أولمبي!

شكراً إيبو، قلتها كعادتي عندما أخاطبه في تدريباتنا.

- ولكن، من فضلكن يا فتيات، لا أريد دعابات سمجة، أعيدوه لي حياً يُرزق!

مكتبة
t.me/t_pdf

3

أن أنسى آلامي؟

استقرّت الجثة على الحصى، ممدَّدة بالقرب من قدمي.

سالت الدماء تحت رأسها ببطء شديد، مشكِّلة غطاء من الحرير الأحمر سحبته يد غير مرئية، موجة قرمزية اللون انحسر مدّها، بميل بسيط، نحو البحر.

ماتت المجهولة، لكنها حافظت رغم ذلك على جمالها. غطّت خصلات شعرها الأسود البراق وجهها الأبيض البارد، كطحالب ملتصقة بصخرة مصقولة بفعل توالي ضربات الأمواج المتتالية. تحوّل جسد الفتاة إلى قطعة جانحة من الجرف تولّت المياه المالحة مهمة نحتها لتنسجم مع الديكور، وإلى الأبد.

تجاوزتُ ببصري الجثة، وصولاً إلى الجدار الجيري المنتصب أمامي. لم أنتبه، منذ وصولي إلى إيبور قبل ثلاثة أيام، إلى أنّ تلك المنحدرات جميلة إلى هذا الحدّ. تقطرت تدفقات الطين عبر المروج العلوية، ومعها بعض آثار الرطوبة والقذارة. خيِّل إليّ أنني أواجه جداراً شاهقاً لسجنٍ صنعته الآلهة لمحاصرة البشر، وكلّ محاولة للهروب أو القفز تعني الهلاك.

ألقيتُ نظرة على ساعة يدي.

الثامنة صباحاً وثمان وعشرون دقيقة.

مرّت أقل من ربع ساعة على مغادرتي للاسيرين مستهدفاً خوض حصتي التدريبية المعتادة. تذكّرت نصائح أندريه.

كن حذراً يا جمال، قد يكون العشب زلقاً على المنحدر.

ثم تذكرت الوشاح الأحمر المعلّق على السياج، المعقل الدفاعي القديم. . . تدفقَت الصور أمامي، مستحوذة على كياني. أتذكر الفتاة على حافة الهاوية، بفستانها الممزق وكلماتها الأخيرة، «لا تقترب، لن تفهم»، دمار غامض في نظرتها قبل ارتمائها نحو الفراغ، ووشاح الكشمير بربري الذي سلّمتها إياه، في قبضتها.

دق قلبي كالمطرقة وأنا أخوض سباقي المجنون بعد قفزها، وصولاً إلى الشاطئ، كما لو كنت أتوقع إمكانية الوصول قبلها وتلقفها بين ذراعي وإنقاذها.

ما أسخف هذا الأمل.

- لقد تابعت سقوطها، همَسَ صوت جهوري خلف ظهري.

كان ذلك الشخص الذي يرتدي سترة جلدية بنية اللون. اقترب من الجثة ببطء، وهو يجرّ قدميه على الشاطئ، كما لو أنّ الحادث يثير مللَه إلى أقصى حدّ.

- سمعتُ صراخكَ، تابعَ بالنبرة المتعَبَة نفسها. استدرتُ لأجد الفتاة وهي تسقط كالحجر.

ارتسمت على وجهه علامة تقزّز كدليل على متابعته لتحطّم جسد الفتاة بفعل الاصطدام. كان محقاً، فقد وجَّهتُ صرختي إلى السماء الفارغة بعد ارتماء الفتاة. صرخة تردَّد صداها في إيبور بأكملها.

- لم تسقط، قلت موضحاً، بل قفزت.

لم يضِفْ شيئاً. هل فهم الفرق على الأقل؟

- المسكينة! علّقت العجوز الواقفة على يميني.

كانت الشاهدة الثالثة على الواقعة. علمتُ فيما بعد أنها تُدعى دنيز. دنيز جوبان. كانت موجودة -كما هو الشأن بالنسبة إلى صاحب السترة البنية- على الشاطئ، قبل وصولي، لكنها كانت بعيدة عن موقع السقوط بما يقارب المئة متر. وقد ساعدتني سرعتي في الركض على الوصول قبلهما. ارتدت دنيز جوارب كبيرة صفراء اللون، تتجاوز طول حذاء الصيد البلاستيكي عالي الرقبة، وفستاناً من القماش غير المقصور، فوقه معطف رمادي اللون. كانت تحتضن كلباً من فصيلة الشي تزو[1]، يرتدي هو الآخر سترة بيج بخطوط حمراء ذكرتني بتلك التي ترتديها شخصيات ألبومات **أين هو شارلي؟**[2].

- أنت كلب لطيف يا أرنولد، همسَت في أذنه قبل أن تكرِّر بإصرارٍ: شابة جميلة للغاية... هل أنت متأكد من أنها قفزت وحدها؟

بدا ردّ فعل دنيز مغرقاً في الغباء.

لقد قفزت وحدها طبعاً.

ثم أدركتُ بأنني الشاهد الوحيد على انتحارها، أما الآخران

---

(1) شي تزو: فصيلة من الكلاب ذات شعر حريري، تزن بين 4 و7 كيلوغرامات، نشأت في الصين. -المترجم-

(2) **أين هو شارلي؟** (*Où est Charlie?*): سلسلة كتب ألعاب تعتمد على البحث عن شخصية شارلي، أبدَعها البريطاني مارتن هادفورد. -المترجم-

فكانا يتجوّلان بالقرب من الشاطئ، أمام البحر، ولم يلتفتا إلّا بعد صرختي.

ما الذي تقصده دنيز؟ أن المسألة تتعلق بحادث؟

استعدتُ علامات المعاناة التي تركت أثرها على محيا الملاك، لحظة واحدة قبل قفزتها اليائسة، فأثار ذلك اضطرابي.

- أكيد! أجبتها. لقد كلمتها، قريباً من المعقل الدفاعي القديم، حاولتُ إقناعها بخطأ تصرفها...

حدَجَتني دنيز جوبان بنظرة متفحِّصة، كما لو أن جلدي، لكنتي وساقي المتيبسة تمثِّل بالنسبة إليها ثلاث علامات موجِبَة لاتخاذ أقصى درجات الحذر.

ما الذي تظنه؟ أن الأمر لا يتعلق بحادث عرضي؟ أن أحدهم قام بدفعها؟

لويتُ عنقي بغباء نحو قمة المنحدر، ثم واصلتُ كلامي، كما لو كنتُ بحاجة إلى الشرح.

- حدث كل شيء بسرعة كبيرة. اقتربتُ منها إلى أقصى حدّ ممكن. حاولتُ مدّ يدي نحوها، وأن أعطيها...

احتبست الكلمات في حلقي بشكل مفاجئ.

كانت تلك أول مرة أنتبه فيها لتفصيل مهم على الجثة الممدَّدة على بُعد متر واحد مني. تفصيل سريالي...

مستحيل!

تتابعت مشاهد المأساة أمامي على شكل حلقات.

النظرة المتأسفة للحسناء المنتحرة.

وشاح البربري المتموّج على طرف يدها.

الأفق الفارغ.

اللعنة! شيء ما غير طبيعي.

ركزتُ بصري على القماش أحمر اللون، بالقرب من قدمي...

لا بد من وجود تفسير عقلاني...

لا بدّ من...

- علينا القيام بشيء ما!

استدرتُ. كان هذا صوت دنيز، وقد تساءلت لوهلة إن كان سؤالها موجهاً لي أنا أم إلى كلبها الملتصِق بصدرها.

- معها حقّ، أضاف الرجل صاحب السترة الجلدية البنية. علينا الاتصال برجال الشرطة...

دلّ صوته على أنه مدخِّن قديم، كما أنه وبالإضافة إلى سترته المهترئة، قام بسجن خصلات قليلة من شعره الرمادي الطويل في قلنسوة صوفية خضراء، لتظهر أذنان حمراوان من شدة البرد. قادني حدسي إلى تخيله وهو يعيش وحيداً، مطلقاً، عاطلاً عن العمل، أو أنه يعاني على الأقل مجموعة من المشاكل التي تدفعه إلى التجوّل في هذا المكان، وفي مثل هذه الساعة المبكرة، من دون إزعاج من أحد. فتذكّرت لانويل، أستاذ الرياضيات الكئيب الذي درستُ عنده في إعدادية جان فيلار، اتَّفَقَت ثلاثة أجيال من التلاميذ على تسميته بأتاراكس. هكذا لقَّبتُ صاحب السترة المهترئة. **أتاراكس**. وقد علمت فيما بعد أنه يدعى كريستيان لوميديف... كنت أجهل وقتها بأنني سأقابله في المكان نفسه، والتوقيت نفسه تقريباً، بعد يوم واحد فقط، وأنه سيخبرني ببعض المعلومات التي ستجعل من كِلينا شريكين تربطهما البارانويا نفسها.

نبح أرنولد محاولاً التملّص من صدر صاحبته.

الاتصال برجال الشرطة؟

سَرَت رعشة في راحة يدي اليمنى، كما لو أنّ وشاح الكشمير قد أفلت منها مرة أخرى، كثعبانٍ متستّر. لم أعُدْ قادراً على التحكّم بعينيّ، وقد توجّهتا مرة أخرى نحو قطعة الثوب الحمراء أمامي. واضح أنني لا أبدو على ما يرام. تطلّعت إليّ دنيز ومعها أتاراكس بنظرات غريبة.

أو أنهما ينتظران مني القيام بمبادرة معينة...

الاتصال برجال الشرطة؟

أدركت أخيراً أنهما لا يملكان هواتف محمولة، فأمسكتُ بهاتفي الآيفون واتصلت بالرقم 17.

- درك فيكامب، أجابني صوت رجل بعد بضع ثوان.

شرحتُ له طبيعة الوضع، الانتحار والمكان. نعم، لقيَت الشابة حتفها، بلا شك، سقطت على الأرض، من علوّ يقارب المئة وعشرين متراً. شاهدٌ واحد عاين قفزها، وشاهدان عاينا لحظة الاصطدام.

بدا أنّ المستمع على الجانب الآخر منشغلٌ بتدوين كلّ التفاصيل المذكورة، وقد طلب مني تكرار بعض المعلومات عن المكان، قبل إنهاء المكالمة.

واجهتُ دنيز وأتاراكس بابتسامة.

- رجال الدرك قادمون... سيصلون بعد عشر دقائق.

اكتفى كلّ واحد منهما بهزّ رأسه، لنغرق في صمتٍ طويلٍ لم يكسره سوى صوت الحصى الذي تتقاذفه الأمواج. انشغل أتاراكس بإلقاء نظرات متتالية على ساعة يده مع كلّ موجة قادمة، وقد دلَّت

مراقبتي له على أنه لم يكن متألّماً للفتاة الميتة، بل شاعراً بالملل وربما الانزعاج، كما يحصل عندما تقع حادثة سير كبيرة وتجد نفسك أقل حزناً على الضحايا من حزنك على التأخّر المتراكم. هذا وإن بدا أنّ أتاراكس غير مشغول، بدليل تسكّعه هنا في الثامنة صباحاً...

فجأة، سمحت دنيز لأرنولد بالتحرّر من صدرها، فقفز بسرعة ليحتمي بقدميها، فيما أمسكَت صاحبته بذراعي.

- لم يصل رجال الدرك بعد! هيا، أعطني سترتك يا بني.

لم أفهم قصدها بسرعة.

أن أنزع ملابسي؟ وفي درجة حرارة تقارب بالكاد خمس درجات...

كررت دنيز كلامها بحزم:

- أعطني سترتك الرياضية!

سترتي الرياضية؟ هكذا تسمي سترتي الواقية نورث فيس بقماش ويندوال عالي الجودة؟

أطعتُها بلا تفكير، فانحنَت على الجثة لتغطي وجهها ونصفها العلوي بسترتي الواقية بنفسجية اللون.

طقس ديني؟ معتقد معيّن؟ الرغبة في حماية أرنولد المسكين من خطر التعرض لصدمة نفسية؟

لا يهم، وقد شكرتها في أعماقي على مبادرتها هذه.

ألقيت نظرة أخيرة على الوشاح قبل وضع دنيز لهذا الكفن المرتجل المؤقت، فيما صرخ صوت مجنون في أعماقي:

هل هذا ممكن؟

دقائق طويلة وهذه الفكرة لا تغادر ذهني. استعدتُ تفاصيل الواقعة منذ صباح اليوم، أكثر من مرة، كل ثانية، كلّ حركة، دون أن أتمكن من الوصول إلى تفسير منطقي.

يحيط الوشاح الأحمر بربري بعنق الفتاة الميتة الممددة على الأرض.

4

هل هذا ممكن؟

لدغ البرد القارس ذراعي العاريتين، وبدا أن الشمس قد فضَّلت التواري خلف طبقة من السُّحُب، بعد ظهور قصير خلف منحدر فيكامب. أجريت بعض الحركات الرياضية الخفيفة بحثاً عن الدفء، فقد اقتربت درجة الحرارة من الصفر، لن أطلب من الفتاة الميتة استعادة سترتي الرياضية بطبيعة الحال، كما أنّ رجال الشرطة لن يتأخروا كثيراً، فقد اتصلت بهم قبل عشر دقائق كاملة.

بقينا ثلاثتنا صامتين، فيما حلّقت بعض النوارس فوقنا.

جلس أرنولد -الذي أمسكت صاحبته بمقوده الجلدي- مراقباً الطيور بمزيج من الخوف والدهشة.

الخوف والدهشة.

أعتقد بأنّ ملامح الغباء قد ارتسمت على وجهي مثله.

يحيط الوشاح الأحمر بربري بعنق الفتاة الميتة الممدَّدة على الأرض!

قلبتُ المعطيات في ذهني أكثر من مرة، باحثاً عن تفسيرٍ

منطقي. لم أكُن أملك أيّ يقينٍ ثابت، لقد انتزعت الفتاة قطعة القماش من يدي ثم ارتمت في الفراغ بحركة واحدة.

وجهت بصري ناحية الحاجز وموقف سيارات الكازينو الفارغ والأكواخ الشاطئية الفارغة في هذا الفصل.

كلّ هذا ولا أثر لرجال الدرك.

مَن الذي طوَّق عنق الجثة بهذا الوشاح؟ كنتُ أول الواصلين إلى المكان، لم أجد أحداً، باستثناء أتاراكس ودنيز، وكانا بعيدَين عن موقع سقوط الفتاة. يستحيل على أحدهما امتلاك الوقت الكافي للابتعاد عن الجثة ثم العودة بعد ذلك بتثاقل من دون أيّ علامة تدلّ على اللهاث. وما الذي سيدفعهما أصلاً إلى التصرف بهذه الطريقة؟

مَن غيرهما؟

لا أحد! لا أحد بإمكانه الاقتراب من الجثة في هذا الشاطئ المقفر الواسع من دون أن يثير ذلك انتباه دنيز وأتاراكس. لقد تابعا سقوط الفتاة من أعلى المنحدر، ثم سارا وأعينهما مثبتة على الجثة...

ارتعدت فرائصي من شدّة البرد والقلق والخوف. كنت مطالَباً بالتفكير بشكلٍ منطقي، مستبعداً كل الاحتمالات المستحيلة، ما يعني بقاء احتمال واحد ممكن: لقد قامت الفتاة بلف الوشاح حول عنقها في أثناء سقوطها!

هذا أقرب إلى الهذيان...

لا توجد طريقة أخرى لحلّ المعادلة، قدّرت ارتفاع المنحدر بعيني، محاولاً توقّع الوقت اللازم لاصطدام جسدٍ ما بالأرض. بضع ثوان، ربما ثلاث أو أربع فقط. وهي المدة الكافية بلا شك للفّ قطعة قماش حول العنق.

هذا ممكن عملياً.

عملياً...

يتعلق الأمر بسقطة خطيرة جداً، بذراعين تسبحان في الفراغ، ورياح تضرب الوجه بقوة...

راقبتُ طائر نورس يتسلى بتحدي الجاذبية، محلقاً بين السماء والمنحدر الصخري.

يتطلب القيام بحركة مماثلة تطبيق خطة جرى التدرّب عليها بشكلٍ مسبق، مع عزيمة لامتناهية، وحركات مكرّرة آلاف المرات، بما يبعد أيّ احتمال للخطأ، مع التركيز على هدف واحد هو لفّ هذا الوشاح اللعين حول العنق، خلال أربع ثوان فقط، قبل الاصطدام بحصى الشاطئ...

لا معنى لكلّ هذا الكلام!

حركات مكرّرة آلاف المرات؟ هذا ليس وشاح الفتاة! لقد عثرتُ عليه بالقرب من الممرّ، وقمت بمدّه للفتاة المنتحرة بحركة غريزية، كانت فكرة وليدة اللحظة، كيف لهذه الفتاة ذات الجمال الملائكي أن تعلم بوصول قطعة القماش الحمراء إلى يدها؟

انتقلت نظراتي إلى دنيز وأتاراكس، أشعلَ الأخير سيجارة، فيما جرَّت الأولى مقود أرنولد لتُجنِّبه ضرَر الدخان.

قلت بأنني مطالَبٌ بالتفكير بشكلٍ عقلاني، عبر إقصاء كلّ الاحتمالات غير الممكنة. ما الذي يتبقى إذاً؟ حتى لو افترضت امتلاك الفتاة للوقت الكافي وردّة الفعل المناسبة للفّ الوشاح حول عنقها عوض الارتماء في الفراغ كحجر، أو مدّ ذراعيها كطائر نورس يائس، فإنّ سؤالاً معقّداً سيَطرح نفسه هنا:

ما الذي سيدفعها أصلاً للقيام بحركة حمقاء كهذه؟

عاودت الشمس ظهورها بشكل مفاجئ، لتصطدم أشعتها بالمنحدر، مانحة الطين والصخور ألوان الذهب والفضة على السواء.

وصل رجال الدرك في الدقيقة الموالية، وقاموا بركن عربة البوكسر في موقف السيارات الملحق بالكازينو.

تبيَّن لي أنّ الأمر يتعلق برجلين يتقدّمان نحونا، لم يكُن الأصغر هو الأكثر سرعة، في الأربعينيات من عمره، له رأس طويل يشبه حصى الشاطئ، تبدو على وجهه ملامح التذمر كلما انزلق حذاء ويستون الطويل الذي ينتعله بسبب رطوبة الطحالب المنتشرة في المكان. هو على شاكلة رجال الأمن الذين لم يناموا جيداً، ولم يجدوا الوقت الكافي لشرب فنجانٍ من القهوة قبل مواجهة يوم يبدأ صباحه بانتحار فتاة بعد ارتمائها من قمة منحدر.

أمّا الدركي الثاني فقد حطّم الحصى تحت كعب حذائه بلا مبالاة. إنها الخبرة على ما يبدو... هو على شاكلة رجل الأمن الذي يوشك على بلوغ سن التقاعد منذ زمن طويل، كما لو أنه جاء مباشرة من أحد أفلام أوليفييه مارشال[1]. يرتدي سترة مفتوحة تُظهِر امتلاكه لبُنية جسدية قوية، صدر عريض وبطن متماسك، شعر رمادي طويل بعض الشيء، قام بتصفيفه إلى الوراء، كاشفاً عن جبهة ملأتها التجاعيد، فبدا شبيهاً بمارلون براندو[2].

---

(1) أوليفييه مارشال (1958-): ممثل ومخرج فرنسي اشتهر بتقديم أفلام ومسلسلات بوليسية. -المترجم-

(2) مارلون براندو (1924-2004): ممثل ومخرج أميركي، يعتبره النقاد أحد أكثر الممثلين الأميركيين تأثيراً في عصره، اشتهر بعدة أدوار سينمائية قد يكون أبرزها دوره في فيلم **الأب الروحي** (*The Godfather*). -المترجم-

اقترب أكثر، فتأكَّد لي هذا الانطباع.

مارلون براندو، مع ملامح لا تخلو من غطرسة واضحة.

كان رجل الأمن الثاني مبتعداً بما يقارب العشرة أمتار، عندما وقف براندو أمامنا، قريباً جداً من الجثة.

- النقيب بيروز، قال بصوتٍ محايد. لم ينتحر أحد هنا منذ وقت طويل! وهذا منذ بنائهم لجسر النورماندي، فالموضة الحالية تقتضي الارتماء نحو مصب النهر.

مرّر يديه على جبهته، كما لو كان يبحث عن إخفاء تجاعيدها، ثم أكمل:

- هل تعرفونها؟

أجبناه بتحريك رؤوسنا علامة على النفي.

- ما الذي رأيتموه بالضبط؟

كان أتاراكس أوّل مجيب، عندما قال بأنه رأى الفتاة وهي تسقط في الفراغ، بما يقارب المئة وعشرين متراً، قبل ارتطامها بحصى الشاطئ. أيّدت دنيز كلامه، فيما اكتفيتُ أنا بإيماءة موافقة.

- كنتم هنا إذاً؟ لم يكن أحد منكم شاهداً على ما جرى في الأعلى؟

حدجني بيروز بنظرات ثابتة، كما لو أنه أحسّ باضطرابي، فكانت إجابتي -بلا شك- أسرع من اللازم:

- نعم، أنا. كنت أركض بالقرب من الممرّ الساحلي، كما أفعل صباح كلّ يوم، كانت واقفة على حافة المنحدر، قريباً من المعقل الدفاعي القديم، كلّمتُها، وحاولتُ ثنيها عن الإقدام على فعلتها، ولكن. . .

خفض بيروز بصره نحو ساقي الاصطناعية، متسائلاً ربما عن

العلاقة بين إعاقتي وحرصي على الجري بشكلٍ يومي. فيما واصلتُ كلامي بتلعثم:

- أنا. . . أنا أتدرّب يومياً، أنا رياضي على أعلى مستوى، الفئة البارا-أولمبية. كما. . . كما ترى.

هذا ما رآه، لكنه لم يُظهِر أيّ ردّ فعل، مكتفياً بتقطيبة ظاهرة على جبينه، على طريقة براندو، قبل أن ينحني على الجثة الممدَّدة بلا حراك. أزاح سترتي جانباً، ليضعها على الحصى.

لا معجزات، ما زال هذا الوشاح اللعين ملفوفاً حول عنق الفتاة.

لم أعُد أرى سوى قطعة القماش هذه، وقد بدا لي أنّ بيروز لا يعيرها أيّ اهتمام، منشغلاً بتفحّص الفستان الأحمر الممزق، ثم ألقى نظرة على المنحدر، كما لو كان يبحث عن شجيرات قريبة من الصخرة العارية، قبل أن يستدير نحونا في النهاية.

- لم يتمزّق فستانها في أثناء سقوطها.

أكدت ذلك دون أن أسمح له بمواصلة كلامه.

- كان فستانها ممزقاً عندما قابلتها، كما سال مكياجها على خديها، كانت مذعورة.

رمقني أتاراكس ومعه دنيز بنظرات غريبة، قد تكون للتعبير عن الامتعاض لأنني لم أطلعهما على هذه التفاصيل قبل الآن. مرّر بيروز يده على جبهته مرة أخرى، ربما لمساعدة أفكاره على الوصول إلى دماغه، فيما بدا مرافقه شبه غائب عن المشهد، مكتفياً بمراقبة الأمواج والأكواخ الشاطئية التي أعيد طلاؤها حديثاً وتوربينات الطاقة الريحية في فيكامب، .لم تكُن علاقته بالقضية تختلف في شيء عن علاقة الكلب أرنولد بها.

بدا بيروز معتاداً على ذلك. أم أنهما تشاجرا في أثناء قدومهما إلى هنا؟

وضع ركبتيه على الحصى ليتفحص الجثة من قرب.

- انتحار؟ زمجر بين أسنانه. لا بدّ من وجود سبب مقنع للارتماء هكذا في الفراغ...

تفحص بيروز الطيات الممزّقة في الفستان.

عندما استعدت تفاصيل ما جرى فيما بعد، تبيَّن لي أنه كان الوقت المناسب للتحدث مع رجال الدرك، أن أخبرهم بأنّ هذا الوشاح لي، إلى حدٍّ ما، أن أشرح لهم بالتفصيل تسلسل الأحداث بالقرب من المعقل الدفاعي القديم، وكيف انتزعت الفتاة قطعة القماش اللعينة من يدي، وإن كان ذلك غير قابلٍ للتصديق...

لكنني لم أَقُلْ شيئاً، مكتفياً بانتظار هبوط تفسير منطقي من السماء، أو أن ينسى الجميع هذه التفاصيل قبل المرور إلى شيء آخر. لم أكن قادراً على تصوّر ما سيكتشفه بيروز بعد رفعه لفستان الفتاة.

- اللعنة، قال الدركي.

اقتربت نحوه، ومعي أتاراكس ودنيز.

لم تكن الفتاة ترتدي شيئاً تحت فستانها.

لا وجود للباس تحتي أو تبان.

ظهرت علامات أرجوانية اللون على فخذيها، وأربعة خدوش ضيقة ومتوازية في ثنية الفخذ.

أغمضت دنيز عينيها ثم احتضنت أرنولد من جديد، فيما شحب وجه أتاراكس ليتخذ لون المهدئات التي يبدو أنه لم يتناولها هذا الصباح.

غاصت ساقي الاصطناعية قليلاً بين حصى الشاطئ، فوجدت صعوبة في المحافظة على توازني.

أعاد بيروز قطعة الفستان إلى مكانها بين فخذي الفتاة، كستارة تمّ إسدالها بعد نهاية فصل في مسرحية.

- اللعنة، لقد تعرضت هذه الفتاة للاغتصاب... قبل بضع ساعات على الأكثر. (عضّ شفته السفلى بشكل خفيف). أعتقد بأن هذا سيكون مبرّراً كافياً للقفز من المنحدر.

اعتدل، ملقياً نظرة أخرى على الجدار الصخري، ثم اتجهت عيناه أخيراً إلى الوشاح الملفوف حول عنق الفتاة.

فكَّه بأصابعه، وبحركة هادئة جداً.

اضطربت نظراتي. تكلّم بيروز عن الاغتصاب، وبصماتي موجودة على قطعة القماش، قطرات من العرق وخزان كامل من الدي إن آي.

فات الأوان. ماذا سأقول؟ مَن سيصدقني؟

مرَّر بيروز أصبعه بين قطعة القماش وعنق الفتاة ببطء، كطبيب يكشف حالة مريض مصاب في حنجرته. تغضَّنت جبهته حتى تحوّلت إلى ما يشبه قطعة جلد مموجة.

- لم تتعرّض الفتاة للاغتصاب فحسب... بل للخنق أيضاً.

سرى في جسدي ما يشبه التيار الكهربائي، فأصبتُ بشلل دفعني إلى الإجابة بلا تفكير.

- لقد... لقد كلّمتها عندما كنا هناك. كانت... كانت على قيد الحياة. لقد ارتمت في الفراغ بمحض إرادتها. كانت...

لكنه قاطعني.

- هي محاولة خنق إذاً. ربما ساهَمَ وصولكَ في دفع المغتصب إلى الفرار قبل الإقدام على خنقها. لقد أنقذت حياة هذه الفتاة. . . أو بالأحرى، كان بإمكانك ذلك. . .

كان بإمكانك ذلك؟

كان تعبيراً غامضاً، الشيء نفسه بالنسبة إلى تفسيره لتسلسل الأحداث. بإمكان المغتصب الاختباء في المعقل الدفاعي القديم عند شعوره بقدومي، لكن ماذا عن باقي التفاصيل؟ لماذا لم تقل الفتاة شيئاً؟ لماذا لم ألاحظ وجود أيّ علامة على الخنق عندما قمتُ بمدّ قطعة القماش نحو الفتاة؟ لأنني لم أنتبه لذلك؟ لأنني لم أركِّز على ملامحها وفستانها الممزق؟

- ماذا تفعل؟

كانت دنيز صاحبة السؤال، فقد استند بيروز إلى ركبتيه ويداه على الحصى وهو يتشمّم رائحة جلد الجثة. راقبه أرنولد بحذر. رفع رَجل الدرك رأسه وقد رسَمَ على وجهه ابتسامة مطمئنة، ككلب بوليسي عثر على الوجهة الصحيحة الواجب اتباعها.

- توجد آثار ملح على جلدها.

خيِّل إليّ أنني أتابع مشهداً سريالياً يؤدي فيه الممثلون أدوارهم بدقة. لم يصدر أيّ رد فعل عن الدركي الثاني. قد يكون ذلك تكتيكاً جرى الاتفاق عليه بينهما. يؤدي كلّ واحد منهما دوره. يدير الأول العرض، فيما يراقب الثاني ردود أفعالنا بهدوء تام.

- ملح؟ كرّر أتاراكس مصدوماً.

- نعم. . . لكن هذه النقطة على الأقل يمكن تفسيرها. (صمت طويلاً). لقد سبحت الفتاة في مياه البحر.

اتجهت نظراتنا في اللحظة نفسها إلى بحر المانش.

السباحة؟ يوم 19 فبراير؟ ليلاً؟ في مياه تقلّ درجة حرارتها عن عشر درجات مئوية؟

- عارية، أضاف بيروز. ملابسها جافة.

اقتربت دنيز مني وقد ظهرت على ملامحها علامات الضعف. فمنحتها ذراعي لتستند إليها.

- سبحت عارية، تابع رجل الدرك. أعتقد بأنّ هذا سيجعل القضية أقرب للسهولة من التعقيد. كانت فتاة رائعة الجمال، وربما كان هذا سبباً في إثارة انتباه المغتصب.

مرَّر أصابعه على شعره الناعم.

- كلّ شيء جاهز لتطويق المكان وتهيئته لقدوم فرق الخبراء. معذرة، أنتم مطالبون بتزويدي بهوياتكم، عناوينكم، أرقام هواتفكم وباقي بياناتكم، كما سأطلب منكم زيارتي في سرية فيكامب، بعد الظهر إن أمكن، قد يمنحنا ذلك وقتاً كافياً لمعرفة المزيد، على الأقل فيما يتعلق بهوية الفتاة.

استندت دنيز إليّ بكل ثقلها، كنت أرتجف بقوة، وقد لاحظ بيروز ذلك، فحدَجَني بنظرات طويلة، قبل أن ينحني ليسلِّمني سترتي الرياضية.

- خُذْ، أعتقد بأنها لك، تدثَّر بها لكي لا تُصاب بنزلة برد، سأكون بحاجة إليك.

5

من سيصدقني؟

تراءت القمة الصخرية لإتروتا أمامي، فبدت أشبه بقطعة بازل انتُزعت عن المنحدر، أو قطعة آلية تلتحم بالبوابة الأثرية لفتح كهف سرّي ما.

ركضت لما يقارب الساعة بعد افتراقي عن رجال الأمن، وهي مدّة أقل بكثير من الأيام السابقة. اثنا عشر كيلومتراً بالكاد. إيبور-إتروتا مروراً بالوادي الصغير في فوكوت ومَنفَذ إيتيغ الصخري.

مسافة كافية لإخلاء موقع الحادث، ثم محاولة التفكير وبعده، الفهم.

كنت مبلّلاً بالعرق، رغم أنّ درجة الحرارة لا تتجاوز ثلاث درجات مئوية. ذاب جليد عشب المروج ببطء شديد، ليشكّل قنوات رفيعة من الماء البارد الذي يرتمي في الفراغ على شكل شلالات صغيرة، ويحفر، ثانية بعد أخرى، أخاديد بلونٍ أمغر تشقّ السطح الكلسي. كان هذا المنظر الأبدي سراباً. المنحدر محاصَر من كلّ جانب، المياه، الجليد، الأمطار، البحر، لكنه يقاوم، ثم يستسلم

ويموت، تحت أعين الملايين من السيّاح الذين لن ينتبه أحد منهم لطبيعة التغيّرات التي مسّت هذا المنظر.

الجريمة الكاملة.

ثم بدأت أرتجف.

ساعة كاملة مرّت على مغادرتي لشاطئ إيبور، مفسِحاً المجال لرجال الأمن للقيام بعملهم، دون أن أتوقّف عن تقليب كلّ المعطيات في ذهني. يبدو أنّ استنتاجات الضابط بيروز تُقدّم إنشاء واضحاً لتسلسل الأحداث. تضع الفتاة المجهولة فستانها الأحمر على شاطئ إيبور، وذلك في ساعة مبكرة من هذا الصباح، ربما بعد طلوع الشمس بفترة وجيزة، تسبح عارية، ثم يفاجئها المغتصب، يراقبها في أثناء ارتدائها لملابسها، ثم يتبعها في أثناء صعودها عبر الطريق الساحلية، يفقد وشاحه، ثم يحاصِر الفتاة بالقرب من المعقَل الدفاعي القديم، يغتصبها، ثم يحاول خنقها، يصيخ السمع منتبهاً لقدومي، فيختبئ في المعقل الدفاعي قبل وصولي، بعد فوات الأوان. . .

يدفع اليأس بالفتاة إلى الانتحار.

وجدت أمامي، على الجانب الآخر من الخليج، بعض المتجوّلين الذين يمشون بحذر على الجسر الزلق المؤدي إلى غرفة الآنسات[1]. ألقيتُ نظرة على ساعة يدي.

الحادية عشرة صباحاً وثلاث دقائق. حان وقت العودة.

تجاوزت الوديان الصغيرة وصولاً إلى إيبور في مدة تقلّ عن

---

(1) غرفة الآنسات (La chambre des Demoiselles): كهوف مخترقة في منحدر إتروتا. -المؤلف-

خمس وأربعين دقيقة. لم أقابل أحداً باستثناء درّاج في وادي فوكوت وحمار على طريق كوشان، يبدو أنه تعرَّف عليّ بعدَما تعوّد على مروري من المكان نفسه صباح كلّ يوم. صعدت وصولاً إلى سهل دولافاليت. خفَّت سرعة الرياح، وبدَت توربينات الرياح في فيكامب ثابتة بلا حراك، أشبه بعمالقة يأخذون قسطاً من الراحة. رأيت هوائيّ إيبور من بعيد رغم الضباب الكثيف، ومعه المعقل الدفاعي القديم، وقد تناثرت المدقّات حوله.

ضغط القلق على أنفاسي فشعرتُ بالاختناق.

إذا كانت فرضية بيروز صحيحة، فهذا يعني أنّ المغتصب قد رآني، وراقبَني من مخبئه في المعقل الدفاعي.

كنتُ الشاهد الوحيد. . .

انحدرَ درب المشي بشكل طفيف، فضاعفتُ من سرعتي بالقدر الذي تسمح به ساقي الاصطناعية.

الشاهد الوحيد؟

تجاوزتُ مخيم لوريفاج. تلألأ خليج إيبور مع نور الصباح. واصلَت مياه البحر تراجعها الهادئ البعيد، لتكشف عن مشهد عارٍ. التصقت طحالب زمردية بالصخور لتبدو كواحات مسنَّنة في صحراء رطبة.

كنت أفكر في فرضية أخرى.

ماذا لو كان تحليل بيروز خاطئاً؟

ماذا لو أنّ المغتصب تخلى عن الفتاة في شاطئ إيبور بعد محاصرتها ثم اغتصابها وخنقها؟ تنهار أعصاب الفتاة فتصعد إلى المنحدر متجاهلة سقوط وشاحها، ثم تُجبِرها الصدمة على القفز رغم قدومي إلى المكان.

ضجَّت درجات سلم الكازينو تحت وقع خطواتي.

سواء وقع الاغتصاب على الشاطئ أو في أعلى المنحدر فهذا لن يغير شيئاً من واقع الشابة المسكينة... ولكن بالنسبة لي، يتسلَّل سؤال مُلِحّ بين الفرضيتين. سؤال يتوجب عليّ التفكير في إجابته قبل بيروز.

هل قابلتُ المغتصب أم لا؟

ثلاث درجات أخرى. تجاوزت أكياس القمامة في الكازينو وصولاً إلى الحاجز الإسمنتي. كنت أمام لاسيرين.

هل قابلت المغتصب؟

سيطر السؤال على كياني، وقد أدركتُ بأنه يخفي وراءه سؤالاً آخر، أكثر إثارة للقلق، ولا أعتقد بأنّ بيروز سيتجاهله.

كيف وصل هذا الوشاح الأحمر اللعين إلى عنق الفتاة؟ وشاح البربري الذي التصقَت به بصماتي الجينية.

استعنتُ بالسور الخشبي في شرفة لاسيرين لممارسة بعض تمارين الإطالة، كما أفعل كلّ صباح. لم أكُن أزعج أحداً، لا وجود لأيّ طاولة أو مقعد أو حتى زبون واحد في الخارج.

وضع أندريه -بالقرب من لائحة الطعام التي تضمّ صحناً من الحلزون وبلح البحر ووصفة البيض المثلج[1]- تذكيراً بحالة الطقس.

---

(1) البيض المثلج: أكلة فرنسية المنشأ، تتكون عموماً من بياض البيض المحلى والكريما الإنجليزية. -المترجم-

غياب لأشعة الشمس
تساقطات ثلجية محتملة فوق مستوى الـ 400 متر
قد تصل درجة الحرارة إلى 15 درجة تحت الصفر.

واو!

تقدم أندريه جوزياك نحوي، لا علاقة بين شكله الحالي وشكل الرجل المنتمي لعصور ما قبل التاريخ الذي يستيقظ في الصباح الباكر لتحضير وجبة إفطاري. لقد أخذ وقته الكافي لحلق ذقنه وتصفيف شعره ووضع القليل من العطر. ارتدى قميصاً أبيض وسترة أنيقة، مستعداً لاستقبال السائح الباريسي التائه. كان أندريه أورسينياً[1] امتلك قبل قدومه إلى إيبور فندقاً ومطعماً في براي دونز، آخر شاطئ فرنسي قبل الوصول إلى الحدود مع بلجيكا. يحب تكرار لازمة قدومه إلى الجنوب بحثاً عن أشعة الشمس. يحرص يومياً على إقناع المتشكِّكين بوضع تذكير بحالة الطقس: الأسوأ في فرنسا! يبحث في كلّ ليلة عبر شبكة الإنترنت عن المكان الذي سيشهد أكبر نسبة من التساقطات المطرية، أو تهب فيه أقوى عاصفة، أو تنزل فيه درجات الحرارة إلى مستوياتها الأدنى. وقد حدّد صباح اليوم، بخطّ صغير تحت المذكرة، شو-نوف، في بلدة موث في عمق الجورا.

جاء ردّ فعلي الأول بإخباره عن جثة المنتحِرَة. كانت السنوات الخمس عشرة التي قضاها في لاسيرين كافية ليعرف كلّ سكان المنطقة. سيتمكّن بسهولة من تحديد هوية فتاة بهذا الجمال، إن كانت مقيمة هنا في إيبور. . .

---

(1) أورسيني (Horsain): شخص ينحدر من منطقة أخرى وجاء للاستقرار في النورماندي. -المؤلف-

بالكاد فتحتُ فمي، عندما وقف أمامي وسلَّمني ظرفاً بنياً سميكاً.

- رسالة لكَ يا بني!

جلستُ على الفراش في غرفتي التي تحمل الرقم 7، في الطابق الأخير. مشهد يطلّ على البحر، تحت السقف الصخري. عندما حجزت في فندق لاسيرين، كنت أعتقد بأنني سأنزل في أحد أكثر الفنادق بشاعة وقذارة. . .

كانت فكرة خاطئة!

الغرف نظيفة ومريحة، كما تمّ تجديد الديكور حديثاً، لون أزرق سماوي مع صَدَفات بحرية وحبال صيد على الستائر. وقفت بالقرب من النافذة، أتأمَّل الساحل وصولاً إلى منار فيكامب، وحتى بعد جلوسي كنت أرى قمم المنحدرات.

فتحت الظرف بأصابع مرتجفَة.

مَن سيبعث لي برسالة هنا؟ لا يعلم أحد بقدومي إلى إيبور باستثناء إيبو وأوفيلي وبعض الموظّفات في مؤسسة سانت-أنطوان. الأكثر من ذلك أنهم لا يعرفون سوى اسم البلدة التي أقضي فيها عطلتي، ولا علم لهم باسم الفندق.

لا وجود لاسم المرسل على الظرف، فقط اسمي وعنواني، بخطّ اليد، خط دائري أنثوي الطابع.

جمال سلاوي

فندق ومطعم لاسيرين

7 جادة ألكسندر دومون

76111 إيبور

الرسالة قادمة من فيكامب.

قريباً جداً من هنا...

سقطت قصاصات ورقية على الفراش.

احتوى الظرف على ما يُقارب العشرين ورقة. قفزت الأولى إلى ناظريّ بسرعة، كانت نسخة مصورة لمقال في جريدة **لوكوريبه كوشوا**. طبعة فيكامب. وقد احتل عنوان عريض الصفحة الأولى.

19 عاماً. تمّ العثور عليها ميتة أسفل منحدرات إيبور

خيِّل إليّ أنّ المنحدرات تهتزّ أمام ناظري خلف النافذة.

ارتعشت أصابعي الممسكَة بالأوراق. كيف تمكّنت صحيفة محلية من الوصول إلى الخبر بهذه السرعة؟ لقد قفزت الفتاة قبل أقلّ من ثلاث ساعات، وما زالت المصالح الأمنية موجودة بعين المكان رفقة جثة الهالكة.

بذلت كلّ ما في وسعي للتخفيف من سرعة دقات قلبي، استعادت عيناي ثباتهما، مركّزتين على الورقة والمعلومات المذكورة. فجأة استعاد تنفّسي وضعه الطبيعي. أنا أمسك بنسخة قديمة من **لوكوريبه كوشوا**.

نسخة قديمة جداً، عشر سنوات تقريباً، نسخة بتاريخ الخميس 10 يونيو 2004.

اللعنة!

لماذا أتوصّل بنسخة مصوَّرة لصحيفة تتناول حادثة قديمة؟

تصفَّحتُ الأوراق الأخرى بيدٍ مرتجفة، كلها تتحدث عن القضية نفسها. العثور على فتاة في التاسعة عشرة من عمرها، ميتة

أسفل منحدرات إيبور. احتوى الظرف على قصاصات لصحف محلية وأخرى وطنية، وبعض الوثائق الأكثر خصوصية، ومقتطفات من استجوابات، وملاحظات من تحقيق الدرك الوطني، ومراسلات متبادلة بين قاضي التحقيق والضابط المكلَّف بالقضية.

مع مواصلتي للقراءة، تبيَّن لي أنّ هُوية المرسِل صارت أكثر الأسئلة غموضاً وضبابية.

بدا أن كلّ الوثائق التي أرسلها الشخص المجهول صادقة، وإن بدَت كلّ التفاصيل المذكورة عصيَّة على التصديق.

بعد مرور عشر سنوات على وقوعها.

6

هل قابلتُ المغتصب؟

قضية مورغان أفريل - الأحد 6 يونيو 2004

كانت تلك أول مرة يرى فيها ماكسيم بارون جثة إنسان. لم يفلت من هذا القدر عندما حاصره المراهقون وقاموا بجرّه من كمّ سترته.

«سيدي الشرطي، سيدي الشرطي، توجد جثة امرأة على الشاطئ».

لم يَجد ماكسيم الوقت الكافي ليشرح لهم أنه مجرّد متدرب في سرية الدرك بفيكامب، وأن وجوده بساحة جان-بول-لورينز في إيبور كان بمحض الصدفة وخارج أوقات عمله، وأن النقيب غريما سيعود بعد ذهابه لشراء السجائر...

لكنه لحقَ بالمراهقين في نهاية المطاف.

كانت جمجمة فتاة شاطئ إيبور مهشَّمة.

سقطت من أعلى قمة المنحدر بلا شك، فكان رأسها أول ما اصطدم بالأرض، لتختلط الدماء بوجهها وشعرها الجميل.

تقيأ ماكسيم فطوره على حصى الشاطئ، أمام النظرات الخائفة والقلقة للمراهقين المتحلِّقين حوله، قبل أن يمسح فمه بكمّه ويتّصل برئيسه المباشر.

- فيل، توجد جثة فتاة على الشاطئ، بالقرب من فندق لاسيرين والكازينو.

رفع ماكسيم عينيه.

غطت لوحة إشهارية ضخمة -متران على ثلاثة أمتار- جدار الكازينو.

مهرجان ريف أون كليف
من السابعة مساء إلى الرابعة صباحاً

سُجّلت تحت مجسَّم قيثارة فضية ضخمة أسماء خمس عشرة مجموعة روك محلية وجهوية، فيما تناثرت علب الجعة والقنينات الفارغة بالقرب من الحاجز الإسمنتي المطلّ على البحر.

ستستيقظ إيبور بصعوبة، وعلى وقع كارثة غير مسبوقة.

وصل النقيب فيليب غريما بعد أقل من دقيقة، وهو الوقت الكافي ليتقيأ ماكسيم مرة أخرى ويتشكّل حشد من الفضوليين على الشاطئ بالقرب من الموقع الذي تمّ العثور على الجثة فيه. لم يكن ماكسيم متأكداً من امتلاك رئيسه خبرة كافية في التعامل مع الجثث، فهو أكبر منه بخمس سنوات فقط، وتخرَّج قبل فترة قصيرة من مدرسة الدرك الوطني في مونت لوسون. هو مزيج من الصديق والرئيس المباشر في العمل، بالأمس فقط لعبا الإسكواتش سوية في فيكامب، وتجاذبا أطراف الحديث لساعتين كاملتين في حانة قريبة، تحدّثا عن

كرة القدم والدراجات والنساء، قبل عودة غريما إلى منزله، فهو متزوج وأب.

يكبره بخمس سنوات فقط... لكن خبرة حياة كاملة تفصل بينهما.

الدليل على ذلك أنّ النقيب غريما لم يتقيّأ بعد رؤيته للجثة، بل تصرّف باحترافية ملحوظة. لم يغمز زميله ولم يربِّت على ظهره، بل وجَّه إليه أوامر جافة ومباشرة، قام ماكسيم بتنفيذها باجتهاد، لم يُغضِبه برود رئيسه، بل أشعَرَه في المقابل بالفخر. إنه مثال يحتذى! هل سيكون مثله بعد خمس سنوات؟

طلب النقيب غريما من المتدرب بارون أن يمسح جانب شفتيه وأن يُبعِد المتفرجين عن المكان، ثم أخرج هاتفه المحمول والتقط ثلاثين صورة تقريباً للموقع، قبل أن يلتفت إلى المتجمهرين، وأغلبهم مراهقون.

- مَن منكم يعرف هذه الفتاة؟

كان من بينهم شخص يرتدي سترة حمراء اللون تزيِّنها أزرار مذهبة. بدا شبيهاً بخادم مصعد تمّ بناؤه في المنحدر، وقد قام بخياطة حروف اسمه جيريمي ناحية القلب، فوق الشعار المميز لكازينو إيبور.

- أنا، ومَن القادر على نسيانها؟ لقد قضت ليلة كاملة في الكازينو.

استغرق تحديد هُوية الفتاة أقل من ساعة.

مورغان أفريل.

تسعة عشر عاماً.

طالبة طب، سنة أولى.

تعيش مع والدتها كارمن أفريل في منزلها بنوشاتيل-أن-بري.

لم يجد غريما صعوبة في إعادة تشكيل الظروف والأحداث التي سبقت المأساة. جاءت مورغان أفريل إلى إيبور بالأمس للمشاركة في مهرجان موسيقى الروك الذي نظّمه كازينو إيبور، ريف أون كليف. ترافقها شقيقتها أوسيان وثلاثة أصدقاء آخرين، نيكولا غرافي وكلارا بارتيليمي وماتيو بيكار. انطلق الأصدقاء من نوشاتيل-أن-بري -التي تبعد عن إيبور بما يقارب المئة كيلومتر- حوالي الساعة السادسة مساء، راكبين سيارة كليو التي يقودها نيكولا. كانت والدة مورغان متردِّدة كثيراً بشأن السماح لابنتيها بالمشاركة في خرجات وسهرات كهذه، رغم تجاوزهما سنّ الرشد.

حماية مطلقة؟ اعتقال؟ هواجس مسبقة؟

كانت تلك سهرتهما الأولى في ملهى ليلي! درست مورغان باجتهاد في كلية روان، واجتازت سنتها الأولى بتفوّق ملحوظ. من الصعب إذاً على كارمن أن تواصل احتجاز ابنتها ومنعها من السهر خارج المنزل.

أزاحت المعاينة الأولية للطبيب الشرعي الذي التحق بالمكان الظلال المخيمة على ظروف وفاة الشابة. تعرّضت مورغان أفريل للاغتصاب بين الخامسة والسادسة صباحاً، قبل أن يتمّ خنقها ورميها من أعلى قمة منحدر إيبور.

كان وجهها متورّماً، وأطرافها مفكَّكة بفعل قوة الاصطدام، كما كان فستانها ممزّقاً وقد جرى انتزاع ملابسها الداخلية، ولم يتمّ العثور على تُبانها الأرجواني إلّا في اليوم الموالي، بالقرب من

المنحدر، على بُعد بضع عشرات من الأمتار عن المعقل الدفاعي القديم، غالباً بعدما دفعته الرياح الغربية بعيداً. حمل التبان آثار منيّ تعود للمغتصِب، وهي الآثار المطابقة لمثيلتها في جثة مورغان. ولم يتمّ العثور في المقابل على حقيبة يدها، لا في المنحدر، ولا حتى في الكازينو، وقد بحث عنها ثلاثة من رجال الشرطة ليومين كاملين، من دون جدوى.

حوالي الساعة الرابعة زوالاً، أي بعد مرور عشر ساعات تقريباً على اكتشاف جثة مورغان أفريل، توصّل النقيب غريما إلى جمع ثلاثة وعشرين شاهداً من سكان إيبور الذين قضوا ليلتهم في الكازينو، خمسة عشر رجلاً وثماني نساء.

جمع مهرجان ريف أون كليف ألفَ زائرٍ تقريباً، تابع معظمهم سهرتهم في الكازينو بعد انتهاء عرض آخر مجموعة موسيقية.

ومع ذلك، كان كلّ الشهود -بلا استثناء- قادرين على وصف مورغان أفريل بدقّة بالغة.

جميلة.

مرغوبة.

شهوانية.

قضى النقيب غريما ساعات طويلة بعد ذلك وهو يُراجع نصّ الشهادات التي قام بجمعها. كانت إفادات منزعجة في معظمها، فهم يتحدّثون عن فتاة ميتة تعرَّضت قبل ذلك للاغتصاب من أحد مرتادي الملهى الليلي. ورغم ذلك، اتفقت شهادات الرجال كما النساء على الملاحظات نفسها.

فتاة متّقدة.

ساخنة.

تملؤها الرغبة، من قمة رأسها إلى أخمص قدميها.

تحدثوا عن رقصاتها المرتجلة وفستانها المبلّل والملتصق بصدرها الرطب بعد مغادرتها للمراحيض، عن جسدها المتلوي كأفعى، عن يديها المتلاعبتين بردفيها، عن كتفيها ويديها الممدودتين، عن نظراتها الباحثة عن الرجال كمنظار بندقية قنص.

لقد أطلقَت طالبة الطب المؤدّبة العنان لغرائزها.

لم ينتبه أحد لوجود مورغان في المكان بعد الخامسة صباحاً، لم يرَها أحد وهي تغادر الملهى، ولم يشِر أحد إلى مغادرتها المكان وحدها أو برفقة شخص ما.

التقى النقيب غريما بكارمن أفريل والدة مورغان في السادسة من مساء ذلك اليوم، وقد جعلها تنتظر لبعض الوقت. السبب الرسمي هو رغبته في متابعة الشهادات المباشرة والدلائل الجديدة، لكن السبب الحقيقي هو اختلاط صورتين في ذهنه، صورة الجثة المحطّمة لمورغان، وصورة الجسد الشهواني الذي أثار -قبل ساعات قليلة- غرائز المئات من الشبان... كما أنّ الخوف قد تملّكه من إمكانية طرح هذا السؤال على والدتها التي قد تكون في عمر والدته نفسه.

دخلت كارمن أفريل، فكان أول انطباع للنقيب غريما عنها أنها أشبه ما تكون بالخزنة الحديدية.

خزنة حديدية يجب عليه أن يبذل كلّ ما في وِسعه لفتحها.

تطلّع الدركي إلى جسدها الشبيه ببرميل، وسترتها التي أغلقتها أزرار حديدية، والحذاء ذي الرقبة الطويلة الذي غطى ساقيها

الثقيلتين، مع نظارات سميكة تحيط بها سلسلة خلف عنقها، وحقيبة يد جلدية بدعامة فولاذية. وقد خيِّل إلى النقيب أنها قد تخفي تحت عنقها مفتاحاً ثقيلاً معلّقاً إلى عنقها.

المفتاح الذي قد يقوده إلى معرفة مكنونات قلبها.

المفتاح الذي فُقِدَ إلى الأبد، بعدما قام أحدهم برميه في قعر بئر، كما تصوّر غريما!

بدا أنّ الرجل الذي يرافقها قد أثقلت كاهله نكبة ما، منذ سنوات طويلة. ببنية نحيفة وأذرع طويلة.

فكر النقيب في أنهما لا يلائمان بعضهما بأيّ حال من الأحوال.

أشار إلى المقعدين أمام مكتبه.

- السيد والسيدة أفريل؟

- السيدة فقط، أجابته الخزنة الحديدية، جيلبير الذي يرافقني هو خال مورغان.

- وماذا عن والد مورغان؟

- ليس لمورغان أب.

- هل...

تردَّد النقيب باحثاً عن مصطلحات من قبيل الوفاة أو الاختفاء أو الرحيل...

لكن كارمن سبقته إلى الإجابة:

- لم يكُن لمورغان أب أبداً...

- هل تقصدين بأنّ...

لم يكن النقيب يملك أيّ فكرة عن قصدها، لكنه صَمَتَ ليسمح لها بمقاطعته مرة أخرى:

- لقد ربّيتها وحدي، أملك منزلاً ريفياً صغيراً في نوشاتيل-أن-بري، ومنذ خمس وعشرين سنة، وحدي أيضاً.

التفتت إلى شقيقها، فأصدرت حقيبة يدها صريراً مسموعاً.

- حرصتُ على أن يرافقني جيلبير، وإن كنتُ متعودة على. . .

حان دور غريما ليُقاطعها:

- على مواجهة مصاعب الحياة وحدكِ. فهمتُ قصدك.

لم يجانب الصواب في كلامه، كانت كارمن أفريل صخرة غير قابلة للغرق تقريباً، وقد فهم ذلك بعد تبادل كلمات قليلة معها، ثم أكّدت له الأيام الموالية ذلك بعدما انهمك في التحقيق حول القضية. كانت كارمن مؤسسة قائمة بذاتها في نوشاتيل-أن-بري. فاعلة جمعوية ونائبة رئيس جمعية تنمية بيي دو بري، مندوبة سياحية وثقافية، مستشارة في البلدية منذ خمس عشرة سنة. امرأة قوية ونشيطة وممتلئة بالعزيمة. لا وجود لأيّ رجل في حياتها. يعمل شقيقها جيلبير أفريل سائقاً لحساب شركة محلية، وقضى نصف عمره وهو ينقل منتجات مشتقات الحليب إلى إنجلترا عبر شاحنته المبرّدة.

لكن الضابط أصرّ على محاصرة كارمن بنظراته وسؤاله المُلحّ:

- وماذا عن والدها؟ أنا بحاجة إلى معرفة التفاصيل.

رسمت على وجهها معالم حُزن لم تُعجِب غريما.

- هل أنا مطالَبَة بتكرار ما قلته يا سيادة النقيب؟ ليس لمورغان أب.

- هذا مجرد تعبير يا سيدة أفريل، لم يقُم أيّ أبّ بتربيتها، هذا مفهوم، لكنني أتحدّث عن الجانب الوراثي، أودّ معرفة. . .

- لقد أجريتُ عملية تلقيح صناعي قبل تسع عشرة سنة. . .

أخذَ غريما وقته الكافي للتفكير في مغزى كلامها، هو يعرف

القانون، ويعلم بأنّ التلقيح الصناعي مسموح به فقط للمتزوجين أو القادرين على إثبات عيشهما المشترك لمدّة سنتين كاملتين على الأقل.

- أعتقد بأنّ الأمر يتطلب -من الناحية القانونية- وجود شريك. أليس كذلك؟

- في فرنسا نعم، أمّا في بلجيكا فلا!

رباه، لقد حصلت على طفلتيها وحدها فعلاً، هكذا فكَّر غريما... كان من الممكن أن يقول -في ظروف أخرى مغايرة- إنّ تصرفها هذا يدل على أنانية مفرطة. منذ أربعة أشهر وهو يستيقظ كلّ ثلاث ساعات، وكل ليلة، لتشرب ابنته لولا قنينة الحليب، لا يستطيع وصف ذلك الشعور الذي ينتابه عندما تلتصق ابنته الصغيرة بكيلوغراماتها الخمسة بصدره العاري، كما أنه يستغل كلّ فرصة ليشكر الرب على امتناع سارة عن إرضاعها طبيعياً.

دفعت كارمن أفريل سلسلة نظاراتها لتتمكن من مسح زجاجها بمنديل ورقي. في نهاية المطاف، لا علاقة لحياة كارمن الخاصة وطريقة تربيتها لابنتها بجريمة اغتصاب وقتل مورغان. لن تؤدي محاولات النقيب لفهم نفسية الأم سوى إلى تعقيد مهمته، وقد راوده شعور قوي بذلك.

- سيدة أفريل، سأكون مطالَباً بطرح بعض الأسئلة المتعلّقة بمورغان، وقد تكون أسئلة ذات طابع حميمي.

شعر لوهلة بأنه أصغر بكثير من اللازم، وأنه لا يسبق المتدرّب ماكسيم بأيّ خبرة. كارمن أكبر منه بعشرين عاماً، ولم تستغرق تجربته كأبٍ سوى بضعة أشهر حتى الآن.

- تفضل.

- كانت مورغان في التاسعة عشرة، وهذه أول مرّة تزور فيها الملاهي الليلية، وقد اتفق معظم الشهود على القول بأنها كانت، أقصد. . .

تظاهر بالبحث عن كلمات مناسبة، محاوَلةً منه للتخفيف من أثر الكلمة الأخيرة.

- مثيرة، قالها بعد انتظار.

- مثيرة؟

انكمشت الحقيبة بين يدي كارمن القويتين، وانتفخ جسدها الضخم، كما بدت النظارة أشبه بالحاجز الذي يمنع عينيها من مغادرة محجريهما، وإن بدا الألم كله في القزحيتين الرطبتين.

- ما الذي تقصده بكلمة مثيرة يا سيادة النقيب؟

كان هدف غريما مباشراً، لكنه عجزَ عن معرفة الآثار غير المباشرة لذلك.

- مرغوبة يا سيدة أفريل، جميلة وعرضة لإثارة انتباه الرجال المحيطين بها، وهي كانت واعية بذلك، أنتِ تفهمين قصدي يا سيدة أفريل.

انفجرت أقفال الخزنة الحديدية، وحاول السائق تهدئة شقيقته بالتربيت على كتفها، لكنها كانت أقوى من أن تتراجع عن هجومها.

- هذا ما تلمِّح له يا سيادة النقيب؟ أنّ مورغان تتحمل مسؤولية ما جرى لها؟ لقد تمّ اغتصابها يا سيادة النقيب، اغتُصِبَت ثم خُنِقَت وتمّ رميها من أعلى قمة المنحدر، ثم تأتي أنت لتقول بأنها كانت مرغوبة ومستفزة!

تمالك غريما أعصابه مفكِّراً في ابنته لولا، الجميلة وهي بعد في شهرها الرابع.

- نحن في الخندق نفسه يا سيدة أفريل، نريد إلقاء القبض على قاتل ابنتك. لكلّ دقيقة قيمتها. كانت مورغان ضحية جريمة بشعة، هذا ممّا لا يختلف عليه اثنان، لكنني بحاجة إلى الاستماع لكل الشهود حتى أتمكَّن من الوصول إلى القاتل.

- تقصد الشهود الذين يقولون بأنّ ابنتي تتحمَّل مسؤولية ما جرى لها؟

نهض النقيب غريما دون أن يعرف سبب قيامه بذلك.

- سيدة أفريل... سأحاول توضيح كلامي أكثر، نحن أمام احتمالَين لا ثالث لهما، إمّا أن قاتل ابنتك شخص مهووس جنسياً، مريض نفسي قابلها أمس بالقرب من موقف السيارات في الكازينو أو الشاطئ تحت أضواء الإنارة العمومية، ولا نملك في هذه الحالة أيّ وسيلة تقريباً لتحديد هُوية هذا المجهول الذي لم يره أحد. وإمّا أن قاتل مورغان كان موجوداً في الملهى الليلي، والتقى بها وراقَصَها وربما تجاذب معها أطراف الحديث أيضاً. وغادرا الملهى معاً، بمحض إرادة مورغان، ثم سارت الأمور بشكل سيئ بعد ذلك. نحن متفقان على ذلك. هذا القاتل وحش لا يرحم، وابنتك مورغان ضحية بريئة. ولكن افهميني يا سيدة أفريل، الاحتمال الثاني يقلِّص لائحة المتهمين المفترضين بشكلٍ ملحوظ.

لم تُجِبْه كارمن، التي أخرجت من حقيبة يدها منديلاً ورقياً آخر بقيت ممسكة به من دون أن ترفعه إلى عينيها. في الوقت الذي استعاد فيه غريما ما سمعه من الشهود.

مورغان التي تتلوى كأفعى، تبانها ونهدها الظاهر متجاوزاً فستانها غير المضبوط بشكلٍ متعمّد. أجمل فتيات الكازينو بلا منازع... لا يستطيع غريما الإفصاح عن هذه التفاصيل أمام

والدتها. ليس بتلك الطريقة، وليس الآن. دارَ حول نفسه ربع دورة:

- سأكون أكثر دقة يا سيدة أفريل، لقد أكّد كلّ مَن يعرفون مورغان بأنها فتاة مؤدّبة ومجتهدة وعقلانية. وكانت هذه السهرة مكافأة لها على سنة طويلة من العمل الجاد والرغبة في التفوق... هل تعتقدين يا سيدة أفريل بأنّ مورغان أولَت أهمية كبيرة لهذه السهرة؟ ما يمكن اعتباره... (بحث غريما عن التشبيه الملائم) تجربة أولى انتظَرَتها منذ وقت طويل؟

حدَجَته كارمن بنظرات نارية.

- وبأنها كانت تنتظر الفرصة لفقدان عذريتها بأيّ ثمن، هذا الذي يدور في ذهنك؟ لا تراوغ يا سيادة النقيب. تقصد بأنها كانت تبحث عن منح جسدها لأوّل رجل تقابله، أليس كذلك؟

أومأ غريما برأسه، ثم قال موضحاً:

- ربما قابلت شخصاً غير مناسب... لو أن الأمر كان بالتراضي، بما يسمح لها بمرافقة هذا الشخص المجهول، فمن الممكن عندئذٍ أن نتوصّل إلى هُويته الحقيقية بسهولة أكبر.

أحسّ النقيب بأنّ وحشاً أسكَرَه الغضب سينفجر في وجهه، ففكّر في أنّ المجاملة قد تُساهم في تهدئة الأجواء، وإن كانت هذه المجاملة صريحة جداً.

- كانت ابنتك جميلة يا سيدة أفريل، جميلة جداً. أجمل فتاة في السهرة بلا منازع. حاولي فَهم استدلالي فهو مهمّ للغاية. مشكلة مورغان الوحيدة كانت في اختيار الشخص المناسب، كان بإمكانها اختيار مَن تريد. هي التي اختارت قاتلها وليس العكس. وسنعثر عليه، سنعثر عليه بسهولة.

نهضت كارمن من مقعدها محطّمة كل الأغلال التي كانت تمنع غضبها من الانفجار.

- اختارت قاتلها؟ هذا ما قلته يا سيادة النقيب؟ اختارت قاتلها! اسمعني جيداً يا غريما، ابنتي لم ترافق أحداً! لم تذهب ابنتي مع أحدٍ بالتراضي، ابنتي تعرّضت للاغتصاب، هل تفهم؟ اغتُصِبَت وخُنقت ثم دفعها القاتل من أعلى قمة المنحدر كما لو كانت حيواناً تافهاً بلا قيمة.

تذكر فيليب غريما جسد ابنته لولا الدافئ. أن تربي ابنتك لما يقارب التسعة عشر عاماً ل. . .

نعم، لقد فهم كلامها، ولهذا يريد الإيقاع بهذا المجرم في أسرع وقت ممكن.

- كلّ ما أريده هو العثور على الحقير الذي فعل بها هذا. . .

مدّ شقيق كارمن يده الطويلة كالمطاط ليجرّ شقيقته عبر كمّها، لكنها تحرّرت من يده متقدّمة بخطوة إضافية لتواجه النقيب غريما بقولها:

- أنت مجرّد دركي غبي يفتقر للكفاءة.

تمّ إجراء تشريح جثة مورغان أفريل في اليوم الموالي.

أكّد التشريح التفاصيل المعروفة. تعرّضت مورغان أفريل للاغتصاب بين الخامسة والسادسة صباحاً، ثم خُنِقَت وجرى رميها من أعلى قمة منحدر إيبور على هذا التوالي. أكّد الخبراء بأنها قد لقيت مصرعها قبل رميها، وعثَر الأطباء الشرعيون في مهبل مورغان على آثار منيّ قالوا بأنها تعود بلا شك وبحسب التسلسل الطبيعي للأحداث لهذا المغتصِب.

كان ذلك خبراً إيجابياً بالنسبة إلى النقيب غريما. الخطوة الموالية هي التعرّف على الدي إن آي لكلّ مَن وُجِدوا في مهرجان ريف أون كليف والكازينو البحري، وكلّ الرجال البالغين في إيبور تحديداً. ربطت صحف كثيرة بين ذلك وبين قضية كارولين ديكينسون سنة 1996، عندما تمّ اغتصاب تلميذة إنجليزية واضطرّ كلّ الرجال في بلان فوجير لتزويد السلطات ببصماتهم الجينية... وبعدهم كلّ المشتبه بهم المحتملين في بريتاني وهكذا، ليصل العدد إلى ثلاثة آلاف وخمسمئة شخص. هل سيكون أيّ قاض قادراً على إعطاء الأوامر بذلك في منطقة النورماندي، بعد ثمانية أعوام على حادثة الفتاة الإنجليزية؟

كشف التشريح عن تفاصيل أخرى، تفصيلان اثنان بالتحديد، أكثر غرابة، لكنهما يؤكدّان ما ذهب إليه النقيب غريما في فرضيته.

سبحت مورغان أفريل عارية في مياه البحر قبل اغتصابها وقتلها. ولم تترك آثار اليود على الجثة أي مجال للشك بالنسبة إلى الأطباء الشرعيين. الظاهر أنها سبحت في مياه البحر ثم ارتدت فستانها مرة أخرى، ولم تتعرّض للاغتصاب إلّا بعد ذلك. توجهت أنظار النقيب غريما إلى ميناء فيكامب في أثناء قراءته لهذا التقرير. يشكِّل هذا العنصر قطعة إضافية في التصور الذي تخيله. رافق مورغان شخصاً مجهولاً أثارت غرائزه في الكازينو، ثم تضيف إلى ذلك سباحتهما عاريين في البحر، بعيداً عن أعين الفضوليين، قبل أن يتحوّل اللقاء إلى مأساة. ارتدت مورغان ملابسها مرة أخرى، وقرّرت البقاء هناك، قبَّلت المجهول الذي فقدَ تحكّمه في نفسه بعد ذلك.

كان التفصيل الثاني أكثر غرابة. لم يخنق المغتصب مورغان أفريل بيديه، بل بواسطة وشاح. كان التشريح دقيقاً للغاية، فقد

توصّل إلى أنّ خيوط الوشاح من نوعية الكشمير الأحمر، وبجودة عالية جداً، لم يجد الخبراء أدنى عناء في تحديد مصدرها، يتعلق الأمر بوشاح بربري، وهي العلامة التجارية الوحيدة التي تقدّم مثل هذه النوعية غالية الثمن.

أربعمئة وخمسة وعشرون أورو.

وشاح أحمر...

أطلق غريما صفيراً مذهولاً.

سيشتدّ الحصار المحيط بالمغتصِب بسرعة أكبر. لن يكون عدد شبان إيبور القادرين على الحصول على وشاح كهذا كبيراً جداً.

* * *

رفعت عيني.

قرأت مرة أخرى الصفحات المكتوبة بآلة كاتبة، ومعها المقالات الصحفية وتقارير الدرك الوطني وكلّ التفاصيل المتعلّقة بالتحقيق الذي أجراه النقيب غريما.

فتاة في التاسعة عشرة من عمرها، تمّ اغتصابها وخنقها ثم رميها من على قمة منحدر إيبور.

قبل عشر سنوات تقريباً، يونيو 2004.

بعد سباحتها عارية في مياه البحر.

تم خنقها باستخدام وشاح بربري من الكشمير الأحمر.

مادَت الأرض بي. كان حاسوبي فوق الطاولة، متصلاً بشبكة الإنترنت.

شعرتُ بنوع من الحمى وأنا أضغط على الأزرار مشكِّلاً كلمات وضعتها في محرك البحث.

مورغان أفريل. اغتصاب. إيبور.

استغرق بحث غوغل أقل من ثانية قبل أن يقذف بالجواب في وجهي: عشرات المقالات المهتمة بقضية مورغان أفريل. ألقيت نظرة خاطفة على الملخّصات، كان كلّ شيء مطابقاً لما وجدته في الصفحات التي قرأتها قبل قليل.

نهضتُ ملقياً نظرة على المنحدر من خلال نافذة الغرفة. تجمَّعت الخراف بالقرب من المعقل الدفاعي القديم كما لو أن شيئاً لم يحصل صباح هذا اليوم. كما لو أنّ كلّ ما جرى كان حلماً، وأنه حصل منذ عشر سنوات وليس بضع ساعات.

لقد جننت.

أمسكتُ بالظرف ممرِّراً أصبعي على الختم.

فيكامب

الخامسة مساء وثلاث وأربعون دقيقة

14-02-18

فرنسا

لقد تمّ إرسال هذا الظرف من فيكامب، بالأمس! شخص ما كان على علم بأنني سأقابل هذه الفتاة صباح اليوم بالقرب من المنحدر. شخص ما كان على علمٍ بأنّ هذه الفتاة ستلقى مصرعها بالطريقة نفسها التي توفيت بها فتاة أخرى قبل عشر سنوات، مع

استثناء واحد. . . لم تكن فتاة اليوم ميتة عندما ارتمت في الفراغ كمورغان أفريل، بل كانت حية، وفعلت ذلك بمحض إرادتها.

اللعنة، لا معنى لكلّ هذا.

مَن الذي توقع حصول مثل هذا الحادث؟ كيف؟ لماذا؟

ألقيت نظرة على السرير المرتب بعناية شديدة والوسائد المستندة بهدوء إلى ورق الحائط بلونه الأزرق السماوي.

لا، لم يكن ذلك حلماً! بل العكس، وأرقام المنبه الخضراء المضيئة تذكِّرني بذلك.

منتصف النهار وثلاث وخمسون دقيقة.

بالكاد أملك الوقت الكافي للّحاق بحافلة الواحدة والربع والوصول إلى موعدي مع بيروز في مكتب الدرك الوطني بفيكامب في الوقت المحدد.

7

تم خنقها باستخدام وشاح بربري من الكشمير الأحمر؟

مكتبة
t.me/t_pdf

تجاوزت ثلاث درجات أمام مدخل مخفر الدرك الوطني في فيكامب. وجدت في مكتب الاستقبال فتاة بعينين أكثر زرقة من ياقة القميص الذي ترتديه، وقد منحتني ابتسامة ذكّرتني بابتسامات مضيفات الطيران.

- عندي موعد مع الضابط بيروز.

كانت تملك صوتاً شبيهاً بصوت عروس البحر القادرة على جذب كلّ الشبان المتسكّعين إلى شباك مخفر الدرك الوطني.

- الباب الأخير على اليمين، لن تخطئ، فاسمه مكتوب على الباب.

تقدّمت فيما يشبه الدهليز المزدحم بخزانات حديدية ملأتها أكوام من الملفات وآلة ناسخة ضخمة، فيما غطّت الجدران منشورات عن الانضمام إلى الدرك بعنوان عريض «**الدرك الوطني، لِمَ لا تكون أنت؟**». تابعت المشي عبر الممر الطويل، فوجدت

عدداً من الدركيين بلباسهم الوظيفي مسمّرين أمام شاشات الحاسوب، فيما اصطفّت المقاعد قرب الأبواب.

كان أتاراكس جالساً على بُعد عشرين متراً أمامي. يرتدي السترة الجلدية المهترئة نفسها. جلستُ بالقرب منه فابتسم لي، وهو ما لم يفعله صباح اليوم.

- دنيز هنا، وأرنولد أيضاً... سيحين دوري أنا بعدها.

بادلته الابتسامة، قبل أن يلوذ كلانا بالصمت. حاولت تذكر اسمه الحقيقي، الاسم الذي عرّف به نفسه لدى رجال الأمن صباح اليوم، فنجحت في ذلك بعد دقائق طويلة. اسم لا علاقة له بشخص يبدو أنه ضحية من ضحايا المنظومة الحالية. لوميديف، كريستيان لوميديف.

انتظار لم تكُن تنقصه سوى طاولة قصيرة بها نسخ من مجلة **لوفيغارو وباري ماتش**. تردّدت في إلقاء نظرة على شبكة الإنترنت عبر هاتفي الآيفون. تملّكتني رغبة قوية في معرفة المزيد عن قضية مورغان أفريل. ما زلت أجهل هوية صاحب رسالة فندق لاسيرين، لكنني أعتقد بأنّ رجال الدرك قد عقدوا مقارنة بين قضية اليوم وهذه القضية القديمة، خاصة فيما يتعلق بالنقاط المشتركة بينهما.

لقد عاد القاتل ذو الوشاح الأحمر، بعد عشر سنوات من الغياب.

راقب أتاراكس عقارب ساعة يده بانزعاج. موظفون يتحرّكون عبر الممر بلا اكتراث، وعلى مرمى بصري، قريباً من موزع القهوة الآلي، انتبهت لوجود فتاة في مكان يسيطر عليه العنصر الرجالي بقوة. لم أكُن أرى سوى ظهرِها فيما انشغلت هي بدسّ قطعة نقدية تلفظها الآلة مرة بعد أخرى. كانت ترتدي سروال جينز ضيقاً منحها

جاذبية خاصة، فيما عقدت شعرها الأحمر على هيئة ذيل الحصان. أثار الأمر فضولي. مَن التي تواصل عقد شعرها على هيئة ذيل الحصان في يومنا هذا؟ انتظرت بنفاد صبر التفاتة تكشف بها عن ملامحها.

كانت مراهنتي خاطئة! انفتح باب مكتب بيروز وهي توليني ظهرها. خرجت دنيز وأرنولد محاصر بين ذراعيها. كان الشاهد الوحيد الذي غيَّر ملابسه بعد الواقعة، مرتدياً هذة المرة لباساً صوفياً أنيقاً يجمع بين اللونين الأزرق والأحمر بما يشبه ألوان الدرك الوطني.

رافقها بيروز ثم صافحها مودّعاً.

- سيد لوميديف، لقد حان دورك...

دلف أتاراكس ومعه بيروز إلى المكتب، فيما داعبت دنيز كلبها أرنولد كطفلٍ ضعيف خرج لتوّه من العيادة الطبية. كانت تحدجني بنظرات صافية.

- الوقت كله أمامك، قد يستغرق الأمر ربع ساعة على الأقل، يريدون معرفة كلّ شيء، حتى ما لم نره.

غابت يدا دنيز المليئتان بالتجاعيد في فرو الشي تزو، فيما ارتعشت ركبتاها، كما لو كانت محاصَرة برغبة ملحّة في البول.

أو رغبة ملحّة في التحدّث معي.

مالت نحوي بحركة بطيئة، مُلقية نظرات جانبية على رجال الدرك المتنقلين من مكتب إلى آخر.

- اعذرني يا بني، كنت مجبَرَة على إخبارهم بالحقيقة.

الحقيقة؟

أعتقد بأنّ الحيرة قد تركت أثرها العميق على ملامح وجهي.

- أي حقيقة؟

مالت نحوي أكثر فأكثر.

- تتذكر جيداً، صباح هذا اليوم، عندما أخبرت الشرطي بأننا رأينا الفتاة وهي تقفز، نحن الثلاثة. لقد ألحوا كثيراً فيما يخصّ هذه النقطة بالذات، فكنت مجبَرَة على توضيح كلامي.

حاولت إعادة ترتيب هندام كلبها أرنولد، منتظرَة مرور دركي أمامنا، ثم واصلت بصوت هامس.

- لم أرها وهي تقفز. رأيت سقوط الفتاة واصطدامها بالحصى على الشاطئ، هذا ما يمكنني الجزم به، وأعتقد بأن الشاهد الآخر يوافقني الرأي. لم أرها وهي تقفز! أضِفْ إلى أنّ موقعنا في الأسفل لم يكُن ليسمح لنا بمتابعة ما يجري في الأعلى، وقد تأكّد رجال الدرك من ذلك.

رمقتني بنظرات غريبة، كما لو كنت يهودياً قامت بالتبليغ عنه لقوات الجيستابو[1]، مع أسفٍ مصطنعٍ للإيحاء بكونها امرأة شجاعة لا تقوم سوى بواجبها.

- أنت تفهم يا بني، لم أكن لأقول شيئاً آخر.

اتخذت هيئة الطفل المطيع المنصاع، كما كانت تنتظر مني بالضبط.

- أتفهَّم وجهة نظرك يا سيدتي، لا داعي للقلق، لن يمضي التحقيق أبعد من ذلك، هذا... هذا انتحار.

اعتدلَت دنيز مواصلة تفرّسها في ملامحي بالنظرات المتشكِّكة

---

(1) الجيستابو: شرطة الدولة السرية في ألمانيا النازية، اشتهرت بعمليات الاغتيال والتدمير. -المترجم-

نفسها، كما لو كنت الشخص الأكثر سذاجة على وجه الأرض. قبل أن تضع أرنولد على الأرض وتمضي مبتعدة. تبعها الشي تزو الذي تشمّم كلّ الأبواب ككلبٍ بوليسي هاوٍ سعيد بزيارة مواقع المحترفين.

قمتُ بمدّ ساقي المتيبسة، وقد تلاطمت كلّ الأفكار كالأمواج داخل جمجمتي.

تمكّنت الفتاة ذات الشعر الأحمر من الوصول إلى مبتغاها من الموزّع الآلي، فاستدارت مبتسِمة. التقت نظراتنا لربع ثانية، دون أن تميل نظراتها هي إلى ركبتي. وكان ذلك نادراً جداً، يشبه عدم اكتراث فتى بصدر فتاة قابَلَها لأول مرة.

مرت أمامي، وهي تحمل كأسها الورقي، قبل أن تغيب في زاوية الممر. تبدو جذابة، بوجهها المليء بالنمش، كمارلين جوبير[1] أيام شبابها. حسناء أعتقد بأنها تدير رؤوس رجال الدرك هنا.

- سيد سلاوي؟

مضَت عشرون دقيقة على دخول أتاراكس إلى مكتب بيروز. لم نتبادل كلمة قبل دخولي إلى مكتب الضابط.

- اجلس، سيد سلاوي.

أطَعتُه، ثم انتبهتُ إلى وجود مجسّم ضخم لسفينة شراعية على مكتب بيروز. سفينة ثلاثية الشراع مثبتة على قاعدة من خشب الأكاجو.

---

(1) مارلين جوبير: ممثلة وكاتبة فرنسية من مواليد عام 1940. -المترجم-

قال الضابط بزهو:

- مجسَّم مطابق لسفينة **نجمة عيد الميلاد**! صنعت عام 1920، وكانت من بين آخر السفن التي غادرت فيكامب قبل الحرب العالمية الثانية، أيام جدي الأكبر! كما ترى، إنها قديمة جداً.

هل صنع بيروز هذا المجسَّم بنفسه؟

أبدو مرة أخرى كغبي أحمق. أتذكر عندما توصّلت بعلبة ميكانو هديةً في أعياد الميلاد، أرسلتها الشركة التي كانت تعمل والدتي في مطعمها. دراجة طولها خمسة عشر سنتيمتراً تتحرك على البساط إذا ما تمّ الإمساك بها بين أصبعي الإبهام والسبابة. ممتاز! كنت في الثانية عشرة من العمر فقط عندما أصبحت قادراً على إصلاح دراجة الياماها فيماكس التي يملكها لطيف ابن عمي.

- ثلاثمئة ساعة من العمل! أضاف بيروز. طلب مني متحف الصيادين مجسَّماً آخر. **الدلفين** آخر سفينة صيد في فيكامب. كلّ أبناء المدينة ذرفوا دموعهم حزناً على هذه السفينة، لكنهم مجبَرون على انتظار بلوغي سنّ التقاعد للانكباب على العمل على مجسّمها. سيصبرون، لأنني سأتقاعد بعد أقلّ من سنة، أليس كذلك؟

- أنت غير مهتم بمجسّماتي يا سلاوي؟ وتعتقد بأنّ الشرطي العجوز لا يصلح سوى لدعوات عشاء تافهة؟

لم أكلّف نفسي عناء الردّ على كلامه، مكتفياً بالانتظار. توقّعت بأنّ بيروز لا يرتجل هذا الحوار. ملفّات كثيرة تملأ مكتبه، ولم أتمكن من قراءة الاسم المدوَّن على الملف الأخضر في الأعلى.

فجأة استطالت خطوط جبهته العريضة.

- لا يتعلق الأمر بحادثة انتحار، سيد سلاوي.

تلقيت المعلومة كصفعة على وجهي.

كان بيروز قادراً على ضبط الإيقاع، فقد أكملَ بسرعة من دون أن يسمح لي بالتقاط أنفاسي.

- لقد تمكّنا من التعرّف على هُوية الضحية.

فتح الملف الأخضر ثم سلّمني نُسخة مصوّرة من بطاقة تعريف.

- خُذْ يا سلاوي، ففي نهاية المطاف لا يتعلّق الأمر بمعلومات سرية.

ركزت بصري على النسخة التي تضمّ وجهَي بطاقة التعريف.

ماغالي فيرون
ولِدَت يوم 21 يناير 1995
في شارلزبورغ، كيبيك
متر و73 سنتيمتراً
علامة خاصة: لا يوجد

قرأت المعلومات المدوّنة، ثم قلت:

- معذرة، سيادة الضابط، لم أسمع باسم هذه الفتاة من قبل.

بدا أنّ بيروز قد استخفّ بجوابي مواصِلاً قراءة محتوى الملف.

- كانت زائرة طبية، مسؤولة عن منطقة دو هافر في شركة كبرى للأدوية. قابلت بالأمس عدداً من الأطباء العاملين في فيكامب وكريكتوت-ليسنيفال. وبالعودة إلى برنامج عملها، كان عليها مقابلة عدد آخر من الأطباء. نرجّح اضطرارها لقضاء الليلة في إيبور أو بالقرب منها، ولكن لا وجود لأثرٍ لها في سجلات الفنادق القريبة.

تصفّح بيروز الملفّ ثم رفعَ بصَرَه ناحيتي، كما لو كان يتأكَّد من كَوني تلميذاً مُطيعاً.

- من جهة أخرى، يمكن القول بأنّ تسلسل الأحداث منذ صباح اليوم واضح جداً. سبحت ماغالي فيرون في مياه البحر حوالي الخامسة صباحاً، ثم تعرَّضت للاغتصاب قبل السادسة. تقرير الطب الشرعي لا يقبل مجالاً للشك. تمَّ العثور على آثار للمني في رحمها، وآثار جروح، كما أنّ فستانها كان ممزّقاً. لكننا لم نعثر بعد على تبانها، الملائم غالباً لحمالات صدرها أرجوانية اللون. لا أثر لحقيبة يدها أيضاً.

اصطدمت كل كلمة قالها بيروز برأسي.

طبيعي أن يقارن بينها وبين ما وقع في جريمة قتل واغتصاب مورغان أفريل قبل عشر سنوات. كلّ التفاصيل متطابقة. الاغتصاب، مكان وزمان الجريمة، سنّ الضحية، السباحة، التبان المختفي.

باستثناء طريقة الوفاة...

تنحنحت في محاولةٍ مني للتدخل والحديث عن قضية مورغان أفريل، لكن الضابط بيروز أشارَ بيده كعلامة على أنه لم يكمِل كلامه بعد.

- تمّ خنق ماغالي فيرون بعد اغتصابها. (صمت طويلاً) وباستخدام الوشاح الذي وجدناه حول عنقها، هل تذكر ذلك؟ وشاح من الكشمير الأحمر، قماش اسكتلندي، بحسب علمي، ماركة بربري، باهظ الثمن، سأخبرك بثمنه الحقيقي يا سلاوي، ولن تصدّق أذنيك!

8

لن تصدّق أذنيك؟

بلَّل النقيب بيروز أصبعه بلسانه، ثم مرّره على مجسَّم سفينة **نجمة عيد الميلاد** لإزالة أثر غير مرئي.

لم أطلب منه ترديد ما قاله.

لم أسأله إن كان متأكّداً ممّا قاله الأطباء الشرعيون، إنْ كانوا قادرين فعلاً على تأكيد وفاة ماغالي فيرون خنقاً باستعمال الوشاح الأحمر، قبل سقوطها من المنحدر.

لم أقُل أيّ كلمة قد توقظ حسّه الحَذِر، واكتفيتُ بالصمت وأنا أستعيد أمام ناظري تسلسل الأحداث منذ صباح هذا اليوم. الوشاح البربري المثبت على السياج الشائك في الممرّ المخصَّص للمشي، يدي المتردِّدة قبل الإمساك به، اليد نفسها التي رمت الوشاح نحو ماغالي التي أمسكت به وجذبته نحوها بقوة، ماغالي نفسها التي استقرّت بعد أربع ثوان في الأسفل، من على علوّ يقارب المئة وعشرين متراً، جثة هامدة.

حدثه عن هذه التفاصيل!

هتف صوت قويّ داخل جمجمتي.

حدّثه عن الوشاح! أطلعه على كلّ ما جرى. بصمات المغتصب موجودة على قطعة القماش، الشيء نفسه بالنسبة إلى بصماتك. وسيتمكّن الخبراء من اكتشافها بسهولة...

- سيادة النقيب بيروز...

ابتلعتُ ريقي.

ماذا سأقول؟

بأنّ ماغالي قامت بلف الوشاح حول عنقها في أثناء ارتمائها؟ أن أعترف بأنني آخر مَن لمَسَ قطعة الثوب هذه؟ سيدينني ذلك بلا شك، بجريمتَي الاغتصاب والقتل، وهو ما سيفتح عليّ باب مشاكل لا حصرَ لها.

- نعم، سيد سلاوي؟

كانت جبهته مسطحة. وبدا أنه ينتظر ردّة فعلي ببرودة أعصاب واضحة.

- أنا...

تردَّدتُ كثيراً. لا مجال للمخاطرة، كثيرة هي المعطيات التي تدينني وتُجبِرني على التزام الصمت. لقد تحدّث بيروز عن آثار المني والكدمات على جلد ماغالي فيرون، سيتمكّن المحقّقون من تحديد البصمة الجينية للمغتصِب بعد أقل من أسبوع، هي بلا شك بصمة قاتل مورغان أفريل نفسها قبل عشر سنوات، ستتمّ تبرئتي عندئذٍ، وهو ما سيسمَح لي برواية تفاصيل ما جرى من منظوري الشخصي.

فجأة اتخذتُ قراري بالهجوم في محاولة لتحويلِ الأنظار عنّي.

- سأطرح عليك سؤالاً يا سيادة النقيب. ألا ترى معي بأنّ هذه

القصة تطابق بغرابة ما جرى في قضية مورغان أفريل بإيبور، شهر يونيو 2004، ألا يذكّرك هذا بشيء ما؟

تلقى بيروز الضربة، لا أعتقد بأنه توقّع أن تكون بهذه السرعة، لكنه شنّ هجومه المضاد.

- هل تذكر هذه القضية، سيد سلاوي؟

ارتجلت، فلا مجال في الوقت الحالي للحديث عن الرسالة التي توصَّلتُ بها.

- مرَّت عشر سنوات وما زال سكان إيبور يتحدّثون عنها! من الصعب تجاهل هذا الكمّ من المصادفات يا سيادة النقيب، أليس كذلك؟ الاغتصاب، السباحة، الفستان الأحمر الممزّق...

لُذتُ بالصمت، وقد تردَّدتُ في مواصلة التعداد.

- وشاح الكشمير الأحمر، أضاف بيروز. السلاح نفسه المستخدَم في الجريمتين... (التقَت نظراتنا طويلاً) طبيعي أن نربط بين الجريمتين يا سيد سلاوي، ونحن نبذل قصارى جهدنا، يمكنك أن تثقَ بنا... ولكن عشر سنوات مرَّت على هذه القصة كما تعلم... ما يعني تركيزنا بالدرجة الأولى على مقتل ماغالي فيرون.

تصفَّح بيروز الملف، كما لو كان يمنحني الوقت الكافي للتفكير، فتابعتُ كلامي بأقصى سرعة ممكنة.

- كانت ماغالي على قيد الحياة عندما قابلتها في منحدر إيبور. ربما تسبَّب قدومي في إزعاج المغتصب الذي لم يجد الوقت الكافي لخَنقها. أو أنه لم يكمِل عمله كما يجب...

حدَجَني النقيب بنظرات طويلة، وقد شكَّلت تجاعيد جبهته ما يشبه حرف V أو السهم الموجّه نحو تفاصيل الخبرة الطبية التي يتضمَّنها الملف.

- لا يتّفق الأطباء الشرعيون مع هذا التفسير يا سيد سلاوي. فهم يعتقدون بأنّ ماغالي قُتلَت خنقاً، قبل أن يتمّ رميها نحو الأسفل...

ظهر على شفتي بيروز شبحُ ابتسامة، قبل أن يكمل:

- لكنني لا أخفي عنك بأنّ بعض الشك موجود، يتعلق الأمر بدقائق معدودة فقط، سنتحدث عن كلّ هذه التفاصيل فيما بعد، في انتظار وصول التقارير النهائية. أنا بحاجة إلى وصفكَ الدقيق لماغالي فيرون، كما رأيتها صباح اليوم.

قام النقيب بتدوين كلّ التفاصيل، المكان، وتمزّقات الفستان، والكلمات القليلة التي تفوّهت بها ماغالي.

لا تقترب.

لا تتحرك، وإلّا قفزت...

لن تفهم. تابِعْ طريقكَ.

ارحَلْ! ارحَلْ بسرعة.

نظرة ماغالي أيضاً، وحركاتها.

دوَّن بيروز كلّ شيء، وقد استغرق ذلك عشر دقائق كاملة.

- جيد، جيد جداً، سيد سلاوي.

مال إلى الأمام، ثم حرَّك بسبابته مديرَ الدفة في مجسَّم سفينة نجمة عيد الميلاد الذي لا يتعدّى طوله خمسة ميلمترات.

- أمّا الآن، فسنتحدث عنك قليلاً، لو سمحت.

قالها ثم أخرَجَ ورقة من الملف الأخضر، لم أجد صعوبة في التعرّف على الشعار.

مؤسسة سانت-أنطوان.

اللعنة!

يحاول بيروز حَشري في الزاوية.

- أنت تعمل في ملجأ يا سلاوي، أليس كذلك؟

- لا يا سيادة النقيب! هذه مؤسسة علاجية وتربوية. لا نستقبل أطفالاً مجانين، بل بعض الأطفال الذين يعانون من اضطرابات سلوكية.

- هل أنتَ عضو في الفريق التربوي؟

- لا يا سيادة النقيب.

- معالج؟

- لا، أنا مكلَّف بالصيانة، السيارات، مقابض الأبواب، أنابيب المياه، وكلّ هذه الأمور. مبنى بمساحة ثمانمئة متر مربع، حديقة تبلغ مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة المبنى، وست سيارات ستروين جومبر.

رفع النقيب قلمه، مستخفّاً بكلّ هذه التفاصيل.

- أنت في مؤسسة سانت-أنطوان منذ فترة طويلة؟

«أنت في مؤسسة سانت-أنطوان منذ فترة طويلة» وليس «أنت تعمل في مؤسسة سانت-أنطوان منذ فترة طويلة». لقد فهمتُ المغزى من تلميحه، ولم أعُد قادراً على مواصلة لعبة الغميضة هذه. ضربتُ بلاط الأرضية بساقي الاصطناعية في تعبيرٍ واضحٍ عن العصبية.

- سأضع النقط على الحروف يا سيادة النقيب. أنا لم أقضِ سنوات طفولتي في المؤسسة. لستُ طفلاً متخلّى عنه قرَّروا الإبقاء عليه في المؤسسة بعد بلوغه الثامنة عشرة من عمره، أنا أحمل شهادة

في شعبة صيانة المباني الاجتماعية، وحصلتُ على هذه الوظيفة منذ ستة أعوام.

أطلقَ بيروز زفرة أزال بها غباراً وهمياً، ثم ألقى نظرة سريعة على شراع سفينته الصغيرة، قبل أن يعود إلى ملفه.

- ممتاز، تمَّ توظيفك في دفعة 2008، لقد زوّدني مشغلوكَ بكلّ التفاصيل الممكنة.

يتعمَّد هذا الأحمق إثارة أعصابي، لقد فهمتُ طريقة تحليله لشخصيتي، من خلال تركيزه على تفاصيل معيَّنة خُيِّل إليّ أنه يسطِّر عليها بقلمٍ جاف.

جمال سلاوي.

عربي، معوّق، يعمل في مستشفى المجانين. . .

نموذج مناسب لأيّ متّهم بجريمة اغتصاب.

أعتقد بأن لائحة الآلهة الشريرة والأساتذة الساديين ورؤساء العمل الفاشيين تستحق أن يُضاف إليها صنف رجال الشرطة الرجعيين. . .

أضاف بيروز:

- لم نملك الوقت الكافي منذ صباح اليوم يا سيد سلاوي، لكننا نجحنا رغم ذلك في الاتصال برئيسك المباشر في العمل، السيد جيروم بينيللي.

- إنه في عطلة!

كانت تلك أوّل مرة تتّسع فيها ابتسامة بيروز، لتظهر أسنانه الصفراء.

- اتصلت به في كورشفيل. كان في لاتانيا، متجهاً إلى طريق جوكاي. وقد أكّد لي ذلك.

ما الذي أكَّده ذلك الحقير؟

حان دوري لأواجهه بنظرات نارية.

- هويتك يا سيد سلاوي، وظيفتك في مؤسسة سانت-أنطوان. الإيجابي هنا هو خلوّ ملفك من سوابق قضائية، لا يمكنك العمل في مؤسسة متخصّصة بالعناية بالأطفال مع وجود سوابق جنائية. ولكن. . .

تملَّكتني رغبة قوية في تشتيت نماذج الأقزام فوق سفينة **نجمة عيد الميلاد**.

- ولكن ماذا؟

- تحدّث جيروم بينيللي عن بعض الشكوك.

ما الذي ادّعاه ذلك الحقير؟

- شكوك؟

- حدَّثَني عن أوفيلي بارودي، مراهقة في الخامسة عشرة، نزيلة في المؤسسة منذ ثمانية عشر شهراً.

ابن العاهرة! يورِّطني هكذا في الوقت الذي يستمتع فيه هو بممارسة رياضة التزلج، مرتدياً نظارات شمسية مثبّتة على وجهه القذر.

تابع بيروز كلامه، أعتقد بأنه لم يجد صعوبة في التفاهم مع بينيللي.

- قال بأنّ الأطباء هناك يؤكّدون بأنك قريب منها أكثر من اللازم، وقد تمّ تحذيركَ عدّة مرات. . .

تشتيت نماذج الأقزام لا يكفي، أعتقد بأنني مُطالَب بتحطيم هذه السفينة بالكامل، فقط لأستمتع بانفجار رأس بيروز من شدّة الغيظ.

حافظت على برودة أعصابي. ربما كانت ملامح أوفيلي الهادئة سبباً في ذلك.

- أنت مطالَبٌ بالبحث عن مصادرَ أخرى يا سيادة النقيب. الرئيس المباشر في العمل ليس الشخص المناسب للحديث عن موظّفيه. يوجد عدد من الزملاء الذين سيقدِّمون لك وجهة نظر مغايِرَة لما يراه جيروم بينيللي. ولكن... لا أفهم طبيعة العلاقة بين عملي في المؤسسة وموت ماغالي فيرون. لنكن أكثر وضوحاً يا سيادة النقيب. هل أنا متهم؟ بماذا؟ بدفعي للفتاة؟ باغتصابها؟

مرَّرَ بيروز أصابعه على شعره بحركة بطيئة. لقد انتظر الحقير ردّة فعل كهذه. استغرق منه إغلاق الملف الأخضر وقتاً طويلاً.

- مهلاً، مهلاً، سيد سلاوي. أنت -حتى الآن- مجرّد شاهد أساسي، أو بعبارة أخرى أقلّ تعقيداً، الوحيد الذي تابع سقوط ماغالي فيرون بمَحض إرادتها، الوحيد الذي يعتبر بأنّ ما جرى حادثة انتحار، وهو ما يتعارض تماماً مع ما قاله خبراء الطبّ الشرعي...

- «حتى الآن»؟

- كن أكثَر وضوحاً يا سيد سلاوي. استناداً إلى كلّ المعطيات التي أملكها بين يدي، سيكون الخيار الأكثر عقلانية بالنسبة إلى أيّ محقّق هو وضعك تحت الحراسة النظرية.

استندت إلى مقعدي خائر القوى، مصدوماً.

- أنت تركض بسرعة كبيرة يا سيد سلاوي، وإن بساقٍ واحدة، تمَّ إدراج هذه المعلومة في ملفّك. ماذا لو سمحتُ لك بالذهاب وكنتَ أنتَ المغتصب؟

لقد شعر بأنه يمسك زمام المبادرة، ولم يكن ليفوت تلك الفرصة.

- قبل اتهامي بمضايقتك والتحرّش بك يا سيد سلاوي، أنتَ مُطالَب بتقييم الوضع. وضعك أنت! سأجازف بإخلاء سبيلك والانتظار لبضع ساعات قد تكون كافية لمقارنة بعض البصمات الجينية. أراك غداً في تمام الساعة الثانية بعد الزوال، هنا في هذا المكتب.

نهض بحركة واحدة، ممسِكاً بالملف الأخضر، ثم دار حول مكتبه ليقف خلفي.

- ما الذي جرى لك يا سيد سلاوي؟

- كيف؟

- أتحدث عن ساقِكَ المعطوبة.

لم أكن مرتاحاً للطريقة التي يراقبني بها.

أثار انتباهي وجود ورقة بيضاء على المكتب، فوق كومة الملفات، تتضمن جدولاً يتألف من أربع خانات تضم بدورها ثمانية أرقام.

2/2	3/0
0/3	1/1

مسألة رياضية معقّدة؟ أم أن بيروز يتسلى بلعبة السودوكو منتظراً مرور الأشهر الأخيرة قبل بلوغه سنّ التقاعد؟

- لم تُجِبْني يا سيد سلاوي.

كدت ألوي عنقي وأنا أجيبه.

- رصاصة يا سيادة النقيب، أطلقَ عليّ رجل الشرطة النار بعد عملية سطو على وكالة بنكية في شارع سوفلو في الدائرة الخامسة. كانت سرعتي كبيرة أيضاً في تلك الفترة، لكنها لم تكُن كافية،

حافظتُ على نظافة ملفي الجنائي لأنهم لم يتعرَّفوا عليّ. كنت أضع قناع بيتي بوب...

- هل تسخر مني أم ماذا؟

- لا، أحاول التهوين من آثار ما جرى.

هزّ بيروز كتفيه، ثم تقدَّم نحو درجٍ قريب ليفتحه بحركة سريعة.

- خُذْ، على ذكر بيتي بوب...

وضع مجلة **بلايبوي** قديمة بين يدي.

- اذهَبْ إلى الغرفة المجاورة واملأ أنبوب الاختبار هذا...

- بالمنيّ؟

- نعم، ليس بكريمة الشانتيي!

بدا طلب بيروز أقرب إلى السريالية.

- هذا هو الإجراء المعتاد؟

- ماذا تريد يا سلاوي؟ أن أساعدك على ملأ الأنبوب؟

- وماذا لو رَفضت؟

أطلق النقيب زفرة قوية.

- أيّ مصلحة تلك التي ستجنيها برفضك يا سلاوي، إن لم يكُن منيّك هو الذي عثرنا على آثاره في مهبل ماغالي فيرون؟ ستمدّ يدك أيضاً، لأنني سأحصل على قطعة من ظفرك وخصلة من شعرك.

قمت بلف المجلة بيدي. كان محقاً. لن ألوم نفسي على القيام بأيّ شيء. ستصبح الأمور أكثر بساطة، بخاصة بعد مقارنة بصمتي الجينية ببصمة المغتصب. سأكون في وضعٍ مناسب عندئذٍ لإذلال بيروز وبينيللي وكلّ مَن شكّ في أمري...

هذا ما ظننته على الأقل.
كيف لي أن أفكِّر وقتها في العكس؟
المني، خصلة الشعر، الأظافر...
لم ألمس هذه الفتاة، ولم أقترب منها أصلاً.
تذكرت بعد ذلك نظرة دنيز. تلك النظرة التي قرأت فيها الفزع بسبب سذاجتي...
كانت محقّة.

أنا ساذج...

لا يكفيك أن تكون بريئاً أو متأكّداً من عدم إقدامك على أيّ فعلٍ شرير، ولا يحاصرك أيّ إحساس بأنك قد ارتكبت ذنباً يستحقّ العقاب.

لا دخان بلا نار، لا أهمية للأدلة، لا أهمية للحقيقة، ما دام الشك حاضراً.
رغم كلّ شيء.

رغماً عنكم؟

الواقع يقول، بعد تفكير عميق، بأنّ تصديق ما يقوله رجال الشرطة والخبراء أسهل بكثير من تصديق ما يقوله عربي معوّق يعمل في مستشفى للمجانين، أليس كذلك؟

9

لا دخان بلا نار؟

- لا تقبل قطع الخمس سنتيمات. . . وتبتلع قطع العشرين سنتيماً، لقد تأكّدت من الأمر. لا تقبل سوى قطع اليورو الواحد، ولا تُعيد الفكّة.

تجاهلت الموزع الآلي والتفت نحو صاحبة الصوت الأنثوي الواقفة خلف ظهري.

- رجال الشرطة والدرك، كلهم محتالون! أضافت.

كانت الفتاة نفسها ذات الشعر الأحمر. مارلين جوبير في شبابها. ارتسمت على وجهها الطفولي ابتسامة عذبة. عينان سوداوان متوهّجتان، أنف صغير أفطس، شفتان وردتيان تنفتحان بالكاد على أسنان بيضاء كالحليب؛ لم تكُن تنقصها سوى شوارب رقيقة من النايلون تبرز النمش الذي يغطي وجنتيها.

بادلتها الابتسامة.

- أؤيد كلامك بشدّة.

اتبعت نصيحتها، فأدخلت قطعة يورو واحد وطلبت قهوة بلا

سكر. نفَّذَ الموزع الآلي طلبي، فضربت طرف كأسي الورقي بكأس الفتاة.

- لقد اعتصروني لخمس وأربعين دقيقة كاملة! وأنت؟

- أنهيت مصلحتي... ما يتعلق بهذا اليوم على الأقل... أعتقد بأنني سأكون في حاجة إلى بطاقة اشتراك...

لعقت محتوى كأسها بلسان وردي صغير، على طريقة القوارض. وجدت المشهد جذاباً، وقد ذكرني بتقويمات مصلحة البريد التي تعودت أمي على تعليقها في المطبخ، وتتضمّن صوراً لقططٍ تشرب الحليب، أو فتيات صغيرات جالسات بالقرب من بيانو. أول الصور التي احتلت مكانة خاصة جداً في قلبي.

تأمّلتني الفتاة بفضول.

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

تردّدت لثانية، أو أكثر بقليل.

- أنا هنا شاهد. ارتمت فتاة من أعلى المنحدر، كنت هناك، قبل قفزها، لكنني عجزت عن القيام بشيء ملموس لإنقاذها.

ضاقت عيناها وهي تعضّ شفتها السفلية.

- نهاية حزينة بالفعل. لم... لم يُعرف سبب قيامها بذلك؟

- توجد بعض الشكوك، فبحسب التحقيقات الأولية، تعرضت الفتاة للاغتصاب قبل إقدامها على الانتحار، وربما حاول أحدهم خنقها أيضاً.

- يا إلهي...

وضعت الفأرة الصغيرة يدها أمام فمها للتعبير عن ذُعرِها، قبل أن تتمالك نفسها بسرعة. يبدو أنها تهوى القيام بهذا الدور.

- لم تغتَصِبْها، أليس كذلك؟

ضربة مباشرة! أحببتُ سرعة بديهتها المطابقة لما أتقاسمه أنا مع إيبو. مزيج من الخبث والسخرية السوداء.

- لا، لا أظن ذلك. لكننا سنعرف الحقيقة قريباً، لقد سلمتهم عينة من حيواناتي المنوية...

صمتت للحظات مفكرة، كما لو أنها تتخيّل المشهد، قبل أن تلقي نظرة على ساقي من دون أدنى اهتمام بإعاقتي.

أرفع لكِ القبعة، سيدتي! كنت أعتقد بأنّ إعاقتي هي التي جذبتها إليّ. قد تكون من نوعية الفتيات اللواتي يجذبهنّ كلّ ما هو مختلف عن السائد.

ثبّتت ناظريها أمام عيني.

- خبر جيد إذاً! إن كنتَ أنتَ المغتصِب، فلن أخشى شيئاً وأنا برفقتك، لبضع دقائق على الأقل، فالأسد متخَم الآن!

ألقيتُ نظرة على ساعتي.

- لا تسخري من قدراتي... اعتداء جنسي في قلب مخفر الدرك الوطني، سيبدو الأمر مختلفاً وجذاباً، أليس كذلك؟

أطلقت ضحكة قصيرة، لكن الفأرة أحجَمَت عن مجاراتي، وقد انشغلت شفتاها بملامسة طرف الكأس، فواصلتُ كلامي خشية انساحبها واختبائها في جُحر ما.

- وأنت؟

- وأنا؟

- أيّ سببٍ لعينٍ هذا الذي دفَعَ رجال الدرك إلى إجبارك على الانتظار لما يفوق خمساً وأربعين دقيقة؟

ردَّت على سؤالي بإخراج ورقة مطويّة من الجيب الخلفي لسروالها.

- أنتظر ختماً رسمياً. تصريح يسمح لي بجَمع عيّنات من الحصى في شاطئ إيبور.

- نعم؟

ضحكت.

- حان دوري لأفاجئك!

مدّت يدها نحوي.

- مونا ساليناس. قد لا يوحي مظهري بذلك، لكنني فتاة جدية ومشاكسة. أشتغل على دكتوراه في الكيمياء التجريبية. أستفيد من منحة تموّلها مجموعة **بانشي كمبيوتر تكنولوجي**، وهي شركة دولية هندية-أميركية متخصِّصة في المكوّنات الإلكترونية المعلوماتية...

- ما علاقة ذلك بالحصى؟

اعتصَرَت الكأس بأصابعها، وقد بدا لي أنها عصبية بعض الشيء، ربما بسبب موضوع الاغتصاب.

حدَجَتني بنظرة ثاقبة.

- ابحَثْ عنها بنفسك...

العلاقة بين الإعلاميات والحصى؟ لا أملك أدنى فكرة!

تظاهرتُ رغم ذلك بالتفكير. الغريب أنني أحبّ كثيراً نموذج الفتيات اللواتي أكملنَ دراستهن، الأولى في دفعتها، الكادحة المجدَّة، معظم أصدقائي في لاكورنوف يهربون من هذا الصنف... أمّا أنا فلا. بالعكس، لاحظتُ بعد تقرّبي منهن أنهن الأكثر ظرفاً وتواضعاً، بخاصة نموذج المشتغلات على دكتوراه في الكيمياء التجريبية، ممَّن لم أكلِّم مثلهن من قبل.

بدَت صَبورة أمام جَهلي.

- استسلمت؟

أومَأتُ برأسي في تعبير واضح عن الأسف.

- حسناً! سأكون مختصرة قدر الإمكان وأقول بأن السيليسيوم عنصر مهم جداً في مجال الإعلاميات، يساعد على عملية التوصيل الكهربائي. هل سمعت يوماً بوادي السيليكون في الولايات المتحدة الأميركية؟ اسم السيليكون مشتقّ من السيليسيوم، لا من النهود الجيلاتينية لسيدات كاليفورنيا.

ضربة أخرى! غالباً بعدما ألقيت نظرة خاطفة لا تتجاوز مدّتها ربع ثانية على زر قميصها المفتوح بما يكشف عن بشرة نضرة يغطيها النمش.

مزيج من الحليب والعسل.

استعدتُ توازني بما يشبه المعجزة، فتابعتُ الحوار معلِّقاً.

- قد أبدو غبياً، لكنني لم أفهم علاقة كلّ هذا بحصى الشاطئ.

كانت مستمتعَة بما أظهَرْته من اضطراب.

- كن صبوراً، أنا قادمة. السيليس، لو كنتَ تعلم، لا يوجد في حالته الطبيعية إلّا على شكلٍ متماسكٍ مضغوط. الحصى! ومن المعروف أنّ حصى شواطئ بحر المانش يحتوي على أعلى نِسَب السيليس في العالم.

- صحيح؟

- هذا مثبت علمياً. يمكن القول إنّ العاصمة العالمية للحصى توجد في كايو سور مير، في بيكاردي... لكن النورمانديين يصرّون على أنّ حصى شواطئهم أكثر نقاء... أكبر احتياطي من الحصى على وجه الأرض، من ناحية الجودة والكمّ.

استحضرَت ذاكرتي صور الحصى المتناثر على الشاطئ، الذي

تتقاذفه الأمواج بلا أدنى اكتراث من المارة. طبيعي أن أجد صعوبة في تخيّل احتوائه على كنز تكنولوجي ثمين جداً.

- وأنتِ بحاجة إلى تصريح من المصالح الأمنية لجمع عينات من الحصى؟

- نعم! منذ أزيد من قرن تمّ استخدام آلاف الأطنان من الحصى الأملس لبناء الطرق والمنازل والكنائس، لكن الخبراء انتبهوا لدور الحصى في حماية المنحدرات وكلّ ما تمّ بناؤه فوقها، فتوقّف استخدامه وأصبح جمعه ممنوعاً بشكلٍ قانوني، إلّا إذا تعلّق الأمر بتصريح خاص.

- كشركة دولية هندية أميركية قادرة على الاستثمار في المنطقة.

- تماماً. أنا لا أجمع إلّا بعض مئات من الحصى الملساء. ولأعطيك فكرة، سأقول بأنّ على السيليسيوم المستخدم في الإلكترونيات أن يبلغ درجة نقاء تعادل 99,9999999 في المئة. (كرّر فمها رقم 9 كما لو كان يبثّ فقاعات صغيرة من الصابون) هذا هو المعيار الحالي، لكن شركتي تريد المزيد من النقاء! تسعتان أو ثلاث تسعات إضافية. هذا هو عملي، أن أثبت إن كان حصى فيكامب وإيبور وإتروتا قادراً على بلوغ هذه النسبة من النقاء أم لا.

- ومعك كلّ تلك الأدوات التي يستخدمها خبراء الكيمياء؟

- نعم! مطرقة، كماشات، أنابيب اختبار، مجهر، ومحمول مليء ببرامج معقدة...

كنت أرغب في البقاء معها، وإن لم أكن قادراً على فَهْمِ شَرحها كله، حتى لو كان كلامها عن السيليس وأرقام تسعة بعد الفاصلة مجرّد هراء أو كذب، لكنني أحببت ذلك! من الرائع معرفة أنّ شيئاً تافهاً كالحصى الملساء يحتوى على كنزٍ ثمين كهذا.

أفرغنا محتوى الكأسين بصمت. بوصول حوارنا إلى هذا المستوى، وإن كانت تملك رغبة حقيقية في المحافظة على الشعلة المتولِّدَة بيننا، فما عليها سوى أن تسألني عن اسمي وسبب وجودي في إيبور. وكنت مستعداً للإجابة وربما لإخبارها بعزمي المشاركة في سباق الجبل الأبيض وكلّ التفاصيل المتعلِّقة بإنجازي المستقبلي الذي لن يسبقني إليه أحد في المجال الرياضي المرتبط بذوي الاحتياجات الخاصة.

طالَ صمتنا.

رميتُ الكأس في سلة المهملات، على طريقة لاعبي كرة السلة.

أصبتُ الهدف.

قلَّدتني.

تعادل.

فهمت بأنّ مونا لن تتقدَّم خطوة إضافية.

- تشرَّفت بمعرفتك يا مونا. هل أقول إلى اللقاء؟ ربما ستكونين هنا يوم غد، منتظرة الختم على تصريحك، في الوقت الذي سأعود فيه إلى هنا والأغلال تحيط بمعصمي...

وضعَت يدها على كتفي ثم اقتربَت مني لتهمس في أذني:

- يُخبِرني حَدسي بأننا سنلتقي قبل يوم غد.

تلذَّذتُ بضغط راحة يدها على كتفي. لم أجِبْها. يبدو أنّ هذه الفتاة تهوى طرح الألغاز التي لا أملك مفاتيح حلها.

- حدسي قوي جداً، ويُخبرني أيضاً بأنك تنزل في فندق لاسيرين. الغرفة رقم 7.

هذا كثير جداً. هذه الفتاة ساحرة متنكرة على هيئة فأرة صغيرة

تتجسَّس عليّ. لا يقل فضولها عن فضول رجال الدرك. إن كانت هي الفأرة، فبيروز هو القط.

- كيف عرفت؟

مالت نحوي أكثر. فبدا أثر أظافرها المصبوغة باللون البرتقالي شبيهاً بأثر أقدام هامستر يمشي على كتفي.

- حدسي! طبيعي جداً أن تتعلّم الغزالات الضعيفة مثلي سُبل العيش لمواجهة مفترسين من نوعيتك.

تراجَعَت فجأة وهي تلقي نظرة على ساعة يدها.

- ثلاث عشرة دقيقة! أنا مضطرّة لتوديعك. قد يستيقظ الأسد بعد لحظات، لم أعُد في أمان وأنا برفقتكَ.

- لن ألتهمكِ هنا، داخل مخفر الدرك الوطني.

- هنا، لا. لكن فيما بعد؟

فيما بعد؟

ما زالت مونا محتفظة برغبتها في عدم فكّ شفرتها. تقدَّمت بثلاث خطوات في الممرّ، ثم اقترَبَت من أحد المكاتب.

- آسفة لتوديعك، لكنني أبحث عن توقيعٍ لهذه الوثيقة اللعينة!

- حظاً موفّقاً إذاً.

تقدمت في الممرّ لمغادرة المخفر، فاستدارت نحوي قبل دخولها إلى أحد المكاتب وقالت بلهجتها الغامضة:

- نلتقي مساء اليوم! أتمنى أن تكون في الموعد.

10

نلتقي مساء اليوم؟

أوصلتني الحافلة إلى إيبور، ساحة جان-بول-لورينز، قبل مواصلتها الطريق نحو لوهافر. ما يقارب الخمس عشرة دقيقة فقط، لكن بعد انتظار طويل دام خمساً وأربعين دقيقة في فيكامب. شعرت بما يشبه الارتياح. فمنيّ المغتصب وبصماته وكلّ تلك المصادفات المرتبطة بجريمة قتل مورغان أفريل قبل عشر سنوات، كلّها تؤكد (أو قد تؤكد!) بأنْ لا علاقة تربطني بكلّ ما يجري.

تجنَّبتُ التفكير في بعض الزوايا المظلمة. . .

سيصلها النور مع مرور الوقت، مع المدّ البحري، كشمس الغسق التي أقف أمامها، واخترقت أشعتها الأخيرة السحب كقوس قزح. إنها أضواء الانطباعيين الشهيرة! وأنا ملزَم بمعرفتها وإن لم يسبِقْ لي الدخول إلى متحف، ولكن إيبور تستحقّ أن يزورها المرء فقط من أجل التمتّع بهذه المناظر!

توجَّهت نحو شاطئ البحر. تذكَّرت مونا أيضاً، بعدما رافقتني ملامح وجهها طوال الطريق، وقد انطبعت على شمس الغروب. . .

هي لا تملك حُسْنَ ماغالي فيرون التراجيدي، ولا جمالها اليائس الشبيه بنصل سيف يخترق قلبك. لا، مونا أشبه ما تكون بصديقة من جنس مغاير تتمنى لو تشاطرها علبة جعة، وربما السرير أيضاً ببساطة مشاطرة الجعة نفسها. وقد يكون هذا هو التعريف الأمثل للحبّ.

بحسب معرفتي على الأقل.

مررت أمام واحدة من مجازر إيبور، فانتبهت إلى أنّ صاحبة المحل تحدجني بنظرات غريبة وهي مختبئة خلف زجاج الواجهة، كما لو كنتُ سأقتحم محلّها وأخرب كلّ ما سأجده أمامي.

الحقيرة!

عادت ملامح مونا لتطرد ملامح الجزارة.

لماذا تهتم بي؟

لماذا كانت هي المبادِرَة بالتقرّب مني؟

هل لأنّ الأمر يتعلق برجل وامرأة غريبين عن المكان، متقاربين في السن؟ بلا شكّ. لم أستطِعْ التخلّص يوماً من هذا الشعور بالنقص وربما الذنب. كيف اهتمَّت هذه الفتاة بأمري رغم أنني لم أبذُل أيّ جهد في سبيل الوصول إلى ذلك؟ يوجد كثيرون في «السوق»، ومعظمهم أفضل مني...

ابتعدت عن الرصيف لأسمح لمسنَّتَين متئكتين على عكازين بالمرور، عاجزتان لا تختلفان عني في شيء.

تكاد إيبور تشبه نزلاً خاصّاً بالمسنين خلال شهر فبراير، دار عجزة جميلة مطلة على البحر، ومقسَّمة إلى عدة غرف وأجنحة، بل إنها أفضل بكثير من دور العجزة، إيبور نفسها سيدة عجوز، جَدّة لا نزورها إلّا عندما يكون الطقس جميلاً، يوم الأحد أو في العطل، ونصطحب معنا الأحفاد لتأثيث المحادثة وخلق بعض الصخب في

المكان. هي جدة تملك حديقة كبيرة تضم بعض الأعشاب الطفيلية والأرجوحات التي يغطيها الصدأ طوال العام.

تذكرني إيبور بجدّتي جميلة، ليس لأنها تقطن في مدينة ساحلية كالصويرة أو أكادير البعيدتين عن هنا! فهي تقطن بدرانسي في جيريكولت، بل لأنها تطلّ على حديقة عمومية كبيرة تقوم بحراستها من منزلها في الطابق السادس بالبرج B. كانت حديقة الألعاب التي نرتادها أنا وأبناء عمي قبل بلوغنا سنّ الثامنة أشبه بأرض مغامراتنا. عندما مررت من هناك آخر مرة تبيَّن لي أنّ الألعاب ما زالت في مكانها، الحصان الخشبي الصغير وجسر القرد، لكن المقاعد خالية من الأطفال. ما ولَّد عندي قناعة بأنّ وجود طفل في هذا المكان سيجعله أقرب إلى الحيوان الغريب في حديقة الحيوانات المحالة على التقاعد.

نزلت نحو الطريق المقابلة للبحر، في مواجهة الرياح القوية، عشرون متراً قبل الوصول إلى فندق لاسيرين.

لا أدري لماذا تذكِّرني مونا بطفولتي.

دخلت إلى الفندق فوجدتُ أندريه جوزياك بانتظاري.

مبتسماً.

ويحمل في يده ظرفاً.

انقبضت يدي وأنا أتبيَّن شكل الختم على الظرف الذي أتوقّع أنّ ساعي البريد قام بإحضاره بعد ظهر اليوم.

علَّق أندريه ساخراً:

- هذا غريب بالنسبة إلى شخص لم يكُن يتوصَّل برسائل أبداً. . . هل أَلَّفْتَ كتاباً وقامت كلّ دور النشر برفضه؟

سلّمني الظرف فقرأتُ اسمي المكتوب بخط الرسالة السابقة نفسه.

تابع أندريه بإصرار:

- هل عثرتَ على حبيبة جديدة فأصرَّت عشيقاتك السابقات على إرجاع رسائلك الغرامية القديمة؟

أمسكتُ بالظرف ثم ولَّيتُ هارباً نحو الدرج المؤدّي إلى غرفتي.

- شكراً أندريه.

لكنه لم ولن يتوقف.

- أوراق امتحانات يتوجّب عليك تصحيحها؟ هل حصلت على شهادة التدريس؟ هل يوفّرون عروضاً في المناطق التربوية ذات الأفضلية؟[1]

استدرتُ لأقدّم له الجواب الذي ينتظره:

- هي مجلات تبيع أعدادها من طريق المراسلة، مجلات طبية إن تحرينا الدقّة، بها صور لأقدام يسرى.

تردّد صدى ضحكة صاحب الفندق في أرجاء المكان.

- موعدنا في السابعة مساء لتناول وجبة العشاء.

(1) المناطق التربوية ذات الأفضلية والمعروفة اختصاراً برمز ZEP: هي مناطق قامت وزارة التربية والتعليم الفرنسية بتحديدها منذ عام 1981 لتوفرها على مؤسسات تعليمية تملك فائضاً في الموارد يمكّنها من مواجهة بعض المشاكل الدراسية والاجتماعية، ويبقى الهدف الرئيس مواجهة التسرّب المدرسي والمشاكل التي قد يعانيها التلاميذ والطلبة المنتمون إلى الأوساط الاجتماعية ذات الدخل المحدود. -المترجم-

أخرجتُ محتويات الظرف ووضعتها على السرير.

محتويات مشابهة لظرف الصباح، مقالات صحفية وتقارير مفصّلة من إعداد النقيب غريما، وشهادات متنوعة.

تتمة قضية مورغان أفريل، يبدو أن المرسِل يتقن جيداً لعبة التشويق...

فردتُ الأوراق ثم انهمكتُ في قراءة محتواها، إذا كان المرسِل ينوي التلاعب بفضولي، فلن أحرمه من هذه المتعة.

* * *

قضية مورغان أفريل - يونيو 2004

أظهر النقيب فيليب غريما كفاءة ملحوظة في تعامله مع سير الأحداث رغم صغر سنه وافتقاره للتجربة. فبعد أقلّ من ثلاثة أيام على مقتل مورغان أفريل، كان تسعون بالمئة من سكان إيبور الذكور، بين الخامسة عشرة والخامسة والسبعين قد وافقوا على تسليم بصماتهم الجينية للدرك الوطني. ووصلت النسبة إلى أكثر من سبعين بالمئة من الشباب الذين شاركوا في فعاليات مهرجان ريف أون كليف (323 عينة منيّ إن تحرّينا الدقة)، وكما هو متوقّع، لم تطابق كلّ هذه البصمات بصمة المغتصب.

فهم النقيب غريما بسرعة أنّ منهجية كهذه أقرب ما تكون إلى السخف. تحقيق ضبابي يعتمد على حسن نيّة القاتل وموافقته على التعاون مع الدرك وإعطاء عيِّنة من المنيّ الذي سيوقع به في قبضة الأمن، لكن قاضي التحقيق نادو لوكي أصرَّ على أنّ هذه الطريقة ستمكِّنهم من إبعاد الشبهة عن المقرّبين من الضحية وتصغير قائمة المشتبه فيهم وبالتالي تضييق الخناق على المجرم.

حرص النقيب غريما على المشاركة بنفسه في التحقيق مع الشهود الرئيسين، بمَن فيهم أولئك الذين برَّأتهم بصماتهم الجينية. واصل عمله في البداية مقسّماً بين قضاء نصف اليوم في مخفر الدرك والنصف المتبقي في منزله، بوجبة سريعة على ركبته، ورأس لولا الصغيرة على ركبته الثانية، فانتهى به المطاف إلى الاستسلام للنوم أمام آخر الشهود أو بين ذراعَي صغيرته التي لا يتجاوز عمرها أربعة أشهر. طردته زوجته سارة من البيت بسبب إهماله، ما اضطرّه للمبيت في سريرٍ ملحق بكافيتريا المخفر، والعودة كلّ ثلاثة أيام إلى المنزل لإحضار الهلاليات لأسرته الصغيرة، وقد استمر هذا الوضع لثلاثة أسابيع متواصلة، من 21 يونيو إلى 12 يوليو 2004.

اكتسبت فرضيته قوتها شيئاً فشيئاً، وقد أيّدتها طبيعة تصرفات مورغان أفريل ليلة السهرة. رغم أنها في التاسعة عشرة من عمرها، إلّا أنّ الخامس من يونيو كان تاريخ خوضها لأوّل تجربة سهر ليلية خارج المنزل. لم توافق كارمن على السماح لابنتيها بالذهاب إلّا لوجود نيكولا غرافي، سائق سيارة الكليو، الصديق الذي يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً، يتابع دراسته في السنة الأخيرة من تخصّص الإدارة الغابوية في ميسنيير-أون-براي، ويصلح حارساً لمورغان وابنتها الأخرى أوسيان، كما وضعت ثقتها أيضاً في الشابين الآخرين، كلارا بارتيليمي التي تبلغ من العمر تسعة عشر عاماً وتعمل مربيةً في حضانة شارل-بيرو بنوشاتيل، وماتيو بيكار الذي يبلغ من العمر واحداً وعشرين عاماً، ويتابع دراسته في كلية الطب مثل مورغان، وإن كان في السنة الثالثة.

شلة أصدقاء عقلانيين ومؤدّبين. . .

كلهم أكّدوا تسلسل الأحداث نفسه، غادروا نوشاتيل-أن-بري حوالي السادسة مساء، ووصلوا إلى إيبور بعد ساعة واحدة تقريباً. تناولوا وجبة كباب وهم جالسون على حصى الشاطئ أمام الكازينو، كما هو الشأن بالنسبة إلى مئات الشبّان المشاركين في فعاليات مهرجان ريف أون كليف، ثم حضروا للحفل الموسيقي. جو احتفالي ممتع بلا حدود. بدَت الإثارة على تصرفات مورغان لكنها لم تتجاوز الحدّ الطبيعي بعد.

ختمت مجموعة غنائية محلية برنامج الحفل، لتكمل فرق الدي جي السهرة.

هنا بدأت مورغان -استناداً إلى ما قاله نيكولا وماتيو- اندماجها في الجو بشكلٍ مبالَغٍ فيه.

رقص جنوني، إيحاءات ذات مغزى ملتبس...

اعترف نيكولا وماتيو بأنهما حاولا تنبيهها، كانت قد شربت بعض علب الجعة، وقد أكّد الخبراء بأن نسبة الكحول في دماء مورغان كانت أقل من 0,9 غرام، وهو ما يكفي لتخديرها.

ثم أفضى نيكولا غرافي ومعه كلارا بارتيليمي بمعلومة أخرى على السريع: ذهبا ابتداء من الثانية صباحاً إلى أريكة بعيدة في الكازينو لتبادل القبل والملامسات. كانت الرحلة مجرّد مبرّر، واستخدموا المرافقين الثلاثة كعذر، فهما يتواعدان منذ بضعة أسابيع، ولم ينتبها لاختفاء مورغان إلّا عندما سيطر القلق على مرتادي الكازينو في السادسة صباحاً حيث صرخ أحدهم:

«توجد جثة على الشاطئ، يا إلهي! توجد جثة على الشاطئ!»

أمّا ماتيو وأوسيان فقد تسلل إليهما الضجر وتوقّفا عن الرقص منذ الثالثة صباحاً. وتجاذبا أطراف الحديث بين الثالثة والرابعة، وإن

كان حديثاً ممزوجاً بأصوات الموسيقى الصاخبة. ولم يهتمّ أحدهما بأمر مورغان التي تذكر رؤيتها لآخر مرة على حلبة الرقص في الثالثة والنصف صباحاً. اعترف ماتيو بيكار ببساطة أنه لم يشكّ في أنّ مورغان ستحظى برفيق، لذلك لم يُقلِقه أمر اختفائها، بخاصة بعد تحول الكازينو والواجهة البحرية إلى فضاء حقيقي لتبادل القبل... بل إنه اعترف أيضاً بمحاولته تجربة حظّه مع أوسيان دون أن ينجح في الوصول إلى مراده، رغم إفراطها في الشرب أيضاً. هو صديق شقيقة مورغان منذ سنوات الحضانة، ويعلم أنها ليست من نوعية الفتيات المستعدّات لخوض مغامرات الليلة الواحدة، عكس مورغان. هي تشبه والدتها كارمن إلى حدّ كبير. «مخصيّة». لم يجد كلمة أخرى لشرح قصده.

باختصار شديد، وجد النقيب غريما نفسه في مواجهة ثقب أسود طوله ساعتان، بين الثالثة والنصف، والخامسة والنصف صباحاً، بين اختفاء مورغان والعثور على جثتها.

لا يتعلّق الأمر بساعتين كاملتين إن تحرّينا المزيد من الدقة. ففي مستودع الكازينو، تذكّرت سونيا تورو وهي شقراء شابة على طريقة دمى باربي أنها رأت مورغان تدخن حوالي الثالثة وأربعين دقيقة. كانت سونيا حاسمة بقولها إنّ مورغان هي أجمل فتيات السهرة، بحبات العرق على وجهها وفستانها المبلل الذي كشف عن فخذين وملابس داخلية أرجوانية ظاهرة.

- كانت ترتدي حمالة الصدر والتبان وقتئذٍ. أضافت سونيا على سبيل التأكيد.

- دقيقة الملاحظة! أجابها غريما شاكراً.

- لأنّ الأمر يستحق يا سيادة النقيب.

حملت إجابة سونيا تورو نبرة طبيعية فاجأت الدركي، الشيء نفسه بالنسبة إلى نظراتها التي تفحّصت جسد النقيب، كما لو كانت تقصد بأنها لا تفرّق بين الجنسين، وهو ما اضطرّه في المرة الموالية إلى ترك التحقيق معها إلى زميل يقترب من التقاعد.

«رأت مورغان وهي تدخن»...

أعاد النقيب التفكير في هذا التفصيل أكثر من مرة بعد انتهاء المقابلة.

لم تكُن مورغان أفريل مدخِّنة...

لغز آخر.

وصل النقيب مبكّراً إلى قناعة بأنّ عليه إعادة تقليب التحقيق والنظر إلى الأمور من زوايا أخرى. ألّا يضيِّع الوقت في مضاعفة الشهود وإعادة تشكيل برنامج مورغان أفريل تلك الليلة، ويركّز جهوده أكثر على سلاح الجريمة.

وشاح البربري.

في 19 يوليو 2004، توصّل برسالة من قاضي التحقيق نادو-لوكي يشكره فيها على التقدّم الذي عرفه التحقيق انطلاقاً من منحى لم يؤمن به أحد باستثناء النقيب.

الوشاح، قطعة ثوب يفوق ثمنها أربعمئة يورو.

أخذ غريما وقته الكافي لمراجعة كلّ الشهادات ووجهات النظر المتنوعة، مع استبعاد عشرات المعلومات التي بدت له تافهة وبلا قيمة.

وهكذا، توصَّل إلى أنّ ثلاثة شهود فقط يتذكّرون هذا الوشاح.

سونيا تورو، التي تلاعبت طويلاً بصبر الدركي الذي جاء

لسؤالها، قبل أن تتذكر أن أحد الزبناء ممّن وصفته بـ«ابن بابا»، «محمر بفعل أشعة الشمس» وهو النعت الوحيد الذي قبلته، رافضة وصفه بـ«الداكن» أو «المغاربي» أو «الملون» وكلّ الأوصاف التي اقترحها الدركي العجوز.

- لا تنتظر مني معرفة سمك كريم البشرة الذي يستعمله يا عزيزي...

ترك «ابن بابا المحمرّ بفعل أشعة الشمس» سترة الكتان ووشاح الكشمير في المستودع. وهي الملابس غير المألوفة في مثل هذه النوعية من الحفلات. هذا ما أشارت له سونيا في معرض حديثها.

- وشاح أحمر؟ علامة بربري؟

لم تتمكن من معرفة العلامة التجارية، لكنه قد يشبه بربري. لم تنتبه سونيا لرحيل هذا الشخص الذي تسلّم ملابسه ربما من زميلتها، لكن أحداً لم يتذكّره. فأضاف النقيب غريما إلى حسبانه فرضية اختلاق سونيا لهذا الزبون الغامض. إعلامياً، تحوَّلت قضية أفريل بسرعة إلى «قضية القاتل ذي الوشاح الأحمر». وإن لم يوجد أي دليل لتأكيد ذلك. تتابع سونيا دراستها بشكلٍ جاد في القانون الأوروبي المقارن بجامعة روان. كما أكّد شاهدان آخران كلامها.

بعد إصرار كبير، تذكّر ميكي، الحارس المؤقت الذي قضى ليلة 5 إلى 6 من يونيو في موقف السيارات يستمع إلى صوت الأمواج، رؤيته لخيال شخص يدخّن بالقرب من حاويات القمامة الخاصّة بالكازينو، غير بعيدٍ عن المنحدر، ويرتدي سترة ووشاحاً لم يستطِعْ تحديد لونه، كما نسيَ الساعة بالتحديد، مؤكِّداً فقط أنها تتجاوز الثالثة صباحاً، وذلك لأنه توقيت استراحته. كما كان متأكّداً أيضاً من أنّ الخيال كان وحيداً.

- كما لو كان ينتظر شخصاً ما؟ سأله غريما.

- ربما.

- فتاة؟

- ممكن... أو بعض الأصدقاء، أما أنا فقد أكملتُ جولتي.

لم تكن بحوزة ميكي معلومات أخرى ليقدِّمها، مجرّد خيال مبهم بين الإنارة العمومية وضوء مصباحه اليدوي. مع ملاحظة أنّ الساعة التي حدَّدها قد تطابق الوقت الذي غادرت فيه مورغان أفريل الكازينو... دون أن يراها شخص ما حيّة بعد ذلك.

فانسنت كاري، الشاهد الثالث، في الحادية والعشرين من عمره، طالبٌ في شعبة الكيمياء، وصل إلى محطة القطار في بروتي -أقرب محطة لإيبور على خط قطار باريس روان لوهافر- حوالي الخامسة مساء، لتقلّه الحافلة بعد وصوله إلى موقع المهرجان. كان يعتزم ركوب الحافلة للحاق بأصدقائه في نادي تنس الطاولة الذاهبين إلى الحفل. انتظر قدوم الحافلة حوالي عشر دقائق، إلى جانب شاب في سنه يرتدي قميصاً أبيض ويلف وشاحاً أحمر اللون حول عنقه ويحمل سترة. هندام لا علاقة له بما يرتديه باقي الشبان ممّن اختاروا المشاركة في فعاليات المهرجان.

تبادلا بعض الكلمات القليلة.

«ترتدي ملابس أمير. قال فانسنت معلّقاً على ما رآه.

- لأن الفتيات يفضّلن ذلك، شرح الأمير.

- هل أنت ذاهب للاستماع إلى الموسيقى أم لمواعدة الفتيات؟».

تذكّر فانسنت كاري جوابه بدقة:

«الموسيقى أم الفتيات؟ هل أنت جاد في كلامك؟ الموسيقى

الجيدة أصبحت نادرة جداً يا صديقي، ولا أعتقد بأنّك ستجد في إيبور هندريكس الجديد![1] أمّا الفتيات... واو، الفتيات الجميلات موجودات في كلّ مكان!».

وصلت الحافلة. لم يجلس فانسنت بالقرب من الأمير. ربما لأنه ليس من الطراز الذي يفضّل مصادقته. وضع كلّ واحد منهما سماعات الإم بي 3 على أذنيه. لينتهي بذلك الحوار بينهما.

رأى فانسنت صاحبَ الوشاح مرة أخرى في الكازينو. كان يرقص ويلتصق بمورغان أجمل فتاة في السهرة، وإن لم يكن يعرف اسمها وقتئذٍ. كان واضحاً أنّ الشاب يحاول مغازلتها.

لم يكُن يضع وشاحه الأحمر في حلبة الرقص، لكن عشرات الشهود أكّدوا بأنّ شاباً كان يحوم حول مورغان، بمَن فيهم أوسيان وماتيو. كلهم، وفانسنت أيضاً، اتفقوا على شكل معين، وجه مربع وسيم، عينان عسليتان، جلد أسمر، قد يكون -دون يقين تام- من أصول مغاربية. اشتغل خبير الغرافيك يومين كاملين لرسم نموذج تقريبي مبهم وتافه في الوقت نفسه. تمّ نشره في كل مكان، ولم توصلهم مئات الإجابات التي توصلوا بها إلى شيء. النقيب غريما نفسه لم يكن يعول كثيراً على هذا الرسم المعتمد على شهادات أشخاص كانوا في كازينو مظلم، دون أن يكون لأحد منهم سبب مقنع للاحتفاظ بأدق تفاصيل هذا الشخص في ذاكرتهم.

رأى فانسنت كاري صاحب الوشاح الأحمر صباح اليوم التالي.

---

(1) جيمي هندريكس (1942-1970): عازف روك وبلوز أميركي، أثّر في هذه النوعية من الموسيقى ممّا ساهم في تطويرها بشكلٍ ملحوظ، رغم وفاته في سن مبكرة. -المترجم-

كانت الأجواء مشحونة في إيبور بعد اكتشاف جثة مورغان أفريل. قام رجال الشرطة بتطويق البلدة. كان هذا الشخص في ساحة جان-بول لورنز، أمام المخبزة، وقد وضع سترته على ظهره. مرّ فانسنت من أمامه وهو يركض تقريباً، كان نائماً منذ الثانية صباحاً ثم جاؤوا لإيقاظه وإخباره بأمر الفتاة التي لقيت مصرعها! بعد اغتصابها! وكان مطالَباً بالذهاب إلى المخفر -كما هو الشأن بالنسبة إلى الآخرين- للتعريف بنفسه وترك عيّنة من بصمته الجينية أيضاً... هذا كلّ ما كان يعرفه فانسنت كاري في أثناء مروره بالقرب من الشاب المجهول، لم يكن يعرف هُوية القاتل ولا الطريقة التي قُتِلَت بها الفتاة.

حيّاه الشاب بحركة من يده لأنه كان سبَّاقاً في تذكّره، ولو لم يرفع يده لما انتبه فانسنت لوجوده. الغريب أنهما لم يتحدّثا عن الفتاة المقتولة، دون أن يفهم فانسنت كاري نفسه سبب ذلك. لعلّ التفسير الوحيد لذلك هو أنّ المجهول ترك انطباعاً بأنه لم يكن على علم بطبيعة ما جرى، أو أنه لم يكن مبالياً بذلك.

«إذاً، هل أحببتَ السهرة؟» سأله فانسنت.

ضحك الآخر طويلاً.

«لا تقُل لي بأنك جادّ في كلامك...

- وفتيات إيبور؟

- جميلات، جميلات جداً.

- انتبهت لذلك بالأمس. لم يقع اختيارك على أكثرهن بشاعة...

- ولا أقلهن إثارة، صدّقني...».

اعتقد فانسنت كاري في تلك اللحظة أنه أمام شخص يهوى

التفاخر والمبالغة، كما انتبه أيضاً إلى أنّ الشاب لم يعُد يلف الوشاح الأحمر حول عنقه.

«والوشاح؟

- تركته للفتاة، قال الشاب المجهول. ذكرى لتخليد لقائنا.

- هل تفكِّر في مقابلتها مرة أخرى؟

- سيفاجئني ذلك...».

ثم أطلق ضحكة أخرى بذَلَ الخبراء النفسيون كلّ ما في وسعهم لإجبار فانسنت على وصف نبرتها.

ضحكة عفوية؟ عصبية؟ ساخرة؟ سادية؟

لا يعرف فانسنت شيئاً، ولا يتذكر سوى إجابة الشاب المجهول عن سؤاله الأخير:

«هل ستستقلّ الحافلة؟ سأله فانسنت بإصرار.

- لا، سأذهب إلى إقامةٍ ثانوية يملكها والداي بالقرب من الساحل النورماندي».

مفتاح حلّ قضية مورغان أفريل بالكامل!

تمّ التأكّد بطبيعة الحال من واقعية شهادة فانسنت كاري التي بدت متوازنة، وإن قام رجال الأمن بسؤاله عن سبب ذهابه للنوم في الثانية صباحاً وتركه لأصدقائه الذين فضَّلوا إكمال السهرة. وهو الأمر غير المألوف بالنسبة إلى شاب مثله...

طرح النقيب غريما هذا السؤال، فأجاب فانسنت كاري بأنه كان منهَكاً بعد قضائه لأسبوع صعب ومتعب. وعندما أصرّ النقيب على السؤال تسلَّلت العصبية إلى كلام فانسنت الذي أغضَبَه أن تحوم

الشكوك حوله رغم كونه الشاهد الوحيد الذي ساهَمَ في التقدّم الطفيف الذي عرفه التحقيق. وكان محقّاً في غضبه هذا. لا يوجد أيّ سبب يدفع غريما للشك في فانسنت كاري وكلّ زبناء الكازينو، كما أنّ بصمته الجينية لا تتطابق مع بصمة المغتصِب.

تمّ تركيز البحث على شاب في الحادية والعشرين من عمره، يملك والداه إقامة ثانوية بالقرب من الساحل النورماندي. ليكتشف النقيب غريما بأنّ هذا الساحل يضمّ أكثر من خمس وثلاثين ألف إقامة من هذا النوع... ما يعني أنّ العثور على الهدف المطلوب يبقى مهمة مستحيلة، رغم قيام رجال الدرك بحملات بحثٍ في تلك المنطقة، حاملين الصورة التقريبية للشاب، مع توسيع دائرة البحث شيئاً فشيئاً، إتروتا ثم سان-فاليري-أون-كو، ثم هونفلور، ثم دوفيل، كابورغ، دييب...

كان الرهان خاسراً.

لا شيء.

لقد تبخر المجهول في الطبيعة.

قدَّم النقيب غريما تقريره إلى قاضي التحقيق نادو لوكي في 20 أغسطس 2004. لم يشهد التحقيق أيّ جديد لما يقارب خمسة أسابيع. لا تظهر معلومة ذات قيمة، لكن يقين غريما صار أكثر قوة. لقد وافقَت مورغان أفريل على مرافقة المجهول الذي حامَ حولها في حلبة الرقص. قام باسترجاع وشاحه وسترته من المستودع من دون أن يسترعي ذلك انتباه أحد، ثم انتظر أن تلحق به مورغان في موقف السيارات، ليسبحا في مياه البحر في مكان بعيد عن الأعين، قبل أن تتخذ الأحداث مساراً مغايراً بعد ذلك.

رفضت مورغان التمادي أكثر من ذلك، لكن المجهول قابلَها بإصرارٍ شديد، فتكهربت الأجواء، قام باغتصابها بالقوة، ثم دفعه القلق والخوف إلى خنقها ثم جرّ جثتها إلى أعلى المنحدر ودفعها، ربحاً للوقت، أو لإيهام الجميع بأنّ المسألة تتعلق بحادثة انتحار.

ثم اختفى...

رغم غياب أيّ مشتبه فيه قصد تقديمه إلى قاضي التحقيق، فقد ختم النقيب غريما تقريره بنقطة إيجابية قد تبعث على التفاؤل. تمّ تحديد هوية قاتل مورغان أفريل بشكلٍ جزئي. سيدفعه توالي الأيام إلى التخلي عن حذره، وقد يتعرّف عليه أحد ما في الساحل النورماندي أو خارجه. امتلك النقيب غريما يقيناً واحداً قام بالتعبير عنه في الفصل الأخير من تقريره.

لن يكرِّر قاتل مورغان أفريل فعلته أبداً.

يتعلق الأمر بحسب رأيه بشاب ينتمي إلى عائلة ميسورة، مثقّف ومؤدب، لكنه ارتكب خطأ حياته في تلك الليلة. وسيعيش طوال حياته حاملاً لهذا السرّ في أعماقه.

هذا إنْ لم يتمّ إلقاء القبض عليه قبل ذلك...

لكن هذا التقرير تسبَّب في إشعال غضب عائلة أفريل.

رفضت كارمن وعائلتها بشدة -على لسان المحامي- فرضية النقيب غريما، ولم يصدِّقا فكرة الشاب المؤدّب الذي ارتكب خطأً قاتلاً. بالنسبة لهم، يتعلق الأمر بمهووس جنسياً تحرَّك بشكلٍ متعمّد، وقد استندوا في ذلك إلى شهادة فانسنت كاري حول ما قاله صاحب الوشاح الأحمر صباح اليوم الموالي. لقد انتظر المشتبه فيه رقم واحد بهدوء قدوم والديه إلى ساحة جان-بول-لورنز

لاصطحابه، دون قلق أو خوف، في الوقت الذي انتشر فيه رجال الشرطة في كلّ شوارع إيبور. هذا الهدوء لا يتّفق بأيّ حال من الأحوال مع نظرية المواعدة الليلية التي تحولت إلى مأساة.

ناقش رجال الدرك والمحامون والقضاة طويلاً تلك الجمل الأربع التي قدَّمها فانسنت كاري في إفادته.

«والوشاح؟

- تركتُه للفتاة، قال الشاب المجهول، ذكرى لتخليد لقائنا.

- هل تفكِّر في مقابلتها مرة أخرى؟

- سيفاجئني ذلك...».

هل يمكن اعتبارها أجوبة شخص قام بارتكاب جريمة قتل عن غير قصد تقريباً ويقامِر بحرّيته؟ أم أجوبة مجرم ساخرٍ يمتلك برودة دم مرعبة؟ أم أجوبة شخص بريء ببساطة شديدة؟

عبّر النقيب غريما عن رأيه بشكلٍ علنيّ لآخر مرة يوم 23 أغسطس في **لو هافر ليبر**: هو لا يُصدق نظرية المجرم السادي الذي وُجِدَ في المكان المناسب عن سبق إصرار وترصّد، وتمكّن من الاقتراب من مورغان أفريل والاعتداء عليها دون أن ينتبه أحد لأمره. ماذا عن السباحة في البحر؟ والوشاح الأحمر البربري؟

ثم جاء يوم 26 أغسطس 2004 ليضرب نظريته في مقتل.

ومعها مصداقيته أيضاً.

كلّ عمله الصبور، والليالي التي قضاها بعيداً عن منزله، وحرمانه من قضاء ثلاثة من الأشهر الستة الأولى لابنته لولا معها، كلّ هذا ذهب أدراج الرياح.

في يوم واحد فقط، تحوّلت قضية الوشاح الأحمر البربري إلى كارثة وطنية تجاوزت كلّ ما تخيّله النقيب غريما في أسوء كوابيسه.

انتفخت القضية ثم طارت لتصل إلى أعلى دوائر الشرطة في البلاد.

وبما يتجاوز إمكاناته...

* * *

انتزعني صوت الجرس من قراءتي لمحتوى الأوراق.

كان صوتاً متواصلاً، كنداء البحارة لتجمُّع في الميناء.

انفجر صوت أندريه في الممرّ.

- حان موعد تناول وجبة العشاء يا جمال!

ألقيتُ نظرة على الساعة في الطاولة الصغيرة الجانبية.

السابعة مساء وسبع عشرة دقيقة.

اللعنة!

11

هل تفكّر في مقابلتها مرة أخرى؟

يتحول فندق ومطعم لاسيرين في شهر فبراير إلى نزل عائلي. وجبة في السابعة مساء وقائمة طعام واحدة لعددٍ قليل من الزبائن: متقاعدان سيقضيان ليلة واحدة قبل الذهاب إلى مونت-سان-ميشيل، زوجان إنجليزيان قادمان من دييب رفقة رضيعهما محمرّ الوجه، شخص يرتدي ربطة عنق، يجلس وحيداً، ويبدو أنه مندوب تجاري ضائع.

نزلت عبر درجات السلم.

كانت قاعة الطعام واسعة، أعتقد بأنها قادرة على استيعاب أكثر من ثلاثين طاولة، تتمتع معظمها بإطلالة رائعة على الشاطئ خلف نافذة زجاجية كبيرة.

ما إن تقدّمت بخطوة إضافية حتى اكتشفت وجود الضيف المفاجأة.

- لقد تأخَّرتَ يا جمال.

مونا!

كانت تتناول وجبة العشاء وحدها، أمامها شوكة صغيرة من الفولاذ المقاوم للصدأ لمساعدتها على تناول الحلزون في صحنها. حرص المتقاعدان على الإقبال على عشائهما بصمت في طاولة بعيدة، أما في الجانب الآخر من القاعة فقد بذل الإنجليزيان كلّ ما في وسعهما لإقناع الرضيع بتناول محتوى وعاء صغير أخضر اللون.

أشارت مونا إلى المقعد أمامها.

- هل سنتناول عشاءنا سوياً أم أنك تفضل تناوله وحيداً؟

مَن الذي سيرفض دعوتها؟

جلستُ أمامها، أعتقد بأن ذلك جرى بالاتفاق مع أندريه، فقد أحضرَ صحني بعد لحظات قليلة، ثم ابتعد وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة تواطؤٍ لا أدري مَن المقصود بها، أنا أم هي.

- يا لك من كتومة! هل وصلت إلى فندق لاسيرين صباح هذا اليوم؟

تلألأت عينا مونا، مزهوّة ربما بجوّ الغموض الذي خلَّفته في نفسي بعد لقائنا في مخفر الدرك.

- نعم، هذا صحيح. اقتصرَت جولتي التنقيبية يوم أمس على فول-لي-روز، لكنني مطالبة حالياً بتغطية المساحة بين أنتيفير وبالويل[1]، إذ يوجد أكبر احتياطي من حصى الشاطئ في هذا الساحل. لقد رأيتكَ صباح اليوم عندما كنتَ عائداً من حصة الجري، كنت أمام طاولة المشرب مديرة ظهري لك فلم تنتبه لوجودي.

---

(1) أنتيفير هي محطة بترولية على الواجهة البحرية، وبالويل هي محطة لإنتاج الطاقة النووية. -المؤلف-

لم يفاجئني ذلك، ففي تلك اللحظة قام أندريه بتسليمي الظرف الأول.

- هل نجحتِ في إقناع رجال الدرك بوضع ختم على وثيقتك؟

- أجل! مقابل بعض المجاملات. وأنت، لم تقابل منتحرات أخريات؟

قالتها بسخرية واضحة، فأجبتُها:

- لا، بحسب علمي...

جاء أندريه ليضع أمامي صحن الحلزون والمايونيز، لا شك في أنه سمع كلامها عن «المنتحرات الأخريات» لكنه لم يعلِّق.

- سنطلب زجاجة من النبيذ، اقترَحَت مونا. اقبَل دعوتي!

حاولتُ الاعتراض لكنّها أصرّت.

- سأدرجها ضمن فاتورة مصاريفي، لن يهتم مموّلي ببضع يوروهات إضافية ما دامت المؤسسة قد نجحت في تحقيق أرباح تقدَّر بخمسة مليارات خلال السنة الماضية فقط، أليس كذلك؟

طلبَت من أندريه زجاجة نبيذ بورغون شاردوناي 2009 من الصنف الأول.

خمسة وسبعون يورو!

رقم معاملاتها لهذا الأسبوع.

رانَ صمت طويل بيننا ونحن نتبادل النظرات. لم أكُن أملك أيّ رغبة في الحديث عن حادثة الانتحار ووشاح البربري أو حتى ما يتعلق بقضية مورغان أفريل. لقد منحتني مونا هامشاً صغيراً للابتعاد عن دوامة الصدف المستحيلة والأسئلة التي لا إجابة لها.

ركَّزتُ بصري على ديكور القاعة، الستائر بطابعها الرومانسي والعقد البحرية المتراصة في إطار خشبي تزيّنه قطع نحاسية، العوامة

الزرقاء وعبارة «مرحباً بكم على متن هذا المركب»، والبوصلة الكبيرة المثبتة على العارضة. هي أجواء بحرية لا تغفلها العين التي بذلتُ كلّ ما في وسعي لأبعدها عن نحر مونا المكشوف، والقميص الذي انفتح فيه زر آخر بعد لقائنا ظهر اليوم.

لإغوائي أنا أم لإقناع رجال الدرك؟

قطعت مونا حبال الصمت بقولها:

- هل تعلم كيف صنع المدير العام للمؤسسة التي أعمل بها ثروته؟

- لا أملك أيّ فكرة عن الموضوع...

- هي حكاية رائعة، أعلم بأنك ستحبّها يا جمال. اسمه بانشي كومار شيندي، هو مهاجر هندي جاء إلى سان فرانسيسكو أواسط السبعينيات، كان فقيراً، لا يملك أيّ روبية في جيبه. يشتغل ليلاً في تنظيف مراحيض مكاتب «الداونتاون»، ويدرس إدارة المشاريع نهاراً على طريقة «كيف تؤسِّس شركة ناشئة»، أنت تفهم قصدي، تلك المدارس التي تكلِّف عشرة آلاف دولار في السنة وتحتال على آلاف الطلبة الأجانب باستغلالها لأكذوبة الحلم الأميركي، ما يجعل هؤلاء الطلبة رهائن للديون لثلاثة أجيال قادمة. في منتصف تلك السنة كان بانشي مطالَباً بالعمل على أطروحة لتسليمها، ويتعلّق الأمر بمشروع خلق مقاولة مع خطة تسويق محكمة وبرنامج للاستهلاك المالي وكلّ التفاصيل الأخرى. كان مشغولاً بعمله الليلي فلم يجد الوقت الكافي لكتابة سطر واحد وفكَّر في التخلي عن كل شيء. غرقه وسط هذه المشاكل ساعده على فهم الطريقة التي تسير بها الأمور في الولايات المتحدة الأميركية. كان مشغولاً بتنظيف المراحيض في ترانس أميركا بيراميد ليلة التاريخ المحدّد لتسليم العمل المطلوب، في الطابق السابع

والأربعين. لم يكُن يملك أيّ فكرة عملية لمشروع يمكنه الاشتغال عليه، ولا همَّ له سوى شتم الأغبياء الذين يمسحون فضلاتهم بمناديل ورقية أو أوراق مكتبية بعد نفاد ورق المراحيض...

تذوّقَت القليل من نبيذ شاردوناي قبل أن تضيف:

- وهنا، جاءت الفكرة...

- في المراحيض؟

- نعم، قد تكون الفكرة الأكثر غباء في الكون كله. عوض تزويد مراحيض المكاتب بلفة ورق طولها عشرون متراً، مشابهة لتلك التي يتمّ استعمالها في المنزل، لمَ لا يتمّ وضع لفة أطول بكثير، مئتان أو حتى ثلاثمئة متر محفوظة داخل أسطوانة معدنية! عادَ إلى مسكنه ليعدَّ نصّ الأطروحة في ما تبقى من ساعات الليل. صباح اليوم التالي كان عليه التوقف -كما كل يوم- في محطة سيفيك سانتر في خط المترو للذهاب إلى المؤسسة التي يدرس بها، في اللحظة الأخيرة قرَّر التراجع وقطع خط السير ولم ينزل إلّا بعد خمس محطات، في ويست بورتال، ثم دخل إلى وكالة تابعة لويلز فارغو ليبيع فكرة مشروعه ويضع براءة اختراعه.

- هل نجحت فكرته؟

أجابتني مونا بسعادة:

- صار مليارديراً بعد أقل من سنة. ودخل إلى قائمة أغنى مئة شخص في العالم. هل تعتقد بوجود محطة قطار أو فندق أو أيّ مؤسسة عمومية أخرى غير مزوَّدة بموزّع ورق مراحيض من هذا النوع؟ يمكنك الاستمتاع بحساب عدد السنتيمترات المستعملة كلّ يوم في جميع أنحاء العالم.

أفرغت محتوى الكأس في جوفها ثم تابعت كلامها:

- إنها براءة الاختراع الأكثر ربحاً في القرن الماضي! يقولون بأنّ بانشي حوَّل استثماراته فيما بعد لقطاع الإعلاميات، ثم اشترى جزيرة في مايكرونيزيا[1] يعيش فيها عارياً طوال السنة، وعندما يحتاج إلى مَسح فضلاته فإنه يكتفي بأوراق الأشجار.

- أصحيح هذا؟

ضحكَت.

- ما رأيك؟

كنت متردِّداً.

- هل قمتِ باختلاق كلّ ما سبق؟

- ربما، أنا أحبّ اختلاق قصصٍ من هذا النوع.

تملَّكتني رغبة قوية في التصفيق لها ومعانقتها ثم مرافقتها في جولة نقترب خلالها من حاجز الشاطئ ونحن نضحك تحت ضوء القمر طوال الليل. لم أقابل في حياتي فتاة تشبه نظرتها للعالم نظرتي أنا. متأرجحة بين الخيال والواقع. على حافة نافذة، بين فراغين، السيارات المسرعة في الأسفل والنجوم المتلألئة في الأعلى. تذكّرت جميلة للمرة الثانية على التوالي خلال يوم واحد فقط. لقد ذكّرتني مونا بجدّتي، شهرزاد درانسي، أو كانال بلوس[2] كما أطلق عليها الأطفال الذين يستمعون إلى حكاياتها بأفواه وعيون مفتوحة في برج جيريكولت، درج السلم حرف C مساء كل سبت، إلى أن تمّ إيداعها

---

(1) مايكرونيزيا: ولايات مايكرونيزيا المتّحدة؛ دولة مستقلة تتكون من جزر في المحيط الهادي شمال بابوا غينيا الجديدة، عاصمتها باليكير، كانت تحت إدارة أميركية قبل توقيع بعض جزرها لاتفاق ارتباط حرّ مع الولايات المتحدة الأميركية عام 1986. -المترجم-

(2) كانال بلوس: محطة تلفزيونية فرنسية. -المترجم-

في المستشفى ببلان-ميسنيل واعتبار حكاياتها مجرّد هذيانات غير مترابطة، دليلاً على بلوغ إصابتها بمرض الزهايمر مستويات متقدمة. كنت في الثامنة من عمري وقتئذٍ، ولم أستطِع نسيان حكاياتها.

استغلّ أندريه شرودي ليسحب صحني ويعوّضه بقِدرٍ من بلح البحر. تردّد قليلاً فأدركتُ رغبته في مشاركتنا الحديث، غالباً ليسأل عن المنتحرات اللواتي سمعَنا نتحدّث عنهن. ربما شاع الخبر في البلدة بأكملها. العثور على فتاة ميتة بعد ارتمائها من أعلى قمة المنحدر! وقد يتسرّب أيضاً خبر تعرّضها لمحاولة خنق...

لا داعي لتخيّل علامات القلق الذي سيرتسم على وجوه السكان هنا.

هل عادَ المغتصب ذو الوشاح بربري بعد غياب دام عشر سنوات؟

- وأنت؟ سألتني مونا فجأة.

- أنا؟

- نعم! حان دوركَ لتحكي لي حكاية رائعة.

حرَّكتُ رأسي علامة على إصابتي بعسر الإلهام، كما لو أنّ المزج بين الصلصة وبلح البحر كان كافياً لتشتيت انتباهي. ضرَبَت مونا الأرض بقدمها في احتجاجٍ طفولي.

- لا تخيِّب ظني يا جمال! لم أكُن لأدعوكَ لمشاركتي وجبة العشاء لولا ثقتي في قُدرتكَ على مفاجأتي، هيا، أريد حكاية مجنونة!

استغرق مني مسح أصابعي بالمنشفة وقتاً. انشغل المتقاعدان على بُعد ثلاث طاولات منا بتصفُّح شاشتَي هاتفيهما الذكيين، كلّ واحد منهما على حِدَة.

- حسناً يا مونا، أنت أردتِ ذلك. تريدين حكاية مجنونة؟ لن

أخيِّب ظنّكِ! لقد ابتكرت طريقة ثورية وغير مألوفة لإغواء الفتيات. طريقة لا تُقاوم تمكّنني من جذب أجمل الفتيات إلى فراشي.

بدا أنني نجحتُ في إثارة انتباهها بكلامي، فقد اعتدَلَت في مقعدها، واتّسعت حدقتا عينيها وانفرجت شفتاها. وأمام استغرابي الشديد، لم تقفز إلى ذهني سوى كلمةٍ واحدةٍ تصف وجهها الشبيه بوجه دمية ضاحكة، كلمة واحدة لا يوظّفها سوى كبار السن.

وجه جميل[1].

مزيج من وجه طفلة صغيرة وقطة وفأرة. وجه واحدة من شخصيات قصص لافونتين[2].

- أرى أنكَ تتحدّث بنبرةٍ متغطرسة يا جمال. . .

- ألا تصدّقينني؟

- سأنتظر لأرى. . .

أخرجتُ محفظة النقود من جيبي بتثاقل، ثم سحبتُ منها بطاقة صغيرة قمتُ بوضعها على الطاولة وأنا أخفيها براحة يدي لأمنَع مونا من قراءة المحتوى.

- هذا سلاحي السرّي.

- آه، قالت مونا مُظهِرَة علامات الخيبة على محياها.

دفعتُ البطاقة قليلاً، دون أن أكشِفَ عنها.

- عشر سنوات كاملة وأنا لا أغادر المنزل إلّا وأنا أحمل معي بطاقاتي، وأستخدمها في محطات القطار وقطارات الضواحي

---

(1) Minois في النص الأصلي. -المترجم-

(2) جان دو لافونتين (1621-1695): شاعر ومؤلف فرنسي اشتهر بتأليفه لمجموعة من القصص الخرافية التي تدور أحداثها على لسان الطيور والحيوانات. -المترجم-

وأرصفة المدينة. . . قد أقابل فتاة تثير إعجابي فأدسّ واحدة من هذه البطاقات في يدها من دون أن أتوقّف ومن دون أن أعطيها الوقت الكافي للتعرّف عليّ.

فتحتُ يدي ثم قرأتُ محتوى البطاقة.

آنستي،

لقد تبيَّن لي بأنّ عدد الفتيات اللواتي أقابلهن في شوارع باريس كلّ يوم يكاد يقدَّر بالآلاف، أهدي هذه البطاقة لواحدة منهن، وأحياناً اثنتين، ونادراً ما أهديها لثلاث نساء، ويستحيل عليّ أن أتجاوز هذا العدد.

امرأة واحدة من بين آلاف النساء.

واليوم، أنتِ.

أنتِ مختلفة عن الأخريات، فوسط كلّ هذا الزحام، يوجد شيء ما يميِّزكِ عن الأخريات.

إذا كنتِ مرتبطة بشخص ما وتشعرين معه بالسعادة، فقد تتأثرين بهذا التصرف، وإن لم تكوني كذلك فهذا ليس عدلاً، لأنكِ برأيي تستحقين هذا التصرّف، أكثر من أيّ امرأة أخرى.

أشكركِ على هذه اللحظة السحرية.

jamalsalaoui@yahoo.fr

تركتُ البطاقة لمونا فاختطفتها كما لو كانت خريطة كنز.

- واو! وهل نجحَت هذه الفكرة؟

أفرغتُ محتوى كأسي أيضاً مستمتعاً بكلّ قطرة فيه، يورو واحد لكلّ سنتيلتر.

- نجاحها منقطع النظير! تشعر النسوة في أسوء الأحوال بالإطراء، ويشعرن في أفضل الأحوال باضطراب إيجابي. أنا أستغلّ عنصر المفاجأة وأتلاعب بكبريائهن وذلك التباين بين اللامبالاة الباريسية ولمستي الرومانسية التي تفاجئهن كما لو أنها سقطت هكذا من السماء. كما ترين يا مونا، أنا أتوصّل إلى تسوية مناسبة بين الإغواء الافتراضي في المواقع المتخصّصة في اللقاءات بين الجنسين والإغواء المباشر الذي تتعرّض له الفتيات في الشارع بشكلٍ يومي.

أمسكَت مونا بزجاجة النبيذ لتملأ الكأسين مرة أخرى، وأطلقت صفيراً قصيراً قبل أن تقول:

- كيف تقوم باختيار فتاة واحدة من بين آلاف الفتيات؟

- هنا مَربَط الفرس يا مونا، كيف سأشرح لكِ... أكثر شيء لم أستطِعْ فَهمَه طوال حياتي هو الحب من أول نظرة. ذلك الشيء المبهَم الذي يسقط هكذا من السماء فتتجاهل الآخرين لتركّز انتباهك على شخص واحد فقط. الواقع يا مونا أن كلّ النساء تقريباً يمتلكن جاذبية معيّنة، كلّ النساء تقريباً يمتلكن ذلك الشيء الذي يدفعنا إلى الوقوع في غرامهن والوفاء لهن إلى الأبد من دون ذرة ندم. حسناً، وجب علينا الاعتراف بأنّ الحبّ من أول نظرة وحده لا يكفي... بقي فقط، لا أدري بالضبط، ولكن يمكنني القول بأنّ امرأة واحدة من كلّ ثلاث نساء جميلة جداً إن كانت هي ترغب بذلك، وإذا بحثنا أكثر سنقول بأن واحدة من كلّ عشر نساء أو حتى عشرين هي امرأة كاملة الأوصاف. كلّ واحدة بطريقتها، لكنها كاملة الأوصاف! هل فهمتِ معنى الحبّ من أول نظرة يا مونا؟ النساء القادرات على ضربي بصاعقة سقطت من السماء، قد أقابل واحدة في عربة المترو، وعشرة في كلّ ساحة من الساحات الباريسية الواسعة

المعرَّضة لأشعة الشمس باستمرار، ومثة في شاطئ البحر خلال فصل الصيف. . .

تأمَّلتني مونا طويلاً مُكتفِيَة بتناول بلحتين قضمتهما بأسنانها الصغيرة الشبيهة بأسنان القطط.

احمرّ وجهها، فكانت تلك أوّل مرة أشعر فيها بانزعاجها.

- كذاب! كذلك كان ردّها.

بحثت عن وسيلة لتغيير دفّة الحديث، فالتقطت نفساً عميقاً قبل أن تطرَح سؤالها:

- و. . . وساقك. . . هل تعرَّضتَ لحادثة؟

الواقع أنها لم تكن تختلف عن الآخرين في شيء. لقد عجزت عن مقاومة ذلك الفضول. كانت إجابتي جاهزة، ربما منذ سنوات طويلة:

- نعم، في بورت مايو، كانت الفتاة الجميلة واقفة على الجانب الآخر من الرصيف، ولم أكُن لأسمح لها بالذهاب قبل تسليمها البطاقة. . . قفزت، لكن المترو كان أسرع مني!

ضحكت.

- أبله! هل ستُخبِرني بالسبب الحقيقي ذات يوم؟

- أعدكِ بذلك.

- أنتَ شاب مختلف يا جمال، ظريف نعم، لكنك كذاب! أنا متأكدة من أنك لم تكن ستسلّمني بطاقتك، يبدو واضحاً تفضيلك للفتيات الرومانسيات الحالمات، اللواتي يتمتّعن بجمال خارق، لا حاجة لك بالفتيات المباشرات مثلي. أعتقد بأنّ هذه هي نقطة ضعف خطتك، أنت تبحث عن الشكل الخارجي وتجمع الصور كألبومات

بانيني[1] وهذا يعني أنك لن تعثر أبداً على الفتاة التي تناسبكَ أنت!

- أشكركِ على النصيحة.

كادت تلتهمني بعينيها.

- عذراً، قال صوت ما خلفنا.

كان أندريه، الذي أحضر طبقين جديدين وضعهما بحرص شديد، وقد اتخذ قراره أخيراً بطرح سؤاله:

- كنتما تتحدثان عن فتاة منتحرة، هل هي حادثة... جديدة؟

يبدو أنّ أندريه يجهَل كلّ شيء عن الحادثة.

غريب!

رويت له تفاصيل ما جرى باستثناء عثوري على وشاح البربري وانتقاله بطريقة غير مفهومة إلى عنق ماغالي فيرون. وكلّما تقدَّمتُ في السرد اتَّسَعَت عينا أندريه أكثر. وعندما أنهيت كلامي كان وجهه قد اتَّخذ لوناً أبيضَ شبيهاً بلون مفارش طاولات مطعمه.

- تذكِّرني هذه القصة بـ...

قاطعته بسرعة:

- بجريمة اغتصاب مورغان أفريل قبل عشرة أعوام.

أومأ برأسه بتثاقل كعلامة على الإيجاب.

- كنت هنا، تابع كلامه. لقيت أفريل مصرعها تحت نافذتي إن صحّ التعبير. كان مهرجان ريف أون كليف منجم ثراء بالنسبة لي، قدّمت كميات كبيرة من بلح البحر والبطاطس المحمرة والكباب،

---

(1) مجموعة بانيني: دار نشر إيطالية أسّسها جوزيبي بانيني، يقع مقرّها في مدينة مودينا الإيطالية، اشتهرت بإنتاج المجلات والملصقات المصورة للاعبي كرة القدم، بدأت صفحاتها مع انطلاق كأس العالم عام 1970. -المترجم-

شغلت مقاعد وطاولات مطعمي الحاجز البحري بأكمله. كانت الأجواء رائعة جداً في تلك الليلة، جاء الشباب من كلّ الأنحاء للمشاركة في المهرجان وكانت تلك أول وآخر مرة ينظّم فيها هذا الحدث هنا في إيبور.

- فهمت.

لم أجد ردّاً أفضل من ذلك.

- لا أتحسَّر على تلك الأيام، قال أندريه موضحاً، فقد بقي فندقي ممتلئاً عن آخره ستة أشهر كاملة بعد وقوع الحادث، جاء صحافيون ورجال شرطة وخبراء وشهود ومحامون.

- هذا خبر جميل إذاً، قالت مونا، مع الفتاة التي لقيت حتفها اليوم، قد يمتلأ الفندق عن آخره مرة أخرى!

لم أكُن واثقاً من استحسان أندريه لدعابة مونا مثلي. لم يعلِّق على كلامها مفضِّلاً الصمت للحظات طويلة قبل أن يضيف:

- المهم ألّا تكون هنالك أخريات.

- ماذا تقصد بأخريات؟

- أن تلقى أخريات حتفهن. . .

- واحدة كلّ عشر سنوات، قالت مونا بإصرار. هذا هامش معقول.

حدجها أندريه بنظرة غريبة فارغة، اخترقتها كما لو كانت غير موجودة لتذهب بعيداً نحو مكانٍ معيّن بين النجوم وشاطئ البحر، فأدركت بأنه كان ينتظر قلقاً مشترَكاً، عوض أسلوب مونا الساخر.

- لماذا يا أندريه؟ لماذا ستلقى أخريات حتفهن؟

خيِّل إليّ أنّ عشر سنوات كاملة قد أضيفت إلى عمره في ليلة

واحدة. جلس على كرسي بجانبنا متأملاً الأفق الأسود، قبل أن يقول بصوت هامس:

- يبدو أنك لا تعرف تفاصيل القصة كاملة يا جمال، لا علمَ لكَ سوى بما جرى لمورغان أفريل؟

تذكّرت السطور الأخيرة في المقالات الصحفية التي قرأتها قبل العشاء، ونظرية النقيب غريما التي انهارت، واتخاذ القضية لأبعاد وطنية.

- وقعت جريمة ثانية بعد مقتل مورغان أفريل بأربعة أشهر، فتاة من بلدة إلبوف القريبة من روان. حدث ذلك في منطقة النورماندي، بالقرب من شاطئ البحر أيضاً، عندما أوشكَت العطلة الصيفية على الانتهاء، كانت مسؤولة ترفيهٍ في مخيم للمراهقين. المغتصب نفسه، الحيوان المنوي نفسه. كما تمّ خنقها بالوشاح الأحمر بربري، جنّ الجميع في نورماندي وشعروا بالرعب والخشية من مواصلة القاتل المتسلسل لجرائمه... لكنه توقف عند هذا الحدّ... ضحيتان...

صمت طويلاً ثم أكمل.

- إلى غاية صباح اليوم.

حاولت تقديم تفسير عقلاني.

- قد يعني ذلك بأنّ هذا المريض قد سُجِنَ لعشر سنوات، لكنه عاد إلى جرائمه بعد مغادرته للسجن؟

- لم يتمّ العثور عليه أبداً، قال أندريه بصوت محايد.

بقي مفكراً للحظات، مستسلما لذكرياته قبل أن يبتعد أخيراً لتنظيف طاولة الإنجليز الذين غادروا المكان رفقة ابنهم الصغير تاركين بُحيرة من الحساء الأخضر بعد محاولاتهم المستميتة لإقناع الطفل بتناوله.

تأمّلت مونا حلوى الكريمة أمامها بصمت، ثم قالت:

- يا لها من قصة!

كنت أفكر من دون أن أرفع عيني نحوها.

جريمتا قتل.

بقي هذا المغتصِب حرّاً طليقاً لمدّة عشر سنوات، ويبدو أنه عاد إلى جرائمه صباح هذا اليوم.

لكنه لم يرتكب جريمة القتل هذه المرة.

لقد ارتمت ماغالي بنفسها في الفراغ، بعدما لفَّت الوشاح حول عنقها.

الوشاح الذي يحتوي على بصماتي...

يبدو أنّ شخصاً ما على علمٍ بذلك، وهذا الشخص يتلاعب بي ولا يمنحني المعلومات اللازمة إلّا على شكل قطرات.

لماذا أنا؟ ما علاقتي أنا بتفاصيل هذه القصة؟

تلاعبت أصابع مونا بالبطاقة.

- هل نذهب الآن؟

لم أجِبْها، وشعرتُ بخيبتها للطريقة التي انتهى بها هذا العشاء، كما لو أنّ انغماسنا في الواقع كان أقوى من اللازم.

أعادت قراءة كلمات من البطاقة.

- «أشكرك على هذه اللحظة السحرية»، سأخبركَ بسرّ يا جمال، كم كان سيُسعِدني لو أنّ مجهولاً ما قام بدسّ بطاقة كهذه في يدي على رصيف أحد قطارات الضواحي، كنت سأسمح له بإغوائي، بغضّ النظر عن هويته.

استغرقَتْ وقتاً طويلاً في تأمّل الأفق وتراقص مراكب الصيادين الفارغة عبر زجاج النافذة، ثم أضافت:

- لكنني لا أعتقد بأنّ فرصة تناول وجبة عشاء مع إطلالة رائعة كهذه ستكون سيئة إلى هذا الحدّ.

دفعَت مقعدها ثم نهضَت، فركتُ عيني وقد أقلقني تعاقب الأحداث بهذا الشكل منذ صباح اليوم، ثم منحتُ مونا ابتسامة بدا لي أنها مناسبة لذوقها.

- عندي مبدأ يا جمال، إذا نالَ شاب ما إعجابي، أُشعِره بذلك منذ الليلة الأولى!

12

لماذا أنا؟

مكتبة
t.me/t_pdf

فتحت مونا النافذة، فاجتاح صوت الأمواج المتلاعبة بحصى الشاطئ غرفة الفندق التي تحوّلت إلى ما يشبه قمرة مركب في عرض البحر. كانت مونا واقفة بين الستارتين، تستمتع بأثر الزبد المصطدم بالحاجز البحري على بشرتها العارية قبل أن تدفع به الرياح بعيداً.

كنت مستلقياً على الفراش، أتأمل ظهر مونا وساقيها الجميلتين الشبيهتين بساقي عروس البحر بعد مغادرتها للشاطئ.

غمر ضوء القمر المكان، وامتزجت الحمرة المنبعثة من الكازينو بصفرة أضواء الهالوجين.

استدارت مونا نحوي، فتأملتها مليّاً.

كانت رائعة للغاية.

عندما نزعت رباط شعرها تدلى على كتفيها كالشلال ليمنح وجهها الشبيه بوجه فأرة صغيرة شكلاً آخر.

كانت تضحك باستمرار، تملك طاقة تلقائية لا متناهية، كما لو

كانت تلعب الغميضة وباقي الألعاب الطفولية الأخرى، ما أثار غرابتي.

سخرية ذاتية لم أعرف مثلها من قبل.

أحببتها كما لو أنها كانت حبيبتي منذ زمن، وهي لم تمانع.

ألقيتُ نظرة على المنبه، الثالثة وعشر دقائق صباحاً.

أغلقَت مونا النافذة ثم تقدّمت نحوي بلا أيّ احتشام.

- أملك مسكناً مؤقتاً في فوكوت، هل تعرفها؟

نعم، أعرفها، فأنا أمرّ عبر الوادي الصغير في فوكوت كلّ صباح عندما أمارس رياضة الجري، هي واحدة من أجمل المناطق الساحلية هنا، وتضمّ بعض الفيلات التي يعود وقت بنائها إلى القرن التاسع عشر.

- يملك الأستاذ المشرف على أطروحتي منزلاً عائلياً هناك، أضافت مونا، وقد سلّمني المفاتيح لكنني لم أزُره من قبل، رأيت بعض الصور التي فهمتُ منها بأنّ الأمر يتعلق بمنزل قديم، لكنه أنيق وجميل، على طريقة فيلم سايكو[1].

- هل عاشرتِ أستاذك؟

بدت شبه متفاجئة بهذا السؤال.

- أنت تمزح! أنا أفصل بحدّة بين عملي وحياتي الشخصية، واو... لا أتخيّل قدرتي على المزج بينهما!

استلقيتُ على الفراش مرة أخرى، فانزلقت أصابعها على ظهري.

---

(1) سايكو: فيلم رعب وإثارة من إنتاج عام 1960 للمخرج الشهير ألفريد هيتشكوك. -المترجم-

- هل تعبتَ بسرعة؟ ستبدأ تدريباتك الرياضية في وقت مبكر من صباح الغد؟

- أحتاج إلى دقائق فقط، ممكن؟

لم أنتظر جوابها وأنا أرتدي سروالي ثم أفتح حاسوبي المحمول الذي تركته على الطاولة القريبة من الفراش، وكما توقعت، واصلَت مونا إطلاق دعاباتها الساخرة:

- واضح جداً أنني أقضي ليلتي مع أحد المدمنين على الحاسوب! ماذا تفعل؟ هل ستنشر تغريدة تعلن فيها عن ليلتنا الساحرة؟

ابتسمت.

- لا، ما يهمني هو ما حكاه أندريه مساء اليوم، قضية جريمتَي الاغتصاب...

- هل تقصد الحادثة القديمة قبل عشر سنوات، أم حادثة هذا الصباح؟

- الحادثة القديمة.

- ألا يمكنها الانتظار قليلاً؟

لا... أنا بحاجة لمعرفة المزيد.

- امنحيني ثانيتين فقط يا مونا، وبعد ذلك سأروي لكِ حكاية لا أعتقد بأنكِ سمعت ما هو أكثر جنوناً منها من قبل.

كنت قد اتّخذت قراري بمصراحتها بكلّ شيء، حتى تلك التفاصيل المتعلقة بالوشاح البربري الذي وصل بطريقة ما إلى عنق الجميلة المنتحرة.

استغرق حاسوبي المحمول القديم وقتاً طويلاً ليشتغل.

- من فضلك يا مونا، ستجدين في جيب سترتي حافظة نقودي وفيها كلمة سرّ الواي فاي في فندق لاسيرين.

انزلق الغطاء عن جسدها وهي تمدّ يدها عبر الفراش لتلتقط السترة وحافظة النقود، قبل أن تزودني بسلسلة الحروف والأرقام المكونة لكلمة السر.

بحثت عن بعض الكلمات بشكل عشوائي.

قاتل متسلسل
منطقة النورماندي
2004
وشاح بربري

قدَّم محرك البحث غوغل مئات الإجابات معظمها متشابهة، وظهرت بعض الكلمات في عناوين مسطرة أو سطور تلخّص محتوى المقالات.

ميرتي كامو
الخميس 26 أغسطس 2004
المحطة الترفيهية إيسني-سور-مير
اغتصاب
قتل

التصقت كلمة معينة برأسي.

إيسني-سور-مير

لم أكن قادراً -ولسببٍ أجهله- على تحديد موقع هذه البلدة في الساحل النورماندي. حاولت استعادة تركيزي، لكن مونا فاجأتني بصوتها خلف ظهري في اللحظة نفسها.

- أيها الكتوم الصغير، أنت شرطي!

شرطي؟

ما هذا الهذيان؟ استدرتُ نحوها لأقول باضطراب.

- لماذا تقولين ذلك؟

كانت تحمل نجمة شريف ذهبية وإن كانت منبعجة قليلاً.

نجمتي!

واضح جداً أنّ البحث عن حافظة نقودي لم يكُن كافياً بالنسبة إلى مونا التي انتقلت إلى تفتيش جيوب سترتي.

- ذكريات الطفولة؟ قالت مونا.

- صحيح، أعيديها إلى مكانها من فضلك.

تذكرت ذلك الصباح الخريفي الذي قام فيه مربي الحي باقتيادي إلى والدتي بعدما فاجأني وأنا أتلصّص على حكيم وأصدقائه. كنت في السابعة من عمري وقتئذٍ. وعوض معاقبتي، قامت أمي بمرافقتي إلى متجر للألعاب في المركز التجاري. كنت مهووساً في تلك الفترة بمشاهدة شرائط أفلام رعاة البقر القديمة التي يحرص عمي كمال على جمعها وترتيبها. اشترَت لي أمي هذه النجمة الحديدية المطلية بالذهب، ولا أعتقد بأنّ ثمنها يتجاوز خمسة فرنكات، ثم قامت بتثبيتها على سترتي دون أن تتفوّه بكلمة واحدة، أعادتني إلى المنزل وأجلستني أمام التلفاز لأشاهد واحداً من تلك الأفلام، لم يكُن يهمّها اسم الفيلم، أرادت فقط أن تساعدني على اختيار الموقع الصحيح في علاقتي مع القانون، إلى الأبد.

- هل قمتَ بكتابة هذه الكلمات؟

لم تقُم هذه العنيدة بإعادة النجمة إلى جيب سترتي، بل واصلَت تفحّصها بدقّة متناهية.

- هذه أفعال، تابعَت كلامها، خمسة أفعال، كلّ فعلٍ في طرف.

قرأتها بصعوبة بعدما مسحت معظمها إثر كتابتها بقلم حبر قبل فترة طويلة.

سأصبح

سأمارس

سأنجب

سأكون

سأدفع

زفرتُ في ضيق.

- لنقُل إنها مبادئ أو اتجاهات إن صحّ التعبير، هذه بوصلتي يا مونا.

- وضِّح أكثَر!

تلألأت عيناها، فأدركتُ بأنّ انتزاع النجمة من يدها أصبح مستحيلاً. انزلق الغطاء الذي لفّته حول جسدها الجميل، لكنني شعرتُ بأنني أكثر عرياً منها. تظاهرتُ باللامبالاة ثم عدتُ إلى أجوبة موقع غوغل.

كوريي دو بسان

العثور بعد ظهر اليوم على جثة بالقرب من الأفران القديمة في غراند كارير، خارج إيسني-سور-مير.

- لا تسخر مني، قالت مونا بإصرار. ما الذي تقصده بهذه الأفعال الخمسة؟

- قلتُ لكِ بأنها بوصلتي...

حاولت التملّص منها وأنا مسمَّر أمام شاشة الحاسوب، دون أن أعير أيّ اهتمام لحرصها على تفتيش حافظة نقودي، قبل أن تلتقط ورقة مطوية وتصرخ في انتصار:

- وجدتُها!

لم يسبق لأحد ما أن قام بتفتيش أغراضي بهذا الشكل، ولا يعرف أحد شيئاً عن هذه الأسطر التي كتبتها في الورقة، لكنني لم أصدر أيّ ردّ فعلٍ لمَنعها من القراءة.

كانت تقرأ بصوت عالٍ حتى خيِّل إليّ أنني أسمع قلبها يدقّ خلف نهدها.

1- **سأصبح**... أول رياضي معوّق يشارك في سباق مون-بلان الكبير.

2- **سأمارس**... الحب مع امرأة أجمل مني.

3- **سأنجب**... طفلاً.

4- **سأكون**... سبباً في بكاء امرأة بعد وفاتي.

5- **سأدفع**... دَيني قبل وفاتي.

صمتت وهي تحدجني بنظرات طويلة.

- لم أفهم كلّ شيء يا جمال... هل ستشرح لي ذلك بالتفصيل؟

ضغطت على الزر لقراءة مقالٍ آخر.

ويست فرانس، طبعة دو بايو

ما زالت مطاردة المغتصِب مستمرّة. استلم الرائد ليو باستيني من شرطة كاين قضية أفريل-كامو، كما وصلت إلى منطقة النورماندي خبيرة في علم النفس الإجرامي تمّ تفويضها من قبل وزارة الداخلية.

- هل ستشرح لي ذلك بالتفصيل؟ كرَّرَت مونا.

رفعتُ عيني عن شاشة الحاسوب متحسِّراً.

- أنتِ فتاة حادّة الذكاء يا مونا! أنا متأكد من أنكِ فهمتِ كلّ شيء، لنقل بأنها المبادئ التي توجّه حياتي، اعتبريها طموحاتي إن شئتِ. وسيلتي لمواجهة إعاقتي والتغلب عليها. لن أموت -إن أمكن ذلك- قبل وضع علامة على كلّ خانة، لا يهمّني السنّ أو المكان الذي سأموت فيه، المهم بالنسبة لي هو تحقيق هذه الأهداف...

- أنت مختلّ عقلياً!

- وهذا ما أثاركِ في شخصيّتي، أليس كذلك؟

حاولتُ استعادة هدوئي وأنا أفتح ملفاً بصيغة بي دي إف.

فرانس-سوار

يعتقد بأن القاتل المتسلسل الذي يُرعب ساكنة النورماندي شخص في العشرين من عمره تقريباً، يرتدي قبعة أديداس تجمع بين اللونين الأبيض والأزرق.

- الهدف الأول، قالت مونا، تلك الجولة في مون-بلان! هذا مفهوم، أنت تتدرّب صباح كلّ يوم، ستجري أطوار السباق نهاية

فصل الصيف، أليس كذلك؟ ما زال أمامك الوقت الكافي، لقد حقَّقتَ هدفك الأول إذاً!

ابتسمتُ بصعوبة، هل تُدرك هي شيئاً عن مدى صعوبة هذا السباق وأهمية الإنجاز الذي أطمَح إلى تحقيقه؟ إنه أصعب سباق في العالم! حلمُ طفولتي، من دون الحديث عن السباقات الإقصائية الأولية خلال الشهور التي تسبق السباق الرئيس...

- حسناً، واصلَت بلهجتها الساخرة. سأضعُ علامة على الهدف الثاني أيضاً، **سأمارس الحب مع امرأة أجمل مني**، لقد حقَّقتَ هذا الهدف أيضاً!

قالتها وهي ترمي الغطاء لتتمدَّد على الفراش، كما لو كانت تطلب مني تأكيد قصدها.

ماذا سأقول؟ هل أعترف لها بأنها أجمل فتاة مارستُ معها الحب؟

لم تنتظر إجابتي، مواصِلَة كلامها.

- الهدفان الثالث والرابع، طفل وأرملة تبكي وفاتك. حسناً يا جمال، السؤال المهم هنا هو التالي: هل أنتَ مطالبٌ بتحقيق هذه الأهداف مع المرأة نفسها؟ أقصد المرأة التي ذكَرتها في الهدف الثاني؟

واصلتُ تحديقي في شاشة الحاسوب من دون أن أفتح ملفات أخرى جديدة.

- إذاً؟ قالت مونا بإصرار. عشيقة وأم وأرملة، هل يتعلّق الأمر بامرأة واحدة أم امرأتين أم ثلاث نساء؟

- لا يهم.

- كذاب!

- لا . . . قد تكون المرأة التي ستبكي يوم وفاتي هي ابنتي بعد بلوغي سن الشيخوخة.

- جواب موفّق! نصل الآن إلى الهدف الخامس، ماذا تقصد بهذا الكلام: **سأدفع دَيني قبل وفاتي**؟ هل أقدمتَ على ارتكاب جريمة قتل؟

جلستُ على الفراش ثم وضعتُ يدي على وركها.

- أنا أقصد الدَين الذي بحوزتنا جميعاً، الحياة! ما أريد قوله هو أنني سأقدم للحياة شيئاً مفيداً قبل وفاتي. قد أنقذُ حياة شخص ما وأدفع حياتي ثمناً لذلك.

- بداية غير موفقة! لقد فشلتَ حتى في منع ماغالي من الانتحار. . .

انزلقت أصابع يدي لتلامس ساقها، يمكن القول بأنّ مونا محطِّمَة حقيقية لكلّ التابوهات، لم يسبق لي أن حدَّثتُ أحداً عن الاتجاهات الخمسة لبوصلتي، ولا حتى إيبو أو أوفيلي، فاعتقدتُ بأنه من المفيد أن أوضِح:

- وربما المساهمة في إلقاء القبض على قاتلٍ ما، ومنعه من ارتكاب جرائم أخرى.

- تقصد المغتصِب ذا الوشاح الأحمر بربري؟

- مثلاً. . .

- انسه. . .

أشارت الأرقام الخضراء الفوسفورية في المنبِّه إلى الرابعة صباحاً وثلاث دقائق. بقيت بجانب مونا وأنا أحكي لها كلّ شيء من

دون إخفاء ما يتعلق بلُغز الوشاح الأحمر الذي أحاط بعنق ماغالي فيرون. ثم ختمتُ كلامي بطرح سؤال:

- سأقابل رجال الدرك في الصباح، هل تنصحينني بالاعتراف بكلّ شيء؟

- لا أدري. الواقع أنّ عثوركَ على وشاح البربري المثبت على الحاجز ليس أمراً غريباً، ربما شعر مغتصب ماغالي فيرون بالقلق بعد قدومكَ فتركَه هناك، ولكن ما جرى بعد ذلك. . .

عقدت مونا حاجبيها مفكرة، وبدا أنفها شبيهاً بأنف سلحفاة هذه المرة، قبل أن تعتدل بحركة مفاجئة:

- وجدتها! ارتدى المغتصِب قناعاً فلم تجد ماغالي الوقت الكافي للتعرُّف على ملامحه، وعندما رأتكَ بعد دقائق قليلة والوشاح في يدكَ اعتقدَت بأنّ مغتصبها قد عاد، لقد اعتقدَت بأنك أنتَ المجرم!

استرجعتُ تفاصيل الحادث في ذهني، أتذكَّر كلّ كلمة قالتها ماغالي قبل ارتمائها في الفراغ.

لا تقترب.

لا تتحرّك، وإلّا قفزت. . .

تابِعْ طريقكَ. ارحَلْ! ارحَلْ بسرعة.

هل كنتُ مغفلاً إلى هذه الدرجة؟ هل قمتُ بإخافتها كصيّاد حاصرَ طريدته؟ شلَّها الرعب فكانت مستعدّة لفعل أيّ شيء لكي لا تقع مجدّداً بين يدي جلادها؟ حتى لو تعلَّق الأمر بوضع حدٍّ لحياتها؟

أرعَبَتْني نظرية مونا.

لو لم أقترب من ماغالي والوشاح الأحمر في يدي لما قفزت.

بدا أنّ مونا غير منتبهة لمخاوفي وهي تواصل عرض وجهة نظرها.

- قد يفسِّر ذلك قيامها بلفّ هذا الوشاح اللعين حول عنقها في أثناء سقوطها، رغم استحالة ذلك عملياً. . .

صمتت للحظة قبل أن تكمل:

- لتوجِّه أصابع الاتهام نحوك!

لتوجه أصابع الاتهام نحوي؟

تحوَّل جلدي العاري إلى ما يشبه اللحم المجمد. كيف استطاعت مونا تحمّل التصاقي بها؟ ابتعدتُ عنها فأمسكَت بكتفي بعدما انتبهت متأخرة إلى اضطرابي الشديد.

لمعت نجمة الشريف المستقرة فوق الطاولة الصغيرة القريبة من السرير، وقد شعرتُ بالحنان في لمسة مونا.

- لا تقلق يا جمال، هذا ليس خطأك، لم تكن تعرف شيئاً عن حيثيات الموضوع.

نهضتُ، فتشبثَت أصابعها بالفراغ.

- لم ترتكب أيّ جرم يا جمال! أنت بريء، لا تخَفْ من رجال الدرك، لا علاقة لأثر منيِّك بأثر مغتصب ماغالي فيرون أو حتى مغتصب الفتاتين قبل عشر سنوات.

ألقيتُ نظرة على المنحدرات السوداء عبر نافذة الغرفة، فيما كرَّرت مونا قولها:

- لا تخَفْ من رجال الدرك يا جمال.

كانت مخطئة.

كانت مخطئة بشكلٍ فظيع.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن أتأكَّد من ذلك فعلياً.

13

بين يدي جلادها؟

العاشرة صباحاً واثنتان وعشرون دقيقة، كان الظرف بجانبي على المقعد، أمام عشرات قوارب الكايك[1] المستقرة فوق حصى الشاطئ. كانت مياه الشاطئ في حالة جَزر. انهمكَ شخصان من هواة ركوب الأمواج في تثبيت نظارات خاصة تساعدهما على مواجهة مياه البحر، كان أصغرهما -بشعره المصبوغ الذي تأثّر بملوحة المياه- قد زين لوح السباحة برسمٍ لخوذة الفايكنغ، أما الآخر -الذي بدا أنه قد تجاوز الأربعين من عمره- فقد فضَّل تزيين لوحه بنموذجين لفهود النورماندي المذهّبين بخلفية حمراء اللون.

إنهما مغامران حقيقيان! كما لو أنّ ممارسة رياضة ركوب الأمواج لن تتأتى إلّا بوجود رياح باردة وبحر هائج ومنحدر بالغ الخطورة، في فرق واضحٍ مع هواة ركوب الأمواج قرب أشجار النخيل في هونولولو أو سيدني.

---

(1) قوارب الكايك: قوارب صيد تشتهر بها منطقة ساحل ألباتر. -المؤلف-

تبادلنا ابتسامة مشجّعة. انتظرت أكثر قبل الإقدام على فتح الظرف، مستمتعاً بهدوء الصباح. استيقظت للمرة الأولى حوالي السابعة والنصف صباحاً. فكانت أول حركة أقوم بها هي الإمساك بنجمة الشريف التي استقرّت فوق الطاولة المحاذية للسرير، وتثبيتها على قميص مونا الذي رمته بعيداً، ناحية القلب بالتحديد.

- احتفظي بها يا مونا، همستُ بصوت يغلب عليه النعاس، اعتبريها هدية مني لك.

التصق جسدها الدافئ بجسدي.

- واو! إنها مسؤولية كبرى!

- بل هائلة!

غلبني النوم من جديد، فاستيقظتُ بعد ساعة إضافية، لأجد رسالة مقتَضَبَة من مونا تركتها بعد ذهابها:

«يتوجب عليّ الذهاب إلى العمل، سأكون في مكان ما من الشاطئ».

أشارَت عقارب الساعة إلى التاسعة عندما نزلت إلى بهو فندق لاسيرين، مرتدياً لباساً رياضياً.

«واضح جداً أنك تراجعتَ عن التمسُّك ببرنامجكَ الصارم، قال أندريه مازحاً وهو يلقي نظرة على ساعة يده. لن يفكّروا في اختيار معوّق للمشاركة في السباق الكبير إن كان يفضِّل الاستيقاظ في هذا الوقت المتأخر...

- لنقُل إن السبب يخفّف من خطورة الوضع، أليس كذلك؟ الفتاة جميلة جداً...

- أيّ فتاة؟ قال أندريه وهو يغمزني بعينه.

واضح جداً أنه لا يفضّل لعب دور الخاطبة، وهذا بالنظر إلى معدّل أعمار أغلب نزلاء فندقه.

كنت قد خطَّطت لجولة ركض سريعة وقوية، خمسة عشر كيلومتراً باتجاه الغرب، نحو إتروتا، قبل المواصلة عبر غابة رامندوز وصولاً إلى وادي غرانفال. ألقيت نظرة على نشرة طقس أندريه قبل الانطلاق.

خطر وقوع انهيارات ثلجية
تساقطات ثلجية مرتقبة
عواصف منتظرة قبل منتصف النهار
-15 درجة مئوية
05350 سان-فيران
جبال الألب العليا

أجبرتني دعابة أندريه المعتادة على الارتجاف رغماً عني. فقد منحت أشعة الشمس بالخارج انطباعاً عن أنّ حرارة اليوم ستكون معتدلة. انطلقت بوتيرة جري بطيئة، وشعرت -بمجرد وصولي إلى الممرّ الساحلي- أنّ العشب المتيبس يُحدث صريراً مسموعاً تحت قدمي.

مررت فوق فوكوت مع بلوغي منتصف المسافة المقررة، لهثت قليلاً وأنا أتساءل عن تموقع منزل المشرف على أطروحة مونا بين تلك المنازل الشبيهة ببيوت الأقزام في غابة الغيلان. وعندما عدتُ إلى إيبور عبر الممرّ الغابوي، وجدتُ نفسي أمام شاحنة البريد الصغيرة.

تطلّع إليّ ساعي البريد كما لو كنت مراهقاً ينتظر بطاقة بريدية من حبيبته.

- رسالة تحمل اسم جمال سلاوي؟ نعم، توجد واحدة، لكنني سلّمتها في فندق لاسيرين، اسأل ديدي يا بني...

حدجته بنظرات متشككة، بعدما سيطرت على ذهني فكرة أخرى مغايرة.

- هل يمكن الوصول إلى المرسِل؟ عبر الطابع البريدي على سبيل المثال، أو عبر الختم فقط؟

بدا ساعي البريد أشبه بالأستاذ الذي يُسعِده تقديم حصص مراجعة إضافية.

- نظرياً نعم، لكنني أذكر بأنني قد تسلمت ظرفك بين يدي قبل أقل من ربع ساعة، تمّ استخدام آلة متر البريد، وهي متوفرة لدى جميع الشركات الصغيرة والإدارات الجهوية في المنطقة. ابحث عن طريقة أخرى لمعرفة هوية المعجبة التي تتحرَّش بك يا بني.

سلمني أندريه الظرف بمجرّد دخولي إلى بهو الاستقبال في الفندق.

- لقد توصّلت باشتراكك يا جمال! قل لي، هل أنت مشترك في مجلة بوم دابي أو مجلة تيليراما أم أنها مجلة بلاي بوي؟

- بيف غادجيت[1]...

لم أشعر برغبة في فتح الظرف داخل غرفتي. سطَعَت الشمس

---

(1) بيف غادجيت (*Pif Gadget*): مجلة للأطفال تتضمن لعبة صغيرة. -المترجم-

لتغمرَ بأشعتها شاطئ البحر، تقدّمت بثلاث خطوات نحو المقعد. كنت أعرف محتوى الظرف قبل فتحه.

تتمة المسلسل القضائي.

بكلّ العناصر الضرورية لفهم تسلسل الأحداث قبل عشر سنوات.

العاشرة وتسع وعشرون دقيقة، تعمَّق المغامران في إبحارهما. تذكَّرت لوهلة أنه لا يفصلني عن الموعد مع بيروز في مخفر فيكامب سوى أربع ساعات. مزقتُ الظرف ثم أخرجت الأوراق وأنا أمسك بها جيداً خشية تمكّن الرياح القوية من تشتيتها.

* * *

قضية ميرتي كامو - الخميس 26 أغسطس 2004

كان فيكتور توبيرفيل قادراً على إلقاء نظرة شاملة على حقل الذرة وهو جالس على مقعد جراره. أعتقد في البداية أنّ الأمر يتعلق بحقيبة نسيها بعض السياح، قبل أن يتبين وجود فستان ممزق، ليدرك أخيراً أنه أمام جثة فتاة.

استغرق دركِيّا سرية المحلّة في إيسني-سور-مير عشر دقائق للوصول إلى المكان. فربطا مباشرة بين الواقعة وحادثة مقتل مورغان أفريل قبل ثلاثة أشهر. من حسن الحظّ أنّ سرعة بديهتهما ساهمت في إخفاء معظم التفاصيل عن الشهود -القليلين أصلاً- في مسرح الجريمة، فيكتور توبيرفيل وابنه الذي يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً، ثم أجريا اتصالاتهما بالقيادة التي أكَّدت ذلك الانطباع

الأوليّ. تمّ حظر التواصل مع وسائل الإعلام لأربع وعشرين ساعة، الوقت الذي قد يسمح بالتوصّل إلى وجود علاقة وثيقة بين الجريمتين، قبل الإعلان الرسمي الذي سيخلف -بلا شك- حالة من القلق والخوف في الساحل النورماندي، بما يعادل الإعلان عن اندلاع حريق في غابات السواحل المتوسطية.

سيستخدم الصحافيون تلك الكلمة:

القاتل المتسلسل.

كانت الأربع وعشرون ساعة كافية لمحو كلّ الشكوك.

تجاوزت ميرتي كامو العشرين من عمرها بثلاثة أشهر، كانت مسؤولة ترفيه في مخيم صيفي للمراهقين الذين قاموا بنصب خيامهم منذ خمسة عشر يوماً في محطة إيسني-سور-مير الترفيهية. أكّد الشهود الذين رأوها لآخر مرة أنهم قابلوها حوالي الثالثة بعد الزوال، على طريق غرانكامب خارج إيسني، كانت وحدها لأنه يوم عطلتها.

أكّدت كلّ فقرة في تقرير التشريح الطبي ما خشيه كلّ المحققين في هذه الجريمة.

تعرضت ميرتي كامو للاغتصاب، ثم الخنق، باستخدام وشاح من الكشمير الأحمر، بربري على الأرجح.

كان دي إن آي منيّ المغتصِبْ مطابقاً لدي إن آي مغتصب مورغان أفريل. وقد أكّدت التحاليل المعمَّقة التي أجريت بعد نظيرتها الأولية، وجود تطابق تام بين البصمتين الجينيتين.

كانت هذه العناصر كافية للحديث عن وجود قاتلٍ واحد، لكن التقرير أضاف معلومات أخرى أكثر إثارة للقلق.

لقد سبحت ميرتي كامو عارية في البحر، قبل اغتصابها وخنقها، لم تكُن ترتدي أيّ لباس سباحة، ولا أثر لمياه البحر على ملابسها الداخلية. ولم ينتبه أيّ شاهد لوجودها في الشواطئ القريبة بعد مغادرتها لإيسني-سور-مير. كانت ترتدي فستاناً صيفياً بلون أزرق سماوي، تزينه ورود بنفسجية. فستان أنيق جداً، جرى تمزيقه طولياً بشكل شبه كامل.

كما هو الشأن بالنسبة إلى جثّة مورغان أفريل، كانت حمالة صدر ميرتي موجودة، بلون بنفسجي مشابهٍ للون الورود في فستانها، لكن لا وجود للتبان الذي لم يتمّ العثور عليه إلّا في اليوم الموالي، في المجرى المائي بفايس، وقد احتوى على آثار منيّ المغتصب. نقطة التشابه الأخيرة بين القضيتين تتعلق باختفاء حقيبة يد ميرتي، والتي بحثَ عنها المحقِّقون لأشهر طويلة، لكن بلا جدوى.

الجريمة الوحشية نفسها، المغتصِب نفسه، سلاح الجريمة نفسه، الاعتداء نفسه، التفاصيل الأخرى نفسها التي لم يتحدّث عنها رجال الشرطة.

المنهجية نفسها المتَّبعة في ارتكاب الجريمة.

سيكرر فعلته مرة أخرى.

كان ذلك استنتاج فريق التحقيق بعد أربع وعشرين ساعة على وقوع الجريمة الثانية.

لن يتوقف القاتل عند هذا الحدّ. سيضرب من جديد.

تمّ توجيه شكر محترم للنقيب فيليب غريما من سَريّة الدرك في فيكامب على مجهوده المتواصل طوال ثلاثة أشهر، مع تجنّب تذكيره

بما أشار إليه في تقريره، عن استحالة تكرار المجرم لفعلته مرة أخرى، ثم سحبت منه القضية ليتسلّمها ثنائي تمّ تكليفهما شخصياً من قبل وزير الداخلية والمصالح المعنية في المنطقة، مع ضمان تعاونه التام.

اكتسبَ الرائد في شرطة كاين، ليو باستيني، خبرة طويلة من عمله الطويل في أسلاك الشرطة، وكان على بُعد خمس سنوات من الحصول على تقاعده، ذو كياسة، ويمتلك حسّ التنظيم والعمل ضمن فريق، مع روح دعابة بريطانية، كان من نوعية نادرة، إذ يحظى باحترام رجاله ورؤسائه على السواء. كما تمّ تعويض القاضي نادو-لوكي ببول-هيجو لاغارد، قاض شاب، متحمس، ويتعامل مع وسائل الإعلام بهدوء كبير. . . وحتى إذا اتسمت تحركاته ببعض المبالغة، فسيكون باستيني قادراً على كبح جماحه. وإن كان يحلم بالمجد فما عليه سوى أرشفة تفاصيل القضية ليصنع منها رواية تحقّق مبيعات قياسية بعد إغلاق الملف. وقد ارتأى وزير الداخلية، الذي أرعبه اختيار هذا القاتل المتسلسل لفترة الدخول المدرسي لتسليط الأضواء عليه، أن يتمّ إضافة عنصر ثالث لفريق الرائد والقاضي، ويتعلق الأمر بخبيرة علم نفس الإجرام، إيلين نيلسون، التي تبلغ من العمر ستة وثلاثين عاماً، مدجّجة بعدد من الشواهد العلمية، ويقول معارفها إنها تتمتع بذكاء حادّ، فتم تكليفها بمتابعة القضية بشكلٍ مستقلّ، وتقديم المساعدة المرجوة للتحقيق.

يمكن تلخيص الأهداف المطلوبة من الفريق الثلاثي في ثلاث نقاط أساسية:

سرعة التحرك، التهوين من خطورة الوضع عند سكان المنطقة، وإلقاء القبض على هذا القاتل المهووس.

أكّدت كلّ التحقيقات عدم وجود أيّ علاقة تربط مورغان أفريل بميرتي كامو.

لقد اختار القاتل ضحاياه بشكلٍ عشوائي.

حضر خمسة آلاف شخص مراسم جنازة ميرتي كامو في كنيسة سان-جان ديلبوف، ما يعني تقريباً واحداً من كلّ عشرة مواطنين من سكان المنطقة.

تحوّلت ميرتي كامو إلى أيقونة، وكانت تستحق ذلك.

الجميع يحتقرون القاتل.

كان شارل ولويز كامو شخصين معروفين في المدينة. معروفان ومحترمان. يعمل شارل منذ عشرين عاماً كأمين متحف إيلبوف، ويحظى بسمعة طيبة باعتباره أحد أفضل خبراء الأركيولوجيا في منطقة السين، منذ فجر التاريخ قبل مئتي ألف سنة وصولاً إلى آلات خياطة الصوف في القرن التاسع عشر. أمّا لويز فكانت أستاذة للرقص، وتناضل للحفاظ على السيرك الذي يُعتبر أجمل قطعة في الجواهر التراثية للمدينة.

زوجان إنسانيان، تقدّميان، وسطيّان.

رُزِقا متأخرين بطفلة وحيدة. كانا يعلمان بأنها كنزهما الوحيد، لذلك كانا واعيين بأن ميرتي تستحقّ التمتع بحياتها وحريتها.

كانت ميرتي حريصة على المشاركة في دروس الرقص التي تقدّمها والدتها، والأوراش المتعددة في السيرك، وأيضاً في مدرسة بوشو التي احتضنت كلّ الأحرف المختصرة التي اخترعها الناشطون السياسيون في المدينة طوال عشرين عاماً، ZEP, ZUS, ZRU,

DSQ. واختلطت في أعياد ميلادها بمنزلهم الصغير المحاصَر بالعمارات والمطل على نهر السين، أغنى عائلات إيلبوف، وبنات عائلات العمال العاطلين وبنات المهاجرين الأفارقة.

كان ذلك اختيار لويز وشارل، لم يكن حتى اختياراً سياسياً، بل أسلوب حياة. كانت ميرتي ابنتهما الوحيدة، المحبوبة والمحظوظة، وكانا يريدان منها أن تكون جميلة، ليس شكلاً، فهي تملك أصلاً جمالاً أخّاذاً، لقد أرادا من ابنتهما أن تكون إنسانة جميلة، وإن كان ذلك أنانياً بعض الشيء. وأن تكتسب رؤيتهما الخاصة للحياة؛ الكرم والمشاركة والتسامح، وأن تنشر هذه الخصال في محيطها، بعد وفاتهما.

كان لويز وشارل قد قاما -قبل ولادة ميرتي نفسها- بإنشاء جمعية الغطاء الذهبي للاعتناء بالأطفال في وضعية صعبة. كان ذلك سنة 1964، بعدما تسبب انهيار صناعة النسيج في المنطقة في عطالة عدد كبير من عمال المدينة، وهو ما لم ينجح إنشاء معمل شركة رونو في التخفيف من آثاره. عملت جمعية الغطاء الذهبي على تنظيم مخيمات صيفية للأطفال والمراهقين الذين لا يملكون الإمكانات للسفر، مخيمات حرصت لويز ومعها شارل على تسييرها لمدّة تتجاوز ثلاثين عاماً، كما أدخلا ميرتي معهما إلى هذه المغامرة قبل أن تتعلم المشي، لتتحوّل الصغيرة إلى تميمة حظّ المخيم. ولم يقُم شارل ولويز بتسليم مهمة إدارة المخيم لفريدريك سان-ميشيل مدير دار الثقافة والشباب في إيلبوف إلّا سنة 1999، وهو الذي ساعد ميرتي منذ بلوغها سن السابعة عشر على أن تخطو خطواتها الأولى كمسؤولة في المخيم.

كان فريدريك سان-ميشيل يحبّ أن يناديه الجميع بشيشين،

على اسم فريدريك آخر يعزف الغيتار في فرقة ريتا ميتسوكو. كان مظهره يوحي بكونه شخصاً متحرّراً، بشعرٍ طويل ولحية قصيرة وصوت أجشّ. لكنه احتفظ رغم ذلك بنوع من التربية الصارمة وعشر سنوات من العمل في الميدان، وهو ما طمأن لويز وشارل، كما أن قيامه بجولة حول العالم وحيداً في أقل من عشرين سنة أعطته جاذبية مجنونة لا تقاومها الفتيات وإن كنّ يصغرنه بكثير.

بمن فيهم ميرتي.

رغم وجود فارق كبير في السن، كان منطقياً بعض الشيء أن يقع فريدريك وميرتي في غرام بعضهما. كانت في الثامنة عشر من عمرها، فيما تجاوز هو السابعة والثلاثين، لكن لويز وشارل لم يجدا أيّ مشكلة في استمرار العلاقة.

فريدريك أيضاً كان شخصاً طيباً ومحترماً.

تمّ الاتفاق على إقامة حفل الزفاف يوم 2 أكتوبر 2004، وقد عثر المحققون على خاتم الخطوبة في أصبعها.

كان من المفروض أن يحضر الكثيرون لحفل زفافها.

كثيرون، لكن العدد المفترض سيكون أقل من عدد مَن حضروا الجنازة.

وحَّد الثلاثي جهودهم: القاضي والرائد والخبيرة النفسية.

في بداية التحقيق، وافق القاضي لاغارد على كلّ قرارات الرائد والخبيرة النفسية، فتمّ إعداد قوائم كثيرة جداً للبصمات الجينية لسكان المنطقة والمصطافين لاستكمال خزينة بنك البصمات النورماندية الذي جرى إعداده بعد مقتل مورغان أفريل.

لم يوصلهم ذلك إلى نتيجة، باستثناء تبرئة كلّ الذين خضعوا لاختبار الكشف عن البصمة الجينية.

تمّ نشر الرسم التقريبي الذي قدَّمه النقيب غريما، للشاب الذي رآه عدد من الشهود في إيبور وهو يلفّ وشاح بربري حول عنقه، والذي يعتقد بأنّ والديه يملكان مسكناً ثانوياً في الساحل النورماندي.

الشاب الذي تحوّل مع مرور الوقت إلى المشتبه به رقم 1.

المتّهم الشبح.

لم يرَه أحد في المنطقة، أو أنّ الرسم التقريبي كان سيئاً.

ضغطت كارمن أفريل على المحققين، وفي شهر سبتمبر، قامت مجلة **المرأة المعاصرة** بتخصيص صفحة كاملة تقريباً لحوار حصري مع والدة مورغان. وكانت العبارة الأكثر تأثيراً في الحوار هي المتصدِّرة للغلاف:

«لو أنهم أخذوا كلامي على محمل الجدّ، لكانت ميرتي كامو على قيد الحياة!».

شرحت كارمن أفريل للصحافية بأنها كانت على يقين تام بأنّ ابنتها كانت ضحية مجرم سادي اختارها بشكلٍ عشوائي كما اختار ميرتي كامو عشوائياً أيضاً، وكما سيختار ضحية أخرى إذا لم يتمّ إلقاء القبض عليه في أقرب وقتٍ ممكن. كان من الممكن أن تكون ميرتي كامو على قيد الحياة إذا لم يضيع النقيب غريما وقته في الاستناد إلى فرضيته حول وقوع حادثة عرضية، عن شابّ خائف ضغط على عنق فتاة عابثة لم تكُن تمثِّل بالنسبة إليه سوى مغامرة عابرة، وبأنه لن يُعيد الكرّة من جديد. .

كان الرائد باستيني أكثر قدرة على التعامل مع الوضع، فقام باستدعاء كارمن ووعَدَها بأنّ السلطات ستضع تحت تصرّف الشرطة كلّ الإمكانات اللازمة للوصول إلى القاتل.

وكان صادقاً في كلامه.

أحاط القاضي لاغارد والرائد باستيني منطقة النورماندي بشبكة ضخمة، من باب إلى باب، جمع شهادات ودراسة لملفات معلوماتية، عوَّل باستيني على معركةٍ طويلة في مواجهة القاتل المتسلسل، وتحقيقٍ قد يكون تفصيل واحد كافياً لفكّ غموضه. ما يتطلَّب عملاً مُضنياً شبيهاً بعمل النمل المطيع والمتخصِّص... وهو ما عمل عليه النقيب غريما نفسه في فيكامب، لكن بوسائل أكبر.

أمّا إيلين نيلسون، خبيرة علم نفس الإجرام، فقد فكَّرت بطريقة أخرى، عكس الرائد باستيني، كانت تعتقد بأنّ المسألة كلها مرتبطة بشهادة واحدة.

يوجد اختلاف جوهري بين جريمتَي قتل مورغان أفريل وميرتي كامو.

خلال الأيام التي سبقت مقتل ميرتي كامو، كانت تشعر بأنها مهدَّدة.

وكان أقاربها على علم بذلك.

* * *

رفعتُ عيني، بعدما أكملت القراءة تقريباً، لكن وجود خيال معروف في الشاطئ على بعد مئة متر تقريباً، شتَّت انتباهي تماماً.

أتاراكس!

كان يرتدي السترة البنية نفسها كما لو كانت جلداً ثانياً، قديمة

وبالية، فخيِّلَ إليّ أنّ أتاراكس هو المطالَب بالانتحار برَمي نفسه من قمّة المنحدر، لا ماغالي فيرون. واصل مشيه مبتعداً بخطوات بطيئة كما لو كان ينتظر انحسار المدّ البحري.

حتى البحر يُساهم بلا مبالاته في إكمال كآبة المشهد.

أعدتُ الأوراق إلى الظرف ثم لحقتُ به راكضاً.

نحن ننتمي إلى دائرة ضيقة تضمّ ثلاثة شهود كانوا حاضرين ساعة انتحار ماغالي فيرون. وبما أنّ كلّ المؤشرات تقود إلى القول بأنّ القاتل المتسلسل صاحب الوشاح الأحمر قد ظهر من جديد بعد مرور عشر سنوات على وقوع الجريمتين السابقتين، فإنّ أتاراكس يملك بالتأكيد تفسيره الخاص لهذا التسلسل الغريب للصدف غير المتوقعة.

14

هل سيكرر فعلته مرة أخرى؟

- كريستيان؟ كريستيان لوميديف؟

تسارعت خطواتي فوق الصخور الشاطئية بأقصى ما تسمح به ساقي الاصطناعية، وقد خيِّل إليّ أنها صحراء قاحلة هطلت عليها الأمطار بشكلٍ مفاجئ، آلاف النتوءات الصخرية والوديان والتجويفات الصغيرة التي صنعتها الرياح طوال الألفيات السابقة. اصطدمت قدمي اليسرى بنتوء صخري، وكادت تنزلق على أخدود صغير. كنت أرغد وأزبد، إذا لم أستطِعْ الحفاظ على توازني بساقي المعطوبة فوق مساحة زلقة صغيرة، فلا داعي للتفكير في القدرة على تجاوز المنحدرات الجليدية في مون-بلان.

ناديت مرة أخرى.

- لوميديف!

استدار أتاراكس وتابع تقدّمي نحوه بنظراته المتعبة.

- آه. . . هذا أنت.

يبدو أنه لم يعُد يذكر اسمي. اقتربت منه ثم صافحته.

- جمال، جمال سلاوي.

تفحص سترتي الرياضية الويندوال التي ارتديتها أيضاً بالأمس وصباح كل يوم.

- أنت تمارس رياضة الجري بشكل يومي إذاً؟

- نعم...

لم أكن أملك أي رغبة في التطرّق إلى تفاصيل تدريباتي الرياضية، بل كنت أبحث عن أيّ مدخل للحديث عن قضية انتحار ماغالي فيرون.

- سأقابل رجال الدرك مرة أخرى في مخفر فيكامب، تمّ استدعائي للحضور في الثانية من بعد زوال اليوم. وأنت؟

بدا لوميديف متفاجئاً.

- أنا؟ لا! لقد وقعت بالأمس على المحضر كشاهد عادي. قال النقيب بيروز إنه سيتصل بي وقت الحاجة... ولا أعتقد بأنني سأعترض على ذلك.

خيِّل إليّ أنّ تفكيره في لغز استدعائي للمرة الثانية يستغرق منه وقتاً. امتدّت النتوءات الصخرية أسفل المنحدر إلى ما لا نهاية، كصحراء لا تضم سوى بعض الظلال السوداء لسكان إيبور، ممّن يجمعون الصدف. كانوا عشراتٍ، منقسمين إلى مجموعات صغيرة تضمّ شخصين أو ثلاثة أشخاص.

- هذا ممنوع، قال لوميديف.

- ماذا؟

- جمع الصدف والمحار، هذا ممنوع! توجد لافتة في مركز الإنقاذ تشير إلى ذلك، لكنهم يتحدّون المنع... والشرطة لا تتدخّل لمنعهم. هذا خارج عن إرادتي...

رفع صوته، ربما ليسمعه الصيادون المنتشرون في المكان.

- إمّا أنّ المسألة تتعلق بخطر معين تتأكّد معه ضرورة احترام القانون، وإمّا أنهم مطالَبون بالسماح لهؤلاء بجمع ما يريدون من صدف ومحار... أمّا أن يتمّ المنع مع بعض التسامح، فهذا نفاق واضح بالتأكيد، أليس كذلك؟

- لا أدري... لم يسبق لي جمع الصدف من قبل.

- ألا ترى معي بأنّ رجال الشرطة منافقون؟

- وأشرار أيضاً!

قطّبت جبيني كإشارة إلى امتعاضي من إمكانية تناول محار لزج تمّ انتزاعه من صخرة تعرّضت لأشعة الشمس طوال اليوم. شعرت بأنّ رد فعلي أسعدَ لوميديف قليلاً. ثم انتبهت إلى أني أناديه في سري بلوميديف، وهو اسم أكثر تسلية من اسم أتاراكس.

- هكذا إذاً، قال متسائلاً. قام النقيب بيروز باستدعائك لمقابلة ثانية؟

- نعم...

- هذا منطقي بعد كلّ ما جرى بالأمس... أنا ودنيز من دون نسيان كلبها أرنولد، لم نرَ أيّ شيء باستثناء اصطدام الفتاة بحصى الشاطئ، أنت كنت في الأعلى.

انتقلت عيناه إلى متابعة الصيادين مرة أخرى.

- تخيَّل معي ما الذي يمكن أن يحصل إذا تعرَّض شخص ما للتسمّم، أن يلقوا حتفهم كلهم أو واحد منهم فقط، شيخ عجوز أو طفل صغير، بعد تناول سلطعون أو كاري مليئة بالجراثيم هنا، بين المحطات البترولية ومحطات إنتاج الطاقة النووية، هذا أقرب ما يكون للخيال العلمي.

كنا نسمع صرخات المجموعات المكلَّفة بجمع الصدف، ورأيت على بُعد خمسين متراً مني عجوزاً يرافق حفيديه الصغيرين المزوّدين بأحذية طويلة الساق ومعاطف صفراء ودلاء هيللو كيتي.

لا، لم أكن قادراً على تخيّل ذلك.

- قضية غريبة، أليس كذلك؟ قال لوميديف.

فهمت بأنه يقصد ماغالي فيرون.

- لماذا؟

- أظن بأنّ النقيب بيروز قد أطلعَكَ على التفاصيل. لا يعتقد رجال الدرك بأنها حادثة انتحار، لقد تعرّضت الفتاة للاغتصاب، وتمّ خنقها بعد ذلك، لكن روايتك لما جرى مختلفة بعض الشيء، أليس كذلك؟

لم أجد الوقت الكافي للردّ على كلامه بعدما أكمَل بسرعة:

- الواقع أنّ روايتك حول قفز الفتاة من تلقاء نفسها قد فاجأتني، وهذا ما دفعني إلى البحث وجمع بعض المعلومات عن ماغالي فيرون.

لم يأبَه للمياه المالحة التي غمرت حذاءه وهو يقترب مني ليقول بصوت هامس:

- لقد اكتشفت عدة أمور يَصعب تصديقها.. . لنقل إنني أملك الوقت الكافي للبحث.

- كيف؟

- أنا عاطل عن العمل ومطلق، وأتقاسم حضانة الأطفال مع طليقتي، هم يتابعون دراستهم في الجانب الآخر من فرنسا...

اللعنة! كنت أنتظر معلومات إضافية عن ماغالي فيرون فبدأ يحدِّثني عن حياته الشخصية. قرَّب لحيته غير المشذَّبة من كتفي.

- كنت أعمل مهندساً في محطة بالويل لإنتاج الطاقة النووية! لم تكن وظيفة سهلة، بخاصة عندما يتعلق الأمر بمُدافِع عن البيئة مثلي. ذات يوم، قبل ثمانية أعوام، قررت التخلّي عن كلّ شيء والاستثمار في قطاع الطاقة الريحية لأنها تمثّل المستقبل. وافقت زوجتي لأنها مهتمة أيضاً بالدفاع عن البيئة، أو بالأحرى كانت كذلك. في البداية كان كلّ شيء على ما يرام، أنشأت شركة صغيرة في كاني، وقمت بتشغيل تقنيين اثنين ومسؤول تجاري، كنا نزور المزارعين في الضواحي لإقناعهم بشراء لوازم تشغيل الطاقة الريحية... لقد ناسبني هذا الاسم اللعين «لوميديف» للغاية[1].

أطلق ضحكة قصيرة ثم التقط أنفاسه، أما أنا فلا. امتزج الرذاذ برائحة عطره، واتخذ صوته نبرة ميلودرامية أقرب ما تكون للافتعال، لكنني لم أنتبه لذلك وقتئذٍ، بل بعد مرور وقت طويل جداً.

- وفجأة، أكمل لوميديف بعصبية، جاءت الشركات الكبرى، أقصد نورديكس وفيوليا وسويز، في الوقت نفسه الذي أنهى فيه قانون جديد إمكانية تركيب الأفراد للوازم تشغيل الطاقة الريحية، ومنع تركيبها من دون مراقبة رسمية ومراجعة لتخطيطات المدن. لا يحتاج الأمر إلى شرح، غرقت الشركات الصغرى في فترة لا تتجاوز ستة أشهر، واقتسمت الشركات الكبرى حصّتها من الكعكة. النتيجة؟ ارتبطت زوجتي بالزميل الذي أخذ مكاني في محطة بالويل، وغرقتُ أنا في الديون لتمويل دراسة أبنائي. الواقع أنني أتوصّل شهرياً بفواتير القروض، ومرة واحدة سنوياً ببطاقة بريدية من الأطفال.

---

(1) القصد هنا أن الاسم العائلي Le Medef يطابق الاسم المختصر لجمعية أرباب العمل الفرنسية أو Mouvement des entreprises de France والمعروفة اختصاراً بـMEDEF. -المترجم-

ذكرني لوميديف بعددٍ كبير من المتسكعين في أحياء التجزئة التي أقيم بها. وحيدون يصرون على رواية قصص حياتهم على مسامعنا، كما لو أنّ أحزانهم ستختفي بعد نقلها إلى أوّل مستمِع قادم.

- أوشكت قبل سنة من الآن على أن أصبح شخصاً بلا مأوى. من حسن حظّي أنني قابلتُ عجوزاً يبحثُ عن شخص يساعده على القيام بأعمال صيانة في منزله في إيبور. لذلك سمح لي بالمكوث في منزله الثانوي، هو لا يزوره أبداً لكنه لا يفكّر في بيعه. أعتقد بأنّ الوضع يناسبه، أليس كذلك؟ أنا أقوم بأعمال الصيانة وأشذّب العشب وأعتني بالمنزل فأحصل على إيجار مجاني. أقف هنا منتظراً، من دون اعتراض.

التقط نفساً آخر، كسبّاح أولمبي محترف، فألقيتُ نظرة على ساعة يدي، ليفهم قصدي بسرعة.

- حسناً، بالعودة إلى موضوعنا، هل حدَّثك بيروز عن المسكينة ماغالي فيرون؟

- قال لي بأنها كانت تعمل لحساب شركة طبية، وكانت تقوم بجولة لزيارة الأطباء في المنطقة، وقضت ليلتها في إيبور، وإن كان المكان الذي قضت فيه ليلتها غير معروف حتى الآن. . .

استدار لوميديف مرة أخرى، موجِّهاً بصره نحو الأطفال المرفوقين بجدِّهم، نظرات فزع كما لو أنهم كانوا مهدَّدين بالموت.

- هذا ما قاله لي أيضاً، فدفعني ذلك للبحث أكثر، كنت أتعامل في السابق مع المستشفيات القريبة، والأطباء أيضاً، أقصد مراقبة جودة الهواء وتوزيع جرعات اليود وكلّ هذا الكلام. تواصلتُ مع عدد من الأطباء العاملين في النواحي. كلهم يعرفون ماغالي. . . وجب الاعتراف بأنها كانت جميلة للغاية! كانت تعمل لحساب باير

فرانس. وقد أجمعوا على وصفها بالرقة والحزم والإصرار على الحصول على ما تريد. أعتقد بأنك تفحَّصتَ ملامحها بشكلٍ أفضل، أقصد عندما كانت على قيد الحياة. كان بإمكان فتاة بارعة الجمال كهذه أن تقترح عليهم فطريات مهلوسة مضادة للإشعاعات وكانوا سيقبلونها على الفور. باختصار شديد، يبدو أنها كانت فتاة بلا ماضٍ...

يملك لوميديف موهبة إجبار الآخرين على مواصلة الاستماع إلى سرده.

- ماذا تقصد بـ«يبدو»؟

تقدم بخطوة واحدة فارتسَمَ خطّ أسفل حذائه.

- لقد تسرَّبت المياه إلى داخل حذائي! سأعود إلى البلدة. هل ستلحق بي؟

لم أتحرَّك قيد أنملة وأنا أقول بإصرار:

- ما الذي عرفته عن ماغالي فيرون؟ أنها لم تكن فتاة بلا ماضٍ؟

- قلت لك اتبعني، ستفهم كلّ شيء...

لحقتُ به مرغَماً، وأنا أفكّر في أنّ إقامة كريستيان لوميديف في المكان منذ أزيد من عشر سنوات ستدفعه هو الآخر إلى الربط بين انتحار ماغالي فيرون ومصرع مورغان أفريل وميرتي كامو. قضية الوشاح الأحمر... تردَّدتُ في الإشارة إلى ذلك، لكنني فضَّلتُ المشي بصمت.

اعتراف بعد آخر...

تجاوزنا فندق لاسيرين، ثم دخل لوميديف شارع إيمانويل فوي، الشارع التجاري في إيبور.

- سترى. قال بحزم. هذا لا يصدَّق!
توقف أمام دار الصحافة ليقول:
- انظر هنا، إلى الصحف في واجهة العرض.
قرأت عناوين صحف **باريس نورماندي**، **لوهافر بريس**، **لوكوربيه كوشوا**. لم أنتبه لوجود أي شيء، فحدجته بنظرات متسائلة.
- لا... لا أرى شيئاً.
- هذا هو قصدي! ألا تفهم؟ هذا هو الأمر الذي لا يصدّق. قفزت الفتاة من قمة المنحدر بعد اغتصابها وخنقها، وفي الغد، تتجاهل كلّ الصحف المحلية هذه الحادثة...
فجأة فهمتُ قصد لوميديف، وإن حاولتُ دَحض أدلته رغم ذلك.
- لا أعتقد بأنّ حادثة انتحار قد تستحق الحديث عنها في الصفحة الأولى من الجريدة...
أفسحت المجال لشخص يحمل عدداً من جريدة **ليكيب** تحت إبطه ليغادر المكتبة. تتحدث صحيفة **لوكوربيه كوشوا** عن توسّع المجتمع الحضري في فيكامب، و**لوهافر بريس** عن تناقص فرص الشغل في بورت جيروم، و**باريس نورماندي** عن ارتفاع أسعار العقار في المنطقة الساحلية.
- الصفحة الأولى؟ قال لوميديف بنبرة أكثر صرامة. لا تقُل لي بأنّك تربط بين الوقائع. لقد تحدّثت مع سكان المنطقة، أليس كذلك؟ أنت على علم بما جرى. لقد عاد هذا القاتل المتسلسل من جديد! اغتصاب وخنق فتاة شابة بوشاح أحمر باهظ الثمن! اللعنة، لقد حدث هذا منذ عشر سنوات لكنني أتذكّره كما لو أنه جرى

بالأمس. لقد احتلّت هذه الحوادث عناوين الصفحات الأولى للجرائد، ولستّة أشهر متواصلة، والآن؟ لا شيء! لا شيء البتة!

- الحادثة الأخيرة جديدة، قلت. لقد وقعت صباح أمس. . .

- بالفعل، رباه، هذا يعني أنها تشكِّل سَبْقاً صحفياً لكلّ هذه الجرائد، كيف تجاهَلَتْها بهذا الشكل!

تفحَّصتُ الصفحات الأولى لهذه الجرائد على أمل العثور على خبرٍ واحد، وأفسَحَ لي لوميديف المجال للقيام بذلك، واثقاً من نفسه بعدما سبقني إلى ذلك.

حاولتُ البحث عن تفسيرٍ مُغايرٍ بالقول:

- إنهم رجال الشرطة، لقد منعوا تسريب أيّ معلومات منتظرين ظهور أيّ جديد. يشبه ذلك. . . يشبه وقوع حادث في محطة للطاقة النووية، عندما يمتنعون عن الإفصاح عن التفاصيل المتعلقة بالكارثة قبل إبعاد الخطر عن السكان. . .

لم يقتنع لوميديف بكلامي.

- وكيف سيتمكن رجال الشرطة من منع تسريب المعلومة؟ نحن ثلاثة شهود، وقد حدَّثتُ كلّ أصدقائي عن الحادث، وربما الشيء نفسه بالنسبة لك، أليس كذلك؟ ولا أعتقد أيضاً بأنّ دنيز من النوع القادر على الاحتفاظ بمثل هذه المعلومات لنفسه. . . من دون أن ننسى كلّ أولئك الذين انتبهوا لوجود رجال الشرطة في الشاطئ يوم أمس. . . ألَم يطرح أحد من هؤلاء ذلك السؤال على نفسه؟ في بلدةٍ كإيبور لا يحدث فيها أيّ شيء مثيرٍ للانتباه ولا يجد فيها الشيوخ أيّ شيء لتمضية الوقت إلّا إذا تعلَّق الأمر بحادثة رهيبة كهذه؟

كان كريستيان لوميديف على حق. يستحيل عدم توصّل أيّ صحافي بمعلومات كهذه، وعدم الربط بينها وبين قضية أفريل كامو

قبل عشر سنوات، يستحيل ألّا يعلم أحد شيئاً عن حادثة الأمس، باستثنائي أنا ولوميديف ودنيز...

لكن هذا ما حصل.

- إذاً؟ قال لوميديف بإصرار. هل عندك تفسير مقنِع لما يجري؟

حرَّكت رأسي نافياً.

- ولا أنا. صدّقني يا بني، تفوح هذه القضية برائحة غير طبيعية.

انتبهت للطريقة الودّية التي يخاطبني بها، كما لو كان يبحث عن رفيق في تحقيق يتجاوزنا نحن الاثنين. وجّه بصره وأصبعه ناحية بيت صغير بمصاريع نوافذ زرقاء اللون وجدران من السيليكس مزيَّنة بالطوب الأحمر. لم تكُن إقامة مؤقتة سيئة بالنسبة إلى شخصٍ وجد نفسه حتى وقت قريب بلا مأوى.

- أنا أقيم هناك! ما رأيك بفنجان قهوة؟

شعرتُ بأنّ الوقت يضيق شيئاً فشيئاً، لم يعُد يفصلني عن موعدي مع بيروز سوى ثلاث ساعات فقط.

- لا، آسف. هل تعرف أين تقيم دنيز، الشاهدة الثالثة على الحادث؟

بدت علامات الخيبة على ملامح كريستيان لوميديف.

- مع أرنولد بلا شك.. (رسم على وجهه ابتسامة) وباستثناء ذلك لا علمَ لديّ بعنوانها. لم أرَها منذ الأمس، ولا أعرف حتى اسمها العائلي. أنت تقيم في فندق لاسيرين الذي يديره أندريه جوزياك، أليس كذلك؟

- بلى، ولأسبوع كامل.

- حسناً، إن توصلت إلى معلومات جديدة سأخبرك. سأواصل البحث لمعرفة معلومات أخرى عن ماغالي فيرون. سأحاول كسر حاجز الغموض المحيط بالقضية، أنت تفهم قصدي. لقد أجريت مكالمة هاتفية بالأمس مع الدكتور شاريي، يملك عيادة في دودفيل، وهو واحد من الأطباء الذين زارتهم ماغالي فيرون يوماً واحداً قبل قفزتها الأخيرة. هذا شخص آخر على علم بتفاصيل الحادث! يمكن القول بأن شاريي ليس من النوع الذي يمكن إثارة إعجابه بسهولة، سترى الموظفات العاملات في عيادته، كلهن رائعات الجمال. . . ومع ذلك فقد وقع أسير الجمال الساحر لماغالي، بل وحاول إغواءها. تجاذب معها أطراف الحديث فقالت له بأنها تتدرّب على احتراف الرقص، فدعاها لمرافقته إلى علبة ليلية ليثبت قدرته على مراقصتها، لكنه فهم بأنها تحترف الرقص الشرقي الحديث، أو شيئاً من هذا القبيل. . .

الرقص الشرقي. . .

شعرت بما يشبه التيار الكهربائي يسري في أطرافي، وحاولت خلايا دماغي الاتصال ببعضها مرة أخرى.

واصل كريستيان لوميديف كلامه، متخيّلاً ماغالي فيرون وهي ترتدي لباس الساري، وصديقه الطبيب منشغل بمحاولة إثارة إعجابها.

لم أعُد أستمع إلى كلامه.

اكتفيت بتحيّة من يدي.

- إلى اللقاء يا كريستيان، أرجو أن تُعلِمني بجديدِ بحثك.

بقي واقفاً، وقد صُدِمَ برحيلي المفاجئ.

لم أركض، فالفندق لا يبعد عن المكان سوى مئة متر.
الرقص الشرقي.

لم أجد أندريه في مكتب الاستقبال، فصعدت درجات سلم الفندق وفتحت الباب ثم هرعت إلى حاسوبي المحمول وقمت بتشغيله وأنا ألعن مسبقاً ذلك البطء الذي يميّزه، كانت سرعة نظام ويندوز أقل بكثير من سرعة الأفكار المتزاحمة داخل جمجمتي.

الرقص الشرقي.
لقد قرأت هذا لأول مرّة بالأمس في واحد من تلك الأظرفة البنية.
في المعلومات المتعلّقة بمورغان أفريل!
قمت، في الوقت الذي بذل فيه الحاسوب كل ما في وسعه للعمل بصورة طبيعية، بوضع كلّ الأوراق المتعلقة بتفاصيل حياة مورغان أفريل على السرير، مقالات صحفية، تحقيقات الشرطة، حوارات. . .
أخيراً أشار السهم في شاشة الحاسوب إلى أنه مُتاح للاستعمال.

كتبت الاسم وأنا أشعر بحرارة غريبة تجتاح كلّ أنحاء جسدي.
ماغالي فيرون.

ظهرت عشرات الأجوبة.
فيسبوك، تويتر، لينكد إن، دايلي موشن. . .

أمسكت بورقة وبأول قلم حبر أجده أمامي، ثم رسمت خطاً، خانة لماغالي وأخرى لمورغان، وبدأت بتسجيل كلّ المعلومات التي وجدتها، بحسب درجة أهميتها.

مكان وتاريخ الولادة، المدارس التي تابعت فيها دراستها، الأذواق الموسيقية، الهوايات، البلدان التي زارتها...

تتابعت الكلمات على الصفحة، بلا وعي مني تقريباً.

كلّ معلومة أكثر غرابة من سابقتها.

بحثت أكثر فأكثر، حتى تراقصت السطور أمام عيني بشكلٍ سريالي.

هل يمكن للصدفة أن تسخر مني إلى هذا الحدّ؟

15

فتاة بلا ماض؟

- ألو، مونا؟ أين أنت؟

- جمال؟ استيقظت! أنا عائدة من غرينفال عبر الطريق الساحلية. أقترب من الوصول إلى إيبور.

- حسناً، سألحق بك. أريد التحدّث معك، أسرعي! الموضوع في قمة الغرابة.

- هل له علاقة بالقاتل المتسلسل؟

- بل له علاقة بضحاياه.

وصلتُ إلى حاجز الأمواج، فسمعتُ صوتاً ينادي باسمي.

- جمال، أنا هنا!

مونا.

كانت جالسة على مقعد الأرجوحة في حديقة الألعاب الصغيرة والقريبة من الشاطئ، وتضمّ مزلقة وحائطاً صغيراً للتسلّق وجسراً صغيراً للّعب. كانت تتأرجح بهدوء، كما لو أنها تبحث عن تجفيف

سترة النيوبرين التي فتحت سلسلتها وصولاً إلى نحرها. وقد وضعت عند قدميها حقيبة ظهر تضمّ تشكيلة متنوعة من الحصى الشاطئي النادر القادر على تطوير الصناعة المعلوماتية.

اقتربت منها، فأصابني تفصيل صغير بالاضطراب. كانت قد ثبتّت على سترتها نجمة شريف. مَن الذي سأطلعه على هذه الاكتشافات الغريبة إن لم يكن هذه الفتاة؟

جلستُ أمامها، على حافة الحوض الصغير الذي لا يمكن لأطفال المنطقة استخدامه إلّا في الأيام المشمسة (إن كانت موجودة هنا أصلاً).

تطلّع إلينا نموذج سمكة نحاسية، يفترض أن يَقذف المياه في الحوض، لكن الفم بقي مفتوحاً وفارغاً.

- ماذا إذاً؟ سألتني مونا. ما الذي أردتَ إطلاعي عليه؟

سلّمتها الورقة التي ملأتها بملاحظاتي.

- انظري يا مونا! خانتان. واحدة لماغالي فيرون التي لقيت حتفها صباح أمس، وواحدة لمورغان أفريل التي قتلها شخص ما قبل عشر سنوات. لقد قمتُ بتجميع كلّ المعلومات المتعلقة بهما. اسمعي هذا... كانت مورغان أفريل معجَبَة بفِرَق الروك التي طبعت سنوات السبعينيات، بينك فلويد[1]، ييس[2]، جينيسيس[3]، هذا مذكور في تقرير التحقيق، وكان ذلك سبباً في إصرارها على حضور

---

(1) بينك فلويد: فرقة روك إنجليزية شهيرة، طبعت الموسيقى العالمية خلال سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، وتميَّزت بتفرّدها على مستوى الموسيقى وكلمات الأغاني. -المترجم-

(2) ييس: فرقة روك إنجليزية، تأسست سنة 1968. -المترجم-

(3) جينيسيس: فرقة روك إنجليزية، تأسست سنة 1967. -المترجم-

حفل ريف أون كليف في إيبور. كانت ماغالي فيرون عضوة في بعض الصفحات الافتراضية التي تجمع عشاق هذه النوعية من الموسيقى على موقع فيسبوك. ثلاث صفحات بالضبط. بينك فلويد وييس وجينيسيس.

- مثل الآلاف من عشاق هذه الفرق، أليس كذلك؟

أصدرت أرجوحة مونا صوتاً شبيهاً بصوت طائر حزين، فيما خفضت بصري مرة أخرى.

- حسناً، سأواصل. كانت مورغان مهووسة بتعلّم الرقص الشرقي في نوشاتيل.

- أعرفه، الرقص على طريقة أفلام بوليوود، لقد تحوّل إلى موضة الآن...

- ماغالي أيضاً كانت تتعلم الرقص الشرقي في الهافر.

- قلت لك...

- إنها مصادفة! استعدي للقادم يا مونا. هذه مجرد بداية لما هو آتٍ. تابعت مورغان أفريل دراستها في مؤسسات عمومية موجودة في مسقط رأسها، نوشاتيل-أن-بري، بين عامي 1986 و2003، لقد قمت بنقل أسمائها: مؤسسة شارل بيرولت للتعليم الأولي ومؤسسة كلود موني للتعليم الابتدائي وإعدادية ألبيرت شويتزر وثانوية جورج براسنز. مسار كلاسيكي، يشبه مسار المئات من أبناء تلك المدينة. لا علاقة لكلّ ذلك بماغالي فيرون، التي تقطن بفال-دو-مارن جنوب باريس، بعد اجتيازها للمرحلة الابتدائية ستتابع دراستها في إعدادية منطقة كريتاي... بنظرك، ما اسم هذه الإعدادية؟

أصدرت أرجوحة مونا عدة أصوات أجابت بها عن سؤالي، فكان ردّي أقرب للهتاف.

- ألبيرت-شويتزر!

مالت الأرجوحة قليلاً، وبدت علامات المفاجأة على عيني مونا، لكنني أكملتُ بالحماس نفسه.

- قولي إنها صدفة أخرى! كانت الثانوية التي تابعت فيها ماغالي دراستها في كوركورون، برأيك، ما اسم هذه الثانوية؟

- جورج-براسنز؟ قالت مونا بحذر.

- صحيح! لقد تأكّدت من ذلك، عدد الثانويات التي تحمل اسم جورج-براسنز في فرنسا أقل من عشرة... من بينها واحدة في نوشاتيل-أن-بري وواحدة في كوركورون.

- هذا غريب طبعاً، ولكن...

لم أترك لها المجال لالتقاط أنفاسها.

- فيما بعد، درست مورغان وماغالي الطب، مورغان في روان وماغالي في جامعة إفري-فال-ديسون.

وضعت مونا قدمها على الأرض لتوقف تأرجحها.

- ربما كانتا من عائلة واحدة؟ أو كانتا صديقتين؟

- لا، لم أجد أيّ أثر لماغالي فيرون في كلّ المقالات وملفات التحقيق حول قضية أفريل. لا تنسي بأنّ ماغالي كانت في العاشرة من عمرها عندما قتلت مورغان، ولم تكن تقطن بمنطقة النورماندي.

واصلت الرياح تحريكها للأرجوحة التي تركتها مونا. رياح باردة أجبرتها على إغلاق سترتها بإحكام، فيما لمعت نجمة الشريف المثبتة ناحية قلبها.

- حسناً، لنفكّر بهدوء. أنتَ محقّ في هذه النقطة، هذه ليست مصادفة. توجد علاقة ما بين الفتاتين... على الأرجح، لم تكن

مورغان تعرف ماغالي فيرون. إذ تصغرها بعشر سنوات. وكانت تقطن بإيل-دو-فرانس.

انعقد حاجباها، وبدا أنفها الصغير شبيهاً بأنف أرنبٍ حذر يتشمّم محيطه.

فجأة، لمعت عيناها في انتصار.

- وقد يكون العكس ممكناً يا جمال! ربما سمعت ماغالي بقضية أفريل والقاتل ذي الوشاح الأحمر. كانت في العاشرة من عمرها وقتئذٍ، ربما أثرت فيها هذه القصة بشكلٍ كبير... إلى حدّ التشبّه بها ونقل أذواقها وهواياتها وحتى اختيار إعدادية وثانوية باسم الإعدادية والثانوية نفسهما التي تابعت فيها مورغان أفريل دراستها...

أظهَرتُ الاستياء وأنا أجيبها:

- وصولاً إلى وضع حدّ لحياتها بعد عشر سنوات، وبالطريقة نفسها؟ أن تتعرّض للاغتصاب بشكلٍ متعمّد؟ أن تُحاكي جريمة خنق باستخدام وشاح بربري؟

التقط أنف مونا الوردي أنفاسه بقوة:

- يصعُب تصديق ذلك، أوافقك الرأي.

اقتربت من مونا قبل إكمال كلامي، وقد تردّدت في الالتصاق بسترتها الرطبة واحتضانها.

- ليس هذا كلّ شيء يا مونا. لم يكُن نقل طريقة وفاة مورغان أفريل كافياً بالنسبة إلى ماغالي فيرون. (انخفض صوتي قليلاً). لقد ولدت يوم 10 مايو 1993، أي عشر سنوات بالضبط بعد ولادة مورغان أفريل.

- هل ولدت مورغان يوم 10 مايو 1983؟

- نعم، في مستشفى فيرناند-لانغلوا في نوشاتيل-أن-بري.

تمتمت:

- وأين. . . أين ولدت ماغالي فيرون؟

- بعيداً عن النورماندي بما يقارب ستة آلاف كيلومتر، في الضاحية الشمالية للكيبيك. . .

سمحت لمونا بالتقاط أنفاسها، عندما أطلقت زفرة ارتياح، قبل أن أحبس أنفاسها مرة أخرى بقولي:

- برأيك، ما اسم هذه الضاحية؟

أجابت بصوت مبحوح، كما لو أنّ الجواب بقي حبيس حلقها:

- نوشاتيل؟

- نعم! وإن بدا ذلك أغرب من الخيال، لقد ولدت في نوشاتيل، وهي بلدة صغيرة بين شارلزبورغ ولورتفيل.

فجأة، لانت ملامح مونا الشبيهة بملامح فأرة، كما لو أنها استسلمت ولم تعُد راغبة في الفهم، ثم اقتربت مني لتلتصق سترتها النيوبرين بسترتي الويندوال الرياضية، فبدا الاتصال بيننا غريباً ولزجاً بعض الشيء، كرائدَي فضاء على سطح كوكب المريخ.

- لم تستنسخ ماغالي فيرون وفاة مورغان أفريل فقط، كرّرت قائلاً، بل استنسخت ولادتها أيضاً! لقد أجريت بحثاً واكتشفت وجود خمس بلدات تحمل اسم نوشاتيل، أربع بلدات في فرنسا وواحدة في كندا. جاءت ماغالي فيرون إلى كريتاي في فرنسا في سن السابعة.

- اللعنة يا جمال، ما هذه الحكاية الغريبة؟

- لا أدري يا مونا، لا أدري. شيء ما غير طبيعي في الموضوع، لا بدّ من وجود تفسير منطقي.

همست في أذنها بعدما التصقتُ بها أكثر:

- أن تستنسخ حياة شخص آخر، كلّ المراحل، من البداية إلى النهاية، كلّ الأذواق والأماكن، كمرآة عاكسة، لكن عن بعد، ما يشبه الهولوغرام. اللعنة، هذا مستحيل!

قالت مونا بلا اقتناع حقيقي.

- قاتل متسلسل يبحث عن ضحايا يشبهون بعضهم؟ هل تفهم قصدي؟ فتيات متشابهات، ربما يذكِّرنه بوالدته أو حبيبته السابقة أو خيال جنسي معين.

- ولكن العكس هو ما يجري هنا يا مونا! كما لو أن هذه الفتاة المدعوّة ماغالي فيرون قد سعت إلى أخذ مكان الضحية، أن ترتدي ثوب الفريسة لجذب المفترس إليها...

- حتى لو تطلّب الأمر إنهاء العملية بنفسها، أضافت مونا. وصولاً إلى إحاطة سلاح الجريمة بعنقها. آخر حركة تقوم بها في حياتها.

لم أجِبْها، وقد تناهى إلى مسامعي صوت هدير الأمواج، فطبعت قبلة هادئة على شفتيها ومرّرت يدي خلف ظهرها. تلاحقت أنفاسها، فيما أحسستُ بوجود انتفاخ بسيط في جيب سترتها. فامتدت أصابعي نحوه لأكتشف وجود وشاح حريري أصفر اللون.

- هذا لشعري، همست مونا. لنقل بأنه نوع من الاحتياط النورماندي الأصيل.

انزلق الوشاح بين أصابعي، فرفعته بيدي ثم قربته ببطء شديد ومن دون تفكير من ذقنها.

- كم من الوقت قد يستغرقه لفّ هذا الوشاح؟

قرّبته من عنقها، فغامت عيناها، وقد قرأتُ فيهما الخوف والذعر المفاجئ، حتى الفراغ.

كم أنا مغفل!

تراجعت، لكن بعد فوات الأوان.

كان صوتها باكياً وهي تقول:

- من فضلك يا جمال، هذه ليست لعبة. . .

قلت بتلعثُم:

- اعذريني، لم أكُن أقصد. . .

انتزعت الوشاح الأصفر من يدي.

- انسَ الأمر، أنا المطالَبَة بالاعتذار، لم يكن هنالك أيّ داعٍ لهذا الخوف.

تأملت الوشاح في يدها طويلاً، قبل أن تقول:

- تريد معرفة وجهة نظري يا جمال؟

- أيّ وجهة نظر؟

- هذا غير ممكن.

ألقت نظرة على المنحدر والمعقل الدفاعي القديم والخرفان، المكان نفسه الذي شهد ارتماء ماغالي في الفراغ، ثم كرّرت قولها:

- هذا غير ممكن، أن تلفّ فتاة وشاحاً حول عنقها في أثناء سقوطها، مستحيل!

قالتها قبل أن تفاجئني بلفّ الوشاح الأصفر حول عنقها.

كم استغرق منها ذلك؟ أقل من ثانية؟

- قد لا تكون تلك سوى مسألة وقت يا جمال! هذا ممكن عملياً، إن صحَّ التعبير. ولكن هل تتخيّل ذلك؟ أن تقوم بهذه الحركة

وهي ترتمي في الفراغ أو تسقط نحو الأرض إن تحرينا المزيد من الدقة... وتجرّدنا من كلّ التفاصيل المتبقية. هذا غير ممكن يا جمال، وهذا هو رأيي. لكنني أصدِّقك رغم ذلك. لم يكن الوشاح محيطاً بعنق ماغالي في الأعلى، لكنه أحاطَ بعنقها في الأسفل...

- لا بد... لا بد من وجود تفسير منطقي...

- سبقَ وأن قلتها يا جمال.

أسكتني ردّها. كانت محقّة. شيء ما غير طبيعي في هذه القصة.

ورغم ذلك...

أعادت مونا الوشاح إلى جيبها، ثم جلسَت على مقعد دراجة الألعاب وهي ترمقني بنظرات شبيهة بنظرات ممرّضة تحاول إقناع مريض عنيد بالتعاون معها.

- إذا قمنا بتلخيص كلّ المعلومات التي بين أيدينا يا جمال، سنقول بأنّ قاتلاً متسلسلاً أقدم على قتل فتاتين سنة 2004، مورغان أفريل وميرتي كامو. وبعد عشر سنوات تلقى فتاة أخرى حتفها في ظروف مشابهة. نحن أمام احتمالين، أولاً الاحتمال المجنون، حول هذه الفتاة التي تُعيد إنتاج مصير مورغان أفريل نفسه، حياتها، أذواقها الموسيقية، مدارسها، هواياتها... وصولاً إلى وضع حدّ لحياتها بالطريقة نفسها!

- واختيار تاريخ واسم مكان ولادة مورغان نفسهما، أضَفت. يا للغباء!

- يا للغباء! أتفق معك. أمّا الاحتمال الثاني، والأكثر منطقية، هو أنّ القاتل قد عادَ من جديد، لكن ليس بطريقة عشوائية هذه المرة، عطفاً على ما نعرفه عن ماغالي فيرون. هو يختار ضحيته،

يغتصبها، ثم يخنقها. وقد تكون هذه وجهة نظر رجال الأمن أيضاً، أليس كذلك؟

- هذا بدرجة الغباء نفسها! لم تمت ماغالي خنقاً، بل انتحرت.

هزّت مونا رأسها ببطء، وصمتَت للحظات مفكرة.

- لا داعي للتذكير بأنني على موعد مع النقيب بيروز بعد أقل من ساعتين، ولا أخفي عنكِ يا مونا بأنني أخشى تبعات هذا اللقاء. أنا... أنا أملك كلّ أوصاف النموذج المثالي للمجرم...

- هم لا يملكون أيّ دليل ضدكَ. هذا ليس منيّكَ يا جمال! هل عندك سوابق؟

- لا!

- لم تقتل أحداً من قبل؟ لم تسرق أحداً من قبل؟

تأرجَحَت على الدراجة بحركات بطيئة هادئة، وقد بدت بسترتها وشعرها المتدلي على كتفيها شبيهة بأحد أعضاء فرقة ملائكة الجحيم[1] راكباً على دراجة هارلي صغيرة.

منَحتها ابتسامة خجولة شبيهة بابتسامة دروبي[2] التي أعلم بأنها تمنحني جاذبية خاصة.

- نعم سرقت، لأدفع أقساط دراستي، لكنني لم أقَع في قبضة الشرطة أبداً، كانت خططي فعالة للغاية.

---

(1) ملائكة الجحيم: نادي للدراجات النارية يشتهر بركوب أعضائه لدراجات هارلي دافيدسون، نشأ في الولايات المتحدة الأميركية قبل أن ينتشر في عدد من الدول الأخرى. -المترجم-

(2) دروبي: شخصية كرتونية لكلب كسول وحزين، وإن كان قادراً على القيام بإنجازات مدهشة. -المترجم-

تألّقت عيناها وقد بدا أنها مرتاحة لتغيير موضوع النقاش.

- كيف؟

- كنت أسرق فقط خلال فصل الصيف، بالقرب من الأنهار، في تارن أو أرشاديل، المواقع التي تشهد وجود قوارب الكايك. كنت أتسلل إلى الأماكن التي يترك فيها السياح وثائقهم الثبوتية وساعاتهم وهواتفهم النقالة، غالباً عندما يبحثون عن صخور مناسبة لممارسة رياضة الغطس. يصعب القيام بمثل هذه السرقات الصغيرة في المخيم أو على الشاطئ. لكن لا أحد يشكّ في أمرك إن قمت بارتداء سترة إنقاذ صفراء اللون مقابل عدّة قوارب كايك متشابهة.

كانت مونا على وشك السقوط من الدراجة الصغيرة.

- اللعنة، هذه حيلة رائعة، أحقاً فعلتَ ذلك؟

قالتها وهي تتفرّس في ملامحي بانتباه شديد.

- ربما... أنا أهوى اختلاق القصص الخيالية.

كان ردّها أشبه بالصفعة.

- وهل اختلقتَ قصة هذا الوشاح الأحمر أيضاً؟

يبدو أنها قالتها من دون تفكير، كردّ فعلٍ سريع. أو هذا ما ظننته وقتئذٍ على الأقل، أنها لم تتعمّد قول ذلك.

شعرتُ بالانقباض.

- اللعنة، حتى أنتِ يا مونا!

- أنا ماذا؟

- اسمعيني يا مونا، لا مجال للسخرية مع موت هذه الفتاة واغتصابها. يستطيع طفل في الرابعة من عمره التفريق بين الجدّ والهزل. كنت أعتقد بأنكِ لم تنسَي ذلك يا مونا...

حدجتُها بنظرات طويلة ثابتة، قبل أن أكمل.

- إذا لم أمنحكِ ثقتي، فلمَن سأمنحها إذاً؟

بدا عليها الانزعاج، فنهضت ثم قالت وهي تحاول المحافظة على هدوء نبرتها:

- لا بأس يا جمال، اهدأ. أنا أصدِّقك.

تسارعت دقات قلبي وقد شعرتُ بقلق حقيقي.

أنا لا أستطيع مواجهة هذه القضية المجنونة وحدي.

إذا تخلّت مونا عني...

إذا تخلّت مونا عني، فمَن سيصدقني؟

رجال الدرك؟

أندريه؟ كريستيان لوميديف؟ دنيز وأرنولد؟

أنتم؟

16

مصادفة أخرى؟

كان للصمت أن يستمر بيني وبين مونا إلى الأبد، لكن صوت أغنية **لا غرانج** انفجر قبل ابتعاد الباحثة عني.

إنها رنة هاتفي المحمول! لقد توصَّلتُ برسالةٍ نصيّة قصيرة.

أخرجتُ الهاتف من جيبي بحركةٍ عصبية.

- واحدة من معجباتك؟ تساءلَت مونا بفضول.

بدَت سعيدة بقدوم عنصر خارجي لتمزيق شبكة العنكبوت التي يقاتل كلانا للخروج منها.

قرأتُ الرسالة ثم اخترت تهدئة الوضع.

- هل ستصدِّقينني إنْ قلتُ نعم...

- شابّة وجميلة؟

- جميلة، نعم. لكنها صغيرة جداً.

- كم عمرها؟

- خمسة عشر عاماً...

استندت مونا إلى أصابع قدميها لترتفع ببضع سنتيمترات إضافية وهي تحدجني بنظرات مصدومة.

- اسمها أوفيلي. مراهقة من نزيلات مؤسسة سانت-أنطوان. اغتصَبَها والدها. كانت تلك هديته لها في عيد ميلادها الثامن. وقد تسبَّب لها ذلك في بعض الآثار الرجعية: عنفٌ وتصرّفات مزاجية واضطرابات جنسية... لقد عجز الكبار، مربّين واختصاصيين نفسيين وأساتذةً عن التعامل معها، لكنني نجحت في ذلك إلى أبعد حدّ.

- وتتّصل بك في أيام العطل؟

- نعم. ويتسبَّب لي ذلك في عدّة مشاكل مع إدارة المؤسسة. يقولون بأنني قريب منها أكثر من اللازم، وأنني أساهم في تعطيل برنامجها العلاجي...

- معهم كلّ الحق في ذلك، قالت مونا. لكلّ منا وظيفته، أليس كذلك؟ ما الذي تريده منك الطفلة الآن؟

سلّمتُ الهاتف المحمول لمونا لترى الصورة التي أرسَلَتها أوفيلي. كانت ملتصقة بشاب من السود، ضخم الجثة، ويضع قرطاً على أنفه، مع رسالة صغيرة مرفَقَة بالصورة.

كم المعدل؟

- ماذا تعني «كم المعدل؟»؟

استرجعتُ هاتفي المحمول.

- هي لعبة صغيرة بيننا. عندما تقابل أوفيلي شاباً في العطل أو نهاية الأسبوع، تُرسل صورته وأقوم أنا بتقييمه... أصحِّح ورقة امتحانها إن صحّ التعبير. أعطي نقطة وملاحظة، على طريقة «بإمكانك أن تعمل أكثر». «يوجد تحسّن ملحوظ». «خارج الموضوع»، وبالمقابل، أرسل لها أيضاً صور بعض صديقاتي...

ضحكت مونا في تعبير واضح عن الارتياح.

- يفاجئني إذاً تعرضك لمضايقات الاختصاصيين العاملين في المؤسسة!

ضغطت على الأزرار بسرعة لكتابة الجواب.

5 على 20. افتقار للخيال. تجنبي النقل.

ضغطت على زر الإرسال، لتفتح مونا سترتها بحركة مفاجئة، متحدِّية الرياح التي تضرب الحاجز والأكواخ البحرية، لتظهر استداراتها بوضوح.

- وأنا؟ كم المعدل؟

يا لها من مجنونة!

- تريدين رأي صديقتي، أليس كذلك؟

قمتُ بتعديل آلة التصوير في هاتفي الآيفون لتقريبها من وجه مونا.

- حسناً، لكنني أحذرك، أوفيلي صعبة المراس، لم تمنَح معدّل النجاح لأيّ فتاة من اللواتي أرسلتُ إليها صورهن.

تقدَّمتُ نحو مونا.

- ارتدي ملابسكِ وإلّا أصبتِ بالزكام. سأتركك الآن، فأنا مطالب بالعودة إلى مخفر الدرك.

قلتها ثم ساعدتها على إعادة ارتداء سترتها الواقية.

كنت أملك الوقت الكافي للعودة إلى الفندق لتغيير ملابسي وتناول سندويش قبل اللحاق بالحافلة للذهاب إلى المخفر في فيكامب.

بمجرد دخولي إلى بهو فندق لاسيرين، وجدت أندريه وهو منشغل بجمع بعض المطويّات. يقضي هذا الرجل وقته في الظهور

والاختفاء خلف منضدته، ما يدفعك إلى تخيّل وجود مدخل سرّي تحت الحانة أو شيء من هذا القبيل.

الظاهر أنه لم يتوصّل برسالة جديدة تخصّني، لكنني تسمَّرت أمامه رغم ذلك.

- ألم يكُن من زبنائك يا أندريه فتاة تعمل لصالح شركة طبية وتُدعى ماغالي فيرون؟ كانت مكلّفة بأطباء منطقة لوهافر، وربما اضطررت لقضاء بعض الليالي في هذا الفندق. أمس الأول على سبيل المثال...

- هل تقصد الفتاة المنتحرة؟

واصلَ ترتيب الأوراق والمطويات بلا مبالاة واضحة، فكان ردّ فعلي الأول هو التساؤل عن كيفية ربطه بين المسألتين بتلك السرعة.

- نعم...

- لا أظنّ ذلك، توجد فنادق عديدة في المنطقة كما تعلم، من دون الحديث عن فنادق إتروتا والضواحي. ألا تملك صورة للفتاة؟

- لا...

حاولت وصف ماغالي فيرون بطريقتي الخاصة، لم أستطِعْ إخفاء مدى إعجابي بجمالها الأخّاذ وسحر نظراتها اليائسة.

كان جواب أندريه منطقياً للغاية.

- كنت سأنتبه لفتاة بهذا الجمال الذي وصفته...

معه حق.

صعدت عبر درجات السلم ليهتزّ هاتفي المحمول.

رسالة جديدة!

جواب أوفيلي على صورة مونا...

قرأت الرسالة، مقتنعاً بأنّ صغيرتي ستذبح الفأرة ذات الشعر الأحمر بانتقادٍ هجومي غيور، لكن الرسالة أخرَستني بالفعل.

21 على 20. لا تتركها، هذه هي فتاة أحلامك.

اصطدمتُ بتيار هوائي بارد فور دخولي للغرفة. كانت النافذة مفتوحة.

ربما تركتها عاملة التنظيف مفتوحة لتهوية المكان.

كان السرير مرتّباً بشكلٍ ممتاز، مع وجود منشفة جديدة، فتذكّرت فوضى الغرفة بعد الليلة التي قضيتها هنا رفقة مونا.

ثم تجمّدت في مكاني بشكلٍ مفاجئ.

ظرفٌ بني اللون فوق المكتب، بالقرب من الحاسوب المحمول. ظرف جديد وسليم تماماً.

لا وجود لأيّ طابع بريدي أو عنوان هذه المرة.

اسمي فقط.

جمال سلاوي.

الخط الأنثوي نفسه الذي وجدته في الرسالة السابقة.

ألقيتُ نظرة عبر النافذة قبل التقاط الظرف فكدتُ أتجمّد من شدّة البرد. من السهل الدخول إلى غرفتي، السقف المستوي لمطعم لاسيرين يشكِّل ما يشبه سلّم العمالقة، ولكن مَن هذا الذي سيجازف بالقيام بتسلّق خطير كهذا بالقرب من شاطئ البحر وأمام أنظار الجميع؟

وكلّ هذا ليضع ظرفاً في غرفتي.

تردَّدتُ للحظة في النزول وسؤال أندريه عن إمكانية دخول

شخص ما إلى الغرفة باستثناء عاملة التنظيف، لكنني تراجعتُ عن ذلك.

فيما بعد...

أغلقت النافذة. أنا مطالبٌ باستعادة هدوئي. نزعتُ ملابسي وساقي الاصطناعية بعدما شعرتُ بأثر العرق الذي يغمرني، وفشلَت سترتي الرياضية في امتصاصه بشكلٍ كامل. تركَت أصابعي المتعرّقة أثرها على الظرف الذي قمتُ بتمزيقه. كان أقلّ سمكاً من الأظرفة السابقة.

ثلاث ورقات فقط.

تعرَّفتُ بسرعة على الشعار ثلاثي الألوان للأمن الوطني.

شرطة كاين. قضية ميرتي كامو.
محضر 28 أغسطس 2004.
الوثيقة رقم 027. شهادة ألينا ماسون

استلقيت على السرير عارياً، متحرّراً من ساقي الاصطناعية، في محاولةٍ لضبط الرعشة العصبية التي سَرَت في أطرافي.

* * *

قضية ميرتي كامو - السبت 28 أغسطس 2004

- كنت صديقة ميرتي الحميمة.
- نعلم ذلك، أجابها باستيني.

كان رائد الشرطة وخبيرة علم نفس الإجرام إيلين نيلسون

جالسين أمام الشهود الأربعة. لويز وشارل، والدا ميرتي كامو، فريدريك سان-ميشيل، خطيبها، وألينا ماسون، صديقتها الحميمة، التي تكلَّمت قبل قليل.

التي قد تكون شهادتها مصيرية...

لم يكُن الرائد باستيني بحاجة إلى مراجعة ملاحظاته، فهو يحفَظ الملفّ عن ظهر قلب. منذ اكتشاف جثة الفتاة مغتصبة ومخنوقة في غابة قريبة من إيسني، لم ينَمْ سوى خمس ساعات تقريباً، مقسّمة إلى ثلاثين دقيقة فقط كلّ مرة، كمن يشارك في سباق طويل إن صحّ التعبير.

سباق.

ضد الزمن.

وحيداً...

للإيقاع بهذا الحقير الذي ارتكَبَ جريمتين في ثلاثة أشهر، مورغان أفريل في إيبور شهر يونيو الماضي، ثم ميرتي كامو الآن.

الواقع أنه لم يكن يعوّل كثيراً على خدمات إيلين نيلسون، الخبيرة التي أجبَرَته وزارة الداخلية على التعاون معها. لا يتعلق الأمر بكراهية لخبراء علم نفس الإجرام، بالعكس، فقد سبَقَ له التعامل مع خبراء نفسيين ساعدوه على فَهم عقلية بعض المجرمين الذين واجههم في السابق. لكنه تساءل في قرارة نفسه عن مدى قدرة هذه الشقراء مفتولة العضلات، التي لا تملك سوى قلم حبر دوبون كسلاح، ومفكّرة مون-بلان كدرع، ولبن أكتيفيا غذاء لها، على تقديم المساعدة المطلوبة.

- آنسة ماسون، هل أنت مكلفة بتسيير مخيم المراهقين الذي كانت الضحية تعمل فيه؟

أومأت ألينا برأسها إيجاباً.

ما زالت طفلة! فكر باستيني.

كانت ألينا ماسون في الواحدة والعشرين من عمرها وقتئذٍ، تكبر صديقتها ميرتي كامو ببضعة أشهر. ولم يوجد بينهما تسلسل إداري في مخيم إيسني-سور-مير الذي تنظّمه جمعية الغطاء الذهبي في إيلبوف.

بالعكس، كانتا متناغمتين بشكلٍ كبير.

خاطبها باستيني بشكلٍ مباشر:

- هل كانت ميرتي مهدّدة؟ هل كانت خاضعة لتهديد متواصل من قبل شخص ما؟ أليس كذلك يا آنسة ماسون؟

- ليس تماماً يا سيادة الرائد.

بُوغِتَ باستيني بردِّها، فيما أعادت إيلين نيلسون طرح السؤال بشكلٍ مغاير وهي منشغلة بتأمّل أظافرها المطلية بلون الزمرد.

- خذي كامل وقتك آنسة ماسون، شاركينا تفاصيل ما جرى، ما جرى فقط. مَن هو هذا الشخص؟

- رأيته لأوّل مرة في المحطة الترفيهية بإيسني، كان بعيداً عنّا بحوالي المئة متر، وكان... كان منشغلاً بالتحديق في ميرتي.

- وكيف كان ردّ فعلكِ؟ سألها باستيني.

- لا شيء. لم أنتبه لذلك وقتئذٍ، كان المشهد مكرّراً إنْ صحّ التعبير.

- مكرَّراً؟ تساءل الرائد.

حدجت فريدريك سان-ميشيل بنظرات ملؤها الحرج، فأشار لها خطيب ميرتي بيده حتى تُواصل كلامها. فيما انشغلت إيلين بكتابة

بعض الملاحظات في مفكّرتها، في الوقت الذي حثّ فيه الرائد باستيني الشاهدة على المتابعة:

- لقد تعوّدَت ميرتي، صباح كلّ يوم، على اقتراح حصة من السباحة الرياضية على المراهقين الملتحقين بالمخيم، ولمدّة نصف ساعة، كنا نشغل الموسيقى، فترقص ميرتي ويقلّدها الأطفال، ليتحوّل المسبح بعد أيام قليلة إلى مَقصدٍ لكلّ الزوار في المخيم، عائلات وسياح... إلخ.

- كانت محطّ أنظار الجميع، قالت إيلين.

- بالضبط...

تردّدت ألينا لبعض الوقت، موجِّهة نظرات مستفسرة إلى لويز كامو، قبل أن تُكمل بصوت يَشُوبه الاضطراب:

- كانت ميرتي فتاة جميلة جداً، وكانت ترقص برقيّ لا يمكنه إلّا أن يُثير انتباه الآخرين.

تلألأت الدموع في عينَي لويز، أستاذة الرقص السابقة وهي تحتضن يد زوجها المليئة بالتجاعيد.

- هل يمكنك وصف هذا الشخص الذي كان يُتابع ميرتي بعينيه؟ سألها باستيني. هذا الشخص الذي تعمَّد متابعتها بشكلٍ مبالَغٍ فيه...

- رأيته من بعيد يا سيادة الرائد. قامة عادية، شاب في مثل سنّنا، وكان يعتمر قبعة رياضية تجمع بين اللونين الأبيض والأزرق، علامة أديداس. كان يضع نظارات شمسية، وأعتقد بأنّ جلده كان مدبوغاً بفعل أشعة الشمس.

أرغى باستيني وأزبد، فقد ينطبق هذا الوصف على المجهول صاحب الوشاح الأحمر الذي قابَلَه ثلاثة شهود في إيبور، المشتبه به

رقم واحد في مقتل مورغان أفريل، الذي بحث عنه النقيب غريما بلا جدوى، كما قد ينطبق على الآلاف من زوار المنطقة. . .

- متى رأيتِ هذا الشاب مرة أخرى؟

- كان يتسكّع في المخيم، فقد تعرَّفتُ على قبعته أكثر من مرة. أعتقد بأنه يسكن في الجوار، أو أنه مسؤول في مجموعة أخرى، توجد عدّة مخيمات أخرى في إيسني. . .

- سبعة بالتحديد يا آنستي، قال باستيني مدقّقاً. مئة وثلاثة عشر مراهقاً وثمانية وعشرون موظفاً لتدريبهم.

رفعت إيلين نيلسون عينيها نحو السقف، كما لو كانت متذمّرة من هذه الدقة التي يتكلّم بها الرائد.

- سأكون أكثر دقة، قالت ألينا، لقد رأيته للمرة الثانية في ساحل سان-ماركوف.

راجع باستيني ملاحظاته المدوَّنة بسرعة. تبعد جزر سان-ماركوف عن السواحل النورماندية بحوالي سبعة كيلومترات. الجزيرتان الوحيدتان في الساحل الفرنسي من كالي وصولاً إلى شمال كوتونتين، صخرتان على البحر، استغلّهما نابليون لبناء قلعة حصينة في مواجهة الإنجليز، تعود ملكيتها حالياً للدولة، يمكن الرسوّ بالقرب منها، لكن قضاء الليل هناك ممنوع. تشكّل هذه الجزر مقصداً ممتعاً لا مثيل له بالنسبة إلى سكان المنطقة، وقد نظّم مخيم الغطاء الذهبي رحلة عبر القوارب الشراعية إلى هذه الجزر، خمسة أيام قبل مقتل ميرتي.

- قضت ميرتي يومها في الجزيرتين برفقة مجموعة من خمسة مراهقين، تابعت ألينا. لحقتُ بهم ومعي مجموعة أخرى، وحوالي منتصف النهار، تعرّفت على ذلك الشخص، القبعة نفسها والنظارات

نفسها. كان على متن قارب مطاطي صغير، من النوعية التي يمكن استئجارها... وكان يحُوم حول الجزيرتين.

- منذ متى وهو يحوم حول الجزيرتين؟ تساءلت إيلين.

- لا أدري... كان هناك عندما اقتربنا من سان-ماركوف. دارَ حول المكان أكثر من مرة، مركِّزاً نظراته على ميرتي بطبيعة الحال، قبل أن يعود أدراجه. لم يستغرق ذلك أكثر من خمس دقائق. ولكن...

- ولكن الأمر أشعركِ بالقلق، قاطعها باستيني.

زفَرَت في ضيق.

- ليس تماماً يا سيادة الرائد، قالت ألينا موضحة. ذكرتُ شيئاً ما عن شعوري بالانزعاج حيال إصرار هذا الشخص على ملاحقتنا.

- فهمت، ردّ فعل مديرة صارمة. ومتى قابلت هذا الشخص لآخر مرّة؟

- بعد يومين، كانت ميرتي في عطلة، كانت قد ذهبت إلى شاطئ غرانكامب-ميزي، واتفقنا على أن ألحق بها فور خروجي للتبضّع وأن نعود بالسيارة. ذهبت للبحث عنها في الموعد المحدَّد، فوجدتها على الشاطئ مستلقية على ظهرها نائمة وهي ترتدي لباس البحر وتضع منديلاً على وجهها. أيقظتها، قبل أن أنتبه فجأة إلى وجود ذلك الشخص على بُعد ثلاثين متراً منها، مستلقياً على منشفة. في طريق العودة قالت لي ميرتي بأنها نامت لساعتين كاملتين دون أن تشعر بما يجري حولها... (ارتعشت أصابعها وهي تبحث عن منديل في جيبها، لم تجده فأكملت) وهذا يعني أنّ هذا الشخص قد تابعها بنظراته الشهوانية كلّ هذا الوقت، وربما تخيّل ما الذي يريده منها، و...

صمتت ألينا فجأة ثم انهارت باكية. لم يصدر فريدريك سان-ميشيل أيّ ردّ فعل تجاهها، بل بدا مشغولاً بكراهيته لقاتل خطيبته، كما لو كان يعيش كلّ ثانية بأملٍ هائل في الوصول إليه.

واصل باستيني إصراره في الوقت الذي سلّمت فيه إيلين لألينا منديلاً ورقياً ملفوفاً بعناية.

- هل يمكنك وصف هذا الشخص؟

كانت ألينا فتاة قوية، تمخّطت وسعلت ثم أكملت:

- ليس بالشكل المأمول، كان ممدّداً على بطنه، بالقبعة والنظارات نفسهما، كان رشيقاً وقويّ البنية، يوحي تناسق عضلاته بكونه رياضياً محترفاً، لكنني لن أستطيع التعرّف عليه.

أطلَعَها رجال الشرطة على الرسم التقريبي للمجهول الذي شوهد في إيبور، ثم عوضوا الوشاح الأحمر بقبعة أديداس وأضافوا نظارات شمسية باستخدام برنامج الفوتوشوب.

قد يكون هو.

وقد يكون شخصاً آخر.

رسم باستيني على وجهه ابتسامة متفهّمة.

- حسناً، آنسة ماسون، سؤال أخير أوجّهه لكم جميعاً، هل تؤكّدون لي امتلاك ميرتي لدفتر مذكرات؟

- ليس تماماً يا سيادة الرائد، لم يكُن دفتر مذكرات.

اتفق الوالدان والخطيب والصديقة على وصف مفكرة موليسكين بلونها الأزرق السماوي، والتي حافظت عليها ميرتي منذ سنوات مراهقتها، وكانت تضعها في حقيبة يدها.

اختفت الحقيبة والمفكرة، غالباً على يد المغتصب.

كانت ميرتي حريصة على مشاطرة هذه المفكرة أسرارها، جمل قصيرة، وأحياناً غريبة أو حتى قلقة، كانت تحب الكتابة.

كان باستيني على وشك توجيه الشكر للشهود الأربعة، كمقدِّمة لإنهاء اللقاء، عندما رفعت إيلين يدها. تردّدت خبيرة علم نفس الإجرام كثيراً قبل طرح سؤالها الأخير أمام خطيب ميرتي كامو. كانت تشعر بنوع من الانزعاج أمام فريدريك سان-ميشيل، غالباً بسبب فارق السن بينه وبين مَن كان يفترض أن تكون زوجته المستقبلية، وإن كان يحتفظ في سنّ السابعة والثلاثين بوسامة وهَيبة المربّي صاحب الكاريزما، ونظرته الحنون على الطريقة البوذية، الممتزجة ببنيته الشبيهة بلاعبي الجودو.

بذلت كلّ ما في وسعها لتمنح صوتها نبرة هادئة وهي تخاطب ألينا بشكل مباشر.

- آنسة ماسون، برأيك، لماذا ارتدَت ميرتي كامو يوم عطلتها ملابس بتلك الأناقة؟

فوجئت ألينا بالسؤال.

- ماذا تقصدين؟

أشارت إيلين بيدها لباستيني، لتمنعه من مقاطعتها، ثم قالت موضحة كلامها:

- كانت ميرتي مسؤولة ترفيه في مخيم للمراهقين، تحت إدارتك المباشرة، وأعتقد بأنكم ترتدون ملابس مناسبة للعمل مع الصغار، تي شيرتات، أحذية رياضية، لا فساتين بنفسجية قصيرة...

- كان... كان هذا يوم عطلتها، تمتمت ألينا، مستغربة نسيان خبيرة علم نفس الإجرام لهذه المعلومة.

حدج الرائد باستيني زميلته بنظرات نارية، فيما تمسّكت أصابع يدي فريدريك سان-ميشيل بالكرسي في محاولة منه لتمالك أعصابه واحترام هدوء لويز وشارل اللذين نهضا صامتين كالأشباح.

راقب الرائد الخطيب فريدريك سان-ميشيل قبل مغادرته للغرفة، طويل، مستقيم، مع لمحة افتخار، وقد جمع خصلات شعره برباط أسود.

اقتنع باستيني بأنّ وفاة ميرتي ستدمّر هذا الشباب، سواء تمّ العثور على القاتل أم لا، فهذا لن يغيّر شيئاً، سيشيخ سان-ميشيل بسرعة ويتعفّن كفاكهة ناضجة وجدت طريقها إلى الذبول.

يقول الملفّ إن الجميع ينادونه بلقب: شيشين.

معظم قصص الحب تكون نهايتها سيئة للغاية، فكّر باستيني بنوع من السذاجة...

تسلَّل السؤال الذي طرحته إيلين نيلسون إلى أعماق ألينا ماسون في الأيام الموالية، كما لو كان ومضة في مرآة الذكريات التي تحوّلت شيئاً فشيئاً إلى شرح كبير جداً.

استعادت صورة الفستان البنفسجي القصير وقلَّبتها في ذهنها مئات المرات.

تردَّدت ألينا في العودة إلى إيلين ماسون، وأمسكت بهاتفها المحمول عدة مرات لكنها لم تجرؤ على الاتصال بالرقم المدوّن في بطاقة اختصاصية علم نفس الإجرام. لم تشعر بأنها تثق بهذه الاختصاصية بشكلٍ كامل.

وإن كانت هذه المرأة قد تمكّنت من رؤية الأمور من الزاوية الصحيحة.

وحدها، دون الآخرين.

فضّلت ألينا الصمت، وقد ندمت على ذلك مع كلّ يوم يمضي، لكن الإفصاح عن شكوكها يعني إفشاء سرّ ميرتي، صديقتها الحميمة، والوحيدة.

في الأيام الموالية، حدث تقارب كبير بين شارل ولويز كامو من جهة، وكارمن أفريل من جهة أخرى.

قاموا بتوحيد جهودهم، وإن كانوا مختلفين تماماً.

شارل ولويز يريدان السلام، فيما تفضّل كارمن الحرب.

شارل ولويز تحرِّكهما الرغبة في تحقيق العدالة، بينما تتحرك كارمن بدافع الكراهية.

ولكن هدفهما واحد في نهاية الأمر.

البحث عن الحقيقة.

التوصل إلى هوية قاتل مورغان أفريل وميرتي كامو.

في الأيام الموالية، طلب الرائد باستيني من رجاله تركيز جهودهم للبحث عن المشتبه به رقم واحد.

الرجل الذي يعتمر قبعة أديداس.

مكّنت مذكرات البحث من تأكيد إفادة ألينا ماسون. صرّح عدد من الشهود بأنهم قابلوا هذا الشاب في مخيم إيسني-سور-مير وشاطئ غرانكامب-ميزي وبالقرب من النادي الشراعي...

قابلوه، لكن أحداً لم يتمكّن من تحديد هويته، لم يكُن يعمل في الضواحي، وقد تأكّد رجال الشرطة من ذلك.

هل يتعلّق الأمر بمفترسٍ وحيد يذوب بسهولة وسط العامة؟

أكّد امتناعه عن التواصل مع الشرطة للإدلاء بإفادته فرضية باستيني في كونه المغتصب المبحوث عنه، والشخص نفسه صاحب الوشاح الأحمر، هناك في إيبور.

مرت الأيام، وتسلّل اليأس إلى الرائد الذي عجز عن الوصول إلى منطلق للبحث. لقد تمكّن هذا الشخص من الإفلات عبر عقد شبكة الصيد، لن يتوصّل أحد إلى معرفة هويته الحقيقية، إلّا إذا ظهرت بارقة حظ لا يؤمن باستيني بوجودها.

كان مخطئاً.

مال القدر لصالح المحققين بعد مرور شهرين على الجريمة الثانية، وبالضبط يوم 3 نوفمبر 2004، وهو اليوم الذي توصَّل فيه رجال الشرطة إلى هوية الشاب صاحب قبعة الأديداس.

لكن بعد فوات الأوان.

فقد أضيفت إلى قضية كامو-أفريل ضحيتان جديدتان.

مكتبة
t.me/t_pdf

17

هل مال القدر؟

كنت على وشك تضييع فرصة الركوب في حافلة فيكامب، لكنني لحقت بها في تقاطع كولين وشارع كراماواسان. لم يجد السائق حرجاً في مخالفة القانون للسماح لي بالركوب، وهذه ميزة قد يوفّرها الركض بساقٍ واحدة خلف الحافلة.

قمت باستغلال النصف ساعة التي توفّرها الرحلة لمراجعة معلوماتي. كنت مهووساً -رغماً عني- بالتشابهات الواضحة بين انتحار ماغالي فيرون ومقتل مورغان أفريل قبل عشر سنوات، وتوالي المصادفات الذي لا يمكن لأيّ شرطيّ أن يهضمه بسهولة. لكنني كنت على يقين تامّ بأنني مطالَب باتّباع المسار الموازي في الآن نفسه، ويتعلّق الأمر بمقتل ميرتي كامو، جريمة القاتل المتسلسل الثانية. إذا كان الشخص المجهول يستمتع بإرسال تلك الأظرفة البنية التي تحتوي على كلّ تفاصيل التحقيق، فهذا يعني أنّ الإجابة عن أسئلتي موجودة -بشكلٍ أو بآخر- داخلها. يجب عليّ أن أسجِّل كلّ دليل، وهو ما لا يشكّل في نهاية المطاف سوى وحدة متكاملة ومتجانسة ومنطقية بلا شك، شرط تجميع كلّ قطع البازل.

أوصلتني الحافلة إلى فيكامب، محطة فيكومتي، في الواحدة زوالاً وخمس وأربعين دقيقة، وقد يكون هذا وقتاً كافياً لشراء فطيرة لحم من المخبزة المجاورة والتهامها بالقرب من الميناء المقابل لحاجز الأمواج.

حاولت إخفاء عصبيتي وأنا أمام مكتب الاستقبال في مخفر الدرك، أكلّم موظفة الدرك المبتسمة كمضيفات الطيران:

- لقد قام بيروز باستدعائي. قلتها كتلميذٍ ينتظر مقابلة مدير المدرسة.

حاولت الموظفة لعب دور المفتِّشة الطيبة التي تفهم جيداً تقلّب مزاج رئيسها في العمل، بل إنها أضافت «حظاً موفّقاً» قبل أن تتّجه خطواتي نحو الممرّ.

الثانية بعد الزوال.

وقفت أمام باب مكتب النقيب بيروز المفتوح. واستغرق مني هذا الوقوف ثانية واحدة فقط.

- تفضّل، سيد سلاوي.

أشار لي بيروز بيده حتى أغلق الباب. كانت خصلات شعره الرمادي المصفّفة إلى الوراء قد وصلت إلى كتفيه كأغصان شجرة صفصاف.

- اجلس.

لم يكُن شبيهاً بمديرٍ يستعد لتقريع تلميذٍ مشاغب، بل باختصاصي لن يعلن عن أخبار جيدة أمام المريض. كانت كومة من الملفات مكدَّسة خلف مجسّم سفينة **نجمة عيد الميلاد**.

- وصلت النتائج يا سيد سلاوي.

لا، ليس اختصاصيّاً عادياً، بل متخصّصاً في أمراض السرطان.

- وهي ليست جيدة.

- ماذا تقصد؟

- بصمات اليد. . . (مرّر بيروز أصابعه على خصلات شعره) إنها بصماتك.

رغم توقعي لذلك، إلّا أنني وجدت صعوبة بالغة في استيعاب الضربة.

- على وشاح البربري؟

أومأ بيروز برأسه موافقاً.

- سأشرح لك ما جرى يا سيادة النقيب.

لم يقاطِعني الدركي ولو لمرة واحدة في أثناء كلامي، حكيتُ له تفاصيل ما جرى من منظوري الخاص، عثوري على الوشاح بالقرب من المَعقل الدفاعي القديم، وفكرتي الحمقاء بمدّه نحو ماغالي فيرون، وقفزتها نحو الفراغ والوشاح في يدها. كنت قد أعددتُ كلماتي في الحافلة، لكنني تلعثمتُ عندما تحدّثت عمّا جرى بعد ذلك.

الشاطئ.

الوشاح الملفوف حول عنق المنتحرة.

تحدّثت عن فرضية مونا، وعدم رؤية الفتاة لوجه مغتصبها وخلطها بيني وبينه، ثم شعورها بالخوف الذي دفعها إلى القفز هروباً مني وربما لتوجيه التهمة إليّ. لم أكُن مؤمناً بهذه الفرضية أصلاً، لكنني كنت مطالَباً بالظهور بمظهر الصريح، وقد راودني الشك في مدى صعوبة إقناع بيروز بكلامي.

وكنت بعيداً عن تحقيق ذلك الرجاء.

- روايتك للأحداث مثيرة للاهتمام يا سيد سلاوي. لكنك قاطعتني قبل قليل. البصمات على الوشاح الأحمر هي بصماتك بالتأكيد...

فتح ملفاً أخضر اللون أمامه، وقد فهمت -بخبرتي- أن هذا ليس مؤشراً إيجابياً.

- لكنك مطالبٌ يا سلاوي بشرحِ سبب عثورنا على بصماتك في عنق ماغالي فيرون وساقيها وصدرها...

شلَّت كلماته حركتي.

تحوّل جسدي إلى ما يشبه كومة من الفولاذ البارد الذي لا يختلف في شيء عن ساقي اليسرى الاصطناعية. فقلت بصوتٍ مخنوق:

- هذا... هذا مستحيل يا سيادة النقيب، أنا لم ألمسْ هذه الفتاة.

رفع بيروز عينيه عن الملف ثم مالَ برأسه إلى الوراء كما لو كانت خصلات شعره أثقل من اللازم.

- لم تلمسها قبل قفزها، هذا ما قلته الآن، لكن ماذا عن الشاطئ بعد وفاتها؟

كرهتُ طريقته في جرّي إلى ملعبِه هو.

- لم ألمسها يا سيادة النقيب! سواء كان ذلك قبل وفاتها أو بعدها. وربما أخبرك كريستيان لوميديف ومعه العجوز دنيز بذلك...

- أنا أريد مساعدتك يا سلاوي.

اللعنة عليك...

أخذت الوقت الكافي لاستعادة تفاصيل ما جرى في ذهني،

والتركيز على كلّ مشهد، لكنني كنت متأكداً من عدم وجود أيّ اتصال مباشر بيني وبين ماغالي فيرون.

ما الذي يعنيه هذا الهذيان الجديد؟

أجبتُ بيروز بسخرية سخيفة:

- أنا لا أصدّق ترّهاتك يا سيادة النقيب. ما هي الخطوة القادمة؟ أن تعلن بأنكم عثرتم على أثر منّي في مهبل ماغالي فيرون؟

تلاعب بيروز بخصلة شعر رمادية بين إبهامه وسبابته، وبهدوء شديد.

- أعتقد بأنّ ذلك سيكون منطقياً يا سيد سلاوي، طبيعي أن يكون الرجل الذي قام بخنق ماغالي فيرون هو نفسه مَن أقدَمَ على اغتصابها.

انفجرتُ وقد بدا أنّ مجسّم السفينة يهتزّ أمام عينيَّ الغاضبتين.

- اللعنة! كنت أريد إنقاذها! لقد فكّرت في منعها من السقوط، وتريدون اتهامي بـ. . .

لم أجد في نفسي القدرة على إتمام كلامي بعدما جمدتني ابتسامة بيروز واجتاحني شعور قوي بالخوف.

لم يقل لي كل شيء.

طرحتُ سؤالاً آخر:

- توصّلت بنتائج اختبار الكشف عن الدي إن آي، أليس كذلك؟

- لا . . . ما زال الوقت مبكراً بعض الشيء، ربما هذه الليلة. . .

- لكنك تملك توجّهاً معيّناً؟

- نعم، تقديرات إن صحّ التعبير. وهي ليست جيدة، ليست جيدة بالنسبة لك!

اللعنة عليك!

كنت جالساً على كرسي كهربائي بثّ في جسدي تياراً بقوة ألفَي فولت. أثر المني في مهبل ماغالي فيرون... هذا ما يقصده الحقير.

كان هدوء الدركي مختلفاً تماماً عن العاصفة التي ضربَت جمجمتي.

- أعتقد بأنك تشكّ في طبيعة الأحداث الموالية يا سيد سلاوي. لقد وقَّع قاضي التحقيق الأمر بتوجيه الاتهام لك، سنقوم بحلّ بعض الأمور الإدارية، كالبحث عن محامٍ يتولّى أمرَ ملفك على سبيل المثال.

تعمَّد السماح لي بإخراج رأسي من المياه للحظات قليلة، قبل أن يخنقني بقوة أكبر بقوله:

- لكنني سأكون صريحاً معك يا سيد سلاوي، أريد التحدّث معك قليلاً قبل الوصول إلى هذه الإجراءات، كانت تلك أول مرّة أشعر فيها بأن يديه تفضحان تردّداً طفيفاً، عن أمور أخرى غير قضية فيرون. عن جريمتَي قتل مورغان أفريل وميرتي كامو قبل عشر سنوات. هل تذكرها يا سيد سلاوي؟

هل أذكرها؟

خيِّل إليّ فجأة أنّ بيروز يتقدم في ميدان متحرِّك، بحدود ما قد يسمح به قاضي التحقيق.

اعتدلتُ في مقعدي وأنا أجيبه:

- هكذا إذاً يا سيادة النقيب؟ ثلاث فتيات لقينَ مصرعهن. يبدأ التحقيق باتهامي بقتل واحدة، وفي غمرة الأحداث تلصقون بي الجريمتين المتبقيتين اللتين عجزت الشرطة عن حلّ لغزهما منذ عشر سنوات.

رفع بيروز حاجبيه بلا إثارة حقيقية:

- يبدو أنّك أجريتَ تحقيقكَ الخاص يا سلاوي، وربما توصَّلتَ إلى وجود مصادفات بين مصير مورغان أفريل وما جرى لماغالي فيرون. هذا مثير للدهشة، أليس كذلك؟ حتى هذا التعبير أضعف من أن يعبِّر عن ذلك، نعم، معك حق، نحن عاجزون عن الوصول إلى الحقيقة، لكننا نملك يقيناً واحداً بأنّ هذه الجرائم مرتبطة ببعضها!

لم أجرؤ على تأكيد شيء، مفضلاً النباح كما لو كنت كلباً مقيّداً مستعداً للانقضاض على كلّ مَن يفكِّر في الاقتراب منه:

- شرح سبب هذه الصدف مهمّتكم أنتم، وليست من اختصاصي أنا.

- فعلاً.

عاد بيروز إلى تفقّد ملفاته، مع ملفٍّ بنيّ فاتح هذه المرة:

- سأطرح عليك سؤالاً في غاية الأهمية يا سيد سلاوي، سؤالاً بسيطاً لكنه مهم جداً بالنسبة لك. هل كنتَ قادراً على استخدام كلتا ساقيك قبل عشر سنوات؟ أرى أنّ ملفك ضبابي جداً في هذه النقطة.

فهمت اللعبة من دون حاجة إلى شرحٍ من بيروز. المشتبه به رقم واحد في قضية أفريل-كامو، المجهول الذي يحمل وشاح بربري، وربما قبعة أديداس بعد ثلاثة أشهر، ينطبق إلى حدٍّ ما مع مواصفاتي أنا.

أسمر، طول عادي، رياضي، بشرة عليها آثار الشمس.

لكنه لا يعرج...

لا شيء يُجبرني على قول الحقيقة لبيروز.

على الأقل في هذه النقطة بالذات.

- لا يا سيادة النقيب، لقد ولدت هكذا تقريباً. سأشرح لك، أنا لم أكُن محظوظاً، فالجنية التي اقتربت من مهدي كانت تعاني من مشاكل عويصة في النطق.

راقبني بيروز بحذر، قد تؤدّي اتهاماته إلى تدمير حياتي ومستقبلي، لكنني قادر على الردّ، وقد رأيت عينيه وهما على وشك الخروج من محجريهما وأنا أقول:

- قامت هذه الجنية اللعينة بتحريك عصاها السحرية وقالت كلمة أبراكادابرا، لكنها أخطأت بقولها «من بين كلّ أطفال العالم، سيكون هذا الطفل الأكثر نقصاناً»[1].

ارتسمت معالم الفزع على وجه بيروز.

- مجرد خطأ في النطق يا سيادة النقيب، هذا سخيف، أليس كذلك؟

خيِّل إليّ أنّ عدّة مفرقعات تنفجر داخل جمجمتي، وأنني أشبه ما أكون بجندي يستعدّ لإطلاق قذيفة مضادة للدبابات.

اكتسب وجه بيروز لوناً أحمر.

- هذه ليست لعبة يا سلاوي، اللعنة... أنا أريد مساعدتك.

قمتُ باستغلال تقدّمي لأقول:

- أو ربما الإيقاع بي في الفخ! العربي المعوّق الأعزب الذي يعمل في مستشفى المجانين، كبش الفداء المثالي، أليس كذلك؟ عشر سنوات ورجال الشرطة يبحثون عن واحد مثله...

وضع بيروز مرفَقَيه على المكتب، فواصلتُ بإصرار:

---

(1) القصد هنا هو تلاعب لفظي بين كلمة Mignon التي تعني الجاذبية واللطف، وكلمة Moignon التي تعني النقصان وبقايا الشيء. -المترجم-

- أنا لم ألمس هذه الفتاة يا سيادة النقيب، ولا أثر لبصماتي على عنقها، ولا وجود لمنيي في مهبلها، ابحثوا عن شخص آخر!

اتجهت نظرات الدركي نحو مجسَّم السفينة، قبل أن يستعيد بعضاً من هدوئه:

- هذه ليست استراتيجية مناسبة يا سلاوي، الساق الناقصة لن تُنقِذك من مصيرك...

الغبي! وما هي الاستراتيجية المناسبة في نظرك؟

تناسلت الاحتمالات في ذهني، وبحثتُ عن كلّ مسالك الخروج الممكنة، لكنني لم أعثر سوى على تفسيرٍ واحد فقط:

مؤامرة بوليسية.

يحاولون صنع مجرم هم بحاجة إليه، شخص مسكين قادَه سوء الحظ إلى الوجود في قمّة المنحدر صباح يوم سيئ.

أنا.

في اللحظة الموالية، همس جزء خفيّ في ذهني بأنني أوجد بمخفر فيكامب، وليس في كوريا الشمالية أو جنوب أفريقيا... لا يتمّ اختلاق أدلّة مزوّرة لتوجيه الاتهام إلى شخص بريء، ليس هنا، هذا لا يحدث في فرنسا...

- أنا أملك الحقّ في الحصول على محامٍ.

- طبعاً يا سلاوي، يستحيل توجيه اتهام رسمي إلى مواطن دون أن يستمع إلى صكّ اتهام وهو محروم من محامٍ لمؤازرته.

استعادت ذاكرتي لقطات من مسلسلات شاهدتها وأنا جالس على الأريكة في المنزل بكورنوف، تلك النوعية من المسلسلات التي شاهدتها أمي وجعلت منها مبرّراً لعدم الذهاب إلى غرفتي لمراجعة دروسي.

تقترب قضية أفريل-كامو من إتمام عامها العاشر. عشر سنوات، هذا يطابق المهلة الممنوحة قبل إغلاق ملف جريمة قتل. ولدت فكرة مجنونة في ذهني.

وماذا لو كنت أملهم الأخير؟

سيتمّ حفظ قضية أفريل-كامو بعد أشهر قليلة، وماذا لو قرّر رجال الشرطة رَمي شِبَاكِهم على أوّل ضحية قبل إسدال الستار على الملف نهائياً؟

- هل تعرف محامياً يا سلاوي؟

لم أجِبْه، أنا أشكّ في كلّ شيء الآن. كما فاجأني تفصيل ثانٍ لم أنتبه له مسبقاً، مشهد آخر تذكّرته على علاقة بالمسلسلات التي كانت والدتي مغرَمة بها.

- ألا يفترض وجود دركيين اثنين لاستجواب شخصٍ واحد؟

- لا يا سيد سلاوي... لا حاجة إلى ذلك عندما يتعلّق الأمر باستجواب عادي.

نهضَ بيروز بانزعاج:

- أعترف يا سلاوي بأنّ ثلاثة رجال آخرين يشتغلون على لغز وفاة ماغالي فيرون، يفتشون في كلّ التفاصيل، ويبحثون عن كلّ الذين التقوا بها في الأيام القليلة الماضية، ويدرسون طبيعة المصادفات حول الأذواق والمسار الدراسي لماغالي فيرون ومورغان أفريل، وتشابههما الغريب الذي لم نفهم فيه شيئاً. أنت محظوظ بالتعامل معي يا سلاوي. كلهم يوجّهون أصابع الاتهام لك، لكنني أواصل البحث رغم ذلك. وجب القول بأنني لستُ مقتنعاً بمسؤوليتك عن هذه الجرائم، لذلك لا تفسد كلّ شيء بتصرفاتك.

أوحى كلامه بأنه يحاول تصوير نفسه على أنه الوحيد القادر على مواجهة القدر الذي يهدِّد بسَحقي.

فخ؟ فخ آخر؟ واضح جداً أنّ بيروز ذكي للغاية.

مالَ نحوي فتدلّت خصلات شعره لتُحيط بذقنه كلحيةٍ تنكّرية انفصلت عن موضعها.

- آخر مرة أوجّه لك هذا السؤال يا سلاوي، الأمر في غاية الأهمية، هل كنت قادراً على المشي بقدميك الاثنتين قبل عشر سنوات؟

يبدو أنه فسَّر صمتي الطويل بأنه رغبة مني في التفكير، لكنني اتّخذت قراري النهائي.

أنا لا أصدقه.

أنا مذنب.

من منظوره هو ومنظور باقي رجال الشرطة، كلّ الدلائل موجودة وجرى تجميعها، مع الوقائع والشهود.

ما قيمة كلمَتي أمام جدارٍ من اليقينيات؟

لا شيء.

لا أعرف مَن هم، لكنهم نجَحوا في الإيقاع بي في فخّهم.

لا خيار أمامي، يجب عليَّ أن أنفُذَ عبر فتحات الشبكة التي يحاولون محاصرتي بها.

الآن، ومهما كانت النتائج.

لم تستغرق الحركة سوى ثانية واحدة، عندما انحنيتُ إلى الأمام، لتمسك يداي بمجسَّم نجمة عيد الميلاد وتضرب به رأس نقيب الدرك.

لم يجد بيروز الوقت الكافي لإصدار أي ردّ فعل.

سقطَ بعنف، حاولت يداه الإمساك بالفراغ فيما خانته ساقاه واتّسعت عيناه في ذعر.

سالَ خيطٌ من الدماء من الفم الذي توسَّل إليّ:

- لا يا سلاوي...

لا ماذا؟

ما الذي يخشى خسارته؟

مجسَّمه؟ فريسته؟ حياته؟

حاول النهوض وهو يضع يديه على الأرضية المبلطة، وقد تلألأت القطرات في جبينه وسالت على خصلات شعره.

ألقيت نظرة أخيرة على **نجمة عيد الميلاد** بخيوطها الملصَقة بدقّة ساعاتيّ وباقي التفاصيل المصبوغة بعناية فائقة، قبل أن أضرب بها رأس بيروز للمرة الثانية.

سقط هذه المرة فاقدَ الوعي.

بقيت جامداً للحظات، مقتنعاً بأنّ هذه الجلبة ستدفع عشرات الدركيين إلى اقتحام المكتب.

الصمت، خلف الباب المغلق.

إلّا إذا كانوا معتادين على ضرب موظفيهم.

حاولت تقييم الوضع بسرعة. كيف سأهرب؟ عبر النافذة؟ أن أركض عبر الممرّ وصولاً إلى مكتب الاستقبال؟ جرّ بيروز من ياقته ووَضع السكين المخصَّصة لفتح الأظرفة على وريده ثم الهروب؟

فكرة سخيفة!

الحلّ الوحيد هو مغادرة المكان بالطريقة نفسها. التظاهر بالانشغال ومنح موظفة الاستقبال ابتسامة مجاملة.

نزعت الستارة الحمراء المكلّفة بحماية الغرفة من أشعة شمس

نادرة أصلاً في فيكامب، ثم استغرقت مني تغطية جسد بيروز أقل من دقيقة واحدة.

كان يتنفّس، لكن بلا حراك. عيناه مغلقتان، وقد غطّت الدماء شعره، فيما قمت أنا بالتقاط الملف الأخضر.

ماغالي فيرون.

تردّدت في أخذ ملفات أخرى من بين الملفات المكدّسة فوق مكتب النقيب، لكنني لم أجد الوقت الكافي للبحث فيها.

وبحركة أخيرة، وضعتُ في الملف ورقة وجدتُها بين أكوام الملفات الأخرى، والتي أثارت انتباهي بالأمس.

جدول الورقة البيضاء الذي يضم أربع خانات وثمانية أرقام.

2/2	3/0
0/3	1/1

لغز آخر؟

بإمكانه الانتظار لبعض الوقت...

غادرتُ الغرفة.

قابلتُ دركياً، ثم ظهر آخر عن يميني، وتقدّم اثنان نحوي، بمسدساتهم التي تزيّن أحزمتهم، وركّزوا نظراتهم عليّ وهم يخففون من سرعة خطواتهم ليفسحوا لي المجال للسير.

تجاوزت الممر من دون أن ألتفت نحوهم.

وصلت إلى المدخل.

- ما زلت على قيد الحياة؟ سألتني الموظفة مازحة.

كنت على وشك الشعور بالندم على مبادلتها الابتسامة. ستكون

عرضة للتوبيخ من قبل زملائها بعد مزاحها مع مغتصب خطير، دون أن تشكّ في شيء، أو تُخطِر موظّفي المخفر. هل ستجرؤ على القول بأنها وجدته أقرب للظُّرف؟ وبأنه لا يحمل ملامح مجرم قاتل؟ وبأنهم قد يكونون مخطئين؟

فكّرتُ للحظة في أنّ المؤامرة التي أعدَّها رجال الدرك ضدّي تتعارض بشكل واضح مع سهولة مغادرتي للمخفر.

لن أتبرّم من ذلك.

لفحت الرياح المحمَّلة باليود وجهي فور مغادرتي للمخفر.

كنت حرّاً.

إلى متى؟

ابتعدتُ عن المكان بخطوات سريعة، ثم توجَّهتُ نحو الميناء.

كم من الوقت قبل استعادة بيروز لوعيه؟

تذكرت الاتجاهات الخمسة لنجمتي. أن أصبح أوّل بطل يشارك في سباق مون-بلان بساق واحدة، أن أمارس الحب مع فتاة أحلامي، أن أرزق بطفل، أن تبكيني إحداهن بعد وفاتي، وأن أدفع الدين...

ذهب كلّ شيء أدراج الرياح...

لن أفلت من قبضة الشرطة سوى لساعات قليلة، أو ربما بضعة أيام في أفضل الأحوال. صارت العودة إلى فندق لاسيرين أو حتى الاقتراب من إيبور مستحيلة.

ما الذي أرجوه الآن؟

إثبات براءتي؟ أن ينقشع ضباب الألغاز ككابوس مزعج؟ أن يعثر رجال الشرطة على مذنب آخر؟ القاتل الحقيقي؟

تركت الشاطئ الخالي خلفي، سيجبر البرد القارس المتجوّلين القلائل على البقاء خلف الحاجز الإسمنتي. ابتلعني حصى الشاطئ دون أن ينتبه أحد ما لأمري.

لن يسمعني أحد.

أنا بريء! صرخ ذلك الصوت في ذهني.

أنا بريء!

تواصل مدّ المياه ببطء، لكن خطواتي المسرعة مكّنتني من الابتعاد عنها بشكلٍ كافٍ. لا وجود سوى لمدخلٍ واحد إلى الشواطئ بين فيكامب وإيبور على امتداد عشرة كيلومترات عبر الساحل، وقد أشارت عدة لوحات إرشادية إلى أنّ التجوّل تحت المنحدرات ممنوع منعاً باتاً.

توقّف رجال الشرطة عن ملاحقة المهربين في هذه المنطقة منذ وقت طويل، لذلك لن يأتي أحد للبحث عني هنا.

أصدر حصى الشاطئ صريراً تحت قدمي. ابتعدتُ عن فيكامب التي تحولت إلى خطّ من المباني الرمادية وغير الواضحة.

احتضنتُ الملف الأخضر وأنا أعيد التفكير في بيروز واتهاماته.

سيطر عليّ سؤال واحد.

هل كان هجومي عليه وهروبي سبباً في تمزيقي لنسيج العنكبوت الذي يحاصرني؟ أم أنّ تصرّفي هذا ساهَمَ بتقدمي خطوةً إضافية نحو الهاوية التي توشك على ابتلاعي؟

II

اعتقال

روسني–سو–بوا، 22 يوليو 2014.

الوحدة الدركية المكلّفة بتحديد هوية ضحايا الكوارث (UGIVC)، مؤسسة البحث الجنائي التابعة للدرك الوطني (IRCGN)

من السيد جيرار كالميت، مدير الـ (UGIVC)،
إلى السيد الملازم بيرتراند دوناديو، الدرك الوطني، السرية الإقليمية لضاحية إتروتا، سين–ماريتيم

سيدي،

استجابة لمراسلتكم بتاريخ 13 يوليو 2014، التي أشارت إلى العثور على ثلاثة هياكل عظمية في شاطئ إيبور، سين–ماريتيم، يوم 12 يوليو 2014، وجّهت مصلحتنا كل إمكاناتها للاهتمام بهذه القضية المقلقة.

لم يتمّ تحديد هوية الأشخاص الثلاثة حتى الآن، لكن المعاينة المخبرية الأولية تؤكّد مجموعة من الوقائع التي لا تقبل الجدل.

بداية، نؤكد، وبشكل قاطع، أنّ العظام تعود إلى ثلاثة رجال بالغين، تتراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين ساعة الوفاة.

لم تثبت الكشوفات التي أجريت بعد ذلك وجود آثار ضربات على الجماجم أو أيّ أجزاء أخرى من الهياكل العظمية، ممّا يدفعنا إلى استبعاد فرضية الوفاة الناجمة عن ضربات خارجية، كالانهيارات الصخرية للتجويف الذي يفترض أنّ الأشخاص الثلاثة كانوا موجودين فيه. تبقى فرضية الوفاة المدبّرة أو غير الطبيعية كخيار رئيس نقوم باقتفاء أثره، تبعاً للظروف المحيطة بطريقة العثور على الهياكل العظمية. كما ستمكن اختبارات كيميائية إضافية من دراسة احتمالية تعرّض الأشخاص الثلاثة للتسميم.

تبقى مسألة تحديد تاريخ وفاة الأشخاص الثلاثة واحدة من أكثر النقاط تعقيداً في هذا التحقيق. فكما جرت العادة في هذه النوعية من القضايا، قمنا بمنح كلّ هيكل عظمي اسماً مؤقتاً نستخدمه طوال فترة البحث، أسماء مرتّبة أبجدياً بما يوافق التواريخ المفترضة للوفاة.

نصل إذاً إلى نقطة غير مفهومة، وهي وفاة الأشخاص الثلاثة في فترات زمنية متباعدة، بما ينفي فرضية الموت «الجماعي» أو «المتزامن»، أو وقوع حادثة ذهب ضحيتها ثلاثة متخصّصين في المغاور، أو جريمة قتل ثلاثية، أو حتى عملية انتحار جماعي.

ولمزيد من الدقة، سنقول بأن الهيكل العظمي الأول الذي أطلقنا عليه اسم **ألبير** يعود إلى شخص لقي مصرعه صيف 2004 على أبعد تقدير.

الثاني، واسمه المؤقت برنار، توفي بعد **ألبير** ببضعة أشهر، بين خريف 2004 وشتاء 2005.

الثالث، واسمه المؤقت **كلوفيس**، توفي سنة 2014، بين شهرَي فبراير ومارس، أيّ قبل خمسة أشهر بالتحديد.

نظراً إلى ارتفاع نسبة الحموضة في تجويفات الصوان الكلسي التي استقرّت فيها الجثث طوال هذه المدة، لم تكن سرعة تحلّل الجثة الثالثة أمراً مفاجئاً لنا.

ختاماً سيادة الملازم، وكما أشَرتم إلى ذلك في مراسلتكم الأولى، يبدو أنه من الصعب فصل إجراءات تحديد هويات الهياكل الثلاثة عن القضية المشهورة باسم «القاتل ذو الوشاح الأحمر»، ومورغان أفريل، إحدى ضحاياه، التي عثر عليها شهر يونيو 2004، غير بعيد عن الموقع الذي تمّ اكتشاف الهياكل العظمية الثلاثة فيه.

في انتظار النتيجة النهائية للاختبارات التكميلية، وعلى رأسها التحليل الوراثي للعظام، نجد أنفسنا عاجزين عن إيجاد علاقة مباشرة قد تربط وفاة الرجال الثلاثة الذين نجهل عنهم كلّ شيء حتى الآن، ومصرع الفتيات الشابات.

تأكّد، سيادة الملازم، أننا نبذل كلّ جهد ممكن للدفع بهذا التحقيق إلى الأمام. لكنني لا أخفي عنك ضرورة اهتمامنا بقضايا عاجلة أخرى، نظراً إلى محدودية مواردنا البشرية. تبقى وفاة **ألبير** **وبرنار** مرتبطة بفترات تقادم قانونية تعادل عشر سنوات، لتكون بذلك ذات أولوية ثانوية بالنسبة إلى المصالح المعنية.

تقبلوا مني، سيادة الملازم، أصدق عبارات الاحترام والتقدير.

جيرار كالميت، مدير الـ UGIVC

18

إلى متى؟

انتظرت حلول الظلام وأنا مختبئ في واحدة من التجويفات الكثيرة في المنحدر، كقالب بين الصخور.

كنت مبلّلاً.

تفصل بين المنحدر ومياه البحر طبقة من الحصى بحوالي مترٍ واحد، لكن بعض الأمواج القوية اصطدمت بالمنحدر ليصل الرذاذ إلى الغبي المختبئ داخل التجويف، وكمكافأة لي على صبري، منحني الله منظر غروب لم أشهد مثله من قبل، قبل أن أصعد الوادي متّجهاً نحو فوكوت.

انتظرت قليلاً قبل مغادرة غابة هوكز، عشر دقائق تقريباً، حتى يصبح الظلام شديداً وتساهم برودة الجو في تجفيف ملابسي المبللة.

ما زلت حراً، لكنني أشعر ببردٍ شديد.

كانت ليلة رمادية، حوَّل الظلام وادي فوكوت إلى ما يشبه الوادي المسكون بالأشباح. ثلاثون منزلاً متناثراً بين أشجار الصنوبر

والبندق والبلوط التي يخيّل إليك أنها زُرِعَت هناك بعد إجراء مسابقة في أشدّ التصميمات الهندسية بشاعة. تزين الفيلات زخارف متنوعة، وأسقف على النمط السويسري وأجراس تيرولية ونوافذ على النمط الإنجليزي وواجهات على النمط الموريسكي. تأكدتُ من عدم وجود أيّ سيارة، ثم واصلتُ المشي عبر الطريق الشاطئية. كانت فيلا الأستاذ المشرف على أطروحة مونا قريبة من تقاطع الطرق.

مارتن دونان.

123، طريق كوشان.

«ستجد المفتاح تحت طوبة قريبة من حافة البئر. هذا ما قالته مونا عبر الهاتف. بالقرب من الممرّ المؤدي إلى باب المنزل. يقوم البستاني المكلَّف بحديقة المنزل بتغيير مكانها عندما يغادر المكان. اعتبر نفسك في منزلك، سألحق بك عندما تتاح لي الفرصة».

أسمَعَتْني صوت قبلةٍ ثم أغلقت الخط، دون أن تطرح عليّ أسئلة أخرى بخصوص الرسالة القلقة التي وجّهتُها إليها.

الشرطة تلاحقني.

يجب أن أختبئ.

أحتاج مساعدتك.

مونا فتاة رائعة.

التقطتُ المفتاح بعد عثوري عليه في المكان المحدَّد، ثم فتحتُ الباب ودلفت إلى الفيلا باحثاً عن الأمان بين جدرانها.

اعتبر نفسك في منزلك...

سأبدأ بحمام ساخن، ثم أنتظر قدوم مونا لأحكي لها تفاصيل ما جرى...

تجولت في أرجاء الفيلا، بممراتها وبهوها وأدراج سلّمها وغرفها العديدة صغيرة الحجم. يبدو أن مارتن دونان المشرف على أطروحة مونا لا يزور هذه الإقامة بشكلٍ دوري. لا يعني هذا أنّ المنزل كان مهملاً، بالعكس، فالبستاني يعتني بالحديقة بشكل ممتاز، وربما تأتي عاملة تنظيف تتلقى راتباً مُجزياً لتنظيف المنزل وتلميع زجاج النوافذ وتخليص الزوايا من شباك العنكبوت.

فيلا نظيفة... وفارغة.

انتابني ذلك الشعور عندما تلوّيت أمام المرآة الضخمة المذهَّبة في محاولةٍ لانتزاع سروال الجينز المبلل. اصطدمت ساقي الاصطناعية بالأرضية المصقولة بلونها الأزرق، فخيِّل إليّ أنّ الصدى يتردَّد في كلّ أرجاء الفيلا الفارغة، موقظاً الخيالات والأشباح من سباتها.

غطى صوت المياه على باقي الأصوات. فاستندت إلى ساقٍ واحدة وأنا أقف فوق بلاط الحمام.

أغمضت عيني وأنا أستعيد في ذهني أدقّ تفاصيل الفيلا، لقد قام مارتن دونان بتكديس الكثير من الأشياء في منزله، هذا هو المصطلح الأقرب لقصدي، كما لو كان يريد أن يتأكد من بقاء المنزل كما هو عند عودته إليه بعد أشهر طويلة من الغياب.

الحياة لكن بصورة زائفة!

ورود اصطناعية على المدفئة وجانب السرير.

سلة فاكهة مقلدة على طاولة المطبخ.

رفوف في البهو، تكدست فوقها روايات جيب ومجلات وألعاب منزلية بدا أنها مهمَلَة ومنسيّة منذ زمن طويل.

استسلمت للمياه الساخنة التي غمرت جسدي العاري، وقد خيِّل إليّ أنّ ديكور هذا المنزل المسكون غريب بعض الشيء، وأقرب إلى الوهمي، كما لو أنه ناتج عن خيال روائي خصب.

ولا يختلف في شيء عن شخصية مونا نفسها...

باحثة شابة ظهرت فجأة من العدم.

نشيطة وجميلة ومتفرّدة وشَبِقَة.

كما لو أنّ خيال كاتب قام بصناعتها... أو خيالي أنا، كأعزب يبحث عن الحب.

رفعتُ رأسي لأسمح لشلال المياه بصفع جلدي.

لا، الفرضية الثانية غير ممكنة عملياً!

تملك مونا جاذبية لا تقاوَم، لكنني لا أعتقد بأنها نموذج الفتاة المثالية في مخيلتي.

ولأن الأفكار مرتبطة بعضها ببعض، تراقصت ملامح وجه ماغالي فيرون أمام عيني.

اعتبر نفسك في منزلك.

أعدتُ تركيب ساقي الاصطناعية، ثم ارتديتُ روباً منزلياً أبيض اللون وجدته معلقاً على المشجب، ماركة كالفن كلين. تردَّدتُ في الاتصال بمونا مرة أخرى. أنا مطالبٌ بالمزيد من الحذر. سيتمكن رجال الدرك من إدراك طبيعة العلاقة بيننا، أنا متأكّد من أنها لن تشي بي، لكنهم قد يشكّون في أمرها ويلاحقونها...

طردت هذه الأفكار من رأسي، ثم عدتُ إلى تفقّد غرف الفيلا، في محاولة لنسيان خطورة موقفي وعدم توفري على خطّة مناسبة

للهروب، أو أيّ فكرة تسمح لي بالوصول إلى إثبات براءتي، كلّ ما أملكه هو محاولة كسب المزيد من الوقت.

مضَت نصف ساعة تمكنتُ بعدها من تحسُّس طريقي في الفيلا الشبيهة بالمتاهة، تفقّدت كلّ الغرف، باستثناء القبو الذي لا شكّ في أنه سيكون بشساعة الفيلا نفسها بأكملها. وجدت في البهو عدة زجاجات مرتبة فوق رفّ حديدي.

اعتبر نفسك في منزلك.

التقطت قنينة شراب كالفادوس، وقد أشار الملصَق إلى أنّ تاريخ العصر غير محدّد.

الشيء نفسه بالنسبة إلى هذا المنزل.

كانت رشفة واحدة كافية ليلتهب حلقي، سعلتُ بقوة، قبل أن يتحوّل السعال إلى حازوقة تردّد صداها في أرجاء المنزل، كروح تائهة خائفة أزعجها أحد ما. حاولت استعادة ذكرياتي السابقة أيام طفولتي في كورنوف والمنازل المتعدّدة التي أقمتُ فيها هناك مع تزايد عدد أفراد العائلة، لكنني كنت متأكّداً من عدم دخولي إلى منزل آخر بهذا الاتساع نفسه.

فضّلتُ انتظار مونا في الغرفة التي اخترتُ أن أطلق عليها اسم عش النسر: هي أعلى غرف الفيلا، بنيت في برج صغير يتجاوز السقف والمدخنة ببضعة أمتار. اعتقدت من الخارج أنّ الأمر يتعلق بواحدة من شطحات المهندسين المعماريين غريبي الأطوار، لكنني كنت مخطئاً! ففي الغرفة المستديرة الشبيهة بعشّ النسر، كان المشهد عبر النوافذ المطلة على وادي فوكوت والشاطئ رائعاً جداً.

هي أشبه ما تكون بمنارة بحرية!

الواضح أنّ مارتن دونان قد حوّل هذه الغرفة إلى مكتب بطاولته الخشبية الفاخرة ومكتبته محدودة العلو التي تحيط بالغرفة إحاطة السوار بالمعصم.

انتظرت لساعة أخرى إضافية، بين السماء والبحر، وبدأ النعاس يتسلّل إلى جفني، عندما وضعت مونا يديها على كتفي.

لم أشعر بدخولها ولم أسمع وقع خطواتها وهي تصعد عبر الدرج.

إنها أشبه ما تكون بجنية الحكايات الخيالية.

كانت تضع نجمة الشريف جهة قلبها.

- شكراً، قلتها قبل أن تطبع على شفتي قبلة طويلة.

بقينا للحظات صامتين، نستمتع بمنظر القمر وانعكاسه على صفحة مياه البحر.

- تكلّم، قالت مونا أخيراً.

رويتُ لها كلّ ما جرى. اتهامات بيروز وهروبي وقناعتي الأخيرة عن كوني ضحية خطة بوليسية محكَمَة. استمعَت مونا لكلامي دون أن تقاطعني ولو لمرة واحدة، قبل أن تتفوّه بالكلمتين اللتين كنت أودّ سماعهما:

- أنا أصدِّقك.

قبَّلتها مرة أخرى، قبل أن أنزع رباط شعرها لينسدل على كتفيها.

- لماذا؟ لماذا تفعلين كلّ هذا من أجلي؟

تسلَّلت يدها إلى فتحة الروب الأبيض.

- مَن يدري؟ عطر المجهول؟ ذلك الميل الطبيعي للقصص الخارجة عن المألوف؟ وربما ذلك اليقين الداخلي بعدم قدرتك على إيذاء ذبابة. . .

- ذبابة، لا أظن. لكن ماذا عن شرطي؟

ضحكَت.

- وماذا لو طلبتُ منكَ الاتصال بمحامٍ وتسليم نفسكَ لرجال الدرك صباح الغد. هل ستفعل ذلك؟

احتضنتُ مونا بين ذراعي.

- لا! لن أسقط في فخّهم. أريد أن أفهم بنفسي طبيعة ما يجري.

- أن تفهم ماذا؟

- كلّ شيء! لا بد من وجود حلّ منطقي أو مفتاح يفتح بوابة الخروج من هذا القصر الجليدي اللعين.

انهمكت مونا في استخراج كنوزٍ وجدَتها في مخزن المطبخ، لحم الكبد وبطة كونفيت وبرجراك أحمر، في الوقت الذي فتحت فيه ملف ماغالي فيرون الذي أخذته من مكتب بيروز.

اعتراني شعور عارم بالغضب، لا يحتوي الملف على معلومات أجهلها بشأن القضية. سيرة ذاتية مفصّلة تؤكّد المعلومات التي وجدتها على شبكة الإنترنت، طفولتها في كندا ثم في فال دو مارن ومختلف المؤسسات التعليمية التي تابعت فيها دراستها ثم عملها في شركة باير-فرانس. لينتقل باقي محتوى الملف إلى الحديث عن ظروف اغتصاب ومقتل ماغالي. تقارير طبية معقّدة تحلّل طبيعة كدماتها مرفوقة بالصور، بالإضافة إلى فصيلة دمها وبصمتها الجينية

وتفاصيل أخرى عن الاختناق الذي «أدى إلى الوفاة»، بحسب وصف التقرير.

اللعنة، إنهم مخطئون! بهامش خطأ لا يتجاوز بضع دقائق، لكنهم مخطئون في جميع الأحوال.

ندمت على عدم استغلالي لوجودي في مكتب بيروز للبحث عن ملفات أخرى قد تقدوني إلى معلومات أخرى بشأن قضيَّتَي كامو وأفريل، أو دلائل أخرى غير تلك التي يحرص أحدهم على إرسالها لي بشكلٍ متقطع.

أن أجد معلومات حول سلسلة الأرقام أو المعادلات التي يهتم بها بيروز إلى هذا الحد.

2/2	3/0
0/3	1/1

- العشاء جاهز! قالتها مونا بنشاطٍ بدَّد للحظاتٍ ضباب الأسئلة التي أرهقت تفكيري.

واضح جداً أنّ مخزون هذه الفيلا لا يقلّ في شيء عن مخزون مطعم لاسيرين. وضعت مونا طبق لحم الكبد على الطاولة في انتظار تجهيز لحم البط.

- في صحة مارتن! قالتها وهي ترفع كأس شرابها. تدفع له المؤسسة أموالاً طائلة، ما يعادل ثلاث جولات حول العالم سنوياً، من حقّنا أن نساعده على إفراغ مخزون منزله من الطعام.

أجبتُها بابتسامة حزينة، تعكس عدم قدرتي على التفاعل مع دعابتها.

- ماذا ستفعل؟ سألتني مونا فجأة.

- لا أدري. . .

- خسارة. . .

قدَّمَت الطبق لي ثم أضافت:

- خسارة، سيمسكون بك في نهاية المطاف، وستخسر كلّ شيء. بخاصة ما أثار إعجابي في شخصيتك (لمسَت بأصبعها النجمة المثبتة ناحية قلبها) تلك الفكرة الرائعة عن تحقيق خمسة أحلام في حياتك. ماذا. . . ماذا ستفعل بتلك الأحلام؟

- لا خيار أمامي يا مونا.

تأمَّلَتني للحظات طويلة بصمت، دون أن تكلِّف نفسها عناء إقناعي، كما يتمّ عندما يتراجع الكبار عن محاولة إقناع طفل عنيد. وفي الوقت الذي دفعت فيه باقي الأطباق نحوي، رنّ جرس هاتفي المحمول مخترقاً الصمت في الغرفة.

رقم مجهول.

ضغطتُ على زرّ الإجابة.

- سلاوي؟

صوت بيروز!

- لا تغلق الخط في وجهي يا سلاوي، لا تكُن غبياً. اللعنة، سلِّم نفسك! ستملك حقّ الاستعانة بمحامٍ، ومتابعة الملف أولاً بأول، ستكون قادراً على الدفاع عن نفسك.

قرّرت مواصلة الاستماع لبضع ثوان، دون أن أعلِّق على صراخه، واضح جداً أنه يحاول كَسب وقت يمكِّنه من تحديد موقعي.

- لقد تعاملتَ معي بأسوء طريقة ممكنة يا سلاوي، لكننا سنعالج الأمر فيما بعد. لقد اتصلتُ بمؤسسة سانت-أنطوان وكل

الزملاء هناك، بما فيهم المتخصّصون. لستَ وحدك! سنساعدك. لا تدمر. . .

خمس وعشرون ثانية.

أغلقت الخط ثم أطفأت الهاتف المحمول، لكن يدي لم تتخلّص من تلك الرجفة التي اعترتها. فلامستها أنامل مونا بهدوء، ثم تكلّمت بهدوء أكبر، كما لو كانت تريد بثّ بعض الطمأنينة في أعماقي.

- الواقع أنّ كلام هذا الضابط لا يختلف في شيء عمّا قلته لك.

أن أسلِّم نفسي.

سيكون ذلك سهلاً جداً.

- يريدون إلصاق كلّ تلك الجرائم بي أنا. لقد سمعت كيف كان يتحدّث عن الخبراء والأطباء النفسيين، يريدون اعتباري مجنوناً. . .

اعتصرَت يدي، فأكمَلْتُ:

- لا يمكن لبصماتي أن توجد على جثة هذه الفتاة! أنا لم ألمسها قط. رجال الشرطة يكذبون ويحاولون تزوير شيء ما. لماذا لا يعلم أحد بخبر وفاة ماغالي فيرون؟

- أنا أعلَم بذلك، وأندريه جوزياك أيضاً، ولا أستبعد أن ينقل الخبر لكلّ سكان إيبور ممَّن يزورون مطعمه.

- لم تتحدّث الصحف المحلية عن الموضوع.

- سيتحدثون عنه غداً. . . لماذا سيغامر رجال الشرطة بفبركة دلائل مزوَّرة يا جمال؟

- لا أدري يا مونا، وإذا كان غرضكِ تحويل النقاش إلى لعبة

ألغاز وأسئلة فأنا أملك منها الكثير! لماذا يقوم شخص ما بإرسال تلك الأظرفة التي تتحدّث عن تفاصيل قضية أفريل كامو؟ لماذا انتحَرَت ماغالي فيرون بعد نقلها لكلّ تفاصيل حياة مورغان أفريل؟ لماذا تمَّ تثبيت هذا الوشاح الأحمر في طريقي كعلامة يصعب تجاهلها؟

دفعت مونا طبق لحم الكبد الذي بدأته بالكاد.

- حسناً، لقد ربحت، أعترف بذلك.

التقطت فخذي البطة باستخدام ملقط الطبخ، فخيِّل إلي أنهما يشبهان ساقي رضيع جرى انتزاعهما من جسده. لم أصدر حركة واحدة لكن مونا شعرت بمدى تقزّزي، فوضعت يدها على كتفي.

- أنا متأكدة من أنك لست قاتلاً! لم يَدُرْ ذلك بخلدي أبداً، لكن أحدهم يؤمن بالعكس...

أثار منظر اللحم رغبتي في التقيؤ.

- اللعنة، لماذا أنا بالذات؟

استغرقت مونا وقتاً في التفكير، فاستسلمتُ لتلك الرغبة في تأمّل وجهها وهي مشغولة بالتفكير. أنفها المرتعش ورموشها المتحركة وأسنانها التي تعضّ شفتها السفلى.

- لماذا أنت... هذا هو السؤال الرئيس يا جمال. هل سبق لك المجيء إلى إيبور قبل هذا الأسبوع؟

- لا...

تخلّت أسنانها عن شفتها، جاهزة للانقضاض عليّ.

- أريد الحقيقة يا جمال! أنا لست شرطية، لذلك لا تلعب معي إن كنت تريد مني مساعدتك.

- قلت لك لا ، لكن. . . لكنني كنت على وشك المجيء.

- اللعنة يا جمال، وضِّح كلامك أكثر.

- كان هذا منذ عشر سنوات، كنت قد تعرَّفت على فتاة جميلة عبر الإنترنت، واتفقنا على قضاء عطلة نهاية أسبوع على شاطئ البحر، كانت ذاهبة إلى إتروتا، لكن تكلفة المبيت هناك كانت باهظة بالنسبة لي، لذلك قمتُ بالحجز في ضاحية إيغويل، هنا في إيبور.

- وماذا بعد ذلك؟

- ما جرى بعد ذلك أنّ الحقيرة أطلقت ساقيها للريح بمجرّد رؤيتها للفارس الذي يملك ساقاً واحدة فقط.

- لم تُخبِرها بذلك؟

- لا ، لم يدر بخلدي آنذاك أنني مطالَبٌ بنقل كاميرا الحاسوب إلى أسفل المكتب. . .

- حسناً، لم تطأ قدمك أرض إيبور؟

- لا ، أبداً!

ضحكت مونا وهي تصبّ لنا كأسَي شراب برجراك.

- معذرة، لكننا سنضيف مقلب إيبور إلى قائمة صدفك! وما الذي جاء بك إلى هنا هذا الأسبوع؟ ألا يوجد مكان آخر في العالم للتدريب على تسلّق قمم الجبال؟

- قبل بضعة أشهر، قمت بالإجابة عن أسئلة مسابقة عبر الهاتف، شيء ما عن السياحة في منطقة النورماندي. تمّ إجراء قرعة ففزت بعطلة لمدة أسبوع في فندق بإيبور. المبيت والوجود في هذا المكان المناسب للأجواء التي أنشدها للتدريب. . . أعتقد بأنك فهمتِ الآن سبب عدم تردّدي طويلاً بمجرد ظهور هذه الفرصة.

- نعم فهمت.

أفرغَت مونا كأسها، ثم تقدّمت نحو النافذة ورفعت عينيها نحو البرج الصغير في الأعلى.

- سنكون أكثر منطقية يا جمال، لكن يكون بوسعي قضاء الليلة هنا، لن يجد رجال الشرطة صعوبة في الربط بيننا، قد يداهمون فندق لاسيرين ابتداء من صباح الغد.

اقتربتُ منها لأحيطَ خصرها بذراعي.

- ما زال أمامنا وقت كافٍ قبل صباح الغد، أليس كذلك؟

تسلَّلت نظراتها إلى زغب صدري الذي يغطيه الروب المفتوح.

- ليس هنا، همسَت وهي توجّه نظراتها إلى عش النسر، بل هناك، في الأعلى...

انضم إلى مكتبة اضغط هنا

مكتبة
t.me/t_pdf

19

عطر المجهول؟

حرصَت مونا على أخذ حمام دافئ قبل اللحاق بي في الغرفة الواسعة التي تتوسّط الفيلا. تناهى إلى مسامعي صوت خطواتها على الدرج. كانت ترتدي روب كالفين كلين أحمر اللون.

قبّلتني في شفتي، ثم ألقت نظرة سريعة على المنظر الخارجي، مع التركيز على الوادي الصغير الخاضع لضربات الأمواج العمياء، لتهرع إلى المكتبة المحيطة بنا وتلتقط من الرفوف كتاباً قديماً، قبل أن تقول:

- موريس لوبلان! هتفت وهي تتصفح الكتاب الذي تحوّل لون أوراقه إلى الأصفر. مبتكر شخصية أرسين لوبين. لقد كتب رواياته الأولى هنا في فوكوت، بل إنه حوَّل هذا الوادي الصغير إلى فضاء تجري فيه بعض أحداث قصصه...

لم أكن مهتماً بما تقوله...

أريد نسيان قضية فيرون-أفريل-كامو.

أريد نسيان بحث رجال الدرك عني.

أريد نسيان كل شيء، باستثناء هذا الجسد الأبيض الملفوف بروبٍ أحمر اللون.

رفعت ركبتها على المكتب، فانفتح الثوب المحيط بجسدها ببضعة سنتيمترات.

- اسمع يا جمال، هذه واحدة من قصص موريس لوبلان، وأعتقد بأنها ستنال إعجابك. هي حكاية رجل فقير مرَّ بالقرب من أحد منازل فوكوت الفخمة، ثم دخلَ إلى المنزل بحثاً عن أيّ شيء يُطعِم به أطفاله المرضى، اسمه لينان، اسم جميل، أليس كذلك؟ المهم أنّ صاحبنا كان سيئ الحظ، فقد وجد بأنّ الإقطاعي صاحب المنزل قد أطلق رصاصة على رأسه. انتحار!

- ماذا جرى بعد ذلك؟ همست قائلاً.

- شعر لينان بالقلق، فأسقط شيئاً ما عن غير قصد، جاء الخادم ووجده واقفاً بالقرب من جثة سيده... البقية معروفة. الاعتقال والمحاكمة، وقد اعتقد الجميع بأنّ لينان المسكين قد قتلَ الإقطاعي، ولم يصدِّق أحد حديثه عن الانتحار.

همست في أذنها:

- كيف انتهت القصة؟

ارتعشت رقبتها فرفعت الكتاب وتابعت:

- تريد أن أقرأ السطور الأخيرة؟ اسمع، ستحبها، فهي ذات مغزى.

«ثم جاؤوا ذات صباح.

- استعدّ لمواجهة الموت يا لينان.

قاموا بتنظيفه، ثم قيّدوه، فاستسلم لهم، كحيوان سهل الانقياد، كجمادٍ لا حولَ له ولا قوة. حملوه إلى السقالة.

اصطكّت أسنانه وهو يتمتم:

- لم أقتله... لم أقتله.»

- «السقالة»، همست مونا، نشرت هذه القصة في **جيل بلاس** يوم 6 فبراير 1893. قد تكون واحدة من بين الاعتراضات الصريحة الأولى على عقوبة الإعدام!

وضعت الكتاب جانباً ثم اعتدلت جالسة على سطح المكتب، فذكرتني بكونشيتي، أستاذة اللغة الإنجليزية التي كانت تشعل بوضعية مماثلة كلّ تلاميذ قسمنا، وإن كانت مرتدية كل ملابسها.

انتحار؟ شخص بريء، يتهم بجريمة قتل.

شكراً مونا. وصلت الرسالة.

- وتريدين مني أن أسلِّم نفسي لرجال الدرك؟

استندتُ إلى سطح المكتب وقبّلتها في عنقها...

نامت مونا منكمشة على نفسها كطفلة صغيرة، وقد أخذت مني وعداً قبل نومها بإيقاظها مع ساعات الفجر الأولى، لتتمكن من العودة إلى غرفتها في لاسيرين.

مصاصة دماء صغيرة وجميلة... شهوانية ومغامرة.

لم أمنع نفسي من التساؤل: ما الذي يثير مونا أكثر؟ أن تعاشِر رجلاً متّهماً بجريمَتَي اغتصاب وقتل، أو أن تمنح نفسها لهذا الرجل على مكتب المشرف على أطروحتها، وقد يكون المكان نفسه الذي يعدّ فيه محاضراته.

الاثنان بلا شك.

لم أشعر بالنعاس وأنا أدور في الغرفة. توزّعت نظراتي لعدّة

ساعات بين النجوم المضيئة وجسد مونا العاري ومئات الكتب المحيطة بي.

جاورت كتب الجيب القديمة وكتب الصور الفوتوغرافية وعدة مراجع علمية سميكة بالإضافة إلى عشرات الصناديق المخصَّصة للأرشيف.

قرأتُ المعلومات المدونة على الصناديق بشكل آلي.

1978-1983-1990-1998-2004

2004؟

السنة التي قتلت فيها مورغان أفريل وميرتي كامو.

تقدَّمتُ نحو الصندوق لأفتحه، وأنا أنتظر العثور على ملخّصات دروس أو أوراق امتحانات الطلبة أو حتى نسخ مقالات بحثية.

كنت مخطئاً!

لم أجد بداً من عضّ شفتي لأمنع نفسي من الصراخ.

لقد قام الأستاذ مارتن دونان المتخصّص في الكيمياء الجزيئية بتجميع كلّ مقالات صحيفة لوكوريه كوشوا التي تطرقت لقضية مورغان أفريل.

وضعتُ الملفّ على المقعد القريب وأنا شبه محموم، ثم أمسكتُ ببعض الأوراق المصفرّة التي تروي القصة نفسها التي قرأتها في الملفات التي توصّلت بها من قبل مجهول.

لا جديد، كنت أعرف محتوى معظم المقالات.

لا جديد... مع وجود استثناء وحيد.

لماذا اهتم هذا الأستاذ -الذي لا يأتي أبداً إلى إيبور في مثل هذه الفترة من السنة- بجمع المقالات التي تتحدّث عن القضية؟

تردَّدتُ في إيقاظ مونا لأطرح عليها هذا السؤال.

سأفعل، لكن فيما بعد.

انحنيتُ على الصندوق مرة أخرى، أمامي ما تبقى من ساعات الليل لقراءة المقالات واقتناص تفصيل معين أفلتَ مني في السابق، قد تظهر تلك الومضة، أو المفتاح الذي يشرح كلّ شيء.

كم كنت ساذجاً...

كنت قد قرأت عشرة مقالات تقريباً عندما فتحت صفحة مزدوجة ملونة.

قضية أفريل.

عدد خاص من صحيفة لوكورييه كوشوا.

الخميس 17 يونيو 2004.

«**منك، يا مورغان**»، كان هذا عنوان المقال الطويل.

لم أكُن حذراً.

لم أنتبه بسرعة للصورة الكبيرة للفتاة المبتسمة وهي ترتدي فستاناً شرقياً، في سهرة رقص شرقي بلا شك.

ثم توقّفت بحركة واحدة، بذراعين مرتعشتين وفمٍ مفتوح. كانت تلك أول مرّة أتعرّف فيها على ملامح وجه مورغانَ أفريل. فكلّ المقالات التي توصّلت بها لم تكُن تتضمّن أيّ صورة لها، أو أنّ المرسِل تعمَّد تقطيعها. وقد فهمتُ الآن سبب ذلك.

صرختُ كالمجنون.

شعرتُ بأنّ الغرفة تهتز من حولي كصاروخ يوشك على الانطلاق.

- اللعنة! لا يمكن أن تكون هي!

ثم عدتُ لقراءة المقال بعينين مندهشتين.

لم تكن تلك صورة مورغان أفريل سنة 2004. . .

كانت صورة ماغالي فيرون! الفتاة التي تصغرها بعشر سنوات، التي ارتمت في الفراغ يوم أمس، أمام عيني.

استيقظت مونا مصدومة، ثم ارتدت الروب من دون أن تكلِّف نفسها عناء وضع الحزام، واقتربت مني وقد بدا عليها القلق.

- كابوس؟

سلَّمتُها الصفحة المزدوجة بيدٍ مرتجفة.

- اللعنة، انظري إلى هذه الصورة يا مونا.

قرأت العنوان، «**منك، يا مورغان**»، ثم ركزت على الصورة.

- كانت جميلة جداً، همست.

- اللعنة يا مونا، ستعتقدين بأنني مجنون فعلاً. . .

- لا، هل تظنّ ذلك؟

مررت يدي على شفتيها لأمسح ابتسامتها الساخرة.

- الفتاة الظاهرة في الصورة، التي يطلقون عليها في هذه الصحيفة القديمة اسم مورغان أفريل، هي الفتاة نفسها التي انتحرت يوم أمس. إنها. . . إنها ماغالي فيرون.

رمَقتني بنظرات طويلة، كما لو كان عقلها يبحث عن حلّ معادلة معقَّدة، أو دراسة كلّ المعطيات قبل وضع فرضية معينة.

أغلقت الروب بحركة آلية.

- ربما تتشابهان يا جمال.

- لا يا مونا! هذا ليس شبهاً بسيطاً، إنها. . . إنها هي!

- لم ترَ ماغالي سوى للحظاتٍ معدودة. . .

- ربما، لكن ملامحها بقيت محفورة في ذاكرتي، هل تفهمين هذا؟ أتذكَّر كلّ جزء من ملامحها. . .

- تتحدث عنها كما لو كنتَ مغرَماً بها.

قالتها بنبرة هادئة مع بعض السخرية ففضَّلتُ عدم إجابتها، ثم استدرتُ لجرد باقي محتويات صندوق الأرشيف، ومع توالي المقالات عثرتُ على صورٍ أخرى لمورغان أفريل، سواء تلك التي تركِّز على ملامح وجهها، أو التي تُظهر جسدها كاملاً.

إنها هي! وإن بدا الأمر سخيفاً، إنها ماغالي. كنت متأكّداً من ذلك، ولا مجال للخطأ.

شعرتُ بانزعاج مونا التي أغلقت روبها ثم وضعت يديها على المكتب وهي تراقبني كما لو كنتُ تلميذاً بليداً.

- أرجوك يا جمال، فكِّر قليلاً، ولو لثانيتين فقط. توجد الكثير من الجوانب المظلمة في هذه القضية، نحن متفقان، لكننا سنجد أنفسنا أمام بعض اليقينيات المطلقة، الأولى مفادها بأنّ مورغان أفريل قد توفيت يوم 5 يونيو 2004، وهذا ما تناولته كلّ وسائل الإعلام الوطنية آنذاك، وقد اشتغلَ رجال الشرطة على هذه القضية لأشهرٍ طويلة. الثانية هي أن ماغالي فيرون قد لقيَت حتفها يوم 19 فبراير 2014، يوم أمس، وأنت هو الشاهد المباشر. أمّا ما تبقى فأنا أصدِّقك، وأدرك بأننا نواجه لغزاً غامضاً، لكنني أعتبر وفاة الفتاتين مسلَّمة لا نقاش فيها. . .

- ماذا؟

- مسلَّمة! أو حدث يمكن اعتباره مؤكّداً ثم البناء عليه للدفع باستدلال معيَّن إلى الأمام.

- واصلي! ما هو استدلالك هنا؟

تفحَّصت مونا صورة مورغان أفريل في جريدة **ليكليرور برايون**.

- حسناً، نحن نعلم بأنّ ماغالي فيرون كانت تريد التشبّه بمورغان أفريل، بعد عشر سنوات على وفاتها، المدارس نفسها، الأذواق نفسها، المهنة نفسها ... الوفاة نفسها. تقليد غير طبيعي قد يصيب أيّ شخص بالدوار. ليس من المستغرب إذاً أن تفكِّر في التشبّه بها جسدياً أيضاً.

- هذا ليس مجرّد تشابه بسيط يا مونا، إنها هي!

- أكثر من مجرد تشابه بسيط، ماذا تقصد؟

لقد فهمت السبب الذي يجعل منها باحثة متميزة: كانت قادرة على إيجاد تفسير معقول لأيّ مفارقة كيفما كانت.

- ربما يوجد رابط عائلي بين ماغالي ومورغان وإن لم تكونا على علمٍ بذلك! قلت لي بأنّ مورغان ولدت عن طريق تلقيح اصطناعي في بلجيكا، أليس كذلك؟ ربما ولدت ماغالي عن طريق الأب البيولوجي نفسه بعد عشر سنوات كاملة، وعثرت على صورة مورغان بعدما تحدّثت عنها وسائل الإعلام إثر مقتلها، فتساءلت عن سرّ هذا التشابه، وبدأت بالبحث، إلى أن اكتشفت أنّ لهما الأب نفسه، فأصابها ذلك بالهلع...

- حتى لو وصل الأمر إلى محاكاة عملية اغتصاب وخنق وانتحار؟

- لِمَ لا؟ أنا أبحث يا جمال. أنا أبحث مثلك عن تفسيرات منطقية.

- لا وجود لأيّ شيء منطقي في هذه القضية...

ران الصمت على الغرفة. كنا أشبه بحارسَي منارة أجبرتهما العاصفة على الانقطاع عن العالم.

كرَّرت كلامي.

- لا وجود لأيّ شيء منطقي. على سبيل المثال، لماذا قام الأستاذ المشرف على أطروحتكِ بجَمع كلّ هذه المقالات عن القضية، هو الذي لا يأتي إلى هنا إلّا نادراً؟

- في عام 2004 كان يعدّ أطروحة من مئات الصفحات، وهي مرحلة إجبارية قبل تسلّم مهامه كأستاذ جامعي. وكان مستفيداً من منحة خاصة، عام كامل من دون تدريس. قضى عدة أشهر هنا لا يكلّم أحداً باستثناء الحصى والمجهر والأطروحة التي سهر على إعدادها. طبيعي أن يُشعِره ذلك بالملل، فاهتمّ بهذه القضية التي جَرَت أطوارها على بُعد عدة كيلومترات من مكان وجوده، كما هو الشأن بالنسبة إلى كل سكان المنطقة.

كما هو الشأن بالنسبة إلى كل سكان المنطقة.

أثبتت مونا مرة أخرى بأنها تملك الإجابة عن كلّ الأسئلة!

خيِّل إليّ بأنها تستظهر درساً حفظته جيداً.

- أليس ذلك غريباً بعض الشيء؟ كلّما جاء باحث إلى إيبور بغرض جمع عينات من حصى الشاطئ، لقيت فتاة ما حتفها؟

شعرتُ بالندم قبل إنهائي لعبارتي، في الوقت الذي لم تكلِّف مونا نفسها عناء الردّ، مكتفية بإعادة تصفيف شعرها وإعادة كتاب موريس لوبلان إلى مكانه ثم إعادة إغلاق الروب بحركة جافة.

هادئة، طبيعية...

- سأرتدي ملابسي يا جمال، إنها الثالثة صباحاً. سأعود إلى فندق لاسيرين. سيسألني رجال الأمن عن ليلة الأمس والعشاء والغرفة التي جمعتنا. سأضطر للقول بأنك كنت مجرد نزوة ليلية

عابرة، وبأنك كنت تائهاً وسط قصصك الملتوية، وبأنني لا أملك أدنى فكرة عن المكان الذي ذهبت إليه.

- أنا أثق بكِ يا مونا. أنتِ تتقنين تأليف القصص الخيالية.

لم أجد شيئاً آخرَ لأقوله، لم يعُد خيالي قادراً على إثارتها، فتابعتها ببصري وهي تنزل عبر الدرج.

استدارت نحوي للمرة الأخيرة.

- مجرّد معلومة تقنية إضافية يا جمال. يجمع فريقنا عينات من حصى الشاطئ في إيبور كلّ سنة، وهذا منذ إنشاء مختبرنا، أي منذ ثلاث وعشرين سنة.

قالتها ثم ذهبت، لتترك حارس المنارة وحده.

هي تعتبرني مجنوناً. هل من تفسير آخر؟

راقبت ابتعاد سيارتها الفيات 500 عبر النافذة.

هل أطيعها؟ أستسلم؟ أتصل بالشرطة؟ أنتظر قدومهم لإلقاء القبض عليّ؟

لا، ليس بعد!

لم ألعب كلّ أوراقي بعد. لست الشاهد الوحيد. كريستيان لوميديف ودنيز جوبان كانا حاضرين، وسيكونان قادرين على المقارنة بين ملامح ماغالي فيرون الباردة وملامح مورغان أفريل.

مزقت الورقة المزدوجة في لوكوريبه كوشوا عدد عام 2004، والتي تظهر فيها مورغان أفريل.

لا يمكن لأيّ منطق أن يدحض قناعتي.

لا يتعلق الأمر بتشابه عادي.

20

كابوس؟

كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة صباحاً عندما بدأتُ المسير، والبطارية في يدي. قطعت كيلومترين وصولاً إلى إيبور، على شاطئ البحر، أسفل المنحدر.

لم أذق طعم النوم، قد أملك الوقت الكافي لذلك غداً، وربما اليوم بأكمله، هناك في ذلك المنزل المسكون، إلّا إذا تمكّن رجال الدرك الأذكياء من الوصول إلى مخبئي، أو قامت مونا بالتبليغ عني.

بدا الجدار، وقد سلَّطتُ عليه ضوء الكشاف، أشبه بفناء قلعة صخرية، منيع وشاسع.

إيبور نائمة. بحثت بعيني -مستعيناً بانعكاس أضواء النيون الزرقاء للكازينو- عن سيارة مونا، وسط عشرات السيارات المتوقفة أمام الشاطئ. لم أعثر عليها. أغلب الظنّ أنها تركتها في شارع قريب.

كلّ مصاريع النوافذ فاتحة اللون لغرف فندق لاسيرين مغلقة.

بما فيها غرفتي.

الغرفة التي تنام فيها مونا وحدها.

اعتصرت قلبي يد لامرئية، فأجبرتُ نفسي على التقدّم بالقرب من الحاجز المظلم، محاولاً ضبط مشاعري. لن أضيع المزيد من الوقت، ستكون المئتا متر الأخيرة الأكثر خطورة، قد يظهر أيّ تهديد في الشارع المقفر بالبلدة النائمة. ربما حدد رجال الدرك مكافأة لمَن يبلّغ عني، أو أي شيء من هذا القبيل. مكافأة سخية لمن يسلّمهم ذلك المغتصب الأعرج. لم أشعر في يوم من الأيام بأنني ضعيف إلى هذه الدرجة. يختلف الأمر كلياً عن الذوبان في متاهة مواقف السيارات وأسفل السلالم في ضاحية الـ 4000.

مئتا متر مكشوفة في العراء، وصولاً إلى منزل كريستيان لوميديف.

واصلتُ المشي بصمت، من دون أدنى إزعاج لنوم سكان إيبور بضربات ساقي الاصطناعية، على طريقة لونغ جون سيلفر[1] في ليسبانيولا. لقد تعلمتُ بمرور الوقت كيفية إزاحة طرف هذه الساق بمليمترات قليلة عن الإسفلت.

ثم سمعت ذلك الصوت خلف ظهري.

أسرعتُ الخطى ثم توقفت فجأة.

واصل الصوت إيقاعه المنتظم، وقد اشتدّ مقترباً مني.

احتميتُ بظلّ بوابة وكالة إيبور العقارية، وقد تضاعفت سرعة دقات قلبي.

---

(1) لونغ جون سيلفر: شخصية خيالية في رواية جزيرة الكنز لروبيرت لويس ستفنسون التي صدرت عام 1883. -المترجم-

تردَّد صوت التنفس الخشن في الزقاق البارد، ثم تناهى إلى مسامعي صوت خطوات متسارعة على الرصيف. مرت عدة ثوانٍ، طالَ أمدها إلى ما لا نهاية، قبل ظهور صاحب الظلّ.

طبيعي أن يفاجأ الكلب مثلي بمرور غريبٍ من هذا المكان، وفي هذا التوقيت المريب.

وضعت أصبعي على فمي لأطلب منه عدم إصدار أيّ صوت، فجلس مطيعاً، لكنه نهض بمجرد مواصلتي المشي، مكتفياً ببضعة أمتار بيننا.

كانت عيناه الصفراوان شبيهتين بمنارتين معطلتين، كلب رمادي مسكين يمشي على ثلاثة قوائم، لا وجود لقدم من الخشب أو الكربون لمساعدته، فقط بقايا فروٍ متيبس. ماذا لو كان يعرج بهذه الطريقة لمجرد شعوره بالغيرة مني؟

توقفت أمام منزل لوميديف، فتمكّنتُ من تحديد أشعة الضوء المتسرِّبة عبر مصراعَي النافذة المقفلة في غرفة بالطابق العلوي.

الشاهد الذي أبحث عنه ما زال مستيقظاً! مكتئبٌ ومصاب بالأرق، كنت متأكداً، بل مستعداً للمراهنة على ذلك.

جلس الكلب على الرصيف المقابل، ربما قرَّر انتظاري.

دفعتُ الحاجز ثم طرقتُ الباب بهدوء.

لا جواب.

أدرتُ المقبض، وإن كنت متأكداً من أنه لن يستجيب، وأنني سأكون مطالَباً بالبحث عن وسيلة أخرى للإعلان عن قدومي، من دون إثارة انتباه سكان الحي.

لا فائدة من ذلك!

وجدتُ الباب مفتوحاً، كما لو أنّ لوميديف ينتظر زيارتي. تقدَّمت خطوة داخل المنزل وأنا أقول بصوت خفيض هو أقرب للهمس:

- كريستيان؟ كريستيان لوميديف.

طبيعي أن أخشى قيام هذا المكتئب بإطلاق النار عليّ.

- لوميديف؟ أنا سلاوي. . .

لا جواب. أنار ضوء الطابق العلوي أعلى الدرج. ربما أفرط هذا المكتئب في تناول المهدئات.

أتاراكس. . .

صعدت وأنا أتعمّد قرع كلّ درجة بقدمي. اهتزّ الدرابزين تحت يدي المتعرقة، لم يكن مثبتاً بشكل جيد، فخيِّل إليّ أنه قد ينخلع في أيّ لحظة. ألا يتلقى كريستيان لوميديف راتباً يسمح له بصيانة هذا المنزل؟

غاصت قدمي في السجاد السميك.

- كريستيان؟

لا وجود لأيّ ردّ فعل.

دفعتُ باب الغرفة بحرص، منتظراً العثور على لوميديف ملقى على فراشه. مقتولاً أو ثملاً.

لم تجد عيناي سوى الفراغ.

لا أحد في الغرفة. الفراش مرتَّب بعناية. يوجد كتاب على الطاولة المحاذية للسرير، بجانب المصباح الصغير المضاء. كما توجد بعض الملابس المطوية، منامة وقميص وسترة لونها بيج.

غرفة عازب قديم!

وقفتُ في مكاني محاولاً التفكير بهدوء. لكنّ طنيناً خافتاً أفقَدَني تركيزي، فنزلت بسرعة عبر درجات السلم.

غرفة عازب قديم، كرّرتها في أعماقي بإصرار، لكنه عازب قديم يحرص على الاستيقاظ باكراً! يبدو أنّ لوميديف قد غادرَ فراشه. أمّا الطنين الذي سمعته فكان بسبب راديو ترانزستور لم يضبط على الإشارة الصحيحة! أغلب الظنّ أن لوميديف يتناول وجبة إفطاره. تقدَّمتُ ملقياً نظرة على البلاط بلونيه الأبيض والأسود. يتكون الطابق الأرضي من فضاء واحد، مطبخ مفتوح على غرفة أخرى.

تتوسط المطبخ طاولة وكرسي.

تسمّرت أمام مدخل المطبخ، محتفظاً بصمتي.

اللعنة، ما الذي جرى هنا؟

وجدتُ صحناً على الطاولة، به قطعة لحم شبه محترقة تسبح في بحر من التالياتيلي، وإلى جانبه كأس ممتلئة إلى نصفها بالنبيذ الأحمر، شوكة وسكين ومنشفة مربعة على حافة الطاولة ونصف رغيف من الخبز.

ولا أثر للوميديف...

- كريستيان؟ كرّرت النداء.

«فرنسا الزرقاء، معكم طوال الليل»، أجابني راديو الترانزستور، قبل أن ينطلق عزف أغنية لدانييل غيشار. صرخت باسم كريستيان، وقد توقعتُ انشغاله بقضاء حاجته أو أخذه لحمام دافئ.

بلا أمل.

لم ينَم لوميديف في منزله هذه الليلة.

لم يكمِل عشاءه.

لم أعُد أفهم شيئاً.

اللعنة، ما الذي جرى هنا؟

قمت باستغلال الدقائق الموالية في تفتيش المنزل، ستون متراً مربعاً تقريباً، لم يستغرق ذلك الكثير من الوقت، مع يقينٍ واحد بأن كريستيان لا يختبئ في المنزل، ولا وجود لجثته أيضاً...

لم أجد شيئاً، باستثناء بعض المتعلقات الشخصية التي تناسب عاطلاً مثله: ملابس، كتب، حاسوب محمول محميّ بكلمة سرّ، ثلاجة ممتلئة تقريباً، كومة من الصحف المحلية، أدوية مضادة للاكتئاب، لا وجود للأتاراكس أو الأنافرانيل[1].

كما لو أنّ لوميديف قد غادر المكان بشكل مفاجئ.

متى؟

تجاهلتُ أمر بصماتي وأنا ألامس رغيف الخبز اللين.

حرَّكت رماد المدفئة فوجدته فاتراً.

يبدو أنّ لوميديف قد اختفى منذ أقل من عشر ساعات، في أثناء تناوله لوجبة العشاء، يتطابق هذا التوقيت تقريباً مع لحاق مونا بي في فوكوت. ألقيتُ نظرة جديدة على الغرفة، وقد ذكّرتني بشقّة العم يوسف.

كنت في السابعة من عمري عندما دخلتها صحبة أمي. كان قد توفي إثر أزمة قلبية، ثلاث ساعات قبل قدومنا، فذهبَت أمي للبحث عن الوثائق المتعلِّقة بإجراءات الجنازة والدفن. أذكر كيف وجدت

---

(1) الأتاراكس والأنافرانيل: أدوية مضادة للاكتئاب، من هنا جاء اللقب الذي أطلقه جمال على كريستيان لوميديف. -المترجم-

على الطاولة حساء بارداً ونصف رغيف خبز، وشبشباً بالقرب من المقعد.

هل لقي كريستيان لوميديف حتفه؟

هل قُتل؟ تمّ اختطافه؟ أم أنه أجبِرَ على الرحيل؟

لماذا؟

تذكرت الكلمات الأخيرة التي تفوَّه بها يوم أمس.

سأواصل البحث لمعرفة حقيقة المدعوة ماغالي فيرون.

شيء ما غير طبيعي في هذه القضية.

هل عثر على شيء ما؟

هو مؤمن بوجود مؤامرة أو مكيدة.

صمت الصحف.

صمت رجال الدرك.

هل اقتاده رجال الأمن إلى جهة معينة ليمنعوه من الكلام؟

«فكرة سخيفة!» هكذا همس صوت منطقي في أعماقي. لا تقوم الشرطة الفرنسية باستدعاء المواطنين ليلاً، وقبل إكمالهم لوجبة العشاء!

ألقيت نظرة على ساعة يدي. الرابعة صباحاً وخمس وثلاثون دقيقة. منحتُ نفسي عشر دقائق إضافية للقيام بجولة أخيرة في المنزل قبل العودة إلى فوكوت، وقبل استيقاظ إيبور من نومها.

فتحتُ الأدراج، مررت يدي تحت الأثاث، أنزلتُ الكتب من الرفوف وأخرجتُ الملابس من الخزانات. لا شيء.

باستثناء تفصيل واحد.

ورقة بيضاء مطوية في دليل الهاتف، دوَّن عليها أحدهم - لوميديف بلا شك- سلسلة أرقام في أربع خانات.

2/2	3/0
0/3	1/1

ارتعشت أصابعي وأنا أغلق دليل الهاتف. هل فكَّر لوميديف بطريقة بيروز نفسها؟ هل تمّ التخلص منه لهذا السبب؟

سالت قطرات العرق على ذراعي، وصولاً إلى يدي، فبلَّلت كلّ ما لمسته من أشياء.

مقابض، مزلاج، مفاتيح الإنارة. . .

كمية كبيرة من الدي إن آي، تكفي لتحميلي مسؤولية ما جرى لكريستيان لوميديف فور تبليغ الجيران عن اختفائه.

ألقيتُ نظرة عبر مصراعي النافذة، ما زال الشارع خالياً، باستثناء الكلب الأعرج الجالس تحت مصباح الشارع. قمتُ بدسّ الورقة المطوية في جيبي، ثم غادرتُ المكان.

21

هل عثر على شيء ما؟

نمت حتى العاشرة صباحاً، لتوقظني رسالة نصية بعثتها مونا.

قام رجال الشرطة بمداهمة لاسيرين.
يبحثون عنك. لم أقل شيئاً.
يريدونك حيّاً على ما أعتقد. أوف!
اعتنِ بنفسك.
بوني

تسمّرت في مكاني لعدة ثوان. اخترَقَت أشعة الشمس في وادي فوكوت الصغير زجاج النوافذ، تاركة أثرها على ستائر الكتان. قمتُ بتثبيت اللحاف الضخم خلفَ ظهري، ثم كتبتُ ردي:

لن يصلوا إليّ!
السر رقم 123: كريستيان لوميديف، أتاراكس، الشاهد رقم 2 عن انتحار ماغالي فيرون، اختفى منذ ليلة أمس.

فخ!
كوني حذرة.
كلايد[1]

انتظرتُ ردّ مونا لدقائق عديدة، لكن بلا جودى.

سأغادر الفراش، أغسل وجهي، أرتدي ملابسي، أتناول وجبة الإفطار، ثم أحاول بعدها طمأنة نفسي.

أعتقد بأنّ مونا تتعمد عدم الإكثار من الرسائل المتبادلة بيننا، ومعها حق في ذلك. لقد قابلها رجال الشرطة، وقد يرتابون في أمرها ويعملون على مراقبة تحركاتها.

حوالي الساعة الحادية عشرة، وبعد إفراغي لعلبة بسكويت لوتس وشربي للقهوة، نزلت إلى القبو، المكان الوحيد في منزل مارتان دونان الذي لم أكتشفه بعد.

ما زالت تفاصيل خطّة المواجهة غير واضحة بالنسبة لي. سأختبئ في هذه الفيلا طوال اليوم، ثم أستخدم كلّ وسائل التواصل التي أملكها للوصول إلى أيّ أثر ذي أهمية، أتحدث عن شبكة الإنترنت وخط الهاتف، سأقلّد نموذج الممثل في أفلام هيتشكوك، القادر على حلّ لغز جريمة من دون مغادرة منزله، حتى وإن كانت ساقه مُحاطة بالجبس.

---

(1) بوني وكلايد (Bonnie & Clyde): زوجان أميركيان اشتهرا في ثلاثينيات القرن العشرين بارتكابهما لعدّة جرائم قتل وسرقة، وقد قُتلا معاً في مواجهة مع الشرطة عام 1934. -المترجم-

دلّت طبقة الغبار السميكة على أنّ أحداً لم يزُر قبو فيلا الأستاذ الجامعي منذ عدة أشهر. تركت خطواتي اللامتماثلة أثرها على الإسمنت الرمادي، فبدت أكثر وضوحاً من آثار أقدام على الثلوج. أشعلتُ المصباح العاري المتدلي عبر خيط كهربائي، فغمرَت المكان رائحة حشرات محترقة.

وجدتُ كومة من الأشياء ثقيلة الوزن، التي تصلح لقضاء عطل نهاية أسبوع مشمسة. دراجات، مظلات شمسية، مقاعد طويلة، آلات شواء متنقلة، لوازم حدائق، خيوط بادمنتون، كرات، مضارب، وعلب كرتونية مكدّسة أمام الحائط.

الوقت كله أمامي، لم أستطِعْ مقاومة الإغراء، فنزعتُ الشريط اللاصق البنيّ عن العلبة الأولى، لأجد كومة من ألبومات الصور.

تصفّحتها متمهِّلاً، كما لو أنّ كلّ ألبوم يمثل حلقة في مسلسل سيتكوم.

عائلة دونان، الموسم الأول.

يقف الأستاذ الجامعي أمام الكتلة الصخرية لإتروتا، تعود الصورة لثمانينيات القرن الماضي، بوجود سيارة الرينو 5 برتقالية اللون خلفه، ممسكاً بيد زوجته، شقراء جميلة مرهفة، مبتسمة، وإن لم يكُن شعرها مصفّفاً بعناية. ثم تتابعت الصور التي تجسّد تفاصيل حياته كفيلم سينمائي. مارتان على الشاطئ، مارتان يمارس أعمالاً يدوية، مارتان يصطاد السمك.

ألبوم آخر يظهر فيه دونان أكبر سناً، واقفاً أمام الكتلة الصخرية نفسها، تعود الصورة للألفية الثالثة، بالنظر إلى وجود سيارة أودي A4 متوقفة خلفه، فيما أمسكَ هو بيد زوجته الشقراء بشعرها القصير، والتي تظهر عليها ملامح الصرامة والقوة. مارتان يمارس

رياضة ركوب الأمواج، مارتان يلعب الغولف، مارتان يلعب التنس مع ابنه، أسمر قد يكون في مثل سني، ونرى كيف يكبر مع توالي الصفحات التي تُظهر أيضاً طبيعة نشاطاته خلال الأيام التي يقضيها في الإقامة العائلية الثانوية.

تابعت تصفّحي لباقي الألبومات، وصولاً إلى ما كنت أبحثُ عنه: صورة لمونا. وجدتُ اثنتين من بين مئات الصور.

يظهر مارتان دونان في الصورة الأولى وهو يجمع الحصى رفقة مونا. وفي الثانية واقفاً إلى جانبها على الكتلة الصخرية لإتروتا. لم يكُن ممسكاً بيدها، لكنها بدت أكثر جمالاً من أي وقت مضى.

كم كان الأستاذ دونان محظوظاً!

وكما لو أنّ الأمر يتعلق بنوع من توارد الخواطر، رنّ هاتفي في اللحظة ذاتها. ردّ بوني!

سوء حظ بالنسبة إلى لوميديف يا فتى.
ركّز على الشاهد رقم 3، العجوز دنيز.
وإلّا، الجنون المباشر!

ابتسمت، ثم تحسست الصفحة المزدوجة الممزقة لجريدة **لوكورييه كوشوا** في جيبي. مونا على حقّ. لوميديف خارج اللعبة، وحدها دنيز القادرة على القول بأنّ ملامح ماغالي فيرون هي نفسها ملامح مورغان أفريل. وحدَها دنيز القادرة على إثبات سلامتي العقلية، وأنني لم أصل مرتبة الجنون بعد... وإن كنت أجهل كلّ شيء عنها، باستثناء اسمها الشخصي وسنّها.

دنيز، سبعون عاماً.

نموذج لا يقلّ ندرة عن نموذج لناتالي الخمسينية أو ستيفاني الثلاثينية.

لن أتّصل بكلّ اللواتي يحملن اسم دنيز في هذه المقاطعة، ولن أطلب من بيروز تزويدي بعنوانها...

ضغطتُ على الأزرار بعصبية، مرسِلاً جواباً مقتضباً من كلمتين، على شكل نداء استغاثة.

دنيز مَن؟

كما لو أنّ مونا ستعرف. لقد أخبرني لوميديف بأنه لم يرَ دنيز في إيبور بعد ذلك. ربما تقطن في بلدة مجاورة.

تابعتُ استكشافي لمحتويات القبو.

عثرتُ في رفٍّ علويّ على علبة صغيرة حمراء، وتمكّنت من قراءة الحروف التي مُحيَ نصفها:

Winchester AM Munition

علبة خراطيش!

لا ذخائر بلا أسلحة... منطقياً، يخفي الأستاذ دونان مسدّسه في مكانٍ ما من هذا القبو، بعيداً عن أعين الأطفال.

استغرق مني البحث ربع ساعة إضافية، بعدما فتحت أدراج خزانة كان الوصول إليها شبه مستحيل لوجود سلّم نقال وطاولة بينغ بونغ. قمتُ بإزالة أكوام من الملابس ذات القيمة، تمّ رميها هنا كخرق بالية. تجاوزتها الموضة؟ أصغر من اللازم؟ منسية؟ قفازات فيتون مبتذَلَة، قميص بولو إيدين بارك ورديّ اللون، تي شيرت أرماني، ربطة عنق فيشي قطنية ماركة بربري.

انزلقت قطعة القماش بين أصابع يدي وأنا أفكر في كلّ هؤلاء الذين يمتلكون بعض المال ويجدون أنفسهم مجبَرين على امتلاك هذه النوعية من الملابس، لا أتخيَّل طبعاً أنّ مصادفة إعجازية جديدة ستقودني إلى البحث في قبو القاتل ذي الوشاح الأحمر. . . أو مارتان دونان، أستاذ الكيمياء الجزيئية.

وجدتُ المسدس تحت الملابس.

كينغ كوبرا، استناداً إلى الاسم المكتوب باللون الأبيض على المعدن الأسود. أعتقد بأنه ما زال جديداً، هذه أوّل مرة أمسك فيها بسلاح ناري.

وصلتني الرسالة النصية القصيرة وأنا في القبو، أتحسَّس الزناد بأصبعي.

اسأل الكلب!

استغرق مني فهم رسالة مونا وقتاً طويلاً.

الكلب؟ أي كلب؟

تخيَّلتُ رسالة بمعنى مزدوج في البداية، قبل أن أتذكر أرنولد، كلب الشي تزو الذي يرافق دنيز.

الشاهد الرابع؟

مونا تسخر مني!

كنت أبحث عن إجابة روحية الطابع، على شاكلة «إن كنتَ تملك الوقت على الشاطئ، اسأل النوارس أيضاً»، عندما توقف إبهامي قبل الضغط على أزرار الهاتف.

لمعَ الحل المنطقي في ذهني.

لا، مونا لا تسخر مني!

كانت نصيحتها واضحة للغاية. **اسأل الكلب!** قد تنجح الفكرة، مع القليل من الوقاحة والكثير من الحظ.

غادرتُ القبو بسرعة، دون أن أكلِّف نفسي عناء إعادة ترتيب تلك الفوضى. لا بد من وجود دليل هاتف في المنزل. بحثتُ في البهو، فاتحاً أدراجَ كلّ الخزانات التي وجدتها أمامي.

جمّدني صوت الإطارات في حديقة الفيلا، كما لو أنّ يداً حديدية قامت بخدش أفكاري.

رجال الشرطة!

اختبأتُ تحت النافذة بحركة غريزية.

سمعتُ صوت فتح البوابة، وخطوات على الإسفلت... لن أنتظر هنا بغباء، فنهضتُ بحرصٍ وألقيت نظرة سريعة عبر النافذة.

كانت السيارة متوقفة أمام البوابة، وأحدهم يتقدّم نحو المنزل بخطى واثقة.

وإن بدا الأمر أقرب إلى المستحيل، وهو ما عجز عنه رجال الشرطة أنفسهم.

لقد تمكَّن من الوصول إليّ.

قام بإشعال سيجارة، ولم يتردَّد بعد ذلك ولو لثانية واحدة.

تقدَّم ساعي البريد نحو صندوق الرسائل، ودسَّ فيه ظرفاً بنيّاً كبيراً، ثم عاد إلى سيارته الكانغو الصفراء، مواصِلاً جولته.

22

بمعنى مزدوج؟

جمال سلاوي
منزل مارتان دونان
لا هورسين
123، طريق كوشان
فوكوت.
76111 فاتيتو-سور-مير

أعدت قراءة العنوان وأنا أرتجف.

جمال سلاوي
منزل مارتان دونان

تراقصت الأسطر أمام عيني.
مَن يعلم بأمر اختبائي هنا؟

لا أحد! لا أحد باستثناء مَن منحتني هذا المخبأ.

الشخص الوحيد الذي يساعدني على الفرار من رجال الشرطة.

الشخص الوحيد في العالم الذي يصدِّقني.

مونا.

هل يتعلّق الأمر بتمثيلية تلعب فيها دوراً معيناً منذ لقائنا الأول في مخفر الدرك؟

ألقيت نظرة أخرى على الوادي الصغير عبر النافذة، قبل أن ينتقل بصري إلى الشاطئ. ما علاقة جامعة الحصى بموت ماغالي فيرون؟ وربما أيضاً مقتل مورغان أفريل وميرتي كامو؟ لا معنى لكلّ هذا. وحدها مونا القادرة على إرسال هذه الرسالة إلى منزل الأستاذ المشرف على أطروحتها، ولكنها بهذا التصرّف تدين نفسها بما لا يدَع مجالاً للشك!

فقدت مرة أخرى الرغبة في الفهم، كان فضولي أقوى، وقد خمَّنتُ بأنّ هذا الظرف يحتوي على تفاصيل أخرى حول قضية أفريل-كامو، وقد تكون تفاصيل لم تتطرَّق لها الصحف أو شبكة الإنترنت.

جلستُ على الأريكة المريحة في البهو، أمام المدفأة المطفأة، ثم فتحتُ الظرف بأصابع حافظت على ارتجافها.

لم يكن يحتوي سوى على ورقتين.

محضر شهادة فريدريك سان-ميشيل.

ملفات MC-47، MC-48، MC-49، MC-50.

* * *

طلبَت إيلين نيلسون من الرائد باستيني أن يسمح لها بتولي أمر الاستماع لشهادة فريدريك سان-ميشيل، خطيب ميرتي كامو. وقد وافق الرائد على طلب خبيرة علم النفس الإجرامي. كان على وشك الانهيار تحت ضغط الملفات التي تحاصره، بالإضافة إلى إلحاح القاضي بول هوغو لاغارد الذي ينتظر النتائج، والحرب الشعواء التي تشنّها كارمن أفريل، الرافضة بمعيّة محاميها، تصديق حقيقة بذل الشرطة كلّ ما في وسعها لإلقاء القبض على قاتل ابنتها، كما تضاعف الضغط الواقع على باستيني الذي خشي وقوع جريمة اغتصاب وقتلٍ جديدة.

كان باستيني مشغولاً بجلسة استخلاص معلومات مرتَجَلة في الصباح، عندما لاحظَ وجود بعض التجاعيد حول عينيه المرهقتين، بما يتعارض مع الجبين الأملس والخدين المتوردين للخبيرة النفسية.

«خمسة آلاف يورو!»، كان هذا تعليقاً ساخراً من مساعده بيرانجي. التكاليف الثابتة لعمليات شدّ الوجه في مراكز التجميل.

هذا يتجاوز إمكانات باستيني!

كيف يمكن لفتاة مشغولة بمظهرها الخارجي أن تزاول مهنة تعتمد على فهم الدواخل النفسية للآخرين؟

- سيد سان-ميشيل؟ قالت خبيرة علم النفس الإجرامي، هل يتعلق الأمر برسالة بعثتها ميرتي؟

- نعم، هذه آخر رسالة أتوصّل بها من ميرتي، أرسلتها أياماً قليلة قبل مقتلها.

كان فريدريك سان-ميشيل واقفاً بالقرب من ألينا ماسون التي أيّدت قوله بإيماءة من رأسها. وبدا أن الطاقة القتالية لصديقة ميرتي كامو المقرّبة تتعارَض مع الحزن الذي يسيطر على نظرات وحركات سان-ميشيل.

- لم تكونا تتبادلان الرسائل النصيّة القصيرة؟ قالت إيلين بإصرار.

- نعم، أيضاً، ولكن...

كان فريدريك سان-ميشيل يجد صعوبة بالغة في الحديث عن التي كان من المفترض أن تصبح زوجته المستقبلية. تلاعبت أصابعه المتوترة بعلبة السجائر في جيبه، وقد دلّت نظراته المتوسلة على رغبة كبيرة في السماح له بالتدخين داخل المخفر.

أمسكَت ألينا ماسون بزمام الحديث.

- كانت ميرتي شابة رومانسية تحبّ الرسائل، أقصد الرسائل الورقية، كانت تحب الكتابة. وعندما كنّا في المخيم، تنتهي اجتماعاتنا بعد منتصف الليل، لكنها تجدُ الشجاعة الكافية للكتابة على ضوء المصباح اليدوي في خيمتها.

بدا كما لو أنّ هذه المعطيات التي أضافتها صديقة ميرتي المقرَّبة قد تحولت إلى سهام تخترق جدار ذكريات سان-ميشيل. حاصر سيجارة مطفأة بين شفتيه، ثم أمسك رأسه بيديه. تأمّلته إيلين كعالِم حشراتٍ انشغلَ بمراقبة ذبابة تصطدم بزجاج مرتجع. لم يتمالك الرائد باستيني نفسه وهو يسأله، متناسياً وَعدَه بالصمت:

- اقرأ هذه الرسالة!

قطّبت إيلين جبينها المشدود قدر الإمكان، ثم قالت بنبرة هادئة لتُعيد صياغة ما قاله الرائد بطريقة أكثر لطفاً:

- سيد سان-ميشيل، أعلم بأنها رسالة حميمية، قصيدة شعرية كما قلت، وقد تكون هذه آخر كلمات قامت ميرتي بكتابتها قبل موتها. مَن يدري؟ قد نجد فيها دليلاً ما...

سحق فريدريك سان-ميشيل السيجارة بيده قبل أن يجيبها قائلاً:

- كنا سنتزوج.

جواب لا علاقة له بالموضوع.

أسبلت خبيرة علم النفس الإجرامي رموشها الصناعية الطويلة أكثر من اللازم.

- أعلم ذلك يا فريدريك. نريد سماع ما قامت ميرتي بكتابته.

أخرجَ سان-ميشيل الورقة من جيبه ثم رفعَها أمام عينيه كما لو كانت تزنُ عدة أطنان. تحرَّكت شفتاه، لكنه لم يُصدر أيّ صوت.

لامست أنامل إيلين نيلسون -المصبوغة بلون قرمزي يلائم لون فستانها- ركبة الرائد تحت المكتب. فوجئ باستيني في البداية، لكنه فهم بأنها تطلب منه التحلي بالقليل من الصبر.

مدَّت نحو الشاهد يداً تغطي معصمها عدة أساور.

- لا بأس يا فريدريك. أعطني هذه الرسالة.

انزلقَت الورقة على المكتب، فقرأت خبيرة علم النفس الإجرامي بصوت مرتفع وواضح.

ميرتي، 24 أغسطس، إيسني-سور-مير، الثانية وخمس وعشرون دقيقة صباحاً،

حبي،

مكتبة
t.me/t_pdf

سأسرق من الوقت عقاربه،

حتى أمنَعه من المرور بسرعة

سأسرق من النهار عكازه
حتى أمنَعه من النهوض

سأسرق من الربيع نرجسه
حتى أمنَعه من الذبول

سأسرق من الشرنقة يرقتها
حتى أمنَعها من الفرار

سأضع الحواجز في كلّ أرجاء الكون
حتى أمنَعه من التفريق بيننا

سأُلبِس ثروتنا الخرق البالية
حتى أمنَعها من شرائنا

سأقتل كلّ الفتيات الأخريات
حتى أمنَعهن من الوقوع في حبك

سأطلب من الحياة أن تمنَحنا أسرة
حتى أمنَعها من إصابتنا بالملل

سأبني حولنا قلعة شاهقة
وسأدافع عنها

M2O

مسحت ألينا ماسون دموعها بمنديل ورقي، فيما اعتصر فريدريك سان-ميشيل سيجارة مطفأة أخرى بين شفتيه، حتى هشّم بأسنانه الفلتر الأصفر. كانت نظراته فارغة.

- قصيدة رائعة، قالت إيلين.

لم تكن مجرّد مجاملة، كانت تعتقد بأنها قصيدة جميلة بالفعل. امتلكت ميرتي الموهبة، لكنها سُحِقَت كورقة مكتوبة تمّ رميها في سلة المهملات بلا مبالاة.

تتفهّم إيلين ردّ فعل أقارب ميرتي ممّن كانوا واقعين تحت تأثيرها المباشر، يتنازعهم الغضب واليأس. كانت قد طلبت من شارل ولويز كامو الحضور، لكن والدَي ميرتي رفضا ذلك بأدب، فهما لا يملكان الرغبة في مشاركة ذكريات ابنتهما مع رجال الشرطة أو القضاة. قاما بدفن ميرتي في إلبوف بمقبرة سان-إيتيان، وقد حرصا على زيارة قبرها كلّ صباح، وحدهما. واعتبرا بأنّ تكرار الحديث عن أدقّ تفاصيل حياة ابنتهما أمام رجال الشرطة يعني تبديد ذكرياتها، وهو ما لا يختلف كثيراً عن تبديد رفاتها.

لم يُضف باستيني شيئاً وقد شعَرَ بخيبة الأمل. لا يعني ذلك بأنه لم يتفاعل مع الأبيات المؤثرة، لكنه لم يجد في القصيدة ما يمكنه أن يفيد في التعرّف على هوية القاتل، رغم إعادة قراءة الأبيات أكثر من مرة.

مرَّر أصبعه على الورقة قائلاً:

- ماذا عن هذا التوقيع، M2O؟

- زواج (Mariage) يوم 2 أكتوبر (Octobre)، قال سان-ميشيل موضحاً، كان هذا التاريخ الذي حدَّدناه لمراسم حفل

الزفاف. الكنيسة في أوريفال، البلدية في إلبوف. دار الثقافة والشباب لنخب الاحتفال، والمسرح للمأدبة والسهرة.

سحق السيجارة ثم رمى العقب في يده، فيما وضعت ألينا المنديل الورقي الرطب على الطاولة.

- هل يمكن لهذه القصيدة أن تساعدكم؟

حافظ باستيني على شكّه بإيماءة غامضة من رأسه، لن يخبِرها بأنّه يضيع وقته، وأن الدليل الحقيقي هو مذكرة موليسكين الزرقاء التي امتلكتها ميرتي وكانت تحتفظ بها دائماً، وقد تشير فيها إلى تفصيل معيَّن يتعلق بالأيام وربما الساعات التي سبقت تعرّضها للاغتصاب. وهي المذكَّرة التي سرَقَها القاتل.

نهض باستيني مثبتاً بصره على فريدريك سان-ميشيل، وقد اعتبر بأنه أصبح يمتلك ملامح قذرة لا علاقة لها بالوسيم عازف الغيتار الموهوب الذي خلب لبّ المسؤولات في دار الثقافة والشباب، وعلى رأسهن ميرتي.

زواج، 2 أكتوبر.

تلاطمت بعض الأفكار في رأسه.

هذا سخف!

دفع باستيني باب المكتب قائلاً بأنه مشغول ببعض الملفات الطارئة، وأنه سيسمح لإيلين بمواصلة الحوار، فهي تحظى بثقته.

عندما يتعلق الأمر بالشّعر، فكَّر وحيداً، ملابس ميرتي كامو المثيرة يوم الواقعة، تاريخ الزواج، فهذا يعني بأنه لا علاقة للشفقة بحلّ قضية كهذه. فيمَ سينفع الاهتمام بالضحية إن لم يكُن الوصول

إلى وعي مناسب؟ على التحقيق أن يركّز على القاتل. وقد توصّل في أثناء محاورة سان-ميشيل التي دامت أقل من عشرين دقيقة بثلاث مكالمات جديدة تفيد التعرّف على هوية المجهول المفترض الذي يعتمر قبعة أديداس ولاحَقَ ميرتي كامو قبل وفاتها، لتنضاف إلى عشرات المكالمات الأخرى منذ بداية الأسبوع. يجب عليه أن يدقّق كلّ شهادة، وإن كان مقتنعاً بأنّ المغتصِبَ لن يقع في يد الشرطة بهذه الطريقة.

اتّصل به قائد لواء الدرك في فالون بعد ثلاث ساعات. كان باستيني مشغولاً بمناقشة إجراءات توزيع الصورة التقريبية للمجهول صاحب القبعة البيضاء والزرقاء، والصورة المشابهة حدّ التطابق للمجهول صاحب الوشاح الأحمر بربري. يقيم القاتل المفترض في السكن الثانوي الذي يمتلكه والداه. ما يعني ضرورة استهداف المواقع السياحية. وهو ما أثار حفيظة البلديات.

«قُمْ بتوزيع الصور أينما شئت يا سيادة الرائد، لكن بعيداً عن أعين السياح».

سياح؟ في شهر سبتمبر؟

- ليو؟
- نعم.
- لاروشيل، سرية فالون.
- نعم.

صمت قائد اللواء طويلاً. تحرّك أيها الغبي! قالها باستيني في أعماقه.

لم يقاوم لاروشيل رغبته في منح انتصاره طعماً خاصاً، قبل أن يثبت باستيني في مقعده بعد ثانية واحدة.

- لقد توصلنا إلى معرفة هويته!

- مَن هو؟

- صاحب قبعة أديداس، الذي كان يلاحق الشابة ميرتي كامو. هو من مورسالين. ثِقْ بي، إنه هو. لقد توصّلنا حتى إلى معرفة اسمه وعنوانه!

23

اسمه وعنوانه؟

أعدت قراءة القصيدة أكثر من مرة.

متأثراً، قلقاً.

وتساءلتُ من جديد: ما علاقتي أنا بقضية ميرتي كامو؟

ما الغرض من هذا الإغراق في التفاصيل؟ كيف يمكن للتحقيق في الجريمة الثانية التي ارتكبها القاتل ذو الوشاح الأحمر أن يساعدني على فكّ لغز الجريمة الأولى التي راحت ضحيتها مورغان أفريل؟ وبالتالي لغز انتحار ماغالي فيرون قبل يومين؟ هل سيمكّنني ذلك من تجاوز الطريق المسدود الذي يحاصرني من كلّ جانب؟

ومع ذلك، فإنّ معرفة تتمة القصة، واسم الشخص الذي قامَ رجال الشرطة في فالون بتحديد هُويته، المشتبه به رقم 1 في مقتل ميرتي كامو، ليست ذات أهمية عاجلة الآن، أعلم أنّ أحدهم سيتدبر الأمر ويزوّدني بباقي التفاصيل. هذا جزء من خطتهم.

نهضت، ثم خطوت بضع خطوات محاولاً التركيز على كلّ بيت من أبيات القصيدة. أصدرت الأرضية المصقولة صريراً تحت قدمي،

فبدا الصوت شبيهاً بقرع الأجراس في مسابقة تلفزيونية. يراودني حدس قوي منذ قراءتي لهذا المحضر.

وماذا لو لم تكن هذه المراسلة سوى فخٍّ محكمٍ؟ أو العكس، هل يحاول المرسِل مساعدتي للوصول إلى حلّ للقضية؟ أن أتوصل بعد عشر سنوات، وأمام هذه الدلائل الكثيرة، إلى ما عجز رجال الشرطة عن فكّ رموزه، أتحدث عن الهوية الحقيقية لمرتكب الجريمتين.

هذه القصيدة قطعة إضافية قد أضيفها إلى باقي قطع البازل.

تقدَّمتُ نحو النافذة، فوجدتُ شخصاً يرتدي ربطة عنق متّجهاً نحو الشاطئ، يلتفت عدة مرات، وقد ألصق الهاتف المحمول بأذنه.

قلبت الأسئلة في ذهني بلا نظام أو ترتيب. عشرات الأسئلة التي أبحث لها عن إجابات مقنعة.

لماذا أتوصّل بهذه الأظرفة؟ أيّ كفاءة خاصّة أملكها حتى أتوصّل إلى حلٍّ لهذه القضية التي كنت أجهل عنها كلّ شيء قبل يومين؟

مَن يعلم بأمر اختبائي في الإقامة الثانوية لمارتان دونان باستثناء مونا طبعاً؟

أين اختفى كريستيان لوميديف؟ هل تمّ اختطافه؟ أم لقيَ حتفه؟

ما سرّ الخانات الأربع والأرقام الثمانية التي حظيَت باهتمام لوميديف وبيروز؟

ألقيتُ نظرة على الخارج، فرأيتُ امرأة شقراء تحاول النزول

عبر المنحدر الحادّ، ومعها طفلان ودراجة صغيرة ذات أربع عجلات، وأخرى بعجلتين.

لا أملك إجابة عن الأسئلة الأربعة الأولى، وإن بدا لي أنها أسئلة منطقية وعقلانية، لا علاقة لها بالأسئلة الستة الموالية، والأقرب إلى الهذيان.

كيف تمكَّن رجال الشرطة من الوصول إلى أثر بصماتي على جثة ماغالي فيرون رغم أنني لم ألمسها مطلقاً؟

كيف تمكَّنت من لفّ الوشاح الأحمر حول عنقها وهي تسقط من أعلى قمة المنحدر؟

لماذا لم تنشر الصحف أيّ خبر عن وفاة ماغالي فيرون؟

أيّ تفسيرٍ لهذه الصدف بين ماغالي فيرون ومورغان أفريل، تاريخ الولادة، الأذواق، المسار الدراسي.. تطابق ملامح الوجه!

ماذا لو أنّ قناعتي السابقة صحيحة، وأنّ مورغان أفريل لم تمُت قبل عشر سنوات، وإن تحدَّثت كلّ الصحف الفرنسية عن مقتلها؟

والسؤال الإضافي:

هل يمكن لعنصرٍ واحدٍ أن يحلّ مجموع معادلة بعشرة مجاهيل؟

ألقيت نظرة حذرة أخرى نحو الخارج، قافلة عائلية في نهايتها مراهق يدفع قدميه على الإسفلت بتثاقل، منقطعاً عن العالم، بسماعات إم بي 3 ضخمة، شبيهة بأغطية الأذنين الصوفية.

لكنني متأكِّد من جزئية واحدة فقط، أنا لستُ قادراً على حلّ هذا اللغز وحدي، مستعيناً فقط بقوة خلايا مادّتي الرمادية، كما

يحصل في الأفلام القديمة التي ينجح خلالها ذلك المحقّق البدين في حلّ عقدة الأحجية من دون مغادرة مقعده الوثير.

لا بدّ لي من التحرّك، وأوّل ما يجب عليّ القيام به هو العثور على هوية الشاهد الثالث.

دنيز.

مونا على حقّ! لن يدلّني على عنوان دنيز سوى كلبها...

أحضرت الصحف القديمة مصفرة الأوراق ثم فرَدتها أمامي في البهو وتفحَّصتها بتمعّن. في دائرة قطرها عشرون كيلومتراً لا وجود سوى لثلاث عيادات بيطرية. بدأتُ بالأقرب، عيادة الدير في فيكامب، أجابتني سكرتيرة بصوتٍ يشبه مواء القطط.

- معذرة، قلت بمواءٍ مماثل، أتّصل نيابة عن جدّتي دنيز، لأمرٍ يتعلق بكلبها أرنولد.

- أرنولد، كرّرت الفتاة بنبرة صوتها العذبة. لحظة من فضلك...

تناهى إلى مسامعي صوت نقرات سريعة على لوحة المفاتيح.

- أرنولد، كلب شي تزو في الحادية عشرة من عمره. أليس كذلك؟

كدتُ أصرخ من شدّة الفرح!

- نعم! ك... كيف سأشرح لك؟ أعتقد بأنّ جدّتي بدأت تفقد عقلها، تنسى المواعيد واللقاحات، ما يُجبِرني على التدخّل، ما يتعلق بأرنولد أو باقي التفاصيل الأخرى.

- مفهوم، انتظر، سأراجع البيانات حالاً.

نقرات سريعة أخرى على لوحة المفاتيح، قبل أن تعود نبرة الصوت العذبة من جديد.

- لقد قمنا بمراسلة جدّتك قبل ستة أشهر. أرنولد مُطالَب بزيارتنا قبل شهر يونيو القادم لأخذ لقاح ضدّ داء البابسيات[1].

- نعم، كنت متأكداً من ذلك! لقد نسيت جدّتي الأمر تماماً. هل يمكنك إرسال هذا التذكير مرة أخرى؟

- إلى عنوانك أنت أم إلى عنوانها هي؟

- عنوان جدّتي. أنا أزورها بشكلٍ أسبوعي.

يبدو أن السكرتيرة قد أعجبَت بتعقيبي الأخير، فقد تضاعفَت نبرة الحنان في صوتها العذب.

- سأبعث لك بالمراسلة هذا اليوم، سيدي...

تظاهرت بالتردّد، ثم قاطعتها بحركة مدروسة قبل إنهاء المكالمة.

- انتظري! ما هو العنوان الذي ذكَرته جدتي؟ أعتقد بأنّ المراسلة السابقة قد ضاعت، فقد كنّا مجبَرين على نقلها إلى منزلٍ آخر من طابق واحد قبل بضعة أشهر.

صمت قصير، لم أسمَع صوت النقر على لوحة المفاتيح، فخمّنت بأنها تحرّك فأرة الحاسوب.

- دنيز جوبين، المحطة القديمة، طريق إيفز، في تورفيل لي إيفز. جيد؟

- ممتاز، آنستي.

---

(1) داء البابسيات: مرض شبيه بالملاريا، ينتقل عبر القراد، ويصيب الكلاب عادة. -المترجم-

آنستي.
أطلقت ضحكة خافتة وهي تشكُرني قبل أن أنهي المكالمة.

دقيقة واحدة بعد ذلك، كانت الخريطة بسلم 1/ 25000 مفرودة على الطاولة. تبعد قرية إيفز عن إيبور بحوالي ستة كيلومترات. استغرق مني التركيز على المناطق المشجّرة والمنحدرات المزروعة والمسارات المعزولة وقتاً طويلاً، باحثاً عن مسارٍ يمكّنني من الوصول إلى دنيز جوبين مع تجنّب اللقاء بأيّ شاهد قد يبلّغ الشرطة عني. ستة كيلومترات، مسافة طويلة بالنسبة إلى أعرج يحاول الاختباء في الغابات والحقول لكي لا تكشفه أعين المتلصّصين.

أعلم أنّ مغامرة لقائي بهذه العجوز ستكون محفوفة بالمخاطر، لكنها أفضل من التعفّن في هذا البيت طوال يوم كامل.

أملك بين يدي ما يمكن اعتبارها آخر ورقة رابحة.

دنيز وأرنولد.

وسأحسن اللعب بها هذه المرة.

24

هل بدأت تفقد عقلها؟

تابعت عبر عدّة كيلومترات الطريق المحاذية لسكة الحديد القديمة. خطّ فيكامب السككي السابق الذي كان يربط روان بلوهافر فيما مضى، قبل أن يستسلم أمام تراجع نسبة السياح القادمين إلى منطقة النورماندي. لم يخلّف سوى ما يشبه الندبة على وجه الحقول القريبة من المستنقعات. ندبة عميقة غطّتها جزئياً أشجار البندق والبلوط والدردار.

تباطأت وتيرة خطواتي المتسارعة عبر ممرات صارت زلقة بفعل رذاذ المطر. بالوصول إلى تورفيل، لم أقابل أحداً باستثناء بعض النوارس المحلقة التي خيّل إليّ أنها تتجسَّس عليّ، وصقر مستقر على جذع شجرة جميز، يبدو أنه ما زال بانتظار مرور قطار لم يزُر تلك المنطقة منذ أيام الزمن الجميل.

صعدت عبر المنحدر المطلّ على قرية إيفز، لأجد نفسي في مواجهة المسكن الذي يفترض أنّ دنيز جوبان تُقيم فيه.

محطة القطار القديمة! منزلٌ بطراز قديم، جدران من الجص

وسقف صخري أردوازي، تعلوه مدخنتان بقمتين برتقاليتي اللون، وساعة أثرية حائطية، توقَّفت عقاربها ذات يوم في السابعة صباحاً وأربع وثلاثين دقيقة. لم يفكّر أحد في نزع اللوحة المثبتة التي كُتِبَ عليها **«سكك الحديد»** وقد يخيَّل إليك أنّ البوابة ستفتح لتسمح بمرور كوكبة من النسوة الأنيقات بفساتين من قماش القرينول، وموظفي البنوك بشواربهم الضخمة وهم يرتدون القبعات، دون نسيان الباريسيين الصغار المتنكِّرين بلباس البحارة.

ليجدوا القطارات بانتظارهم.

كانت عشر عربات وثلاث قاطرات متناثرة على طول السكة المتوقفة عن الخدمة. عربة أوريينت إكسبريس وعربة بولمان وأخرى لباسيفيك شابلون، تبدو جديدة، كما لو أنها قدّمت خدماتها يوم أمس.

بدا الديكور أقرب إلى السريالي، وإن لاحظت في أثناء تهيئتي لمسار الرحلة أن جمعية لقدماء موظفي سكك الحديد قد أنشأت مقرَّها بالقرب من المحطة القديمة وقامت بتجديد بعض العربات المتهالكة لتسمح لشركات سكك الحديد من مختلف أنحاء العالم باستعمالها من جديد.

تحوّل الرذاذ إلى مطرٍ قوي، وهو ما يفسِّر بلا شك خلوّ المكان من أيّ عامل. تقدّمت نحو البوابة وقد فشلت في طرد تلك القناعة الداخلية بأنّ الأمور لن تسير مرة أخرى كما هو متوقع.

ألا تكون العجوز دنيز في منزلها.

أن يتم إسكاتها هي الأخرى.

أن. . .

تعالى نباح أرنولد خلف النافذة، ثم ظهرت كمأته السوداء وقد ارتدى ثوباً من الدانتيل. كان يقفز بشكلٍ هستيري.

مضَت دقيقتان قبل أن تفتح دنيز جوبان الباب.

اتسعت عيناها وهي تتفحّصني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، كما لو أن معطفي البنفسجي قد حوَّلني إلى زائر غريب أتى من المستقبل.

- نعم؟

يبدو أنها لم تتعرَّف عليّ، وإن كنت قد تعمَّدتُ ارتداء الملابس نفسها التي قابلتها بها أوّل مرة قبل يومين.

- جمال، جمال سلاوي. هل تذكرتِ؟ شاطئ إيبور، ماغالي فيرون، الفتاة التي انتحرت؟

لم تطرح عليّ أسئلة وهي تسمح لي بالدخول، وقد بدت على ملامحها علامات التفكير العميق. فيما راقبني أرنولد بنظرات حذرة، قبل أن يستلقي على وسادة خضراء مناسبة للون ثوبه.

كانت القاعة الواسعة التي تصلح كردهة وقاعة للطعام وبهو مزينة بعوارض ظاهرة وخزانات وطاولات نورماندية، مع الدانتيلا والورود المجففة، لكن ما يثير الانتباه فعلياً هو الصور المثبتة على الحائط، تُظهر عشرات القطارات بأجمل الخلفيات الطبيعية من مختلف أنحاء العالم، قطارات تسير تحت الثلوج أو في الجبال أو بالقرب من شاطئ البحر.

- كان زوجي موظّفاً في مكتب سكك الحديد، قالت دنيز موضحة. ماتَ جاك منذ تسعة أعوام.

استدارت نحو صورة لقطار الأورينت إكسبريس وهو يمرّ فوق بحيرة في البندقية.

- وقد قمنا باستغلال الفرصة أيّما استغلال. . .

أخرجت من جيبي تلك الصفحة الممزقة من صحيفة **لوكوريبه كوشوا**، عدد الخميس 17 يونيو 2004.

- أنا أيضاً أودّ إطلاعكِ على صورة معيَّنة يا دنيز.

قرَّبتُ من عينيها صورة مورغان أفريل، وقد تعمَّدت إخفاء عنوان وتاريخ المقال، **منك، يا مورغان**، ربما تعاني العجوز من مشاكل في الذاكرة، لكنها لن تنسى أبداً ملامح وجه ماغالي فيرون بعد انتحارها منذ يومين. الملامح نفسها في صورة الصحيفة.

- هل تعرَّفتِ عليها؟

اعتذرت دنيز، ثم تركتني وحيداً للحظات وذهبت إلى غرفتها للبحث عن نظارتها. أول غرفة على اليمين. راقبتُ ابتعادها وأنا ألاحظ بأنها أقل نشاطاً وحيوية مقارنة باللقاء السابق في شاطئ إيبور صبيحة اليوم الذي وقع فيه الحادث، كما لو أنها أضافت سنتين إلى عمرها في يومين.

عادت ثم مالت على الصورة لتتفحَّصها.

- نعم. . . إنها الفتاة التي توفيت بعد اغتصابها.

منعتُ نفسي من احتضان دنيز وتقبيلها. فكما توقّعت، اختلطَ لديها الأمر ولم تميِّز بين صورة مورغان أفريل وملامح ماغالي فيرون. أنا لستُ مجنوناً، ولم أخترعْ هذا التشابه الوهمي! هل يمكن لهذه العجوز أن تصبح حليفة لي؟

فَرَدْتُ صفحة جريدة **لوكوريبه كوشوا**.

- انتبهي لتاريخ إصدار ورقم طبعة هذه الجريدة.

عدّلت نظارتها كما لو أنّ نقاء الصورة له علاقة بوضعية النظارة بالمليمتر فوق أنفها.

- الخميس 17 يونيو 2004؟ يا إلهي. . . لقد مضى وقت طويل على هذه الجريمة الوحشية. . .

تابعتُ بعيني صورة لقطار الشينكانسين وهو يمرّ عبر سكة حديد بين ناطحات السحاب في مدينة يابانية، قد تكون أوساكا.

- يومان؟ قلت في محاولة لجسّ نبضها.

أطلقت دنيز ضحكة صغيرة، ثم أخذَت وقتها الكافي للجلوس على مقعدٍ خشبي مبطَّن بقماشٍ من القش. كانت ثلاث حركات كافية لأرنولد حتى يغادر مكانه ويقفز ليستقر فوق ركبتيها.

أجابتني بنبرة لمستُ فيها بعض السخرية:

- أعلم جيداً بأنني أجد صعوبة كبيرة حالياً في التعامل مع الزمن، لكن ليس إلى درجة نسيان ما جرى منذ يومين، أليس كذلك؟ هذا المقال يقول الحقيقة، كان جاك على قيد الحياة عندما وقعت هذه الجريمة، فقد توفي سنة 2005. . .

رفعت يدها المجعّدة كإشارة لي بالجلوس. حتى أنها لم تسألني عن هويتي وسبب طرحي لكلّ تلك الأسئلة. جلست أمامها على مقعد مشابه لمقعدها، فتشمَّمَني أرنولد كما لو كان يفكِّر جدياً في تغيير الركبتين اللتين يجلس عليهما.

كانت إثارتي كبيرة، حتى أنني عجزتُ عن إخفاء علاماتها الخارجية.

هي تذكر جريمة قتل مورغان أفريل!

هذا منطقي لأنها عاشت هنا طوال الأعوام السابقة، لكن يبدو أنها لم تربط بين وفاة الفتاتين اللتين لقيتا مصرعهما مع فارق عشر سنوات.

- أنتِ محقّة، قلت مؤكّداً على كلامها. إنها صورة مورغان أفريل، الفتاة التي اغتُصِبَت وقتلت في إيبور سنة 2004. لكنني جئتُ إلى هنا لأحدِّثكِ عن الفتاة الأخرى التي تُدعى ماغالي، التي انتحرت قبل يومين برمي نفسها من المنحدر.

داعبت أرنولد بيدها المرتعشة، ثم تطلَّعَت إليّ بنظرات تشي بعدم استيعابها لما قلته، قبل أن تتكلم ببطء قائلة:

- كنت هناك عندما تمّ اكتشاف الجثة.

هذا مفهوم يا دنيز. أنا أيضاً كنت هناك. كنا معاً. ثلاثتنا باحتساب لوميديف.

أغمضت عينيها فخيّل إليّ أنها نامت. كانت تتكلم ببطء شديد، كما لو أنها تصفُ حلماً.

- كنت أتمشى على الشاطئ، أعتقد بأنّ ذلك كان في الصباح الباكر وإن لم يكُن الطقس بارداً جداً. (انتقلت يدها إلى بطن الكلب الذي بدا مستمتعاً بذلك). كان أرنولد صغيراً جداً وقتئذٍ...

رنّ جرس إنذار مفاجئ في رأسي.

أرنولد؟ صغير جداً؟

- كان يوماً مجنوناً في إيبور، تابعت دنيز كلامها. شباب صغار السن يرقصون في الكازينو والكثير من الموسيقى طوال الليل. موسيقى الروك بالتحديد. أنا أيضاً أحببتُ الروك عندما كنت في مثل سنهم، وإن كان الروك الذي أتحدّث عنه مختلفاً بعض الشيء. هذا غريب جداً، ألا ترى معي بأنّ الشباب غيَّروا نوعية الموسيقى مع المحافظة على اسمها؟ كانوا سعداء ومستمتعين قبل وقوع المأساة طبعاً، والعثور على جثة تلك الفتاة المسكينة أسفل المنحدر.

تملَّكتني رغبة مفاجئة في الإمساك بذلك الكلب المسترخي فوق

ركبتيها ورميه بعيداً لعلّ ذلك يُحدث صدمة قوية عند هذه العجوز ويدفعها إلى التركيز مع ذكريات ما جرى قبل يومين، لا ما وقع قبل عشر سنوات. أن تؤكِّد ما رأيته على سبيل المثال، وأن تقول بأنني لم ألمس جثة ماغالي فيرون.

رفعتُ صوتي فاهتزَّت أذنا أرنولد.

- سيدة جوبان، أنا لم آتِ إلى هنا لأتحدث عن مورغان أفريل، بل عمّا جرى عندما تقابلنا يوم الأربعاء، أي قبل يومين. تذكَّري جولتك مع أرنولد في شاطئ إيبور.

أضاءت الابتسامة وجه دنيز، بل إنني تخيَّلت أنّ ذيل أرنولد قد تفاعل مع كلمة «جولة».

- يا إلهي، هذا صحيح، كنت أتجول مع أرنولد. لكن منذ سنوات طويلة. لم أعُد قادرة على مغادرة منزلي كما تعلم. لم تعُد ركبتاي قادرتين على حملي طويلاً. الشيء نفسه بالنسبة إلى أقدام أرنولد. . .

شعرتُ بأنّ خلايا دماغي المتعَبَة ما زالت مصرَّة على المقاومة.

ما الذي تتحدث عنه هذه العجوز المجنونة؟

لم تعُد ركبتاها قادرتين على حملها. . . منذ وقتٍ طويل. . .

لكنها كانت في موقع الحادثة بشاطئ إيبور منذ يومين!

واصلت دنيز كلامها، كما لو كانت عاجزة عن وقف سيل ذكرياتها:

- أنا أشبه تلك العربات المنسية في الخارج وسكة الحديد الصدئة. أبقى هنا وأستعيد ذكرياتي السابقة. قد تأتي سيارة أجرة من وقت إلى آخر لاصطحابي إلى الطبيب أو نقل أرنولد إلى عيادة الطبيب البيطري. حتى التبضّع تقوم به مساعدة اجتماعية.

شعرتُ بالدوار، فألقيت نظرة على الصورة المعلقة التي تُظهر قطارات تسير في مسارات متعرِّجة. فيما تابعت دنيز اتجاه نظراتي.

- لقد سافرت كثيراً برفقة جاك، قمنا برحلات حول العالم أكثر من مرة. لم نكُن ندفع شيئاً. كان ميكانيكياً عبقرياً... أذكر جيداً شهر مارس سنة 1962، والقطار الذي حاصرته الثلوج عندما...

قاطعتها بحدّة، حتى أنّ أرنولد مدَّ أذنيه وهدَّدني بأسنانه الأصغر من بذور البطيخ.

- لقد قابلتكِ في مخفر الدرك قبل يومين... بعد مغادرتك لمكتب النقيب بيروز.

- هل، هل أنتَ شرطي؟ تمتمت دنيز.

- لا... لا، بالعكس.

ندمت مباشرة بعد تفوهي بكلمة «بالعكس». وضعتُ يدي على ركبتي دنيز في محاولة لتجنّب أرنولد.

- هل أنتِ خائفة؟ طلبوا منك التزام الصمت خاصة مع الصحافيين، ونسيان ما جرى قبل يومين، أليس كذلك؟

نهضت دنيز بحركة واحدة، فانزلق أرنولد على الأرض وهو يئن.

- هل أنتَ صحافي؟ أليس كذلك؟ عدتُم للتحقيق مرة أخرى في هذه القصة القديمة؟

نهضتُ بدوري، كان وجهها المجعّد ورأسها الصغير في مستوى عنقي. أجبتُها بصوتٍ أقرب إلى الصراخ:

- لقد انتظرنا قدوم رجال الدرك لربع ساعة كاملة، وقمتِ أنتِ بتغطية جثة الفتاة بسترتي، وقد أحاطَ وشاحٌ أحمرَ اللون عنقها...

تراجعت دنيز ببضع خطوات، انتبهت لوجود سترة رمادية وقبعة

من القش ووشاح حريري بلون بنيّ فاتح على مشجب قريب من المدخل. تلاقت نظراتنا مباشرة بعد ذلك.

قرأت علامات الذعر في نظرات دنيز.

وضعت يدي على كتفيها وقلت بنبرة أقلّ حدّة:

- أنا لا أريد إيذاءك، ولا أريد إزعاجك، أريد فقط...

لم أفهم ردّ فعلها في البداية، فقد وضعت يدها اليمنى على معصمي الأيسر، بحركة بدت طبيعية للغاية.

ثم انطلقَ الصوت الحادّ في المكان، قبل أن أنتبه للضوء الأحمر اللامع في ساعة يدها التي تحيط بمعصمها الأيمن.

أو ما اعتقدت أنها ساعة يد...

تحمل دنيز -كما هو الشأن بالنسبة إلى معظم العجزة الذين يعيشون لوحدهم- سوار إنذار، يرتبط غالباً بهاتف طبيبها المعالج أو مصلحة مستعجلات معينة.

اللعنة...

سيقتحمون المكان خلال دقائق معدودة إذا لم تقُم بإيقاف هذا السوار.

رنّ الهاتف في اللحظة الموالية، فحاوَلت الذهاب لكنني منعتها من ذلك عندما أمسكتُ بكم ثوبها، فانطلقَ صوت المجيب الآلي، ومعه صوت بدت عليه علامات القلق.

- سيدة جوبان؟ أنا الدكتور شاريي، شيء ما ليس على ما يرام؟ أجيبيني سيدة جوبان، شيء ما ليس على ما يرام؟

سيقوم هذا الطبيب بإنذار الآخرين.

أنا مُطالَب بمغادرة المكان...

لكنني جرَّبت حظي، للمرة الأخيرة.

- دنيز، أتوسّل إليكِ. انظري إليّ. أنت تعرفينني بالتأكيد!

اخترقتني عيناها كما لو كنتُ شبحاً شفّافاً لا يهمها في شيء بقدر اهتمامها بالباب الرئيس، قبل أن تجيبني بهدوء، مطمئنة ربما إلى قدوم سيارة إسعاف أو أي شيء من هذا القبيل:

- نعم، أعرفك، كنت في الشاطئ، قريباً مني...

لم أجد الوقت الكافي للتمسّك بهذا الأمل الأخير، فقد أمسَكَت بيدي لتكمل:

- كنت أصغر سناً أيضاً، ولم تكن ترقص كباقي الشبان، كان بإمكانك ذلك، لأنك كنت بساقين وقتئذٍ... كنت...

وجدتني عاجزاً عن سماع كلمة إضافية، فغادرت المكان تاركاً الباب مفتوحاً، وكان آخر مشهد يعلق بذهني لأرنولد وهو يركض لثلاثة أمتار وينبح كما لو كان يأمرني بعدم العودة إلى هنا أبداً.

تجاوزت المسافة بين عربتين ثم ركضت بالقرب من سكة الحديد المنسيّة واللامتناهية.

- ألو، مونا؟

كانت تلك أول مرّة أقرِّر فيها عدم مصارحتها بالحقيقة، أو حذف بعض التفاصيل على الأقل. ألّا أخبرها عن عجز دنيز جوبان عن تذكّر ما جرى قبل يومين... وتذكّرها في المقابل لتفاصيل مقتل مورغان أفريل قبل عشر سنوات.

عن خلطها لكلّ شيء، بما في ذلك اليوم الذي قابلتني فيه لأول مرة.

عن اعتقادها بأنني شخص آخر.

عن كونها مجنونة، ببساطة شديدة.

رنّ الهاتف في الفراغ، وتحوّلت السكة تحت قدمي إلى ما يشبه السلم الذي سيقودني إلى الجحيم. سأكون مطالباً -بعد تجاوز بضع مئات من الأمتار- بمغادرة الخندق الذي يحمي سكة الحديد المنسية، والمغامرة بالسير فوق الأرضية شديدة الانحدار. تحوّل الرذاذ إلى ضباب بارد شعرتُ معه بتجمّد أطرافي، لكنه ضباب حولني إلى خيال متسكّع وَجَدَ في نفسه الشجاعة للخروج في هذا الطقس.

كنت وحيداً.

اختفى كريستيان لوميديف، ثم أصيبت دنيز جوبان بالخرف.

كنت الشاهد الوحيد على وفاة ماغالي فيرون.

أطبقتُ أصابعي -بعصبية واضحة- على الهاتف المحمول في يدي.

أنا الشاهد الوحيد، إذا استثنينا رجال الشرطة، أقصد بيروز ومساعِده وكلّ الدركيين في سرية فيكامب الذين اقتربوا من الجثة.

يتعذّر الاتصال حالياً، المرجو إعادة النداء لاحقاً.

حاولت مرة أخرى.

- ألو، مونا؟

أجابتني أخيراً:

- إذاً؟ هل عثرت على العجوز ذاتها؟

- لا، أقصد نعم، القصة معقّدة بعض الشيء...

- تكلم!

- فيما بعد يا مونا.

وقفت تحت شجرة بندق. انزَلَقَت قطرات باردة ضخمة عبر الأغصان لتنفجر فوق ثوب سترتي.

- أريد استعارة سيارتكِ.

مضت لحظات لم أسمَع خلالها سوى صوت حصى الشاطئ الذي تتقاذفه الأمواج، قبل أن تُجيبني مونا بنبرة لعوب.

- لتسلِّم نفسك لرجال الشرطة؟

- لا يا مونا، بل للذهاب إلى نوشاتيل.

- ماذا؟

- نوشاتيل-أن-بري. ما زالت كارمن أفريل في منزلها هناك. لن تستغرق الرحلة أكثر من ساعة. أريد التأكّد من بعض التفاصيل. مونا، أنا بحاجة إلى دلائل قوية، أريد منك أن...

- حسناً يا عزيزي، لا تُتعِب نفسك. خُذْها إن أردت. ستجدها بالقرب من الكازينو...

لم أجد حتى الوقت الكافي لتحويل امتناني إلى كلمات مناسبة، فقد قلت:

- أمام الكازينو؟ اللعنة! لا يمكنني الاقتراب من شاطئ إيبور في هذا التوقيت، سيكون الإيقاع بي سهلاً للغاية...

أطلَقَت مونا زفرة حارة كأمّ لم تجد أمامها خياراً آخر غير الانصياع لرغبة ابنها.

- كم أنتَ مزعج يا جمال! سأترك سيارة الفيات بالقرب من مدخل إيبور، بعد المخيم البلدي، قريباً من ملاعب التنس. ستجد المفتاح فوقها، أمّا بابها وصندوقها الخلفي فيعانيان من مشاكل في الفتح والإغلاق منذ وقت طويل...

- شكراً مونا، سأثبت لكِ بأنّ رهانكِ كان في محله...

- اصمت! قُمْ بإنهاء المكالمة قبل أن أغير رأيي...

وضعتُ الهاتف في جيبي وأنا أتذكّر ساعي البريد والظرف البني الذي يحمل اسمي، وعنوان مارتن دونان. العنوان الذي لا يعرفه أحد باستثناء مونا، الفتاة التي رويتُ لها كلّ شيء، ومن وجهة النظر التي لا وجود لشهودٍ لإثباتها...

مَن منّا يخون الآخر؟

تابعتُ مساري عبر الممرّ البارد، في الوقت الذي اشتدّت فيه كثافة الضباب حتى عجزتُ عن تمييز أشجار الحور والأعمدة عالية التوتر في محطات توليد الطاقة النووية.

شهادتي أنا في مواجهة شهادات الآخرين.

مَن سيصدّقني؟

مَن سيُراهن على براءتي؟

لا أحد...

لا أحد باستثنائكم أنتم؟

ما دامت الأمور قد وصلت إلى نقطة لا عودة مجنونة، هل أنتم قادرون على تصديق ما أحاول تأكيده منذ البداية؟

أنا لا أختلق شيئاً. سيكون كلّ شيء على ما يرام.

هل ما زلتم مستعدين للمراهنة على صدق كلامي؟

أنا نقيّ الروح، لم أغتصب ولم أقتل أحداً.

وسأثبت ذلك.

25

شيء ما ليس على ما يرام؟

كانت الفيات 500 تسير على الطريق السيار A13 بسرعة مئة وثلاثين كيلومتراً في الساعة. كادت قدمي أن تحطّم دواسة الوقود منذ عشرين كيلومتراً، لكي لا أتأخر في الوصول إلى بيي دو بري. لم أكن بحاجة إلى معدل السرعة، فقد أعطى المحرك سرعته القصوى.

تأكّدتُ بانتظام من عدم وجود ملاحقين للسيارة. لا وجود لأحد في الطريق السيار، باستثناء بعض الشاحنات التي تجاوزتُها بسرعة بعد ظهورها في المرآة الجانبية للسيارة. في الوقت الذي توجّهَت فيه بعض السيارات الإنجليزية الصغيرة -التي وضعت على أسقفها بعض الصناديق ولوازم التزلج- نحو الجنوب وهي تحافظ على السرعة الطبيعية، لست متأكداً من قدرتها على الوصول إلى قمم الجبال قبل ذوبان الثلوج. أزعجَت أمطار خفيفة ماسحات الزجاج الأمامي التي أصدرت صريراً أقرب إلى النحيب وهي تمسح القطرات العالقة أمامي.

اختفت الحقول الواسعة الموحِلَة فجأة، وبدا أن السياجات المحيطة بها تضيق أكثر فأكثر. تغيّر مسار الطريق السيار نحو ما يشبه الفراغ ليصعد باتجاه المنحدر المقابل. فكانت تلك أول مرّة أكتشف فيها منطقة بيي دو بري، الوادي العريض الذي يغمره الطين. اتجهتُ إلى اليمين للذهاب إلى نوشاتيل-أن-بري.

بدا أنّ المنازل الجديدة قد نبتت على جانبَي الطريق كالفطر المحيط بجذع شجرة. كان الطريق السيار مجانياً، لا تبعد مدينة روان سوى بخمسين كيلومتراً. الظاهر أنّ الضاحية الكبيرة تقضم مساحات كبيرة من المجال القروي وصولاً إلى هذا المكان.

أشار ميزان الحرارة في سيارة الفيات إلى ثلاث درجات رغم أننا في منتصف النهار. كنت أتوقع الدخول إلى مدينة أشباح لا يقطنها سوى عددٍ من الشيوخ يتَحدّون برودة الطقس والأرصفة الزلقة هنا وهناك.

بمجرد تجاوزي لجسر آرك، فوجئت بوجود عدد من السيارات المتوقّفة في خطّين، وهو ما أجبرني على التخفيف من سرعتي.

ما الذي تفعله كل هذه السيارات هنا؟

ظهر في اللحظة الموالية عدد من الأطفال الذين يعتمرون قبعات ملونة وهم يمرون عبر المتاهة المعقدة التي شكّلتها السيارات المتوقفة.

الرابعة والنصف بعد الزوال، اللعنة، إنه موعد مغادرة التلاميذ للمدرسة!

اتجهتُ إلى أول نقطة تقاطع في محاولة لتجنّب هذا التجمهر الكبير، فتجاوزتُ عدداً من الشوارع رغم اضطراري المرور عبر اتجاهات ممنوعة، قبل أن أتوقف في زقاق مقفر. اعتمرتُ قبعة نايك

وعدلت سروالي ليخفي رجلي الاصطناعية، ثم غادرتُ سيارة الفيات 500. كان الرصيف مغطى بطبقة من الثلوج الذائبة والقذرة، فتركت قدماي أثراً شبيهاً بغدير المياه.

دلفتُ إلى متجر صغير بنوافذ ضبابية.

راهنتُ على عدم إقدام بيروز على الاتصال بكلّ مخافر الدرك القريبة، ما يعني عدم نشر رجال الدرك لصورتي في واجهات محلات المنطقة.

كان صاحب المحل مشغولاً بترتيب كمية من التفاح بشكلٍ مائل.

أشارت لوحة إعلانية فوق مسجّل النقد إلى أنّ المتجر يبيع الخضر والفواكه الطبيعية.

- ما الذي أستطيع تقديمه لك؟

- أبحث عن منزل كارمن أفريل.

اعتدل التاجر الأصلع تقريباً، باستثناء خصلة شعر قامَ بتصفيفها فبدت شبيهة بورقة أناناس.

- ما الذي تريده منها؟

حاولتُ مواجهة حذَره بابتسامة مصطَنَعة:

- سأكون صادقاً. أنا صحافي، ونحن نقوم بإعداد روبورتاج عن مقتل ابنتها مورغان.

تفحّصني الشبيه بورقة الأناناس من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، كما يفعل زبناء متجره عندما يبحثون عن فواكه ناضجة. تمنّيت في سري ألّا ينتبه لساقي الاصطناعية.

- لا أعتقد بأنها سترغب في إزعاجها الآن، لقد مرّ وقت طويل على ما جرى.

- عشر سنوات، قلت مدقّقاً، نريد إعادة فتح القضية، قبل إغلاقها بفعل التقادم بعد أشهر قليلة.

لم يكلّف نفسه عناء الردّ، ثم استدار نحو هرمٍ من الفواكه الحمراء. نحن في فصل الشتاء وهذا الغبي يبيع الفراولة الطبيعية، التوت الطبيعي، الكرز الطبيعي...

كدتُ أقفز من مكاني بعدما سمعتُ صوتاً خلفي، كانت فتاة تحمل ثلاثة صناديق تحتوي على ملفوف بألوان حمراء وبيضاء وخضراء. دفعتني بلا مبالاة وهي تلهث.

- ستوافق كارمن على مقابلتي، ليس لأنها تحبّ الصحافيين، ولكن لأنها مستعدة للاستماع لكلّ مَن يمكنه تقديم مساعدة كفيلة بإلقاء القبض على الحقير الذي قَتَلَ ابنتها، رغم مرور كلّ هذه السنوات.

هزّ الشبيه بورقة أناناس كتفيه ثم غمغم في تعبير واضحٍ عن الامتعاض:

«سيصوّروننا مرة أخرى على أننا بلدة يسكنها المهووسون جنسياً».

وضعت الفتاة الصناديق كيفما اتفق، ثم قالت:

- ستجد المنزل على بُعد كيلومترٍ واحدٍ من نوشاتيل، في الطريق إلى فوكارمونت، قريباً من اللوحة الإعلانية.

ثم أضافت، كنوعٍ من التهديد، في أثناء مغادرتي للمحل:

- ولكن، لا تفكّر في خداعها أو التلاعب بها.

سارَ بعض الأطفال أمامي في الطريق الذي يقودني إلى السيارة. لم أجد أيّ أب أو أمّ معهم، كما لو أنّ الآباء لن يرافقوا أطفالهم إلّا إذا كان الطقس صحواً.

هذا يناسبني، لأنه يعني عدم وجود شهود إضافيين.

حاولتُ بثّ الدفء في يدي الباردتين ثم فتحتُ باب سيارة الفيات.

تجمَّدَت يدي المُمسكة بالمقبض الفولاذي، كما لو أنّ البرد قد أصابها بالشلل.

كان الظرف البني مستقراً فوق المقعد الجانبي.

إلى جمال سلاوي.

إنه ذلك الخط اللعين المعتاد.

فكَّرتُ في مونا، لأنها الوحيدة التي تعلَم بأمر قدومي إلى نوشاتيل... لكن وجودها هنا مستحيل عملياً! كيف ستتدبر أمر سيارة ثانية؟ كيف ستسبقني إلى هنا رغم أنني وصلتُ بأقصى سرعة ممكنة؟ كيف ستلحق بي إلى هنا وقد قضيتُ نصف مدة الرحلة وعيناي مركّزتان على مرآة الرؤية الخلفية الجانبية؟

لماذا ستلعب معي هذه اللعبة السادية؟

دلفتُ إلى السيارة، ثم شغّلتُ المحرّك ووضعتُ أصابعي على جهاز التدفئة بحثاً عن بعض الدفء.

مَن الذي يعلم بأمر وجودي هنا؟

لا أحد.

مَن الذي قامَ بدسّ هذا الظرف داخل السيارة؟

شخص ما. باب السيارة لا يُغلِق بإحكام...

انتظرتُ لدقائق طويلة، وعدَّلتُ درجة التكييف لتبلغ معدّلها الأقصى في مواجهة وجهي، حتى كاد تيار الهواء الساخن يحرق جلدي، ثم فتحتُ الظرف.

* * *

قضية ميرتي كامو - الجمعة 8 أكتوبر 2004

أعادَ الرائد ليو باستيني قراءة الفاكس الذي أرسلَه قائد اللواء لاروشيل.

المجهول صاحب قبّعة أديداس، المشتبه به الأول في قضية مقتل ميرتي كامو، يُدعى أوليفييه روي.

كان في الحادية والعشرين من عمره، يقطن في مورسالين مع والديه، ويتابع في كاين تكويناً مستمراً عن الوساطة الثقافية.

لم يكُن هنالك أيّ استحقاق في توصّل القائد لاروشيل إلى هوية الشاب الذي تمّ توزيع رسمه التقريبي في كلّ مكاتب الدرك بالمنطقة: فقد زار والداه، مونيك وجيلداس روي، سرية فالون يوم 7 أكتوبر 2004 للإعلان عن اختفاء ابنهما. كان أوليفييه هو الشاب الذي يبحث عنه الدرك بلا شك. فقد زار إيسني-سور-مير وأبحَرَ بجانب جزر سان-ماركوف، واستمتع بحمام شمسٍ في شاطئ غرانكامب-ميزي في الفترة نفسها التي وُجِدَت فيها ميرتي كامو بهذه الأماكن.

قال الأبوان بأنّ مقتل ميرتي قد أثّر في الابن، دون أن يفهما السبب الحقيقي لذلك. فقد اختار العزلة بعد الإعلان عن وفاة الفتاة، ولم يغادر غرفته إلّا للقيام بجولات طويلة وحده. وبعد ظهر

6 أكتوبر 2004 غادر البيت متّجهاً شمالاً، نحو سان-فاست-لا-هوغ، ولم يعُد بعد ذلك أبداً.

اعتقد الرائد باستيني أنه توصّل إلى القاتل، لكن اعتقاده لم يدُم سوى سبع وثلاثين ساعة. يمكن تفسير صمت أوليفييه كرغبة في الإفلات من قبضة الشرطة، وكآبته كدليل على الندم، وهروبه كاعتراف صريح بارتكابه للجريمة.

حوالي السادسة مساء من اليوم الموالي، انهارَ كلّ شيء كقصرٍ من ورق.

لم يكُن دي إن آي أوليفييه روي مطابقاً لدي إن آي المغتصِب!

وبعد ساعة أخرى، ظهرت معلومة ثانية: يستحيل أن يكون أوليفييه روي قاتل مورغان أفريل أو المجهول صاحب الوشاح الأحمر الذي قابلته في ذلك الاحتفال الليلي. ففي عطلة نهاية الأسبوع يوم 5 يونيو 2004، كان برفقة ثلاثة من أصدقاء الدراسة في احتفال فنّي في شارع بياريتز، على بعد تسعمئة كيلومتر من إيبور.

فجَّر الظهور والاختفاء المفاجئ لأوليفييه روي ملفّ باستيني، استمرّ بثّ مذكرات البحث لأسابيع إضافية، ثم التخلص من الصور التقريبية وتعويضها بصورٍ واضحة لأوليفييه روي، دون أن يؤدّي ذلك إلى نتيجة.

لماذا كلّ هذا الجهد من أجل شخص يُفترض أنه مجرد شاهد لا أكثر؟

تمّت مُساءلة القاضي بول لاغارد عن المنهجية التي يتعامل بها باستيني مع القضية، فطلب الإعفاء من هذه القضية المعقّدة التي قد

تهدِّد مستقبله المهني. طوت الصحف المحلية الصفحة، وتحوَّل الاهتمام إلى قضية عامل من موندفيل أقدم على الانتحار اختناقاً بواسطة أوكسيد الكربون في مرأب منزله، هو وزوجته وأربعة من أبنائه.

تناقصت وتيرة سفريات خبيرة علم نفس الإجرام إيلين نيلسون عبر القطار من باريس إلى كاين، قبل أن تتوقف تماماً، وعاد رجال الشرطة إلى الاهتمام بملفات أخرى، بعد مراهناتهم السابقة حول إخضاع الخبيرة جسدها لعمليات تجميل أخرى.

لم يخشَ كلّ مَن اشتغلوا على هذه القضية صباح مساء شيئاً بقدر خشيتهم من اكتشاف ضحية جديدة. كان هذا السباق ضدّ عقارب الساعة هو الذي يدفعهم إلى المقاومة والصبر، وربما توقّعوا حصول جريمة أخرى تُعيد إحياء التحقيق من جديد. لكن شيئاً من ذلك لم يحصل.

لقد حصلَ القاتل ذو الوشاح الأحمر على تقاعده...

قابلت كارمن أفريل الضابط ليو باستيني في كاين يوم 12 أكتوبر 2004، أياماً قليلة بعد التخلي عن التحقيق في موضوع أوليفييه روي. وضعَت على مكتب الضابط ملفاً ثقيلاً، **المجهول المزدوج**، الذي لخّصته في بضع عبارات محددة.

لا يمكن الوصول إلى هُوية قاتل مورغان وميرتي سوى باتباع طريقة واحدة: البحث عن شخص وُجِدَ في إيبور يوم 5 يونيو 2004 وإيسني-سور-مير يوم 26 أغسطس 2004. واحتمال براءة هذا الشخص منعدم تماماً.

وافقها باستيني بحركةٍ من رأسه، ثم فتح الملف بحركة متعَبَة، كان يتضمن قوائم لا متناهية، وسلاسل من العناوين وأرقام الهاتف، ومقتطفات من شاشات الحاسوب. فكّر الرائد في أنّ البحث عن شخص واحد في الساحل النورماندي يوم سبت ربيعي وبعده يوم خميس صيفي يعني ضرورة مراجعة أسماء كلّ السياح الذين قاموا باستئجار مكانٍ ما في المخيم، أو غرفة في الفندق، أو منزل مخصَّص للإيجار في العطل، وأولئك الذين قضوا عطلتهم في منازل أقربائهم أو أصدقائهم، وأولئك الذين لم يزوروا منطقة النورماندي سوى ليومٍ واحد فقط، لكنهم أدّوا ثمن الطريق السيار باستخدام بطاقة بنكيِة، أو تناولوا وجبة في مطعم أو قاموا بشراء تذكار من متجرٍ معين، أو أولئك الذين تركوا بطاقتهم أو شيكاً أو حتى وجههم في صورة منسية.

أغلق الرائد الملف بهدوء، ثم رفع عينيه نحو كارمن.

- أكون صريحاً ومباشراً سيدة أفريل، لقد تراجَع عدد المحققين المكلَّفين بقضية أفريل-كامو خلال الشهر الماضي، ليصبح خمسة محقِّقين بعدما كان العدد خمسين محقِّقاً، وإذا لم تظهر معلومات جديدة خلال الأسابيع القادمة، لن يتمّ تكليف أيّ شرطي بالتحقيق في القضية.

لم تتحرك كارمن أفريل قيد أنملة، فواصَلَ باستيني كلامه:

- رسمياً، لم تعُد هذه القضية تشغل سوى عشرة بالمئة من مجموع اهتماماتي.

دفع ملف **المجهول المزدوج** نحوها، دون أن يكلِّف نفسه عناء إعطاء تقييمٍ لأسلوب عمل كهذا.

- لن نتخلى عن القضية سيدة أفريل، لكن التحقيق متوقِّف

الآن. نحن نملك البصمة الجينية للمغتصِب، ونعلم بأنه ارتكب جريمة ثانية هي قتل ميرتي كامو، لننتظر. . .

كان باستيني مقتنعاً بأنّ كارمن ستردّ على كلامه بقوة، ستكون لكمة مستحقّة.

ننتظر ماذا؟ أن يغتصب فتاة أخرى؟

لكنها خيبت ظنّه.

اكتفت كارمن بتحريك جسدها العملاق من دون أن تُلقي عليه نظرة أخرى، ثم وضعت الملف تحت إبطها وغادرت المكتب وهي تغلق الباب بقوة وتصرخ ليَسمعها كلّ مَن في الطابق:

- سنتدبر أمرنا من دون الحاجة إلى مساعدتكم!

منذ شهر يونيو 2004، أياماً قليلة بعد مقتل مورغان، قامت كارمن أفريل بتشكيل تجمّع، انضمّ له كلّ مَن عرفوا مورغان من قريب أو من بعيد، خمسمئة شخص تقريباً، لكن الوقت أثبَتَ أنّ عشرة أقرباء تقريباً هم المستعدون للتعاون بشكلٍ فعلي، وتقديم دعم مالي كافٍ للمساعدة في دفع أتعاب المحامين المشتغلين على القضية.

ليلة اكتشاف جثة ميرتي كامو، قامت كارمن بدعوة شارل ولويز للالتحاق بالتجمّع، فأسسوا في اليوم الموالي جمعية الخيط الأحمر، وقد تضمّن البيان الأول الذي تمّ وضعه في المحافظة ثلاث كلمات:

لن ننسى أبداً.

تولّى شارل كامو رئاسة الجمعية، فهو يتمتع بهدوء وحسٍّ دبلوماسي، قد يكون أكثر فعالية في التعامل مع الشرطة والقضاء مقارنة باندفاع كارمن أفريل التي اضطرّت للاكتفاء بمنصب نائبة

الرئيس. الواقع أنّ كارمن عانَت دوماً من صعوبة في التعامل بشكلٍ طبيعي مع الرجال وحسّهم القيادي. تولّت أوسيان شقيقة مورغان منصب السكرتيرة، فيما تسلّمت ألينا ماسون صديقة ميرتي الحميمة منصب أمينة المال. وحّدَت فرضية «القاتل المزدوج» العائلتين طوال الأسابيع التي تلَت الجريمة الثانية، لكن عقد الفريق انحلّ بعد وصول الجميع إلى قناعة واضحة بأنّ أحداً لن يساعدهم في الوصول إلى هدفهم.

«سنتدبَّر أمرنا من دون الحاجة إلى مساعدتكم»، هذا ما قالَته مورغان في وجه الرائد باستيني.

فكّرت كارمن أفريل في حرب مقدّسة وانتقام وعقاب.

فكّر شارل كامو في الحقيقة والعدالة وربما العفو أيضاً.

انفرط عقد الإجماع داخل جمعية الخيط الأحمر سنة 2005، بعد حوار صحفي أجرته كارمن مع صحافي من قناة فرانس 2 كان يخطّط لبثّ حلقة من برنامج «قوموا بإدخال المتهم» حول قضية الجريمتين. رفض شارل الفكرة، لكن والدة مورغان تحدّثت عن مساهمة بثّ الحلقة في الوصول إلى شهود آخرين، كما أنّ الحقوق المادية للبثّ ستُساهم في دفع تكاليف المحامين المشتغلين على القضية. أيّدها آل أفريل، فيما فضّلت لويز كامو الصمت، وبقيت ألينا ماسون ومعها فريدريك سان-ميشيل مترددين، غير قادرين على معارضة شارل، قبل أن ينضمّا إلى كارمن في نهاية المطاف.

تمّ بثّ الحلقة يوم 24 مارس 2005، على الساعة العاشرة والنصف ليلاً.

شاهدت كارمن رفقة أعضاء جمعية الخيط الأحمر التسعين دقيقة

المخصَّصة للفيلم الوثائقي في عرضٍ أوليّ قبل البث الرسمي، وذلك في استوديوهات لابلين-سان-دوني. تلاعب البرنامج بتسلسل الأحداث وانقلابات التحقيق، وجمَعَ بين الروايات الضبابية والصور غير المحتشمة للضحايا والشهادات المتأسّفة للجيران، من دون تقديم أيّ إضافةٍ جديدة للقضية.

اكتسبت وجوه أعضاء الجمعية شحوباً واضحاً داخل قاعة العرض.

لا يمكن وصف الحلقة سوى بكونها تلصّصاً وتعدّياً حقيقياً على الخصوصية! لم يتحدّثوا عن قضية اغتصاب وقتل مورغان وميرتي إلّا لمنافسة مسلسَلَي **الخبراء** و**إن سي إي إس**[1] اللذَين تبثّهما قنوات أخرى. حاولَت كارمن أفريل منع بث الحلقة، لكن فرانس 2 رفضت ذلك. حصل البرنامج على نسبة 18,6 بالمئة من نسب المشاهدة، وهي نسبة أقل بكثير من المعدل الطبيعي. لم تقدِّم القناة سنتيماً واحداً لجمعية الخيط الأحمر، أو حتى مساهمة بسيطة لروحَي الفتاتين المقتولتين.

أياماً قليلة بعد ذلك، أعلَن شارل ولويز كامو رغبتهما في الابتعاد عن المجموعة. تحدّث شارل عن مشاكل صحية، وهو ما اعتبره الجميع عذراً دبلوماسياً لبقاً.

وكانت آخر مرة يتحدثان فيها مع كارمن ليلة واحدة قبل اليوم الذي وقعت فيه المأساة.

يوم 27 ديسمبر 2007.

---

(1) مسلسلات بوليسية تلفزية. -المترجم-

26

ننتظر ماذا؟ أن يغتصب فتاة أخرى؟

أعدتُ الأوراق إلى الظرف ثم وضعته في درج سيارة الفيات 500.

إذاً، فقد تحوّلت قضيتا مورغان أفريل وميرتي كامو إلى قضية واحدة، بعد أقل من عام على وقوع الجريمتين.

قضية محفوظة!

ابتسمتُ وأنا أعيدُ تشغيل السيارة، يبدو أنّ هذه المعلومات ستكون مفيدة للغاية.

ستستقبلني كارمن أفريل بأذرعٍ مفتوحة، سأعلن أمامَها بأنّ قاتل ابنتها قد ظهرَ من جديد، وذلك بعد مرور عشر سنوات.

أوقفتُ السيارة بعد دقائق على بُعد مئة متر تقريباً من لوحة إعلانية، وجدتُ امرأة تبذل كلّ ما في وسعها للمشي وهي تحمل ثلاث حقائب وتقود ثلاثة أطفال نحو بستان صغير يبدو أنه أنشئ حديثاً في مرتفعات نوشاتيل.

- أبحث عن كارمن أفريل.

أطلقت السيدة تنهيدة متعَبَة.

- أكمِلْ طريقكَ عبر هذا الحي، لن تفوِّت فرصة اللقاء بها، مهلاً، إنها هناك، تطلّ من شرفة منزلها.

أشارَت إلى خيال أزرق بين أغصان الأشجار، ثم أمسَكَت بيد الطفل الأول كما لو كان قاطرة ستجرّ الطفلين المتبقِّيين كمقطورتين.

أكملتُ طريقي كما أشارَت بذلك.

عند الوصول إلى المنزل، انتبهتُ إلى أنّ السّحب الشتوية الرمادية متناسبة مع الأحجار من اللون نفسه، وإن بدا شبه مؤكّد أنّ الجدران تختفي في الربيع خلف الأغصان المزهرة لشجرة التفاح العارية وسط الحديقة.

وجدتُ على الشرفة امرأة ببنيةٍ قوية، تحمل مطرقة وتجاهد لطرق بعض المسامير، وتبيَّن لي أنها معصرة تفاح قديمة ومناسِبة كقطعة أثرية في حديقة هي أقرب ما تكون إلى متحف فنون وتقاليد نورماندية.

استعمَلَت كارمن المطرقة بقوّة وطاقة ودقّة متناهية.

مَن يرى ظهرها يكاد يجزم بأنها رجل.

رمَت المطرقة فجأة ثم استدارت بحركة غريزية، كما لو أنها شعَرَت بوجودي.

- ماذا تريد؟

- السيدة أفريل؟

- نعم؟

تسارَعَت دقات قلبي وأنا أتلو الكذبة التي تدرَّبتُ على إلقائها طوال تلك المسافة من إيبور إلى هنا.

- أنا النقيب لوبيز من دائرة الشرطة في فيكامب، أودّ التحدث معكِ.

حدجتني بنظرات طويلة، من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، وقد بدا أنّ سؤالاً مُلِحّاً يلهب شفتيها -«منذ متى بدأ توظيف المعوّقين في مكاتب الشرطة؟»- لكنها أمسكت نفسها.

- ما الذي تريدُه مني؟

- سأكون مباشراً سيدة أفريل، يتعلّق الأمر بمقتل ابنتكِ مورغان. لقد... لقد ظهرت معلومات جديدة.

سقطَت المطرقة على أرضية الشرفة دون أن تمنع كارمن سقوطها، كان وجهها محمرّاً وذابلاً كتفاحة منسيّة في سلة، وخيِّل إليّ أنه يتشقَّق أكثر فأكثر وقد اعتراني شعور قويّ بالارتياح.

لم يتّصل بيروز بها!

كان ذلك مستغرَباً بعض الشيء، عطفاً على ذلك الكمّ الكبير من المصادفات بين ماغالي فيرون ومورغان أفريل، لكنني راهنت على هذا اللقاء مع كارمن أفريل رغم خطورة الأمر.

- معلومات جديدة؟

- لا يمكن الحديث عن معلومات صلبة ومتماسكة سيدة أفريل، لا أريد مَنحكِ أمَلاً كاذباً، لكن الأيام القليلة الماضية شهدَت وقوع سلسلة أحداثٍ مقلقة في إيبور. هل يمكنني الدخول؟

كان المنزل من الداخل في مستوى الحديقة نفسه، تحفة صغيرة. أعمدة ظاهرة ومدفئة عريضة مبنيّة بالطوب، قد تكفي حتى لشواء عجل. غرفٌ متناسقة على النمط القديم، ولوحات ريفية مع

بعض الحديد والزجاج لإضفاء لمسة حديثة على المنزل الذي سيخلب لبّ كلّ القادمين من باريس!

اقترحَت عليّ كارمن الجلوس على أريكة خيِّل إليّ أن بها رائحة جلد البقر. فتساءلتُ في سرّي عن كيفية تمكُّن امرأة تسكن وحدها من القيام بكلّ أعمال الصيانة والتجديد في المنزل.

ثم رويتُ لها كلّ شيء.

انتحار ماغالي فيرون والاغتصاب الذي سبَقَ ذلك، وشاح البربري الأحمر الملفوف حول عنقها، دون أن أشير إلى أنّ ماغالي قد قابلت عدّاء قبل ارتمائها في الفراغ. أنا. . .

تابعَت كارمن كلامي لما يُقارب ربع ساعة، وقد بقي فمها مفتوحاً.

- لقد عادَ الحقير من جديد، همَسَت من بين أسنانها.

لم أسمَح لها بالتقاط أنفاسها، بعدما أخرَجتُ من حقيبتي ملف «ماغالي فيرون» الذي سرَقته من مكتب بيروز. وقد أعطى الشعار بألوانه الزرقاء والبيضاء والحمراء والأختام الرسمية شرعية للمعلومات السريالية الغريبة التي سأقدِّمها لكارمن.

- أنتِ مطالَبَة بالاستماع لي من دون مقاطعة سيدة أفريل. ثم سأطلب منكِ تفسيراً مقنعاً بعد ذلك، إن كنتِ تملكينه بطبيعة الحال. . .

أومأت برأسها إيجاباً وقد بدت عليها علامات الإثارة. لقد ظهر قاتل ابنتها مرة أخرى، وهي على استعداد لسماع أيّ شيء. التقطتُ نفساً عميقاً ثم سردتُ كلّ ما أعرفه عن ماغالي فيرون.

ولدت يوم 10 مايو 1993 في نوشاتيل بكندا. درست في مدرسة كلود-مونيه الابتدائية وإعدادية ألبيرت-شويتزر وثانوية

جورج-براسنز، لتُكمِل فيما بعد دراساتها المرتبطة بالميدان الطبي، تحترف الرقص الشرقي وعاشقة لفرق الروك التي نشطت في السبعينيات.

تحوّلت إثارة كارمن إلى ما يشبه الصدمة.

ما الذي يعنيه توالي هذه النقاط المشتركة مع حياة ابنتها الراحلة؟ يوم ومكان الولادة نفسه، أسماء المدارس نفسها، الأذواق نفسها؟

هذيان حقيقي.

نهضَت من دون أن تتفوَّه بكلمة، لكن، ظهر فقدانها للتوازن بفعلِ الصدمة. تقدَّمَت ببضعِ خطوات نحو المطبخ الصغير ثم عادت وهي تحمل صينية يبدو أنها مخصَّصة لاستقبال الضيوف، قطع بسكويت محليّة وقنينة ماء وعصير برتقال وحليب طري. اهتزّت الصينية بين يديها المرتجفتين. فتخلَّصت منها على الطاولة ذات القوائم القصيرة، قبل أن تُجيبني بنبرة تنقصها الثقة:

- ماذا سأقول يا سيادة النقيب؟ كلّ ما قلته يبدو صعب التصديق، بل مستحيلاً. مَن هي هذه الفتاة؟ الفتاة... التي تدعى ماغالي فيرون.

تناولت كأس الحليب قبل أن أضيف:

- لم أَقُل كلّ شيء بعد سيدة أفريل. ماغالي فيرون تشبه ابنتك. ويبدو الشَّبه قريباً من التطابق...

تردّدت في التطرّق لموضوع الإخصاب الصناعي واحتمال وجود علاقة أخوّة بين مورغان وماغالي عبر والدهما. لكن كارمن سبَقتني إلى الردّ، كما لو كانت تقرأ أفكاري:

- تتحدث عن شَبَهٍ يا سيادة النقيب لوبيز؟ هذا سخف، لم يكن

لمورغان شقيقة صغرى! ولا حتى قريبة تصغرها بعشرة أعوام. لا أحد باستثناء أوسيان وأنا.

أومأتُ برأسي كما لو كنت أفكر في باقي الاحتمالات الممكنة. رغم أنني كنت أحاول كسب المزيد من الوقت. أنا مطالَب برمي الطُّعم للسماح لكارمن بالتقاطه. تصفَّحتُ ملف «ماغالي فيرون» وصولاً إلى الصفحة التي تقدِّم بياناً مفصّلاً عن بصمتها الجينية.

- سيدة أفريل، بالعودة إلى موضوع قدومي إلى هنا، نعلم بأنكِ تحتفظين بأرشيف جمعية الخيط الأحمر، لذلك أودّ التأكّد من مسألة معيَّنة إن سمحتِ بذلك.

إذا كان كلّ ما قرأته عن كارمن صحيحاً، فالأكيد أنها ستبتلع الطُّعم، وستكون مستعدّة للتعاون بأيّ طريقة تسمح بالوصول إلى قاتل ابنتها، حتى لو كانت هذه الطريقة غير مضمونة.

التقطتُ قطعة بسكويت ثم دفعتُ الورقة نحوها.

- أريد مقارنة البصمة الجينية لماغالي فيرون ببصمة مورغان.

اهتزّ خيط الصنارة مباشرة، اكتسبَ صوت كارمن نبرة قاسية فرَضَها حذرها من رجال الشرطة طوال عشر سنوات.

- ألم تحتفظوا بملفّ ابنتي في أرشيفكم؟

تداركتُ الأمر بسرعة فائقة.

- نعم، نعم، طبعاً. لكن إعادة فتح الملف تتطلبُ اتّباع مسطرة طويلة ومعقّدة، الحصول على موافقة قاضي التحقيق وتصاريح بلا نهاية. فكّرت في أنّ الاستعانة بكِ ستساعدني على كسب وقتٍ ثمين.

تطلَّعت إليّ بنظرات غريبة. لم أكُن واثقاً من تصديقها لكلامي، لكنني فكّرتُ في أنّ هذا الجواب سيُعطيها دليلاً إضافياً على عجز الشرطة وتقاعسها.

- هل تعمَل مع النقيب بيروز؟ سألتني فجأة.

مضغتُ قطعة البسكويت ببطء، تحتوي على العسل واللوز، لزجة بعض الشيء. عندما كنت في الطريق إلى نوشاتيل، حاولتُ إعداد أجوبة مناسِبَة لكلّ الأسئلة الممكنة، لكنني نسيت هذا السؤال بغباء.

ابتلعتُ ما تبقّى من القطعة باحثاً عن استيعاب المفاجأة.

- نعم، بالطبع، هو الذي أرسلني.

شعرتُ لأوّل مرة بأن علامات الارتياح قد ارتسمَت على وجهها المتعَب.

- حسناً، هيا بنا إلى المكتب. بيروز هو الشرطي الشريف الوحيد في منطقة النورماندي.

تجنّبتُ القول بأنني لا أشاطرها الرأي نفسه ونحن نتجاوز الردهة.

- انتظِرْني هنا.

قالَتها ثم عبَرت إلى غرفة مجاورة مخصَّصة بلا شكّ لجمع الوثائق والملفات المتعلّقة بقضية أفريل-كامو. قمتُ باستغلال غيابها لتفحّص المكتب. يتعلّق الأمر ظاهرياً بغرفة أطفال غير مستخدمة، وقامت كارمن بتهيئتها على هذا الشكل. زينت الجدار صور طائرات ومناطيد، صور لمورغان وهي طفلة، مورغان تتقمّص دور طبيبة، مورغان تتنكّر في زيّ الكاوبوي، مورغان تلعب دور رجال الإطفاء.

أثارَ انتباهي عدم وجود أيّ صورة لأوسيان.

عادَت كارمن وهي تحمل صندوق الأرشيف الذي وضعته على طاولة بدعامتين.

- يمكنك مراجعتها يا سيادة النقيب، سأعود بعد دقيقة واحدة.

اختفَت في الغرفة المجاورة في الوقت الذي هرعت فيه إلى الصندوق. قمتُ بمراجعة بعض الصفحات، قبل أن أتوقّف أمام نسخة مصوّرة من وثيقة تعود لسرية الدرك في فيكامب.

البصمات الجينية لمورغان أفريل والتي جرى إعدادها يوم الاثنين 7 يونيو 2004. المصلحة الجهوية للهويات الجنائية. روان.

وضعت على الجانب الآخر الورقة الثانية، صحيح أنّ الخط المستعمَل قد تغيَّر منذ 2004، لكن الشعار والأختام بقيت كما هي.

البصمات الجينية لماغالي فيرون والتي جرى إعدادها يوم الخميس 20 شباط 2014. المصلحة الجهوية للهويات الجنائية. روان.

أشارت المعلومة الأولى إلى فصيلة الدم، لمورغان وماغالي الفصيلة +B نفسها، ليست فصيلة شائعة، وهو ما أتذكّر أنني سمعته في حصص علم الأحياء الطبية في مؤسسة سانت-أنطوان. لا يتجاوز عدد مَن يمتلكون هذه الفصيلة عشرة في المئة من سكان فرنسا.

صدفة أخرى...

ارتعدَت فرائصي، وانتقلَت عيناي إلى الأشكال الهندسية التي تمثّل البصمة الجينية للفتاتين.

توقفت عند رسمين بيانيين، يحتويان على سلسلة من الحروف والأرقام.

TH01chr 11 6/9. D2 25/29. D18 16/8
TH01chr 11 6/9. D2 25/29. D18 16/15

كنت أجهل التفاصيل، الأنماط الجينية المتماثلة والمتخالفة التي لا أفهم فيها شيئاً، لكنني أعلم بأنه يستحيل علمياً توفّر شخصين مختلفين على علامات ومعدل المظهر نفسهما. تراقصت الأرقام أمامي.

VWA chr 12 14/17 TPOX chr 15 9/12 FGA 21/23
VWA chr 12 14/17 TPOX chr 15 9/12 FGA 21/23

كانت المنحنيات الخضراء والزرقاء شبيهة بصورة لنشاط الدماغ، دقيقة بالمليمتر، لم أكُن بحاجة إلى التدقيق والبحث عن الفَرق بين المنحنيين، فقد فهمتُ كلّ شيء...

البصمتان الجينيتان لماغالي ومورغان متطابقتان!

واصلت متابعتي الميكانيكية للخطوط باستخدام سبابتي، كعالِم مجنون يُعيد قراءة معادلة تتحدى قوانين الكون.

D7 9/10. D16, 11/13 CSF1PO chr, 14/17
D7 9/10. D16, 11/13 CSF1PO chr, 14/17

كانت النتائج مستحيلة.

لا يمكن لشخصين يفصل بين تاريخ ولادتهما عشر سنوات، أن يتوفَّرا على البصمة الجينية نفسها!

ماغالي.

مورغان.

إذاً فماغالي ومورغان اسمان لشخص واحد؟

تفسير قد يُصيب بالدوار، لكنني مقتنع به منذ البداية، مورغان أفريل لم تمُت منذ عشر سنوات. هي التي كلَّمتني يوم الأربعاء الماضي بالقرب من المعقل الدفاعي القديم، قبل أن ترتمي من أعلى قمة المنحدر. كلّما أتذكر هذا الشبه بين مورغان أفريل وماغالي فيرون، هذه الفتاة التي انتحرت أمام عيني، إلّا وأتذكّر بأنها كانت تبدو أكبر قليلاً من مورغان الموجودة في صور عام 2004، الملامح نفسها، لكن العمر تقدّم بها بحوالي عشرة أعوام ربما.

هذا يعيدنا إلى الاستنتاج نفسه الأكثر منطقية: كانت مورغان أفريل حيّة قبل يومين!

معدل الأليل D3, 0,0789. معدل النمط الجيني D3, 0,013

معدل الأليل D3, 0,0789. معدل النمط الجيني D3, 0,013

تذكرت الإمكانات الهائلة التي جرى توظيفها لحلّ قضية أفريل. الشرطة والقضاة والشهود والصحافة ومئات المقالات التي نشرت عن القضية. كيف تمكّنت مورغان من خداع الجميع؟ ما زالت على قيد الحياة؟ لا تفسير لكلّ هذا، مرة أخرى...

تقدّمت نحو الغرفة الأخرى بخطى غير واثقة.

كانت ابنة كارمن على قيد الحياة.

منذ يومين...

قبل أن تلقى حتفها للمرة الثانية...

لم تسمَعني صاحبة المنزل وأنا أدخل. كانت تتكلّم عبر الهاتف وهي تخفي فمها والسماعة بيدها اليسرى.

- قلتُ لكَ بأنّ أحد زملائك هنا، همسَت قائلة، بيروز، ما قصّة هذه الفتاة التي تشبه ابنتي، والتي أقدَمَت على الانتحار في إيبور أول أمس؟

انقبضت عضلاتي.

تُجري كارمن اتصالاً مع رجال الشرطة!

لقد انتابها الشكّ في أمري وأرادت التأكد من حقيقة ما قلته. كانت تثق ببيروز كما صرَّحَت بذلك قبل قليل...

اللعنة!

لمتُ نفسي لأنني لم أكُن أكثر حذراً، فتقدمت بخطوة إضافية للضغط على زر مكبِّر الصوت في دعامة الهاتف اللاسلكي.

انفجر صوت النقيب بيروز الهستيري داخل الغرفة كالقنبلة.

- لا تسمحي له بالمغادرة سيدة أفريل، لا تسمحي له بالمغادرة. نحن قادمون!

كليك.

قطعتُ المكالمة بضغطة زرّ، ثم أخرجتُ من جيبي مسدس الكينغ كوبرا الذي استعَرته من منزل المشرف على أطروحة مونا، ثم وجَّهته نحو كارمن بلا تفكير.

- مَن أنتَ؟ صرخت قائلة.

بماذا سأجيبها؟

هل أشهِر أمامها ورقة نتائج الدي إن آي لتصدقني؟

هل أتركها هنا وأغادر المنزل، لأهرب من جديد؟

إلى متى؟

هل يوجد مكان آخر ألجأ إليه هرباً من نسيج العنكبوت الذي يحاصرني؟ ألم يكن وضع هذا المسدس وانتظار بيروز أكثر بساطة؟

انحنَت كارمن قليلاً، بعضلات مشدودة، فبدَت كدبّ يستعدّ لمغادرة كهفه. خيِّل إليّ أنّ الجدران ترتجف من حولي، ووجدتُ صعوبة في التحكّم بمسدس الكينغ كوبرا. كانت الغرفة التي نوجد بها غرفة أطفال سابقة أيضاً، وتمّ تحويلها إلى غرفة ثانوية. وجدتُ صوراً أخرى لمورغان مثبّتة على الحائط.

مورغان في الثالثة من عمرها وهي تثبت شرائط ملونة في أعياد الميلاد وقد استندَت إلى كتفَي والدتها.

مورغان في السادسة من عمرها وهي تركب جراراً.

مورغان، في السابعة من عمرها، وهي تتسلق شجرة التفاح في الحديقة.

تقدَّمت كارمن إلى الأمام ببضع خطوات، فخفضتُ فوهة الكينغ كوبرا ببضعة ميلمترات في الوقت الذي تنقَّل فيه بصري بين الصورة وغصن شجرة التفاح.

انفجر كلّ شيء في الوقت نفسه، كما لو أنّ تسارعاً مفاجئاً للأحداث دفع أفكاري نحو اتجاهٍ واحدٍ لتصطدم بقناعاتي قبل أن تتهشّم لألف قطعة.

لقد فهمتُ كلّ شيء.

أعرف مَن هي ماغالي فيرون...

واصلتُ اعتصاري لقبضة الكينغ كوبرا، دون أن أمنع نفسي من إطلاق ضحكة مجنونة...

27

من أنت؟

فتاتان في السابعة من عمرهما، تتأرجحان على أغصان شجرة التفاح.

مورغان وشقيقتها أوسيان.

غطاء الرأس الأحمر نفسه، المعطف الأخضر بقبّعته المصنوعة من الفراء نفسه، الأحذية الشتوية المبطّنة نفسها، الوشاح الصوفي حول العنق نفسه.

السن نفسه، الملامح نفسها.

توأمان!

مسحتُ دموع ضحكتي العصبية، ثم رفعتُ فوهة مسدس الكينغ كوبرا نحو كارمن، لأمنعها من الإقدام على أيّ حركة.

لمورغان شقيقة توأم!

لم تُشِرْ أيّ وثيقة تضمَّنَتها الأظرفة البنية إلى هذا المعطى. أشارت التحقيقات إلى أوسيان شقيقة مورغان وشهادتها حول ليلة الحفل، لكن لم يتمّ تحديد سنّها، ولم أنتبه لذلك أيضاً.

كان كل شيء واضحاً.

لم يشيروا إلى هذه المعلومة، متعمّدين الإيقاع بي في الفخ.

أشرتُ لكارمن بفوهة مسدسي حتى تغادر الغرفة.

التحمَت بعض قطع البازل في ذهني، نعم، لقد قُتِلَت مورغان بعد اغتصابها يوم 5 يونيو 2004. وبعد مرور عشرة أعوام، قامت أوسيان، شقيقتها التوأم، بالارتماء من أعلى قمة المنحدر في إيبور. تذكَّرت تلك النظرة اليائسة التي رأيتها في عينيها بالقرب من المعقل الدفاعي القديم. لقد فشلت أوسيان -بلا شك- في الإقرار بوفاة شقيقتها، فاخترعَت وشكَّلَت ولعِبَت دور شخصية ماغالي فيرون. تاريخ الولادة نفسه، الأذواق نفسها، أسماء المدارس نفسها . . . وحتى الدي إن آي!

دفعتُ كارمن نحو المكتب، ثم التقطت التحليلين الوراثيين بيدي اليسرى.

كيف استطاعت أوسيان خداع رجال الشرطة؟ كيف تمكَّنت من إقناع الجميع بأنّ شبيهتها الوهمية ماغالي فيرون قد وُلِدَت بعد عشر سنوات في كندا، ونشأت فيها لمدّة سبعة أعوام؟

وجّهتُ نظري إلى تحليل المصلحة الجهوية للهويات الجنائية، وختم الدرك الوطني.

إلّا إذا كان بيروز قد تعمَّد تزويدي بمعلومات خاطئة.

أشرتُ بفوهة المسدّس إلى واحدة من الصور في الحائط، حيث ترتدي الفتاة الصغيرة ملابس رعاة البقر.

- إنها هي، أليس كذلك؟ سألت كارمن. هل هي ابنتك الثانية أوسيان؟

- نعم، لم يفترقا أبداً، كانت أوسيان طفلة مسترجِلَة، أمّا مورغان فكانت أميرة صغيرة، لكن أحداً لم يستطِعْ التسلّل إلى عالمهما، بما في ذلك أنا والدتهما. وعندما قُتِلَت مورغان خيِّل إليّ أنّ أوسيان لن تعيش بعدها طويلاً.

- لكنها عاشت عشر سنوات بعدها، أجبتها بسرعة. إذاً فأوسيان هي التي رَمَت نفسها من المنحدر قبل يومين، أليس كذلك؟

نطقتُ بهذه الكلمات وأنا أشعر بأنّ شيئاً ما غير منطقي في الموضوع. راقبتني كارمن أفريل بنوعٍ من الحذر، لكنني لم أجد ما يدلّ على الحزن أو الغضب في نظراتها. لا شيء يدلّ على أنها فقَدَت منذ يومين ابنتها الثانية في مأساة مشابِهَة لما جرى قبل عشر سنوات.

أدارَت رأسها نحو ساعة الحائط المعلقة فوق الباب.

- هل ترى علامات الحزن والحداد على وجهي؟

تذكَّرتُ كلمات بيروز وهو يصرخ عبر أسلاك الهاتف.

لا تسمحي له بالمغادرة سيدة أفريل، نحن قادمون.

كنت مطالَباً بمغادرة المكان في أسرع وقت ممكن، لكنني أجبتُها رغم ذلك بهدوء، مركِّزاً على كلّ كلمة أقولها لأمنحها أهميتها اللازمة:

- إنها ابنتكِ يا سيدة أفريل، إنها أوسيان. لقد رأيتُها وهي تقفز. لقد... لقد رأيتُ جثتها.

ابتسمَت من دون أن يَظهر على ملامحها الاهتمام بما قلته.

- متى ذلك؟

- الأربعاء. قبل يومين. في الصباح الباكر. . .

- أعتقد بأنني سأجد صعوبة بالغة في تصديق حكايتك سيدي. . . سيد لوبيز.

تقدّمت، حتى أنّ فوهة المسدس كادَت تلامس سرتها.

- لقد اتَّصلَت بي أوسيان هاتفياً منتصف هذا اليوم. أي قبل خمس ساعات.

استوعبت ضربتها.

تحاول كارمن خداعي! هذه المرأة شبيهة بجدارٍ من الإسمنت. الواضح أنها تكذب في محاولة لكسب الوقت في انتظار قدوم بيروز إلى المنزل. يريدون تحميلي مسؤولية جرائم قتل الفتيات الثلاث.

- حسناً، أنا أصدِّقكِ، قلتُ في نهاية المطاف. ابنتكِ أوسيان على قيد الحياة، ولم تنتحر قبل يومين. لكن، في هذه الحالة، أودّ التحدث معها.

- مستحيل!

- هل تسكن بعيداً عن هنا؟

حدجتني كارمن بنظرة ازدراء.

- أنتَ مجرد مريض نفسي خطير جداً.

لم أعُد أملك المزيد من الوقت، قد يأتي بيروز أو رجال الشرطة في نوشاتيل في أي لحظة.

- وأكثر ممّا تتصورين سيدة أفريل، اتبعيني، سنُكمِل حديثنا خارج البيت.

حاولَت تقدير مدى إصراري، قبل أن توافق من دون اعتراض، فتقدّمت في الحديقة ليُصدر الحصى تحت قدمَيها صريراً مسموعاً. مدّت شجرة التفاح الضخمة ظلّها على العشب المتجمّد. تخيّلت مع

كلّ لحظة تمضي أنني أسمع صوت أجراس الإنذار في سيارات الدرك الوطني، وربما اقتحامهم للمكان.

لا وجود لأحدٍ. كانت الطريق خالية تماماً. جلسَت كارمن على المقعد الجانبي في سيارة الفيات 500، خاضعة دائماً لتهديد المسدس.

كانت متعاونة معي بشكلٍ يدعو للشك.

- لا تحاولي الهرب، قلتها وأنا ألتقط مفاتيح السيارة.

- لا تقلق بشأن ذلك. لا أدري مَن تكون بالفعل، لكنك - بشكلٍ أو بآخر- على علاقة بمقتل مورغان، وتلك الفتاة التي اغتُصِبَت وماتت خنقاً قبل يومين.

- ربما اغتُصِبَت، لكنها لم تلقَ حتفها خنقاً.

تطلَّعت إليّ كما لو كنت طفلاً تمّ اكتشاف كذبه.

- بل خنقاً! لقد أخبرني بيروز بذلك عبر الهاتف. هذه الفتاة المسماة ماغالي فيرون لم تنتحر كما تقول أنت، بل ماتت مقتولة. لن تفلت مني هذه المرة يا لوبيز. أنا أنتظر هذه اللحظة منذ عشر سنوات...

أي لحظة؟

لم أجد الوقت الكافي لأطلب منها توضيح كلامها أكثر، فقد قامت بذلك وهي ترمقني بنظرات متحدِّية.

- لحظة عودة قاتل ابنتي والصغيرة ميرتي للظهور من جديد.

قرّرت خوض مواجهة القبضة الحديدية معها.

- إنها لعبة قذرة من بيروز. لا أعرف طبيعة ما حكاه لكِ، لكنه يبحث عن كبش فداء. معذرة، لكن صديقك الدركي مُطالَب بالركض أكثر قبل الوصول إلى هذا الكبش وذبحه.

هزّت كارمن كتفيها بلا مبالاة كما لو أنّ كلامي كله بلا وزن أو قيمة. لا يهم، ما دام واضحاً اختيارها للتعاون وعدم فَهمها لطبيعة دوري في هذه القصة. يبدو أنها لا تخشى موتها بقدر خشيتها من عدم الوصول إلى الحقيقة.

- إلى أين؟

أدرتُ محرّك السيارة بصمت. وقطعنا كيلومترين للخروج من نوشاتيل، قبل أن أنعطف إلى طريق ترابي حيث أشارت لوحة خشبية إلى «الشارع الأخضر، المسلك رقم 11». توقّفت في المنعرج الأول وأطفأت محرك السيارة ثم وجهت المسدس نحوها من جديد.

- أعطيني هاتفكِ، بسرعة.

- لماذا؟

لم تصدر ردّة فعل أمام إصراري، فبقيت صامتة بلا حراك عندما أمسكتُ بحقيبة يدها وأخرجتُ منها هاتفها سامسونغ غالاكسي.

بحثتُ بأصبعي في الشاشة التي تعمل باللمس.

لائحة الأرقام.

أوسيان.

ضغطتُ لإجراء الاتصال.

ظهرت صورة أوسيان لتغطّي مساحة الشاشة بكاملها.

كان الأمر أشبه بمرور تيار كهربائي في أطرافي!

إنها هي، وبيقين تام.

ماغالي فيرون وأوسيان أفريل شخص واحد.

كانت تبتسم في صورة الهاتف المحمول، تحت سماء تغطيها الغيوم، وبوضعية مطابقة تقريباً للوضعية التي اتخذتها لثانية واحدة

قبل ارتمائها في الفراغ، خصلات الشعر التي تتلاعب بها الرياح والعينان المغمضتان قليلاً أمام الشمس، في تحدٍّ واضح لأشعتها.

لقد ماتت الفتاة التي أضغط على زر الاتصال برقمها قبل يومين بعد اصطدام جسدها بحصى الشاطئ.

أجاب الصوت على المكالمة بعد الرنّة الأولى، كان بعيداً، أشبه بالهمس.

- ماما؟ أنا في العيادة الآن. سأتّصل بكِ بعد عشر دقائق.

انتظرتُ لبضع لحظات قبل أن أدرك بأنها أنهت المكالمة.

تطلَّعَت إليّ كارمن بنظراتٍ ملؤها الانتصار.

- هل اقتنعتَ الآن يا لوبيز؟ لقد سمعتَ صوت أوسيان. ألم تجد المجيب الآلي للشبح؟ ألم تضغط على رقم الاتصال بالجنة؟

انزلق الهاتف المحمول بين يدي المتعرِّقتين. لم أعد قادراً على التفكير. دماغي على وشك الانفجار. لا شيء يثبت بأنّ الفتاة التي أجابتني هي أوسيان أفريل! عدتُ إلى لائحة الأرقام المخزَّنة في الهاتف، قبل أن أتوقف عند اسم ورقم آخر بعيداً عن الاسم السابق الذي اتصلتُ به.

مقرّ عمل أوسيان.

ضغطتُ على زرّ الاتصال.

ثلاث رنات هذه المرة، قبل أن يُجيب صوت أنثوي بنبرة أقوى، ضاغطاً على كلّ كلمة يقولها:

- عيادة دوماركيز الطبية، نحن في الاستماع.

لهثتُ لبضع ثوان، قبل أن أقول بارتجال:

- مرحباً! لقد بذلت جهداً كبيراً للعثور على العنوان. لديّ

موعد في عيادتكم بعد ربع ساعة من الآن. هل يمكنك إرشادي للوصول إليكم؟

- لا مشكلة يا سيدي، هل أنت في نوشاتيل؟

- تقريباً. . .

ظهرت علامات القلق على عيني كارمن عندما قامت السكرتيرة بإرشادي.

نصف دورة في اتجاه وسط المدينة، إلى اليمين نحو الشارع الرئيس، ثم يميناً قبل الوصول إلى الكنيسة، يبدو أنّ نوشاتيل قد عادت إلى برودتها بعد لحظات قليلة تبعت جرس انتهاء حصص المدرسة.

كلّ هذا، ولا أثر لرجال الشرطة.

كانت ساحة دوماركيز فارغة، فأوقفتُ السيارة بالقرب من العيادة الطبية.

تردَّدَت كارمن في مغادرة الفيات رغم تهديدها بالمسدس. كانت تلك أوّل مرة أقرأ الخوف في عينيها. اعتصرتُ قبضة المسدس وأنا أتفوّه بكلماتٍ حملت ما يشبه الاعتذار:

- أنا لم أقتل أحداً يا كارمن، كلّ ما أريده هو معرفة الحقيقة مثلكم.

كانت إجابتها أشبه ما تكون بالبصقة:

- لن تكون الحقيقة كما تتمنّاها يا لوبيز، تعمل أوسيان في الجانب الآخر من هذا الباب، وليست هي الفتاة التي تبحث عنها، ماغالي فيرون التي لم تتمكن من إنقاذها.

قالتها، ثم نزعَت حزام السلامة، قبل أن تضيف:

- ليست هي، ولا أيّ فتاة أخرى، كن متأكداً بأنني لم أرزَق بثلاثة توائم. . .

كنت قد فكرت في هذا الاحتمال للحظات قليلة.

ثلاثة توائم، أربعة، أو حتى خمسة.

فتيات سيواصلن الارتماء في الفراغ، واحدة كلّ عشر سنوات.

نظرية سخيفة! وقد تكون جديرة برواية بوليسية رديئة جداً.

تأكّدتُ من خلوّ موقف السيارات من المارة، ثم غادرتُ السيارة وقد حرصتُ على إخفاء المسدس بمنديل قديم وجدته في درج الفيات. قد يخيّل لأيّ شخص يمرّ من المكان مسرعاً أنّ الأمر يتعلق بضمادة متينة.

دفعتُ البوابة الزجاجية للعيادة وسمحت لكارمن بالدخول. تعلّقت عيناي بأربعة مستطيلات ذهبية تضمّ أسماء الأطباء العاملين في العيادة، وتوقفتُ عند المستطيل الثالث.

أوسيان أفريل
متخصصة في أمراض النساء والتوليد

تأرجَحَت ساقي الاصطناعية فوق الأرضية، فحاولتُ استعادة توازني بالاستناد إلى الجدار، من دون التخلّي عن المسدس الذي أخفاه المنديل.

لا! صرخ صوتٌ مفاجئ في ذهني. لا يمكن أن تكون الفتاة التي أجابتني هي نفسها شقيقة مورغان التوأم. الشقيقة التي سقطت

من على علوّ يقدر بمئة وعشرين متراً، وأمام عيني. لم أعد أستند سوى إلى معلومتين يقينيتين كما قالت مونا في السابق.

لقد ماتت مورغان أفريل منذ عشر سنوات.

لقد ماتت ماغالي فيرون منذ يومين.

لا يمكن تفسير تشابههما وتطابق بصمتيهما الجينيتين سوى بأنّ الأمر يتعلق بتوأم!

دخلتُ إلى العيادة، ثم وضعتُ اليد التي تُخفي المسدس على ورك كارمن، في حركة بدت ودّية للغاية. ابتسمت فتاة ترتدي وزرة بيضاء وتقف خلف مكتب الاستقبال، قبل أن توجه كلامها مباشرة إلى كارمن.

- مرحباً سيدة أفريل. إذا كان الأمر يتعلق بمقابلة أوسيان، فهي مشغولة بموعد عاجل، لكنها لن تتأخر كثيراً.

قالتها ثم تطلَّعت إلى الباب على يميني.

الدكتورة أفريل.

لم أفكر وأنا أزيح كارمن وأتوجّه نحو الباب لأفتحه.

تطلّع إليّ أربعة أشخاص.

امرأة جالسة، وهي تمسك بطنها المنتفخة بيدين مرتجفتين.

رجل واقف بالقرب منها، يضع يداً على كتفها، فيما كانت اليد الأخرى مستعدة لتحطيم كلّ مَن يقترب من زوجته.

طفل في الثانية من عمره، في زاوية الغرفة، يلعب بقطع ليغو كبيرة.

وأوسيان أفريل، خلف مكتبها.

- نعم؟

تطلَّعَت إليّ الطبيبة بنظرات عدم فهم.

شعرتُ بارتفاع درجة حرارة جسمي.

إنها هي... إنها ماغالي فيرون.

النظرات الحزينة نفسها.

الجمال نفسه.

الكمال نفسه في كل ملامحها، كما لو أنّ فنّاناً تشكيلياً قد رسمها انطلاقاً من كلّ أمنياتي الخفيّة... فتاة أحلامي، كيف لي أن أرتكب مثل هذا الخطأ في التعرُّف عليها؟

إنها الفتاة التي مددتُ يدي نحوها بالقرب من المعقل الدفاعي القديم...

الفتاة التي وقفت بالقرب من جثتها في الشاطئ، لدقائق طويلة، قبل وصول رجال الدرك.

الفتاة التي أراها أمامي الآن، حية تُرزق، وهي تشرح لزوجين شابين كيفية منح الحياة لطفل جديد قادم إلى هذه الدنيا...

حرَّكتُ ذراعي بغباء، فسقط المنديل على الأرض ليظهر مسدس الكينغ كوبرا.

صرخت المرأة الحامل، ما تسبَّبَ في بكاء ابنها وسقوط قطع الليغو بعد ركض الطفل للاحتماء بوالده الذي بقي فمه مغلقاً وقبضتاه مضمومتين.

- اخرجْ! قالت أوسيان بلهجةٍ آمرة.

حاصرتني كارمن أفريل بوقوفها بين الباب والممرّ، وشعرتُ بأنّ نظرات الأطفال الصغار في الصور التي تملأ الغرفة تكاد تحاصرني.

سأهرب، ثم أفكر فيما بعد.

استدرتُ فجأة ثم دفعتُ كارمن بكلّ قوتي، فسقطتْ بعنفٍ على الأرض، متسبِّبة في إسقاط مقعدين في الممر. حركت المسدس بحركات عشوائية ما تسبَّب في صرخاتٍ أخرى مَصدرها الفتاة في مكتب الاستقبال.

تجاوزت البوابة الزجاجية مغادراً العيادة.

جلست على مقعد القيادة في الفيات بعد لحظات قليلة، شغَّلتُ المحرّك واستدرتُ بالسيارة ثم هربتُ بأقصى سرعة.

استعدتُ انتظام تنفسي، مجبِراً نفسي على التخفيف من السرعة، على الأقل وصولاً إلى مدخل نوشاتيل-أن-بري. وعبر المرآة الجانبية، خيِّلَ إليّ أنني أرى أثر اللون الأزرق المميز لجرس إنذار سيارة تابعة للدرك.

خفَّفتُ من سرعتي أكثر...

كان رجال الشرطة في منزل كارمن!

سيكونون بحاجة إلى المزيد من الوقت للتوصّل إلى رقم السيارة ونوعها، هذا إذا كانت كارمن قوية الملاحظة.

تجاوزَت الفيات الجسر.

سأختفي تماماً، ربما اتصلت كارمن برجال الدرك، وإذا فشلوا في إلقاء القبض عليّ بنوشاتيل، فقد ينجحون في ذلك بعد وصولي إلى الطريق السيار.

استدرتُ يميناً متوجّهاً نحو ميسنيير-أن-بري، لا خيار أمامي سوى السير عبر الطرق الثانوية في البادية.

أملك فرصة واحدة.

لن يقوم رجال الشرطة بتفعيل خطة إبيرفييه[1] للعثور عليّ. صحيح أنني لا أعرف طبيعة الإجراءات المتَّبعة في عملياتٍ من هذا النوع، وإن كنتُ أعتقد بأنها نادرة عموماً، مقارنة -على الأقل- بعدد الجرائم الدنيئة المرتكَبَة والعدد الكبير للقتلة الفارين. إذا لم أغادر الطرق الإدارية وانتظرت حلول الظلام، فقد أصل -مع بعض الحذَر- إلى فوكوت.

وبعد ذلك...

أشعلت أضواء السيارة، فتحول الخيط الأبيض الذي يتوسط الطريق إلى معلمي الوحيد ويشطر طريقي إلى نصفين متساويين. ركّزت عيني على الخط بما يشبه التنويم المغناطيسي، كما لو أنّ ذلك سيساعدني على مراجعة الاحتمالين اللذين يضغطان على خلايا دماغي.

احتمال أن يكون كلّ شيء متخيّلاً، لم تنتحر أيّ فتاة قبل يومين، وإذا كانت هذه الفتاة موجودة فقد قتلت خنقاً، وبيدي أنا. لم يكن وجهها وجه أوسيان أفريل، الذي اختلط لدي مع وجه قتيلة أخرى لقيت مصرعها قبل عشر سنوات، وهي شقيقتها. ربما قمتُ بخنق مورغان أيضاً. كنت مجنوناً، أقتل وأنسى وأخلط بين

---

(1) خطة إبيرفييه (Plan Epervier): رمزٌ كان يُطلقه الدرك الفرنسي على خطّة البحث عن شخصٍ معين بعد عملية اختطاف أو هروب. -المترجم-

الضحايا. لا أذكر حتى ميرتي كامو، لكن قتلي لمورغان أفريل يعني أنني المسؤول عن قتل هذه الفتاة أيضاً.

تواصلَ ظهور الخطّ الأبيض على الطريق حتى كدتُ أشعر بالدوار.

أفهم الآن هؤلاء الأبرياء الذين يعترفون لرجال الشرطة بجرائم لم يرتكبوها، بعد ساعات طويلة من الاحتجاز والتحقيق والاحتمالات والأدلّة التي يجمعها الادّعاء. هؤلاء الأبرياء الذين يصدّقون ما يسوقه الآخرون، بعدما يدفعهم الشكّ إلى تكذيب يقينياتهم التي جاؤوا بها إلى مكتب قاضي التحقيق.

لا! قال ذلك الصوت الذي يطرق جدران جمجمتي.

لا!

ما زال الاحتمال الثاني مستمراً في المقاومة، لا بد من وجود مفتاح وتفسير منطقي.

وهذا التفسير موجود، قريباً مني.

أنا مطالب فقط بالهدوء والتفكير. أن أجمع كلّ المعطيات وأعيد تركيبها بطريقة مغايرة.

أن أتجاوز المظاهر وأعود إلى الوراء لرؤية الأمور بشكل جديد.

أن أكلّم أحداً يقبل تصديقي.

مونا؟

28

أن أكلم أحداً يقبل تصديقي؟

- هل قام رجال الشرطة بتحديد مواصفات سيارتي؟

صرخت مونا عبر الهاتف.

كادت أضواء سيارة الفيات تعمي طفلاً يعبر الطريق، حاملاً كرته الصغيرة بيده، بالقرب من لافتة «كارفيل-بو-دو-فير».

كدتُ أسحق الفرامل بقدمي، فيما سخِرَت اللافتة الأخرى القريبة من الطفل مني. «**خَفِّفْ من سرعتك، فكِّرْ في أطفالنا**».

تابعتُ طريقي فيما رمقني مجسّم الطفل الكرتوني بلا مبالاة.

كانت كارفيل-بو-دو-فير نائمة.

أزيد من ساعة وأنا أنتقل من بلدة إلى أخرى، عبر طرق مليئة بالأوحال التي تركت آثارها كخنادق في الهضبة.

ألصقتُ الهاتف المحمول بشفتي.

- لست متأكداً من ذلك يا مونا. لا أعتقد بأنّ كارمن أفريل قد قامت بتسجيل أرقام السيارة.

- ماذا؟ عشر سنوات وهي تنتظر قاتل ابنتها! اللعنة! سيربط

رجال الشرطة بيني وبين القضية بمجرد حديثها عن سيارةٍ من نوع فيات 500.

ظهر توأم مجسم الطفل حاملَ الكرة في مرآة الرؤية الخلفية. لم تكن كارفيل-بو-دو-فير سوى قرية صغيرة منغلقة على نفسها. كان عليّ أن أطالب مونا بتجاوز الأمر، فلتقُل لرجال الشرطة أنني قمت بسرقة سيارتها، وأن باب السيارة لم يكن مغلقاً، و...

- الحقي بي في فوكوت، همستُ عبر الهاتف.

- كيف سأفعل ذلك؟ هل نسيت؟ أنت تقود سيارتي الآن!

ترددت في اقتراح نقطة لقاء قريبة من إيبور، ما دام الأمر محفوفاً بالمخاطر.

- سيراً على الأقدام. لا تبعد فوكوت سوى بكيلومترين.

حسبت لوهلة أنها ستقفل الخط في وجهي.

ظهر منزل واسع مضيء أمامي، وقد احتلّ مساحة شاسعة من وادي دوردين.

- محطتان! والمنحدر الواجب تسلّقه يا عزيزي. تذكّر أنني لا أملك ساقين آليتين!

هطلت الأمطار حوالي التاسعة مساء، باردة وقوية. أعتقد بأنها ستتحول إلى ثلوج بعيداً قليلاً عن البحر. أمّا في وادي فوكوت الصغير فستتبع المنحدر لتشكِّل تياراً جارفاً يصل إلى الحصى، الواد كما تسميه أمي. هل يوجد مقابل لهذه الكلمة بلهجة المنطقة؟

وقفت بالقرب من النافذة، منتظراً قدوم مونا. تردَّدتُ أكثر من مرة في الخروج وركوب السيارة المتوقفة في حديقة مارتان دونان

والذهاب للقائها. لكنها ستعبُر الممرّ الساحلي بلا شك... لماذا أعرِّض نفسي لخطرٍ إضافي؟ لأريح ضميري؟

اخترقت الحزمة الضوئية الأمطار بعد عشرين دقيقة، خجولة ومرتجفة، وقد تقدَّم خلفها خيال مظلم، منحنٍ قليلاً بفعل الرياح وقطرات المطر. تردّدتُ مرة أخرى في الاندفاع نحو الباب، ومدّها بغطاء لتدفئتها قائلاً: «حمداً لله، لقد أتيت».

هل اجتازت مونا بوابة الحديقة وحدها؟

لم أعرِفْها إلّا عندما فتحت الباب الخشبي. لم تتفوّه بكلمة، مكتفية بنزع العباءة المانعة للتسرب الصفراء التي جعلتها أشبه بجنّي صغير، ثم رمتها ناحيتي.

قمتُ بإبعاد العباءة التي يقطر منها الماء على الأرضية الخشبية، وقد لاحظتُ بأن مونا لا تضع نجمة الشريف على صدرها، ناحية القلب، ولأوّل مرة منذ يوم أمس. من المنطقي إذاً أن تبدأ بتوبيخي، وربما ستهدأ وتسمع وجهة نظري بعد ذلك.

حاصرتني بنظراتها طويلاً، فوجدتها في غاية الجمال، بخصلات شعرها الأحمر الملتصقة بوجهها المبلل، كحيوان صغير فرّ من العاصفة واحتمى بكوخ صغير في الغابة، حيوان خائف وجب عليك احتضانه لتدفئته.

رسمت على شفتيها ابتسامة لا تقاوم.

- لا أعتقد بأن أحداً قد تَبِعَني إلى هنا!

قالتها ثم أغلقت الباب، لتواصل:

- سآخذ حماماً يا جمال. أريد حماماً لعيناً ساخناً!

عادت بعد نصف ساعة. كانت قد نزعت عنها كلّ ملابسها المبللة، وارتدت سترة صوفية واسعة، رمادية اللون، تصل إلى منتصف فخذها وتتدلى ناحية كتفها الأيمن. قامت بتصفيف شعرها الأحمر اللامع إلى الوراء، فبدت جبهتها عريضة.

جلست على الأريكة، ثم شدّت السترة لتغطي فخذيها العاريتين المضمومتين إلى صدرها، ثم وجَّهت إليّ نظرة متسائلة.

- هيا، تكلم.

رويتُ لها كلّ شيء.

جولتي في نوشاتيل-أن-بري بحثاً عن كارمن أفريل. اعتمادي على الحيلة لدفعها إلى النبش في الملف القانوني لمورغان. البصمة الجينية المتطابقة. صور التوأم. السباق المحموم للوصول إلى العيادة الطبية. لقائي بأوسيان أفريل، التي ما زالت على قيد الحياة...

- هل كانت جميلة بالقدر نفسه الذي احتفَظَت به ذاكرتك؟

فاجأني سؤالها، لكنني لم أجِبْ، ليس تماماً.

- إنها هي يا مونا، وإن كنتُ أعلم بأنّ ذلك مستحيل، إنها هي. هذه الفتاة التي تطلق على نفسها اسم ماغالي فيرون. الفتاة التي قدَّمتُ لها الوشاح قبل أن تقفز نحو الفراغ.

لم تناقشني، واكتفت عوض ذلك بطلبها إعداد الشاي، فنهضتُ لتنفيذ طلبها.

وجدتُ أكياس توينينغز تحت المجلى في مطبخ دونان، وبعد عودتي إلى البهو، كانت قد احتضنت ساقيها بذراعيها، وقد وضعت ذقنها على ركبتيها، فبدت أشبه بقنفذ صغير منكمش على نفسه.

- ما زلتَ مصراً على عدم تسليم نفسك لرجال الشرطة؟

- يريدون الإيقاع بي في فخِّهم يا مونا.

- حسناً، حسناً، لن نعود إلى هذا النقاش مرة أخرى...

- شكراً لقدومكِ.

- لا شكر على واجب، شكراً لك على الأدرينالين.

انطلق صفير الغلاية، لكنني لم أتحرّك قيد أنملة.

- ماذا ستفعل الآن؟ سألتني مونا.

- لقد فكرت في الأمر. ليلة، ليلة واحدة فقط! سنعود إلى البداية ونبحث عن حلّ أو طريقة لتجميع كلّ القطع المتناثرة. إذا لم أتوصّل للحلّ، يوم غد سأتصل ببيروز وأسلم نفسي.

راقبت مونا الميزان النحاسي وهو يتأرجح كبندول إيقاع في صندوق ساعة الحائط النورماندية.

التاسعة مساء وأربعون دقيقة.

- ليلة واحدة فقط؟ إذا حذفنا ثلاث ساعات للنوم، وواحدة على الأقل لممارسة الحب، لن يتبقى أمامنا الكثير من الوقت...

نهضت بحركة واحدة، فتدلت السترة الصوفية الواسعة وصولاً إلى أعلى نهديها، ثم وضعت قدميها الحافيتين على الأرضية الخشبية.

- بماذا سنبدأ؟

أجبتُها بلا تردّد.

- ماغالي فيرون! لقد اشتغل رجال الشرطة على قضية أفريل وكامو طوال عشرة أعوام، ويبدو واضحاً أنهم عجزوا عن تحقيق أيّ تقدّم يُذكَر. أعتقد بأنّ المسماة ماغالي فيرون هي مفتاح حلّ كلّ القضايا.

وضعت الملفين على الطاولة، ملف مورغان أفريل الذي

استعرته من والدتها، وملف ماغالي فيرون الذي سرقته من مكتب بيروز.

- طيب، قالت مونا. سأتولى أمر البحث عبر شبكة الإنترنت، ربما أغفلت بعض المعلومات في أثناء بحثك يوم أمس.

تقدّمت لتلتصق بي، فغمرتني رائحة جل الاستحمام بنكهة التفاح. وقفت على أصابع قدميها وهي تقبلني في شفتي. لم تكن سترتها الصوفية سوى شرنقة حريرية تلف جسدها الباحث عن الدفء. بدا أن الوقت سيكون كافياً لأنزع ملابسي، لكنها دفعتني برفق لتقول:

- هيا، إلى العمل!

جلسَت هي أمام حاسوب مارتان دونان، فيما فردتُ أنا عشرات الأوراق على الطاولة، الأوراق التي توصّلت بها قبل يومين عبر الأظرفة إياها.

تركيز تام.

كنا كطالبين متحمِّسَين يراجعان دروسهما ساعات قليلة قبل امتحان مصيري، فيما واصل البندول تأرجحه في عدٍّ تنازلي متواصل، ضارباً جدران قبره الخشبي بقوة كبيرة.

مزَّقَت صرخة مونا الصمت.

- هل تسخَر مني أم ماذا؟

اقتربتُ منها مصدوماً.

- بالأمس، تابعت مونا مطأطأة الرأس، عندما كنا في حديقة الألعاب بإيبور، قمتُ بإعادة تشكيل تفاصيل حياة ماغالي فيرون استناداً إلى روابط على شبكة الإنترنت، وصفحات الفيسبوك، تويتر،

لينكدإن، دايليموشن. هل تذكر؟ خانتان، واحدة لمورغان، وواحدة لماغالي. عشقها لبينك فلويد وبعض المجموعات الموسيقية الشهيرة، هوسها بالرقص الشرقي، مسارها الدراسي في كندا، ثم متابعتها لدراستها في الضواحي الباريسية في ثانوية تحمل اسم ما يوجد في نوشاتيل-أن-بري نفسه، وصولاً إلى تاريخ الولادة، اليوم نفسه، المكان نفسه، مع فارق عشرة أعوام. . . باختصار، كلّ هذه التشابهات المجنونة.

- نعم، وماذا بعد؟ هل عثرت على شيء ما؟

رمقتني مونا بنظرات متأسِّفة، كما يحصل عندما نخبر طفلاً في السادسة بوفاة والده.

- لا شيء يا جمال، لا يوجد أي شيء على شبكة الإنترنت. استخدمتُ كلّ محركات البحث المتوفرة، لا أثر للمسماة ماغالي فيرون. كما لو أنها لم توجد من قبل.

مكتبة
t.me/t_pdf

29

كما لو أنها لم توجد من قبل؟

تتابعت ضربات أصابعي على لوحة مفاتيح الحاسوب كعازف بيانو مجنون. أتذكّر عناوين كل مواقع الإنترنت التي مكّنتني من جمع معلومات عن ماغالي فيرون. مواقع تواصل اجتماعي تكفي ثلاثُ نقرات للدخول إليها ومشاهدة ما يعرضه ملايين الشباب عن تفاصيل حياتهم.

لا شيء.

لا وجود لأيّ أثر لهذه الفتاة على الشبكة العنكبوتية.

استدرتُ نحو مونا قائلاً:

- لقد قام أحدهم بمسح كلّ المعلومات. . .

كان صوتي مرتجفاً، لم تُجِبْني، فأضَفت:

- يستطيع أيّ شخص القيام بذلك، أن يمسح المعلومات المتوفرة على مواقع الإنترنت. هذا دليل آخر. . . (التقطتُ أنفاسي) دليل آخر على أنهم يريدون الإيقاع بي.

نهضت وهي تجرّ سترتها إلى الأسفل وصولاً إلى منتصف

فخذها، لكن الثوب عاد إلى حالته الأولى، كاشفاً عن بشرة بيضاء مرتعشة.

- وماذا لو كانت هذه الفتاة مجرَّد وهم تخيلته؟

تابعتها ببصري ولم أردّ. كانت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً، حافية القدمين، دون أن تتوقف ولو لثانية واحدة.

- يا إلهي، ما الذي نعرفه عن ماغالي فيرون باستثناء ما حكيته عنها يا جمال؟ تقول بأنك قرأت بعض المعلومات عنها في مواقع الإنترنت، لكنني لم أجد شيئاً ممّا تقول. قمت بوصف ملامحها، لكنها ملامح فتاة أخرى ماتت قبل عشر سنوات أو توأمها التي ما زالت على قيد الحياة. تقول بأنّ هذه الفتاة قد ارتمت في الفراغ بعد تعرّضها للاغتصاب، لكن الصحافة لم تُشِرْ إلى الحادثة بكلمة واحدة. ولم يؤكّد أيّ شاهد آخر ما قلته. المدعو كريستيان لوميديف اختفى، فيما تقول دنيز جوبان بأنها لم تغادر منزلها منذ عدة أشهر... هل تفهم يا جمال؟ يوجد حلّ يشرح كلّ شيء. مفتاح واضح ومنطقي.

لم ألتفِت نحوها، وواصلتُ كتابة بعض الكلمات على الحاسوب بشكلٍ عشوائي، راجياً الكشف عن دليل، دليل واحد. ماغالي فيرون موجودة هنا، مختبئة في مكان ما...

توقّفت مونا فجأة، ورفعت ياقة السترة التي كشفَت عن كتفها الأيمن العاري.

- لا وجود لفتاة تحمل اسم ماغالي فيرون يا جمال. لقد توهّمتَ كلّ ما جرى. لم يحدث أيّ انتحار قبل ثلاثة أيام. لقد تخيَّلتَ كلّ تفاصيل الحادثة! تخيَّلتَ ملامح الفتاة وتخيلت تفاصيل حياتها وتخيلت الشهود.

نهضتُ بحركة واحدة ثم أشهرتُ في وجهها ذلك الملف الذي سرقته من مكتب بيروز.

ملفّ أخضر اللون.

ماغالي فيرون، مكتوبة بقلم حبر أسود، وبخط بيروز.

- ورجال الشرطة الذين يطاردونني؟ هل تخيَّلتُ اتهاماتهم أيضاً؟ لقد قابلوك في فندق لاسيرين، أليس كذلك؟

أجابتني بصبرِ معلمة في الفصل:

- هذا صحيح. رجال الشرطة يبحثون عنك. استغرقت المقابلة دقيقتين، سألوني إن كنتُ أعرفك، وإن كنتُ أعلم بالمكان الذي ذهبتَ إليه، ولم يسألوا أبداً عن ماغالي فيرون أو أيّ جريمة اغتصاب وقعت أول أمس.

قرَّبت الملف من وجهها أكثر:

- اللعنة يا مونا! وماذا عن هذه التقارير الطبية؟ وصور المفاصل المخلوعة لماغالي فيرون، والاختبارات الجينية الممهورة بختم الدرك الوطني؟ هل سيبلغ بي الجنون حدّ اختلاقها وتزويرها أيضاً؟

كانت تلك أوّل مرة تظهر فيها علامات الشك على ملامحها.

- لا أدري. كلّ ما أراه أمامي يدلّ على أنك تخيلت كلّ ما جرى. هذا يشرح كلّ شيء. كل شيء تقريباً... وقد يكون هذا خبراً جيداً، أليس كذلك؟

خبر جيد؟

تطلعتُ إليها مصدوماً.

- فكِّر معي يا جمال، جثة ماغالي فيرون غير موجودة، ما يعني أنّ جريمة الاغتصاب لم تتمّ، وبالتالي عدم إمكانية توجيه أيّ اتهام

بارتكاب جريمة قتل. لا يملك رجال الشرطة أيّ شيء ضدك! أنتَ مجرد شخص مصاب بالبارانويا، وربما أضفت بعض التفاصيل الصغيرة لتتمكن من إغوائي...

لم أتفاعل مع نبرة السخرية في كلامها.

- اللعنة يا مونا، ما الذي سيدفعني إذاً إلى زيارة مخفر الدرك في اليوم الذي قابلتك فيه لأول مرة بالقرب من موزع القهوة الآلي؟

- لا أدري، ربما تمّ استدعاؤك كشاهدٍ في قضية أخرى...

عمّ الصمت المكان، باستثناء صوت بندول ساعة الحائط.

فجأة فهمتُ ما كانت ترمي إليه بكلامها.

رأيتُ الوجه الخفي لقطعة البازل التي أشارت إليها مونا.

لم أتخيَّل ماغالي فيرون بشكلٍ اعتباطي.

ملامحها، اغتصابها، الوشاح الأحمر الذي يحيط بعنقها، منحدرات إيبور...

لقد تخيَّلت المشهد نفسه الذي عشته من قبل!

هذا ما تفكّر فيه مونا. قام رجال الدرك في فيكامب باستدعائي كشاهدٍ على قضية قديمة جرت أحداثها قبل عشر سنوات: جريمة قتل مورغان أفريل، فاختلطَ عندي كلّ شيء ومزجتُ بين الماضي والحاضر.

كنت مجنوناً...

تشبّثت بآخر أمل قبل الاستسلام بشكلٍ تام.

- والأظرفة؟ سألتُ مونا وأنا أشيرُ إلى الوثائق على الطاولة. هل قمتُ بإرسالها إلى نفسي؟

تقدَّمَت لتضع يدها على كتفي.

- لا يا جمال، لا. وإن كان أحدهم يملك مصلحة في إعادة تذكيرك بقضية أفريل - كامو؟ قد يفسِّر ذلك. . .

أزحتُ يدها وأنا أصرخ:

- ما الذي سيذكِّرونني به؟ أنا لم أسمع بتفاصيل هذه القضية قبل هذا الأسبوع!

خفَضَت مونا يدها فشعرتُ بالندم الشديد على ردّة فعلي. لم أعُد أفهم شيئاً. هل أنا مذنب أم بريء؟ شعرتُ برغبة عارمة في البكاء، أن أسمح لدموعي بالانهمار كطفل صغير.

- لا. . . لا علاقة لي بهذه القضية يا مونا. لكنهم يريدون دفعي إلى الجنون، وإن تخلَّيتِ عني فسينجحون في مسعاهم. . .

أشاحت مونا بوجهها ثم ألقت نظرة أخيرة على ساعة الحائط.

العاشرة مساء وعشر دقائق.

- ليلة واحدة يا جمال! أمامك ليلة واحدة لإقناعي. مع شروق شمس الغد ستسلِّم نفسك لرجال الدرك.

- وحتى ذلك الحين، هل أملك حقّ اختيار خطة القتال؟

- تكلم.

- إذا استثنينا بيروز ورجال الدرك، شخصان فقط يمكنهما تأكيد عدم تخيّلي لحادثة انتحار ماغالي: كريستيان لوميديف ودنيز جوبان.

- لقد سألتهما من قبل.

- نعم، قام لوميديف بتأكيد كلّ ما جرى قبل اختفائه، أو ربما اختطافه. أمّا دنيز جوبان فكادت تموت من شدّة الرعب. سنعود إليهما، وسيساعدك ذلك على تكوين انطباعك الخاص عن الموضوع.

- هذه الليلة؟

- نعم.

- وماذا عن رجال الدرك؟ ذهابنا إلى إيبور قد يعني وقوعك في قبضتهم.

- رجال الشرطة يطاردونني أنا؟ ألستِ مصابة قليلاً بالبارانويا؟

أطلقَت ضحكة صافية، ثم طبَعَت قبلة صغيرة على شفتي.

- ألم تقولي بأنكِ ستعدّين الشاي؟

تابعتها ببصري وهي ذاهبة إلى المطبخ، ثم قلت:

- فيما يتعلق بالدفاع، هل تسمحين لي بالاتصال بصديق؟

- نعم؟

- يوجد تفصيل آخر لم أبحث فيه بعد، ويتعلق الأمر بمتتالية الأرقام التي وجدتها عند بيروز ولوميديف. يستحيل العثور على أيّ تفسير لها على شبكة الإنترنت. أعرف صديقاً يعمل معي في مؤسسة سانت-أنطوان ويُدعى إيبو، هو أشبه بالموسوعة الحيّة، مَن يدري...

- معك حق، اتّصل بصديق، فالدكاترة المتخصصون في الكيمياء التجريبية مجرّد حفنة من الحمقى!

ردّ إيبو بسرعة، فأجبتُ عن أسئلته حول تدريبي والطقس المحلي وحديثه عن جديد المؤسسة باقتضاب شديد.

- دقيقة من فضلك يا إيبو، لن تكسب شيئاً ممّا سأقوله، لكنك قد تساعدني لكي لا أخسَر الشيء الكثير...

وصفتُ الجدول ومتتالية الأرقام وأنا واثق من أنّ الأمر يتعلق برموز يستحيل فكّ شِفرتها.

2/2	3/0
0/3	1/1

تعالت ضحكات إيبو عبر سماعة الهاتف.

– سهلة جداً يا أرنبي الصغير، هذا معروف عند الجميع! يتعلق الأمر بمعضلة السجينين الشهيرة.

– ماذا؟

– معضلة السجينين! هي معضلة مستوحاة من نظرية الألعاب الشهيرة.

قمتُ بتشغيل مكبّر الصوت لإيصال الصوت إلى مونا.

– القاعدة النظرية بسيطة للغاية، تخيّل معي وجود مشتبه بهما في جريمة سرقة على سبيل المثال، وتمّ إلقاء القبض عليهما واستجوابهما بشكلٍ منفصل. كلّ سجين يملك خيارين إذا رفَضَ الاعتراف: إمّا أن يصمت أو أن يدين شريكه. إذا أدانَه يستفيد هو من ظروف التخفيف فيما يتمّ تشديد العقوبة على شريكه. لكن المشكلة هنا هي أنّ كلّ سجين يجهل ما الذي سيفعله شريكه...

– لم أفهم شيئاً يا إيبو. أين هي النظرية وسط كل هذا الكلام؟

– انتظر. تخيَّل معي تحويل هذا الكلام إلى أرقام تمثّل سنوات السجن المنتَظَرة على سبيل المثال، هذا هو الجدول الرباعي. إذا صمتَ السجينان سيستفيدان من قرينة الشك ويحصل كلّ واحد منهما على سنة واحدة سجناً نافذاً، إذا أدان كلّ واحد منهما شريكه يتم تشديد العقوبة عليهما ويحصلان على سنتين سجناً نافذاً لكليهما.

– وما الفائدة إذاً من الحديث إلى رجال الشرطة؟

– لأنّ استعمال النظرية يقتضي تقديم المصلحة الشخصية على

الرغبة في التعاون. إذا أدان أحد السجينين شريكه دون أن يتعرَّض هو أيضاً للخيانة تتمّ تبرئته ويتحمَّل الآخر كلّ شيء، ثلاث سنوات سجناً نافذاً للشريك وصفر له. فيجد نفسه حراً طليقاً!

- اللعنة يا إيبو، هل يقومون بدفع أموال طائلة إلى الباحثين لاختراع أشياء كهذه؟

- نعم! بخاصة شخص أميركي الجنسية يدعى روبرت أكسيلرود. لقد قام بتنظيم مسابقة لإيجاد المعادلة التي تمكِّن من كَسب أكبر عدد ممكن من النقاط في معضلة السجينين.

- هل تحوّل الأمر إلى لعبة؟

- نعم، قد يلعبها اثنان أو عشرة أو حتى مئة. القاعدة سهلة للغاية: إمّا أن تكون خائناً أو متعاوناً. تختار ما تريد بشكل سري ثم تقارنه مع اللاعبين الآخرين وتجمع النقاط.

- طيب، ما هي المعادلة السحرية هنا؟

- بحسب أكسيلرود، تستند هذه المعادلة إلى ثلاث كلمات: تعاون - تبادل - تسامح. بوضوح أكبر، أن تعرض في البداية تعاونك مع اللاعب الثاني، إذا خانك تردّ على ضربته بخيانته أيضاً، ثم تعرض التعاون مرة أخرى. يقول أكسيلرود بأنها القاعدة الذهبية القادرة على التأثير في كلّ التصرفات بين البشر.

- هذا كلّ شيء!

لم أجد أيّ علاقة بين هذه النظرية الغريبة وقضية أفريل-كامو وانتحار ماغالي فيرون. لماذا قام بيروز ولوميديف بتدوين أرقام هذه النظرية على ورقة؟

فكَّرتُ للحظات ثم قلت:

- قل لي يا إيبو، حلّ أكسيلرود لا يشتغل إلّا إذا تبارز اللاعبان

أكثر من مرة، ما يعني أنّ القاعدة هنا هي عدم التعرض لخيانة الطرف الآخر مرتين متتاليتين، أما إذا لعبا لمرة واحدة نهائية فإنّ الحلّ الأمثل هو دفع الطرف الآخر إلى الثقة بك أولاً، ثم خيانته، أليس كذلك؟

- لقد فهمتُ كل شيء الآن يا صديقي!

أغلقت الخط من دون أدنى شعور بالتحسن. الظاهر أنّ معضلة السجينين لم تقنع مونا أيضاً ربما قمتُ بتخيّل متتالية الأرقام كذلك. . .

وضعت علبة بسكويت في كيس بلاستيكي، ثم أخرجت كظيمة وقامت بتشغيل الإبريق الكهربائي.

- أعتقد بأنك لم تنَم لأكثر من ساعتين منذ يوم أمس. راقب القهوة، سأغير ملابسي.

تساءلت في اللحظة نفسها عن إمكانية عثورها على ملابس نسائية جافة في هذا المنزل، لكنها لم تترك لي أيّ مجال للتفكير وهي تجرّ سترتها إلى الأسفل بعصبية.

- قل لي يا جمال، أريد أن أتأكد، وهذا مهم للغاية. . . (قامت بجر السترة حتى كادت تمزق طياتها) قبل عشر سنوات، هل كنت. . . (تحولت السترة الرمادية إلى تشبيك يكشف بشرتها البيضاء) هل كنت قادراً على استخدام كلتا قدميك؟

السؤال نفسه الذي طرحه عليّ بيروز في مخفر الدرك.

تطلعتُ إليها بنظرات تجمع بين الازدراء والسخرية والبرود.

- استخدام كلتا قدمي؟ هذا هو سؤالك يا مونا؟ أكملي إذاً، وصولاً إلى قصدك، هل كنت قادراً على الرقص قبل عشر سنوات؟

وأن أتمكن من الصعود عبر المنحدر؟ أن أطارد فتاة؟ أن أغويها ثم أغتصبها وأخنقها، هذا هو سؤالك يا مونا؟

- ليس هذا ما أفكر فيه يا جمال.

- لو وُجِدَ شخص أعرج بتلك الأرجاء لكشفوا أمره بسهولة.

- أنا بحاجة إلى تأكيدٍ منك يا جمال.

رفعت سروالي ببطء لأكشف عن الساق الحديدية التي تربط ركبتي بقدمي الكربونية.

- لقد مررت عبر الواجهة الزجاجية للمركز التجاري في بوجرينيل بالدائرة رقم 15. كنا مجموعة من الأصدقاء الذين يلعبون الياماكازي في كورنوف. انقطع العصب الإبزيمي بشكلٍ تام.

فتَحت مونا فمها لتبدو كسمكة تمّ إخراجها من الماء، لكنني كنت أسرع منها.

- حدث ذلك شهر مايو 2002، قبل اثني عشر عاماً.

لم ترتبك، وقد تناسَت سترتها التي عادت إلى وضعها الطبيعي.

- هل تسخَر مني؟

- ربما، أنا أحب تأليف القصص الخيالية.

فضَّلت مونا قيادة سيارتها بنفسها. كانت قد ارتدت سروال جينز كابورال أكبر من قياسها، ربما قامت باستعارته من خزانة ابن مارتن دونان، وثوباً أخضر اللون تحت سترتها التي لم تجفّ بعد.

ولا وجود لأيّ نجمة ناحية القلب...

توقّفت الأمطار عن الهطول، لكن مقياس درجة الحرارة أشارَ إلى ما دون الصفر. لمستُ يد مونا بأصابعي قبل تشغيلها لمحرّك السيارة.

- إذا لم تسِرْ الأمور كما يجب. . .

فتحتُ درج السيارة فلمست بيدي المقبض البارد لمسدس الكينغ كوبرا، فخيّل إليّ أن مونا ستصرخ.

لكن العكس هو الذي حصل!

تطلعت إليّ كما لو كنت آخر الحمقى على وجه الأرض.

- هل هذا مسدس مارتن دونان؟ إنه سلاح دفاعي يا جمال! لا يطلق سوى رصاصات مطاطية. لم يكن مارتن ليحتفظ بسلاح قاتل.

هل طمأنني هذا الكلام أم ضاعف من خوفي؟

لم أجد الوقت الكافي للتفكير في ذلك، بعدما لامست أصابعي الورق المقوّى لما تبين لي أنه ظرف مغلق في درج السيارة.

ظرف بني اللون.

ظرف يحمل اسمي.

لم يكن موجوداً في الدرج قبل ساعتين، عندما أوقفت السيارة في مدخل المنزل، وقمت بإخفاء مسدس الكينغ كوبرا. هل يمكن تخيّل وجود شخص مجهول قام بالدخول إلى الحديقة من دون إصدار أي صوت، مستغلّاً الظلام وهطول الأمطار؟

شخص مجهول. . . أو مونا، ببساطة شديدة؟

رفعت عيني نحوها، وقد قرّرت طلب تفسير لما يجري. . . ففهمتُ بأنها كانت تفكر في الشيء نفسه.

بالنسبة لها، لا أحد غيري يمكنه دسّ هذا الظرف في السيارة.

الوحيد الذي يعلم بفتحي لدرج السيارة للتأكد من وجود المسدس. . .

حاصرتني بنظراتها، فيما أعدتُ التفكير في كلمات إيبو وحديثه عن معضلة السجينين.

هذه اللعبة اللعينة. . .

شريكان، اختيار واحد، سرّ واحد.

أن تمنح ثقتك للطرف الآخر أو أن تخونه.

ثم قمتُ بفتح الظرف.

30

تعاون - تبادل - تسامح؟

مذكرات ألينا ماسون - ديسمبر 2004

كانت ميرتي حاضرة دائماً، حتى في أبعد نقطة في ذاكرتي.

كنت أقطن في شارع بوشو، شقة في الطابق السادس، مع إطلالة خلابة على نهر السين وجسر غوينمير والممشى المقابل الذي لم نجرؤ أبداً على اللعب بجانبه.

كانت ميرتي تسكن في تابويل بالشارع المقابل. منزل صغير بحديقة صغيرة.

سميتها ميمي.

وأطلقت عليّ اسم لينا.

ميمي-لينا

صديقتان لا تفترقان أبداً.

أجرينا عملية حسابية فتبيَّن لنا أننا التقينا لأوّل مرة في مستشفى دي فوغري، سنة 1983. غادرت مستشفى الولادة يوم 17 ديسمبر،

فيما ولدت ميمي يوم 15 من الشهر نفسه. لكن لويز والدتها تفضّل الحديث عن صداقتنا التي ولدت ونحن نبلغ من العمر ثلاثة عشر شهراً، في حديقة ألعاب بوشو، عندما كنا نلهو في المزلقة الطويلة. وقد عدت أكثر من مرة -بعد وفاة ميمي- إلى ألبومات صورنا القديمة بالقفازات والوشاح والقبعة.

التقينا في القسم نفسه بالحضانة، وهذا طبيعي! كنت أزور ميمي في منزلها ونلعب سوية مع كلبها اللطيف بوفو. وقد علمتُ فيما بعد أنّ شارل أطلق عليه هذا الاسم الذي يشبه اسم مهرج شهير. كنّا نعذب المسكين، نضعه في عربة الأطفال ونُخرجه في جولات قسرية ثم نُجبره على ارتداء المريلة، ونضع وجباته في أواني صغيرة.

لم تزُرْني ميمي في منزلي أبداً، وقد أشعرني ذلك ببعض الخزي، كما أنني لم أكُن أملك كلباً خاصّاً بي.

كنا كالتوأم، هذا ما قاله الجميع في مدرسة ألفونس-دوديه الابتدائية، وإن لم نكُن نشبه بعضنا في الشكل والملامح.

كان لويز وشارل يعملان كثيراً، بخاصة أيام الأربعاء والسبت والعطل. تدير لويز مدرسة لتعليم الرقص، فيما يستقبل شارل الزوار في المتحف. كنا نتسكّع في شوارع إلبوف أو نزور في أحيان كثيرة جدة ميمي، واسمها جانين، تسكن في طريق دي روش في أوريفال. يوجد منزلها في منحدر السين، وتضمّ الحديقة بعض الكهوف التي منعتنا الجدة جانين من الاقتراب منها بسبب خطر الانهيارات الأرضية. كانت تضحكنا، ولم نكُن نأخذ تحذيراتها على محمل الجدّ، وقد أطلقنا عليها لقب الجدة نينجا كتحريف لاسم جانين، كانت تلك فكرة ميمي التي تحبّ التلاعب بالحروف والكلمات.

كنّا نصطحب بافو معنا من حين إلى آخر، نقتاده عبر جادة الشاطئ التي أعتقد بأنها ما زالت محتفظة بهذا الاسم حتى الآن، وإن كانت مساحة شاطئ ضفة نهر السين قد انحسرت.

شاركنا في مخيمنا الصيفي الأول بعد بلوغنا سن الثامنة، وكان ذلك في بوا-بلاج-أن-ري. التقينا بفريدريك الذي يعمل في المخيم مؤطراً. كان وسيماً في أعين ميمي التي أعجِبَت حدّ الافتتان بشعره الطويل وقيثارته وساعديه القويين. وبما أنّ لويز وشارل قاما بتسيير المركز فقد عانت ميمي من مضايقات باقي الأطفال القادمين من أحياء إلبوف، على اعتبار كونها الطفلة المدلّلة ربما لأنّ والديها يعملان.

لكننا تعوَّدنا على مساعدة بعضنا، أنا وهي.

ميمي-لينا، إلى الأبد.

كانت ميمي تبكي في مخيم دي بوا كما كنا نسميه، رافضة إطلاع والديها على مضايقات الأطفال. ينام الجميع في مرقد كبير، وكانت ميمي تتبوّل في فراشها لاإرادياً، وتحاول التعامل مع الأمر بسخرية، قائلة بأنّ هذا هو سبب تسمية المخيم بـ«الغطاء الذهبي». كنت أساعدها باتفاقنا على الوجود في المرقد وحدنا، ثم نتبادل الأفرشة، وإذا ما صارت رائحة البول قوية، نستبدله بفراش المسؤول الذي يحرسنا في الممر.

لم يعلَم أحد بذلك.

كان هذا سرّنا الصغير، وكان من الممكن أن تقتلني إن بحتُ به. لم أتفوّه بكلمة، وماتت هي.

كنا نلتقي بعد المدرسة الإعدادية في ورشة دار الثقافة والشباب، وكان اللقاء بفريد سبباً إضافياً بطبيعة الحال. زاولت ميمي الرقص والمسرح، فيما اكتفيتُ أنا بألعاب السيرك، كنت مناسبة لكلّ ألعاب التوازن، الكرة، البراميل، طبق التوازن، أمّا مع ميمي فالأمر مختلف، السمو والتناغم التام. حرصت لويز أحياناً على السماح لنا بزيارة السيرك وحدنا، فكنا نمشي على الخشبة الدائرية مفعمَتَين بالأحلام. قمنا ذات مرة بتعليق صورة قديمة للاعب سيرك وهو يعبُر حلقة مشتعلة بالنيران. اسمه روستام تريفون، من سيرك مولدافيا، وسيم جداً وأشقر بعينين بلون الفولاذ. كنا نتبادل الصورة، كل واحدة تحتفظ بها أسبوعاً كاملاً. اعتبرنا روستام تريفون بطلنا المحبوب الذي يصيبنا بالدوار، وإن اختلف الأمر عن إعجابنا بفيليب نيكوليتش[1] عضو فرقة 2Be3. أو ترديدنا لأغنية **ما أخبارك؟** لفرقة الـ 4 غير الشقراوات الأميركية، ونحن نحلم بالسفر عبر طرق ترانسنيستري. . . هناك يقطن روستام.

كان عملنا الأول كمسؤولات ترفيه في مخيم بوا-بلاج-أن-ري سنة 2001. أصبح فريدريك مديراً للمخيم، وواصلَت ميمي افتتانها بوسامته رغم تغييره لقصة شعره الذي أصبح قصيراً، واحتفاظه بالأوكوليلي[2]. دائماً مع أبناء أحياء إلبوف أو أقاربهم أو إخوتهم الصغار أو حتى أبنائهم أحياناً. كم كنت أتبادل الضحكات مع ميمي

(1) فيليب نيكوليتش (1974-2009): ممثّل ومغني فرنسي من أصول صربية. -المترجم-

(2) الأوكوليلي: قيثارة تقليدية بأربعة أوتار، يعود أصلها إلى جزر هاواي. -المترجم-

عندما كنّا نساعد الأطفال على قضاء الحاجة ونحن نراقب أفرشتهم ومناماتهم الجافة.

منحنا أنفسنا متعة المشاهدة والاقتراب من ملامسة إخوة البلوز[1] بعد توصلنا بالراتب. وقمنا بمغازلة المتطوعين البريتونيين. يا لوسامتهم! واعدت ميمي أحدهم وخرجت برفقته ذات ليلة، كان مكلّفاً بتنظيف القاذورات، وهو أظرفهم على حدّ قولها.

هكذا هي ميمي.

عدنا بعد قضاء خمسة عشر يوماً في الفينستير، فوجدنا بافو ميتاً، حدث ذلك يوم الاحتفال بعيد القديسة آن. نام بين أغصان الورود في ظهيرة شهدَت ارتفاعاً كبيراً في درجة الحرارة، فدفنه شارل هناك، كلّفه الأمر حفرة، من دون الحاجة إلى نقل جثته. ومن ذلك الحين، ارتبطت تلك الأزهار في ذهني بذكرى بافو، في كلّ مرة أزور فيها شارل ولويز في تابويل.

أعتقد بأنه كان سيحبّ لو تجسَّد مرة أخرى على هيئة أزهار.

غادر المخيم جزيرة ري نحو النورماندي لأول مرة سنة 2003، وقد بدأ في استقبال المراهقين أيضاً، بعدما عانى من نقصٍ في الدعم. ذات ليلة في شهر سبتمبر، عثَرت ميمي على جرو صغير تائه خلف محل ماكدونالدز في كودبيك لي إلبوف. أطلقت عليه اسم رونالد، ورغم أنه اسم سخيف بعض الشيء إلّا أنه كان أول اسم مهرج يقفز إلى ذهنها، فاحتضنته ثم اصطحبته لتقدّمه للويز وشارل. وربما كانت تلك طريقتها لإفهام والديها بأنها ستتغيب كثيراً عن

---

(1) إخوة البلوز (Blues Brothers): فرقة موسيقى بلوز أميركية شهيرة. -المترجم-

المنزل. بدأت في مواعدة فريدريك عندما كنّا في المخيم، وبدا الأمر منطقياً، وإن تجاوز فارق العمر بينهما تسعة عشر عاماً.

يمكن القول بأنّ ذلك كان منتظراً بالنسبة إلى لجميع، بل إننا شعرنا بأنّ ارتباطهما قد تأخّر قليلاً. طلبت مني ميمي في الربيع الموالي أن أكون شاهدة على زواجهما. أرادت أن يتم كلّ شيء بسرعة. حفل الزفاف يوم 2 أكتوبر في أوريفال، الكنيسة القائمة في المنحدر المطلّة على نهر السين. كانت تقول بأنها ثابتة كحبها. ميمي أكثر رومانسية مني، أكثر تديّناً أيضاً، وتحلم بالفستان الأبيض وقصائد الشعر وفارس الأحلام الوسيم القادم على حصان أبيض.

وافقت على طلبها، وقلت أيضاً بأنني سأدهشها عندما بدأت أفكّر في خططٍ مجنونة للاحتفال بتوديعها لحياة العزوبية. كنت أطمح لرحلة تجمعنا سوية بعد مخيّم إيسيني، أسبوع واحد في الجانب الآخر من أوروبا، حقائبنا على ظهورنا وتنقل عبر الأوتوستوب، ربما وصولاً إلى ترانسنيستري...

رحلت ميمي يوم 26 أغسطس 2004.

ولم تقُل لي وداعاً.

كان يوم عطلتها، لم تكُن بعيدة عن طريق المحاجر الكبرى، على بعد ثمانمئة متر من قاعدة إيسيني.

كنت من بين الأوائل، مُحاطة برجال الدرك، ممّن اكتشفوا عنقها المزرق، وجسدها العاري تحت فستانها الممزق، وعينيها الجاحظتين الشاخصتين نحو السماء.

أخبرت شارل ولويز بما جرى، فقاما بإخبار فريديك.

تذكّرت كلّ دقيقة من حياتي قبل الاتصال بهما على وجه

السرعة، حديقة الألعاب في بوشو، بافو، السيرك، روستام تريفون، كهوف الجدة نينجا. . .

كيف لي أن أعيش حياة كاملة لا مكان لميمي فيها.

صمّمنا، أنا وشارل ولويز وفريدريك، على معرفة الحقيقة.

لم تتوحّد جهودنا مع كارمن أفريل وجمعيتها التي تحارب النسيان، بالشكل الكافي. أتحدث عن جمعية الخيط الأحمر. لكنها كانت فرصة للتحدث طويلاً مع أوسيان، شقيقة مورغان. أعمار متقاربة، وفقدنا أعزّ مخلوقين عندنا، شقيقتها وصديقتي.

وقتلهما الشخص نفسه.

توأم المعاناة.

ومع ذلك، لم نكن نفهم بعضنا جيداً. كانت أوسيان مثل والدتها، تشتعل غضباً وتحلم بالعثور على قاتل شقيقتها، ثم قتله بيديها العاريتين. أمّا أنا فاعتقدت بأنني سأكون قادرة على زيارته في السجن يومياً، لأحكي له عن أدقّ تفاصيل حياة ميمي، ليُدرك فداحة جُرمِهِ، ليحبّها ويطلب غفرانها.

فهم شارل ومعه لويز بأنّ الحقيقة حول مقتل ابنتهما لن تظهر أبداً، بخاصة بعدما تمّ التعرّف على المشتبه به الأول، أوليفييه روي.

ثم تبرئته فيما بعد. . .

قام الرائد ليو باستيني بحفظ القضية. . . في انتظار ظهور تفاصيل جديدة غير متوقّعة. فغادر شارل ولويز جمعية الخيط الأحمر

عام 2005. كان ذلك اختيارهما الشخصي، لكنهما أصرّا على أن أواصل تعاملي مع الجمعية برفقة فريدريك.

لن ننسى أبداً.

لم نفهم سبب ذلك.

ظلّت لويز صابرة إلى غاية شهر ديسمبر 2007، عندما تم تدشين سيرك ومسرح إلبوف بعد أشغال تجديد دامت عشر سنوات تقريباً. وقام شارل ولويز بدعوة عددٍ من الفنانين من مختلف دول العالم.

كان روستام تريفون حاضراً، وقد بلغ الثالثة والخمسين من العمر. ما زالت صورته معلّقة فوق سرير ميمي. وافَقَ على القدوم إلى تابويل وصعد الدرج كالملاك ليزور غرفتها. ثم طلبت منه أن يقطف وردة من الحديقة ليضعها على قبر ميمي في مقبرة سان-إيتيان، فبدا عليه التأثر.

كانت لحظة جميلة وحزينة في الوقت نفسه.

بحلول المساء، بقيت في السيرك أنا وشارل ولويز، فقلتُ وأنا أتأمّل ستارة المخمل الأرجواني الضخمة تحت أنوار الأضواء الكاشفة:

- لو كانت ميمي معنا لأحبَّت هذا الافتتاح.

لم يجيباني، يعتقدان ربما بأن ميمي تراقب وتسمع وتحسّ بكلّ شيء من مكان ما في الأعلى، وقد لا يعتقدان ذلك أيضاً، فقد اضطربت علاقتهما بالربّ بعد وفاة ابنتهما.

ثم ودَّعتهما.

ندمتُ وقتها لأنني لم أحدِّثهما عن شكوكي.

في اليوم الموالي، ذهب شارل ولويز إلى جزيرة ري، كانت مباني مخيم بوا-بلاج-أن-ري قد بيعت قبل ما يقارب العشر سنوات لتحويلها إلى مصيف خاص بالطبقات الغنية، مزود بمسبح وملاعب تنس، ما يعني أنّ أقدام أبناء إلبوف لن تتجاوز مدخل هذا المكان مرة أخرى. حوالي السادسة وخمسين دقيقة مساء، قبل الإغلاق بقليل، صعد شارل ولويز إلى أعلى منارة الحيتان. سبعة وخمسون متراً. مئتان وخمس وسبعون درجة في السلم. كانا وحدهما في مواجهة رياح الأطلسي الباردة.

تسلقا الحاجز الإسمنتي، ثم قفزا إلى الفراغ، يداً بيد.

حرصت بعد ما جرى على زيارة الجدة نينجا في طريق دي روش. كانت الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة من عائلتي الحقيقية. تحدّثنا كثيراً. وفي نهاية المطاف أفضيت لها بما كنت أحتفظ به في قلبي. لكنها طمأنتني قائلة بأنّ ما فعلته كان صحيحاً. الأفضل لشارل ولويز أن يرحلا وهما مقتنعان بأنّ ميمي كانت ضحية جريمة عشوائية، من دون اتهام أحد باستثناء إرادة القدر. لكنها نبهتني أيضاً إلى أنّ الشك سيقتلني أيضاً، ولا بدّ لي من التخلّص منه.

- كيف يا جانين؟ كيف؟

- بأن تُطلعي رجال الشرطة على شكوكِ يا جميلتي، وإن تسبَّب ذلك في نكأ الجراح القديمة.

ثم تذكرت قصيدة ميمي.

الأبيات الأخيرة.

سأبني حولنا قلعة شاهقة

وسأدافع عنها

M2O

ما كانت ميمي لتكتب مثل هذا الكلام أبداً.

كم اشتقت إليك يا ميمي.

31

نكأ الجراح القديمة؟

أطفأت مونا مصباح سقف السيارة، ثم استدارت نحوي قائلة:

- إذاً؟

سقط الظرف البني عند قدمي. وجدتُ صعوبة بالغة في الربط بين ما قرأته ومقتل مورغان أفريل وانتحار ماغالي فيرون، وإن كنت متأكّداً من وجود علاقة ما.

يتوجب عليّ فكّ هذه العقدة... عندئذٍ قفزت إلى ذهني صورة الوشاح الأحمر الذي يضغط بقوة على عنق ضحاياه.

انتبهت مونا للدمعة التي لمعت في طرف عيني.

- مؤثر؟

- جداً.

- مورغان أو ميرتي؟

- ميرتي، أو ميمي إن صحّ التعبير... إعلان حب في منتهى الروعة.

تلألأت عينا مونا بطريقة غريبة. تردّدَت قليلاً قبل أن تمرِّر أصبعها على جفني لتمسح دمعتي.

- شكراً.

- على ماذا؟

لم تُجِبْني، مفضِّلة الضغط على دواسة الوقود ومغادرة الحديقة.

الحادية عشرة مساء وعشر دقائق.

توقفت مونا في ساحة جان-بول-لورنس، أمام منزل كريستيان لوميديف. لا وجود لرجال الشرطة. نزعتُ غطاء رأس سترتي الواقية ويندوال نورث فيس قبل تجاوز موقف السيارات، ثم توقفت أمام منزل الصياد.

- لم يكن باب المنزل مقفلاً بالمفتاح في الليلة الماضية.

أدرتُ المقبض فوجدت الباب مفتوحاً.

- الشاهد الذي تبحث عنه ليس حذراً، قالت مونا بسخرية.

انتظرتُ دخولنا إلى المنزل، قبل أن أصرخ:

- كريستيان؟ كريستيان لوميديف؟

لم يُجِبْني أحد كما توقعت. لم يعُد أتاراكس، مهندس الطاقة النووية السابق، إلى منزله بعد.

هرب؟

اختُطِف؟

قُتِل؟

لحقَت بي مونا في الممرّ المظلم وقد خيِّل إليّ أنها مستمتعة بما يجري.

توقفت فجأة بعدما اعترت جسمي برودة غريبة، كما لو أنّ درجة حرارة الغرفة قد انخفضت من دون سابق إنذار.

كان الدرج غارقاً في ظلام دامس.

- الإضاءة غائبة عن المكان.

- هذا منطقي، أليس كذلك؟

- لا! لقد استعنتُ بضوء المصباح الصغير في غرفة لوميديف عندما زرتُ المنزل بالأمس.

- ربما قمتَ بإطفائه قبل مغادرة المكان.

حرَّكتُ رأسي علامة على النفي. أنا متأكِّد من أنني لم ألمس شيئاً.

شغّلتُ مصباح هاتفي الأيفون بحركة واحدة من أصبعي، فأنار الوميض المتواصل الدرج المظلم.

لم نجد شيئاً، لا أصوات ولا أثر لحياةٍ ما، لم يتغير شيء مقارنة بزيارتي السابقة.

إلّا إذا استثنينا هذا المصباح الصغير في غرفة لوميديف.

صعدت عبر درجات السلم وصولاً إلى مفتاح الإنارة، ثم توقَّفتُ مكرِّراً النداء.

- لوميديف؟

لا أحد.

لقد أخطأتُ مرة أخرى. يبدو أنني أطفأت هذا المصباح اللعين في الزيارة الماضية ثم نسيتُ ذلك.

- سأثبتُ لكِ بأنني لست مجنوناً! قلت فجأة وأنا أعود أدراجي. اتبعيني.

احتكَّ جسدانا وهي تفسح لي المجال للتقدّم نحو البهو، فيما تنقّل ضوء مصباح الأيفون بين الجدران، ليظهر أثر الرطوبة على ورق الجدران والمقابس الكهربائية الرمادية والأثاث الخشبي. منعني انشغالي بالبحث عن كريستيان لوميديف يوم أمس من الانتباه إلى الإهمال الواضح الذي لحق بالمنزل الصغير.

وجَّهتُ المصباح نحو البلاط الأبيض والأسود. وحده صوت خطواتنا القادر على اختراق الصمت.

الصمت...

انتفض جسدي بقوة، وقد سرى فيه ما يشبه التيار الكهربائي.

إنه الجنون مرة أخرى.

لم أسمَع طنين راديو الترانزستور. لقد قامَ أحدهم بإطفاء الجهاز!

همست:

- لقد سمعتُ صوت الراديو بالأمس.

حافظَت مونا على صمتها. لم أشعُر سوى بأنفاسها المتلاحقة وهي محتمية بظهري فيما ارتعش عمودي الفقري. ما الذي سأعثر عليه في هذه الغرفة؟

توقفتُ بالقرب من الباب.

- كريستيان؟

ما هذا السخف؟ ما الذي كنت أتوقعه؟ أن يقوم مختطفوه بإعادته إلى منزله ليكمل وجبة عشائه؟

لا إجابة بطبيعة الحال، ولا حتى خشخشة إذاعة فرنسا الزرقاء.

ما الذي جرى بعد زيارتي السابقة؟ ما السبب؟ هل قتلوا لوميديف ثم أعادوا جثته؟

تفقَّدتُ الغرفة عدّة مرات، مستعيناً بضوء مصباح الهاتف، باحثاً عن الطاولة في الوسط، ثم الكرسي وجهاز الميكروويف والتلفاز وراديو الترانزستور، وبحركات سريعة تحولت إلى الهستيرية بعد لحظات قليلة، كما لو كنتُ خبير إضاءة أصابه مسّ من الجنون.

تخلَّيتُ عن حذري بشكلٍ مفاجئ وأنا أضغط على مفتاح الإنارة، فسطع ضوء أبيض في الغرفة، ما أثّر على جفوننا المتعبة.

أخفيتُ وجهي بيدي، عاجزاً عن تصديق ما تراه عيني.

كانت الغرفة فارغة.

فارغة تماماً.

لا وجود لمقعد أو طاولة أو قنينة أو صحن أو كأس أو تلفاز أو جهاز راديو أو أيّ أثاث آخر.

لقد تمّ إفراغ الغرفة ومعها المطبخ بشكلٍ كامل.

شعرتُ بأنّ الأيفون في يدي يزن طناً، وأوشك رأسي على الانفجار.

تقدَّمَت مونا وقد تردَّد صدى خطواتها في الغرفة.

- تقول بأن لوميديف كان يسكن هنا؟

- نعم.

تجاوزتُ الدوخة وأنا أحدِّد الموقع الدقيق لكلّ الأشياء التي كانت موجودة بالغرفة. مرَّرتُ أصابعي على الجدران والأرضية. يشير وجود الغبار أو غيابه إلى أنّ الأثاث قد تمّ نقله حديثاً.

- لقد أفرغوا الغرفة تماماً.

- مَن هم؟

- لا أدري يا مونا، لكن هذا ليس صعباً. يتعلق الأمر بطاولة وكرسي، وبعض الأجهزة المنزلية الأخرى، يمكن جمع كلّ هذا في شاحنة صغيرة...

لم تُجِبْني، فواصلتُ شرح فكرتي.

- يزيحون الشاهد المزعج، ثم يتخلّصون من باقي الأدلة...

- مؤامرة... يبدو أنهم منظّمون بشكلٍ دقيقٍ يا جمال.

لم أغفل نبرة السخرية في كلام مونا، فاستدرتُ نحوها ثم أمسكتُ بكتفيها.

- اللعنة يا مونا! هل تعتقدين بأنّ ما قلته مجرّد ادعاءات؟ كلّ التفاصيل؟ كأس النبيذ، الصحن، راديو الترانزستور؟ هل أنا مجنون إلى هذا الحدّ؟

اصطدَمَت كلماتي القوية بالجدران العارية، فيما انتقلَت مونا إلى وسط الغرفة، في المكان نفسه الذي توجد فيه كرسي لوميديف بالأمس.

- لنتوقف عن طرح هذه الأسئلة يا جمال. سنلتزم فقط بالبرنامج. هل تذكُر وعدك؟ سنقوم هذه الليلة بزيارة مفاجئة للشاهدين كريستيان لوميديف ودنيز جوبان، وبعدها تسلِّم نفسكَ للشرطة.

لم أعترِضْ على كلامها. لم أعُدْ أملك القدرة على القيام بذلك.

بقينا في المنزل لدقائق إضافية، قبل أن تلتقط مونا يدي لتُجبرني على المغادرة.

ما إنْ تقدّمنا في الشارع ببضع خطوات حتى فُتِحَ باب المنزل المقابل وأنار الطريق ضوء خافت.

احتميت بالظلام في حركة غريزية، لن يظهر لذلك الشخص سوى خيال مونا.

- الحرارة منخفضة، أليس كذلك؟

ظهر خيال أعرج بين قدميه، فتعرّفت على الكلب نفسه الذي قابلته في المكان خلال زيارتي السابقة.

استغرقَ صاحبه وقتاً طويلاً لإشعال سيجارة، بما يسمَح له باستغلال توهّج اللهب لتفحّص ملامح وجه مونا.

- من النادر مقابلة فتاة جميلة تتسكّع في الشوارع، وفي توقيت كهذا.

تقدَّم الكلب الأعرج نحوي، أصدَرَت مونا صوتاً بلسانها ثم انحنَت لتداعبه، فأبدى صاحبه إعجابه بتصرّفها.

- هل تسكن هنا منذ مدة مدة طويلة؟ سألته.

- واو. عشر سنوات حتى الآن...

أخذَ نفساً من سيجارته.

- ماذا كنت تفعلين في هذا المنزل؟

الغبي! لقد رأى الضوء المنبعث من الغرفة...

- كنت أزور المكان، أجابته مونا ببراءة.

تراجعتُ أكثر، وقد حرصتُ على رفع قدمي اليسرى عن الرصيف بسنتيمترات قليلة.

- في هذه الساعة المتأخرة؟

بدا متفاجئاً، فكان ردّ الفعل الذي لم أتوقّعه هو ملامسة أصابعي لمقبض مسدس الكينغ كوبرا في جيبي. نفث الرجل دخان سيجارته ثم هزّ كتفيه.

- علينا التصديق بأنهم مستعدون لكلّ شيء من أجل البيع...

- البيع؟ أصرّت مونا.

- نعم. يبحثون عن مشترٍ منذ ستة أشهر. إيبور ليست دوفيل، توجد عشرات المنازل المشابهة...

ارتعدَت فرائصي، فحافظتُ على توازني بوَضع يدي على صخرة حُبَيبية باردة.

تظاهرت مونا بالسذاجة.

- المنزل فارغ منذ ستة أشهر؟

- نعم، باستثناء الزبناء الذين يتفقّدونه، وإن كان ذلك نادراً جداً، بخاصة في وقت كهذا...

رمى عقب سيجارته بعيداً، ثم ابتسم، ربما يفكّر في الاحتمال الضعيف لقدوم مونا للسكن في هذا المنزل، ما يجعلها جارة جميلة لم يكن ليحلم بمثلها. لكنه نادى كلبه في النهاية، ثم عاد إلى منزله مغلقاً الباب خلفه.

انتظرتُ قليلاً، ثم احتميتُ بالظلام وأنا أتقدّم نحو سيارة الفيات، وصوت مونا يصطدم بظهري.

- هل أنتَ راضٍ الآن؟

أجبرتُ نفسي على طَرق كلّ الاحتمالات، وإن كانت غير متوقعة.

- منزل فارغ! خطّة مناسبة للإيقاع بي. نقل الأثاث ثم إعادة نقل الأثاث بهدوء تام.

أشعلَت مونا الأضواء الأمامية لسيارة الفيات.

- تقصد بأن لوميديف متواطئ معهم؟ كنت أعتقد بأنه حليفك! لقد أعطاك عنوان منزله، أليس كذلك؟

- ربما لم يكُن يثق بي، لقد تحدّث عن المؤامرة وقوانين الصمت، أو أنه كان خائفاً على حياته! ربما...

سلّمتني مونا مفاتيح السيارة.

- حسناً، هيا بنا يا جمال، بقيت مرحلة أخيرة، سأسمح لكَ بالقيادة، فأنتَ تعرف الطريق إلى منزل دنيز.

لم تُضِفْ كلمة بعد ذلك.

كان بإمكانها أن تتحدث عن ألف حجة أو برهان على أنني تخيّلتُ اختفاء كريستيان لوميديف وأثاث منزله، وأنه من الممكن - على سبيل المثال- أن ينتبه ذلك الجار لتوقف شاحنة نقل أثاث أمام المنزل، وأن الشاهد الوحيد على كلامي، بين ليلتي الأمس واليوم، هو كلب أعرج تنقصه ساق واحدة.

أدرتُ محرك سيارة الفيات، فأشارت الساعة ذات الأرقام الفوسفورية الخضراء في لوحة القيادة إلى الحادية عشرة مساء واثنتين وثلاثين دقيقة.

- زيارة في مثل هذا التوقيت قد تُصيب دنيز جوبان بأزمة قلبية...

- وقد أكون أنا ضحية هذه الأزمة القلبية. أيّ نوع من المفاجآت التي تنتظرنا هناك؟ ذبح دنيز على يد مخلوقات فضائية؟ أو أنّ شبحها سيتولى مهمة تقديم فناجين الشاي؟

شبح دنيز جوبان...

كان صمتُ السيارة مناسباً لأستعيد كلمات العجوز. لقد أكَّدَت عدم مغادرتها لمنزلها منذ سنوات. لكنها تعرَّفت عليّ وقالت بأنها التقَت بي في شاطئ إيبور قبل عشر سنوات، صباح اليوم الذي قُتِلَت فيه مورغان أفريل. يرتبط أملي الأخير بشهادة عجوز بلغت حداً من الخرف، وقد يدفعني هذيانها إلى الاقتناع بفقداني للذاكرة.

انهمكت مونا الجالسة على المقعد المجاور بتصفّح ملفات ماغالي فيرون ومورغان أفريل، المسروقة من كارمن أفريل وبيروز بتركيزٍ شديد، مستعينة بإضاءة السقف.

راودني إحساس مفاجئ بأنّ شيئاً ما قد أثارَ اضطرابها، بعدما تنقَّلت عيناها بلا كللٍ أو مللٍ بين ملف وآخر.

خفَّفتُ من سرعتي مع اقترابي من مدخل الخط المستقيم الطويل الذي يقود إلى محطّة القطار القديمة تورفيل-لي-إيفس.

- هل عثرتِ على شيء ما؟

حدجتني بنظرة غريبة.

دليل ما.

لقد عثَرَت على شيء ما، فاضطربت بهذا الشكل.

- لا، أو، ربما...

- ماذا؟

- فيما بعد، أقصد بعد لقائنا بالعجوز.

- لماذا؟

صدمتني حدّة نبرتها وهي تقول:

- بعد لقائنا بالعجوز، اللعنة!

32

هل عثرت على شيء ما؟

أضاءت مصابيح الفيات مقصورة أوريينت-إكسبريس، ثم الباسيفيك شابلون، وبعدها واجهة محطة القطار القديمة التي توقفت عقارب ساعتها في السابعة وأربع وثلاثين دقيقة.

بمجرّد إيقافي لمحرّك السيارة، غرقت المحطة والقطارات وموقف السيارات في ظلام دامس، فتقدّمنا بالاستعانة بمصابيحنا اليدوية، متفحِّصين الجدران بلونها الأزرق.

- هل نوقظ دنيز؟ تساءلت مونا.

أمسكتُ بمقبض الباب الذي وجدته مقفلاً هذه المرة، يمكن القول بأنّ بلدة إيفز لا تتألف سوى من بعض المنازل الصغيرة، ما يعني إمكانية تبيّن الخيالات القادمة من على بُعد خمسين متراً تقريباً.

أجبتها:

- قد يتسبّب طرقنا للباب في إيقاظ كلّ سكان الحي.

لم أستغرق وقتاً طويلاً في التفكير وأنا أتقدَّم بثلاث خطوات نحو النافذة المزدوجة. لم تكُن مصاريعها مقفَلَة. التقطْتُ حجراً

بحجم بيضة صغيرة وضربتُ الزجاج القريب من المقبض بحركة واحدة. تهشَّم الزجاج من دون أن يُصدر جلبة قوية، ففتحتُ النافذة من الداخل مدون اتخاذ احتياطات إضافية.

زيَّنَت قطرات الدم راحة يدي، جروح بسيطة في المجمل. فتابعتني مونا دون أن تتفوّه بكلمة.

- سنفاجئ دنيز، قلت مازحاً.

لكن صوتي خلا من تلك النبرة الدالة على السخرية.

لماذا سأدخل إلى هذا المنزل كما لو أنّ الأمر يتعلق بعملية سطو؟ لأقاوم كلّ تلك الأدلة التي تحاصرني؟ ما الذي أتوقعه؟ أن أجد عند دنيز جوبان جيشاً من المتآمرين المنهمكين في إعداد ديكور جديد وبناء حائط آخر في غرفة وهمية؟

تسلّقنا الحاجز ثم دخلنا إلى المنزل عبر النافذة.

أرنولد، فكرت بسرعة.

سيحس أرنولد بوجودنا!

لم يصدر أيّ ردّ فعلٍ عن كلب الشي تزو. كنت أحاول تذكّر مواقع الغرف. كانت غرفة دنيز في الجهة المقابلة لمكان وقوفنا.

أضاءَ مصباحي اليدوي الجدران.

غمرني شعور عظيم بالارتياح، حرارة مطمئنة، لاهبة تقريباً. ما زالت صور القطارات المسافرة عبر أنحاء العالم في مكانها! قطار الأورينت إكسبريس عبر بحيرة البندقية، قطار الشينكانسن الذي يعبر مدينة يابانية. واصل مصباحي اليدوي تفحّصه للغرفة والعوارض الظاهرة والخزانة النورماندية والورود المجفّفة في المزهرية والمقاعد التي يغطّيها القشّ.

كانت كلّ التفاصيل مطابِقَة لما رأيته من قبل! ما زالت بعض خلايا دماغي قادرة على التواصل فيما بينها إذاً. لأوّل مرة منذ وقت طويل يمكنني الوثوق بذاكرتي. لم يكن حواري مع دنيز محض خيال.

شعرت بحيرة مماثلة لما جرى في منزل كريستيان لوميديف، هل أنادي باسم دنيز جوبان أم أفاجئها في سريرها لإحداث الصدمة المرجوة، أم أحملها إلى الحمام وأخضعها لحصّة تعذيب تُجبِرها على تغيير أقوالها وتذكّر شاطئ إيبور وبيروز وجثة ماغالي فيرون.

اقتَرَبنا من الغرفة، وبينما أوشكتُ على فتح الباب، اصطدمَ حذائي الرياضي الملتصق بساقي اليسرى الاصطناعية بشيء رخو على الأرض.

مزَّق صرير سريالي الصمت المحيط بنا. كانت زرافة أو دمية.

ثم غمر نور المصباح غرفة دنيز جوبان، فكادَت شبكية عينيّ تنفجر. لمست مقبض المسدس في جيبي. لن أسمح للعجوز بالصراخ، لن أسمَح لها بإطلاق نداء استغاثة هذه المرة، لن. . .

ورق حائط للقطة هيلو كيتي على جدران غرفة السيدة العجوز.

مجسّمات جنيات مثبتة بخيوط تتدلى فوق رأسي، وصور أقزام على الستائر، وعدد من الدمى المتكدّسة هنا وهناك، كلاب وأرانب وفيلة. وجنيات يتراقصن فوق السرير أزرق اللون وبداخله عينان مصدومتان تحدّقان بي. عينا طفل في السادسة من عمره.

أجبرتني صرخة على الالتفات، لأجد عن يميني سريراً آخر، أصغر حجماً وبقضبان وردية اللون.

فاجأني وجه فتاة مذعورة في الثالثة من عمرها، تصرخ بلا توقف وربما بلا تنفس أيضاً، وقد احمرّ خداها وجبينها وعنقها.

- اللعنة يا جمال...

بدَت مونا عاجزة عن التفوّه بكلمة أخرى. كما لو أنها تفهَّمت كلامي السابق عن المؤامرة، قبل أن تقتنع بتجاوزي لكلّ الخطوط الحمراء.

درتُ حول نفسي باحثاً عن طريقة ما لطَمأنَة الطفلة الصغيرة.

وفشلتُ في ذلك...

انفجَرَ الطفل بدوره، وهو يصرخ بصوت أعلى من شقيقته، وقد انكمَشَ جسده النحيف داخل منامته التي تزيّنها صور القراصنة.

- ماذا تفعلان هنا؟ صرَخ صوت خلفنا.

كانا شخصين بالغين، امرأة ترتدي قميص نوم، شعرها مبعثر، شاحبة، وقد أخرَسَتها المفاجأة، ورجل عاري الصدر بزغب رمادي اللون، في الأربعين من عمره تقريباً، يحمل سكين مطبخ في يده اليمنى المرتجفة...

وضعَت مونا راحة يدها على كتفي في الوقت الذي أشهرتُ فيه مسدس الكينغ كوبرا في وجه الوالدين.

كان مجرّد ردّ فعلٍ فَرَضَتْه الأحداث المتلاحقة.

تضاعفت حدّة معزوفة الصراخ، وبدَت الأم كذئبة متحفِّزة تنتظر الفرصة المناسبة للانقضاض على الغريبين الفاصلين بينها وبين أبنائها.

بدت نبرة مونا أقرب إلى التوسل:

- جمال، لا . . .

اعتصرتُ قبضة المسدس.

- ما الذي تفعلانه هنا؟ تساءلتُ بدوري.

- ماذا؟

فوجئ ربّ الأسرة بسؤالي، لكنه واجهني بنظرات متحدية لا أثر للخوف فيها.

كرّرت:

- ما الذي تفعلانه هنا؟

أدركتُ بأنه لم يفهم مغزى سؤالي، لكنه أجابني رغم ذلك:

- لقد استأجرنا المنزل هذا الأسبوع. . .

أطلقَت مونا زفرة حارّة وهي تُمسك بكمّ سترتي.

- حسناً يا جمال، فلنغادر المكان.

لم أتحرّك، لم يكُن مسدس الكينغ كوبرا سوى سلاح دفاعي، لكن الرجل المُمسك بالسكين تجاهله.

- وبالأمس؟ تساءلتُ. بداية الظهيرة، هل كنتم هنا؟

- لا ، أجابني ربّ الأسرة. لقد قمنا بزيارة شواطئ المنطقة، ولكن. . .

اكتسَب صوته نبرة ثقة مع توالي أسئلتي. ربما اعتقد بأنه يتعامل مع شرطة تابعة لمحطة القطار. . .

أمسكَت مونا بذراعي مرة أخرى.

- هيا، أنت تُخيفني.

تبعتها ببطء وأنا أواصل توجيه المسدس إلى الوالدين. هرَعَت

الأم إلى الطفلة التي سكتت بما يشبه السحر، فيما تشبّث الأب بالسكين.

التقطت مونا يدي بقوة لتجبرني على مغادرة المكان بأقصى سرعة. لم أفقد توازني، لكن صور القطارات والجنيات الطفولية تراقصت أمام عيني.

اللعنة، أنا لم أتوهّم كلّ هذه التفاصيل! أتذكر جيداً تلك الصور وذلك الأثاث ومكان وجود كلّ شيء في تلك الغرفة.

بمجرد تجاوزنا لباب محطة القطار القديمة، أجبَرَتني مونا على الركض للابتعاد عن المكان. أتذكّر بأنّ أرنولد لحق بي إلى موقف السيارات في زيارتي السابقة، كما لو أنه يسكن هنا منذ مدة طويلة ويعتبر المكان حيّزه المطالَب بالدفاع عنه. انتبهتُ لوجود دراجتين، واحدة منهما بعجلات صغيرة إضافية، مستندتين إلى الجدار، وعلى بعد بضعة أمتار سيارة أودي تحتوي لوحة أرقامها على رمز 75.

قادت مونا سيارتها دون أن تتفوه بكلمة. كنت أتكلّم وحدي، ربما لأقنع نفسي بحقيقة ما رأيت، مطلقاً النار على معطياتي وأدلّتي حتى آخر رصاصة.

- تحوّلت محطة القطار القديمة إلى منزل ريفي، حسناً. قامت هذه الأسرة باستئجاره لمدة أسبوع، طيب. لكنها لم تكن حاضرة طوال نهار أمس، هذا يعطي وقتاً كافياً لجمع ألعاب الطفلين ونقل دنيز إلى المنزل لتلعب دورها في تلك التمثيلية وتروي قصّتها عن زوجها الذي اشتغل كَسِكَكيّ، والقول بأنها لا تتذكر شيئاً عن انتحار ماغالي فيرون.

لم تُجِبْني، ولم نكَد نتجاوز ثلاثمئة متر حتى استدارت فجأة إلى

اليمين وأوقفت السيارة في موقف سيارات كبير ومقفر، أمام مبنى إسمنتي.

أشارت أحرف حمراء كبيرة إلى **المستودع البينيدكتي**، كان المكان مهجوراً.

أوقفت مونا المحرّك.

- هذه نهاية الطريق يا جمال، لقد رافقتكَ حتى أبعد نقطة ممكنة.

- اسمعيني يا مونا...

كنت أستعيد في ذهني صور القطارات التي أتذكرها جيداً، لقد رأيت هذه الصور بالأمس! في محطة إيفز القديمة.

- لا يا جمال، انتهى كلّ شيء. لم يسبق لدنيز جوبان أن أقامت في هذه المحطة، الشيء نفسه بالنسبة إلى كريستيان لوميديف في ذلك المنزل في ساحة جان-بول-لورنس. أنت لم تحدِّثهما، ولم يكونا حاضرين في أثناء سقوط الفتاة، لم يحضر أحد، لا صحافيون ولا رجال شرطة، ببساطة لأنّ ماغالي فيرون لا وجود لها. لقد تخيَّلتها يا جمال، لا أدري ما السبب، لكنك تخيَّلتَ كلّ ما جرى، وقد يكون للأمر علاقة معينة بمورغان أفريل لأنك أعطيتها الملامح نفسها، ربما للأمر علاقة بمقتل ميرتي كامو أيضاً، وقد يكون هذا سبب بحث رجال الشرطة عنك. الأكيد يا جمال، وقد يكون هذا خبراً جيداً (التقَطت نفساً عميقاً قبل أن تُنهي كلامها) لن يتّهمكَ رجال الشرطة باغتصاب وقتل ماغالي فيرون: هذه الفتاة لا وجود لها!

أمسكتُ بملف الدرك الذي سرقته من بيروز.

ماغالي فيرون، مكتوبة بحروف كبيرة: MAGALI VERRON

أنا لم أقم باختراع هذا الـ. . .

أسكَتَتْني مونا بحركة منزعجة من يدها.

- لقد تكلّمنا حول هذا الموضوع أكثر من مرة. أنا أديتُ المطلوب مني في الاتفاق المبرَم بيننا، حان الوقت لتؤدّي المطلوب منك، ستسلِّم نفسك للشرطة مع شروق الشمس.

رفضتُ الاستسلام.

- اللعنة يا مونا، هم ينتظرون هذه الفرصة! حسناً، سنهدأ الآن، لكن الزوايا المظلمة ما زالت كثيرة، ألا تشاطرينني الرأي؟ مثلاً، موضوع معضلة السجين والرسائل التي أتوصَّل بها! لا أعتقد بأنني مجنون إلى درجة وضع هذه الرسائل في درج السيارة ونسيان أمرها بعد ساعة واحدة فقط.

حدجتني مونا بنظرة حانية أعرفها جيدا، نظرة الخبراء النفسيين في مؤسسة سانت-أنطوان عندما يستمعون بصبرٍ محترف للشروحات الملتوية التي يقدِّمها المراهقون المتلبّسون بالكذب.

اللعنة! لن أستسلم.

- التفسير موجود في هذه الرسائل! شيء ما لم ينتبه له أحد، وسأتمكن أنا من الوصول إليه. . .

مرَّرَت يدها على شعري بعاطفة هي أقرب للأمومة منها للحب، ثم قالت:

- انسَ الأمر يا جمال، انس الحاضر، انسَ ما وقع منذ ثلاثة أيام، لقد تخيَّلتَ ما جرى (مرَّرَت سبابتها على جبيني). لقد تخيلت ما جرى لأن الحقيقة موجودة في مكان ما هنا. يجب أن تبحث عن حقيقة ما وقع منذ عشر سنوات، لا ما جرى هذا الأسبوع.

أمسكتُ بمعصمها بلا تفكير، واعتصرته بقوة شديدة، قبل أن أتركه ليسقط على ركبتيها كغصنٍ ميّت.

قلت ببرود:

- أنتِ أيضاً.

- أنا ماذا؟

- أنتِ أيضاً، تلعبين معي هذه اللعبة الصغيرة، دفعي إلى الجنون ليَسهُل إلصاق كلّ هذه الجرائم بظهري أنا، هذا هو الهدف، أليس كذلك؟ أن يتمّ دفعي إلى الاعتراف؟

تذكَّرت الأظرفة في درج سيارة الفيات 500 وساعي البريد الذي جاء بالظرف في فوكوت، تلك التمثيليات التي جرى الإعداد لها بعناية كما لو أنهم كانوا قادرين على توقع كلّ تحركاتي. لا أحدَ غير مونا كان قادراً على القيام بذلك! هي قطعة أساسية في هذه المؤامرة.

- اتركيني الآن يا مونا، سأواصل البحث وحيداً.

حاوَلَت وضع يدها على يدي، فدفَعتها بعيداً.

- لقد فقدت ثقتي يا مونا، فقدتُ ثقتي بالجميع.

انتبهتُ إلى مدى حقارة ما أقوم به.

ربما...

لقد خاطرت مونا من أجلي أكثر من مرة.

أو لم تخاطر.

الشك يعني المخاطرة. وأنا لم أعُد قادراً على المخاطرة أكثر من ذلك. كنتُ على وشك النهوض ومغادرة السيارة ليبتلعني الظلام. ففتَحَت مونا الباب.

- احتفِظْ بالسيارة يا جمال، أنتَ بحاجة لها أكثر مني. .

انتقلت نظرات الباحثة بين ملفَّي ماغالي فيرون ومورغان أفريل. تذكرت بأنها قد اكتشفت شيئاً ما قبل وصولنا إلى محطة القطار القديمة، شيء أقنعها أكثر بأنني أهذي.

فيما بعد، بعد اللقاء بالعجوز، قالت.

فات الأوان لطرح السؤال مرة أخرى.

غادرَت السيارة، ثم مالَت نحوي وقد أضاء وجهها نور مصباح قريب، كانت قد فقدَت ملامح الفأرة السعيدة، لتتحوَّل إلى قارض صغير قليل الحذر، لم ينتبه لقدوم الشتاء. كانت الدموع تسيل على خديها.

- هنالك أمر آخر يا جمال. وقد يكون هو جوهر المشكلة. يجب إضافة قطعة مهمة إلى لوحة البازل الخاصة بك، قطعة لم تنتبِه لها رغمَ أنها أمام عينيك.

سالت دموعها أكثر فأكثر.

قطعة مهمة لم أنتبه لها؟

لم يجد عقلي وقتاً كافياً لتحليل مضمون قصدِها، فقد وضّحت كلامها بإطلاق التفسير الأشبه برصاصة استقرَّت في قلبي.

- لقد أغرِمْتَ بهذه الفتاة يا جمال! المدعوّة مورغان أفريل. هذا الوجه الذي وصفته لي أكثر من مرة. الوجه النبيل والنقي والحزين. الوجه الذي اعتقدتَ بأنك قابلته مرة أخرى منذ ثلاثة أيام فوق المنحدر. الوجه الحزين واليائس، هل تذكُر ذلك؟ قبل أن يتسرَّب من بين أصابعك ويتبخّر في الهواء. خيالاتك مرتبطة بجثّة هامدة يا حبيبي! جثة جميلة ميتة ومدفونة منذ عشر سنوات. آسفة،

لا أعتقد بأنّ حضوري بتلك القوة، لا يمكنني أن أشعر بالغيرة في مواجهة شبح.

- هذه الفتاة موجودة يا مونا.

ابتسمَت دون أن تُجيب، ثم تقدَّمت وصولاً إلى مقدمة سيارة الفيات. ألقت نظرة طويلة على الطريق، ثم أخرَجَت شيئاً ما من سترتها.

لمَعَ الشيء في الظلام.

- سأعيدُها لكَ، قالت مونا.

وضعت نجمة الشريف بهدوء على مقدِّمة السيارة.

كنت عاجزاً عن التفوّه بكلمة واحدة.

- حظاً سعيداً، قالت عبر باب السيارة المفتوح.

نجمة الشريف، الأهداف الخمسة التي أطمح لتحقيقها...

كانت الاتجاهات الخمسة -كما كلّ شيء سواها- قد مُسِحَت من ذاكرتي في غمرة الانشغال بما جرى في الأيام القليلة الماضية. الغريب أنّ الكلمات قد تتابعت في ذهني وأنا أرى مونا تبتعد ويبتلعها ظلام موقف السيارات. **سأصبح، سأمارس، سأنجب، سأكون، سأدفع.**

كنت غارقاً في أفكاري فلم أنتبه في البداية لعودة مونا، التي اقترَبَت من الفيات مرة أخرى حتى خيِّلَ إليّ أنها ستعود لتقبِّلني وتحتضنني بين ذراعيها منهارة، لتطلب مني مسامحتها.

لكنها رفعت ماسح زجاج السيارة.

اللعنة، فيم تفكر؟

كتبَت ببطء، وبأصبع واحد، اثني عشر حرفاً على الزجاج الذي غطاه الغبار.

M.A.G.A.L.I V.E.R.R.O.N

ثم مسح أصبعها حرفاً واحداً، لتُعيد كتابته فوق الاسم السابق.
بدأت بحرف M
ثم O
ثم R
ثم G
ثم باقي الحروف.

مكتبة
t.me/t_pdf

عندما تمّ مسح كلّ الحروف وإعادة كتابتها في السطر الموالي بترتيب مختلف، ظهر اسم جديد على غبار الزجاج الأمامي للسيارة.

M.O.R.G.A.N.E A.V.R.I.L

مالت مونا نحو باب سيارة الفيات 500.
- إنهما اسمان للفتاة نفسها يا جمال. ميتة وشبحها...
ثم ظهرت أنوار سيارة قادمة، ومعها الضوء الأزرق المميّز لسيارة الدرك.

33

ميتة وشبحها؟

انحرفت سيارة الدرك عن مسارها فجأة، وتوقفت عن ملاحقة سيارة الفيات 500 التي تجاوزتها ببضعة أمتار. وبدت مناراتها أشبه بشموس صغيرة تغمُر بضوئها المكان.

تساءلت للحظة عن الطريقة التي مكَّنَت رجال الدرك من العثور علينا بتلك السهولة.

لحظة واحدة فقط.

كم أنا مغفل!

من البديهي أن يتصل أصحاب الكوخ القريب من المحطة القديمة برجال الشرطة بعد رحيلنا عن المكان، شخص يحمل مسدّساً، ويقتحم منزلهم وغرفة أبنائهم بالقوة.

عربي، أعرج، منفعل.

طبيعي إذاً أن يتحرّك رجال الشرطة لملاحقتي.

برز ظلان من العربة الملاحقة، فتعرَّفتُ بسرعة على الخيال الثقيل لبيروز والخيال الطويل المنحني لمساعده.

صرخ الضابط قائلاً:

- انتهت اللعبة يا سلاوي، غادِر السيارة وارفَعْ يديكَ إلى الأعلى.

تقدَّما لما يُقارب المتر، وقد أمسكَ كلّ واحد منهما بمسدسه، فيما ضاعف ضوء منارة العربة من حجم ظليهما. تراجَعَت مونا لتصطدم بغطاء محرك سيارة الفيات، وقد أرعبَتها أياديهم المسلحة غير المتجانسة.

واصل بيروز صراخه:

- لا تتحرَّكي يا آنسة ساليناس.

بقيت ملتصقاً بمقعدي في السيارة، عاجزاً عن اتخاذ أيّ قرار، وشاعراً بثقل الكينغ كوبرا في جيبي. المسدس المضحك الذي يطلق رصاصات مطاطية.

- غادِرْ السيارة الآن يا سلاوي!

فتحتُ الباب بهدوء.

خيِّلَ إليّ أن خطوات قليلة تفصلني عن الموت، شعور قويّ بالاستسلام، وربما النشوة أيضاً. . . أن تعرِف ما الذي يخبِّئه لك القدر. الحصول على إجابة مقنعة للسؤال الأكثر تعقيداً.

مَن أنا؟

منحرفٌ فاقدٌ للذاكرة أم كبش فداء وقَعَ في الفخ؟

- إلى الأمام يا سلاوي!

ألقيتُ نظرة على موقف السيارات، فتخيَّلتُ أنّ الظلام الحالك يقضم الإسفلت على بُعد عشرة أمتار مني.

- لا ترتكب أيّ حماقات، صرخ بيروز من جديد، لا تُجبِرْني على إطلاق النار.

يكفيني إطلاق ساقي للريح حتى يبتلعني الظلام، وبحركة تمويهية بسيطة، هل سيجرؤ الشرطيان على إطلاق النار؟

- نفِّذ أوامرهما، قالتها مونا بنبرة متوسِّلة.

ألصقتُ ذراعي اليسرى بالجانب المظلم من السيارة، شعرتُ بأنفاس مونا المذعورة على بُعد سنتيمترات قليلة مني. فاتخذتُ قراري بعد أقل من ثانية.

أسوء قرار ممكن.

سأجرِّب حظّي، مهما كلَّف الأمر.

ردّ فعلِ عصفورٍ صغير، ما يفعله كلّ طفل يسكن في الضواحي بمجرّد رؤيته للون بذلة رجال الأمن. **الطيران!**

رفعتُ يدي اليمنى بتثاقل، فيما انشغلت اليسرى بالبحث في جيب سترتي الرياضية.

حدَثَ كلّ شيء بسرعة قياسية.

رفعتُ يدي اليسرى، وقد اعتصرَت أصابعي مسدس الكينغ كوبرا، لأصدم بيروز بمعلومتين متناقضتين.

متزامنتين.

أنا مسلح، ومستعد لتسليم نفسي.

كنتُ أخطِّط لاستغلال هذا التردّد لأقفز وأركض مبتعداً، أتجاوز ثلاثين متراً عبر موقف السيارات، ثم بضعة كيلومترات عبر الحقول المنبسطة. ستساعدني ساعات التدريب الطويلة على النفاذ بجلدي.

انطلقت الرصاصة بلا تحذير مسبق.

لقد أطلقَ بيروز النار عليّ.

لم أشعُر بأيّ ألم.

خفضَ بيروز ومساعده سلاحيهما بشكلٍ متزامن، وقد أخرسهما الرعب.

انقلَبَت مونا نحوي بحركة بطيئة.

ضغطَت أصابعي على مقبض المسدس، فيما اهتزّ جسد مونا المستندة إلى كتفي، وقد اصطبغت سترتها الخضراء باللون الأحمر، وسالَ عبر شفتيها خيط آخر من الدماء.

تسارعَت دقات قلبي.

غضب، خوف، مقت.

بدا أنّ مونا تختنق، أصدرت حنجرتها كلمات خافتة غير مفهومة، وأطبَقَت جفنيها بتثاقل، كما لو أنّ عينيها تكتشفان منظراً لم يره أحد من قبل، قبل أن تغمضهما.

إلى الأبد.

انزلق جسد مونا ليسقط على الإسفلت، دون أن يُصدِر أيّ صوت تقريباً، سقوط أنيق يذكرك بفأر صغير لفظ أنفاسه الأخيرة على خشبة مسرح الأوبرا.

ارتعشت أصابعي الممسكة بمسدس الكينغ كوبرا. يستحيل على بيروز ومساعده تبيّن نوعية المسدس من تلك الزاوية، فجرَّبتُ حظي.

فوهة مسدس موجهة إلى رأس بيروز!

استدرتُ بحركة بطيئة للجلوس على مقعد السائق في سيارة

الفيات. تسمَّر الشرطيان في موضعهما، شاعرَين بحجم الخطأ الذي ارتكباه.

اخترق قلبي يقين قوي.

لم يتركا لي أيّ خيار آخر! لقد أطلقا النار لقتلي، فأصابت الرصاصة مونا التي لقيت حتفها في الحال.

كنتُ محقّاً منذ البداية.

لقد خطَّط رجال الشرطة للإيقاع بي في فخّهم، مهما كلَّف الأمر.

ألقيتُ نظرة أخيرة على الحسناء الملقاة على الإسفلت، ثم ضغطتُ بقدمي على دواسة الوقود.

اخترق صوت المعدن الصمت المحيط بي. وتألق غبار ذهبي اللون على لوحة قيادة السيارة.

حافظت نجمة الشريف على توازنها للحظات، ثم تدحرجت لتسقط على الإسفلت. النجمة التي تحملها بطلة الفيلم على صدرها، ناحية القلب، لتتلقى الطلقة النارية، وتنقذها من الموت...

ولكن هذا لا يحصل سوى في الأفلام...

اهتزّت سيارة الفيات وأنا أشعر بسحق العجلة اليمنى الأمامية للنجمة الحديدية المطلية باللون الذهبي، والتي اشترتها والدتي بخمس فرنكات. كان هذا في حياة أخرى، حياة حلمَت خلالها والدتي بمستقبل أتصدّى فيه للأشرار.

تتابَعَت مباني مستودعات بينيدكتين أمام ناظري.

أدرتُ المقود فجأة لأنحرف بالسيارة بين سياجين في الطريق الفرعية، المظلمة والمقفرة.

في طريقي إلى الجحيم، لن أقابل مونا.

بل ربما شبح مورغان أفريل...

34

في حياة أخرى؟

واصلتُ تقدّمي عبر الطريق الغابوية لبعض الوقت، قبل أن أوقف سيارة الفيات 500. أدرتُ مفتاح القيادة، فخيِّل إليّ أنني فقدتُ الإحساس بالعالم من حولي، وأنني قطعت -بحركة واحدة فقط- كلّ علاقة لي بالحياة المتحضّرة. أطفأتُ أضواء السيارة، ثم رفعتُ رأسي نحو النجوم المتلألئة والقمر المتواري خلف الأشجار المتشابكة. ليلة سوداء.

بقيت على هذه الوضعية لوقت طويل، غارقاً في الظلام الدامس.

فتحتُ الباب، ثم تقيّأتُ على العشب، بالقرب من عجلة سيارة مونا، وعدتُ لألصق ظهري بمقعد السائق. دون أن أصدر حركة واحدة لدقائق طويلة. سالت الدموع على خدي دون أن أكلِّف نفسي عناء مسحها. سالت بغزارة لتصل إلى شفتي وتمتزج بالحموضة التي غمرت حلقي. خيِّل إليّ لوهلة أنني سأتخلّص بهذه الطريقة من كلّ الهذيانات التي يختلقها دماغي، ستطردها مرارتي، وإفرازات غددي الدمعية، وربما دمائي أيضاً، إن قمتُ بقطع وريدي.

لم أعُد قادراً على تحمّل الرائحة والمذاق في فمي، فامتدّت يدي لتشغيل مصباح السقف.

ظهر اثنا عشر حرفاً على الزجاج الأمامي المتّسخ.

M.O.R.G.A.N.E A.V.R.I.L

تذكّرتُ مونا وهي تكتبها بأصبعها، بابتسامتها المتعَبَة وكلماتها الأخيرة وهي تضع نجمتي على لوحة القيادة.

حظاً سعيداً.

ما علاقة الحظّ بنا يا مونا؟

ظهر ضباب خفيف، بدا أشبه بدخان يصعد من أعماق الأرض، فيما أشار ميزان الحرارة في سيارة الفيات إلى أقلّ من درجتين.

قريباً ستختفي الأحرف الاثنا عشر في غيمة مظلمة.

سراب.

لا بدّ لي من العودة إلى المنطق. ماغالي فيرون شخص لا وجود له. لا وجود أيضاً لكلّ ما يمكن أن يقود إلى تأكيد فرضية موتها.

لا شهود، لا وشاح، لا اغتصاب، لا قتل بالخنق.

لعبة إعادة توزيع أحرف مبعثرة، شبح، خيال.

قفزتُ من فكرة إلى أخرى كما لو كنتُ أقفز عبر صخور قريبة من شلال خطير.

إذا لم يكن كلّ ما سبق حقيقياً، لماذا يلاحقني بيروز منذ ثلاثة أيام؟ لماذا لم يتردّد في إطلاق النار عليّ؟

صخرة أخرى، لكنها غير ثابتة، بما يهدّد توازني بشكلٍ كبير.

إذا لم يكُن انتحار ماغالي فيرون حقيقياً، متى قابلت بيروز لأول مرة؟ ليس على شاطئ إيبور، صباحاً، وبرفقته مساعده. هل قابلته لأول مرة في مخفر فيكامب، في اليوم الذي التقيت فيه بمونا؟ ربما قام رجال الدرك باستدعائي لسببٍ آخر أو ربما قضية أخرى، فقمتُ باختراع هذه الحكاية.

قفزة أخرى، صخرة أخرى، ما زالت الضفة الأخرى بعيدة عني.

شيء ما غير طبيعي في هذه القصة! لا يمكن إطلاق النار على مشتبهٍ به! هذا مستحيل من دون طلقاتٍ تحذيرية، ومن مسافة قريبة، وبنيَّة قتلي. لقد رفعتُ مسدس الكينغ كوبرا إلى أعلى، ولم أهدِّد بيروز أبداً، لكنه أطلق النار ليمنعني من الفرار، مفضِّلاً قتلي على السماح لي بالهرب. لماذا؟

لأنه متأكد من أنني مغتصب مورغان أفريل وميرتي كامو، مرتكب جريمتَي القتل الذي تبحث عنه الشرطة منذ عشر سنوات؟ لأنني نسيتُ كل شيء وقاموا هم بتجميع أدلة كافية بما لا يترك أيّ مجال للشك؟

لامست أصابعي الزجاج الأمامي المتجمد، وقد واجهتني الأحرف الاثنا عشر بما يشبه التحدي، وبدا أنّ محوها مستحيل.

لقد سمعت الأطباء النفسيين في مؤسسة سانت-أنطوان عشرات المرات وهم يتحدّثون عن هذا الأمر. أطفال ينفون تعرّضهم لكلّ الفظاعات التي كانوا ضحاياها. لا، لم يكن الآباء مغتصبين. لا، لم يكونوا عرضة للاستغلال. نعم، يريدون العودة إلى بيوتهم. يختلق الأطفال حياة أخرى أكثر احتمالاً. في خيالهم على الأقل.

غلَّف الضباب سيارة الفيات، معطِياً الانطباع بأنها تحلِّق فوق السحاب بصمت.

هل كبرتُ هكذا؟ محيطاً نفسي بحجابٍ حاجز؟ ولو أنني لم أكُن طفلاً مغتصباً. لم أكُن ضحية مصدومة.

كنت وحشاً.

لقد قتلت الفتاتين قبل عشر سنوات.

وأنا المسؤول الوحيد عن وفاة مونا.

غادرتُ السيارة نحو الغابة، فتلقَّفتني موجة البرد كجدارٍ يخنق صدري، لكنني تجاهلتُ الأمر. تصدَّعت برك صغيرة من الماء المتجمّد تحت قدمي. تقدمتُ بضعة أمتار وأنا أترنّح. أفقدَتْني الطبقة الجليدية توازني، فتمسَّكتُ بجذع أقرب شجرة، كانت شجرة من خشب الدردار، مزَّق لحاؤها راحة يدي، فسالت الدماء.

صرختُ بلا وعي مني.

لا!!!

اهتزّت الأوراق على بُعد عشرة أمتار مني. ربما أيقظَت صرختي أرنباً، عصفوراً، أو أيّ حيوان آخر.

هل تحلم حيوانات الغابة بالكوابيس؟ أم أنها تخاف الظلام؟

اجتاحتني رغبة مفاجئة في الفرار من الغابة. فانفجرتُ مرة أخرى.

لا!!!

استمرَّت صرختي طويلاً، حتى كادت طبلة أذني تنفجر، فيما يقاوم آخر سدّ في دماغي، رافضاً الانهيار.

لا، كررت مرة أخرى.

بصوت أقرب للهمس هذه المرة.

لا.

أنا لا أتذكّر ارتكابي لجريمتَي قتل مورغان أفريل وميرتي كامو، لا أتذكّر ذلك لسببٍ بسيط.

لأنني بريء!

قبل ثلاثة أيام، رمَت ماغالي فيرون بنفسها إلى الفراغ، ورأيتُ جثتها على الشاطئ برفقة كريستيان لوميديف ودنيز جوبان. أنا متأكّد من وجود مفتاحٍ يشرح كلّ شيء، مفتاح قريب، في متناول يدي. تفصيل وحيد يتوجّب عليّ فكّ رموزه، معضِلَة السجين على سبيل المثال، أو آخر قصيدة بعثتها ميرتي كامو إلى خطيبها، وذلك التوقيع، M2O.

مسحتُ قطرات الدم الذي غمَرَ يدي على سروال الجينز. أثار مزيج المرارة والدموع في فمي أعلى درجات اشمئزازي. لن أتهاوى هنا، منتظراً قدوم رجال الشرطة لالتقاطِ جثةٍ نهَشَها الندم. حيوان يلتهمونه بلا تفكير. تذكَّرتُ آخر ما فكَّرَت فيه مونا، ونحن في منزل مارتان دونان بفوكوت. القهوة والحلويات.

تقدَّمتُ نحو صندوق الفيات الخلفي وأنا أستعيد شريط ذكريات الأيام الثلاثة الأخيرة.

لا يمكن لكلّ هذه الأحداث أن تتوالى بشكلٍ اعتباطي، لا بدّ من وجود اتساق أو منطق يحكم كلّ ما جرى...

تحوّلت الرطوبة على بدن السيارة إلى طبقة جليدية رقيقة.

... لكنه منطق يستحيل تبيّنه وسط الأحداث، بتتابع المراحل،

كقارئ يتابع فصول رواية بوليسية. يجب أن أعيد قراءة الأحداث من أعلى، أن أتوصّل إلى الرابط وحدي. سأتوقف بالسيارة وأنام.

أو أشرب لتراً من القهوة.

فتحت الصندوق الخلفي.

شعرت بقسوة البرد وأنا واقف أمام السيارة، لكنني استسلمتُ للصقيع، كتمثال زجاجي.

وجدتُ ظرفاً بنيّ اللون بالقرب من كظيمة الترموس وعلبة الحلويات.

ظرفٌ يحمل اسمي.

مَن سيضع هذا الظرف هنا إن لم يكُن شبحاً؟

مَن سيضع هذا الظرف هنا إن لم أكُن أنا؟

التهمتُ حلويات لوتس التي وجدتها في منزل مارتان دونان بنهم، وشربتُ كأسين من القهوة الساخنة، المركّزة، بلا سكر.

ثم فتحت الظرف.

35

شيء ما غير طبيعي؟

قضية أفريل / كامو - ربيع 2007

تمّ إعفاء شرطة كاين من التحقيق في قضية أفريل / كامو بشكلٍ رسمي يوم 9 يونيو 2007. لم يحصل الرائد ليو باستيني على أيّ معلومات جديدة منذ ما يقارب السنة، ولم يعُد أحد إلى فتح الملف الذي يضم ثلاثة آلاف صفحة. اقترح القاضي بول-هوغو لاغارد، بالاتفاق مع ليو باستيني، تسليم القضية حتى تقادمها إلى سرية الدرك في فيكامب.

كان دركيو فيكامب أوّل المحققين في الجريمة، وكانوا على علاقة حقيقية بالقضية، واعتبر النقيب غريما ذلك انتقاماً شخصياً صغيراً، بعد وقوع الجريمة الثانية واستبعاده من التحقيق، كان ذلك اعترافاً صريحاً بعجز شرطة كاين رغم الفارق الكبير في الإمكانات.

وافقَ النقيب غريما إذاً على إعادة تسلّم الملف الذي نقل إليه من كاين إلى فيكامب يوم الجمعة 15 يونيو 2007. ليستقبل في اليوم الموالي كارمن أفريل، قبل أن تعود بعد بضعة أيام، وتصبح زياراتها

أسبوعية خلال فصل الصيف. فهم غريما بأنّ القاضي لاغارد لم يسلِّمه ملفاً وصل إلى طريق مسدود، بل تخلَّص أيضاً من امرأة مزعجة تضايق القضاء والشرطة منذ سنوات.

لن ننسى أبداً.

لم ينجح مرور الوقت في إضعاف عزيمة رئيسة جمعية الخيط الأحمر، التي تسلّمت زمام الأمور وحدها بعد انتحار شارل ولويز كامو.

بعد مرور ثلاث سنوات، انتقل غريما إلى سرية الدرك في سان-فلوران، الميناء الكورسيكي الصغير بين رأس كورسيكا وصحراء أغريات، غالباً لأنه سئم من الأجواء الروتينية المملّة في فيكامب، وليتخلَّص أيضاً من مضايقات كارمن أفريل. لم يكونا متفاهمين أبداً، ولم يتّفقا مطلقاً منذ وصول التحقيق حول الشاب ذي الوشاح الأحمر بربري إلى طريق مسدود. قام غريما -قبل مغادرته لسرية فيكامب- بتسليم الملفّ لأكبر ضباط السرية سناً، وأكثرهم إخلاصاً، الذي تولى -منذ اليوم الموالي لوقوع الجريمة- مهمة تنسيق استجوابات الشهود الذين قابلوا المجهول صاحب الوشاح الأحمر، سونيا تورو ابنة مسؤول المستودع وميكي الحارس وفانسنت كاري الطالب الجامعي المتخصِّص في الكيمياء.

النقيب بيروز.

شخص يعمل وفق منهجية واضحة، كانت كارمن أفريل مرتاحة في تعاملها معه. التزم من البداية بنظرية القاتل المزدوج، ولم يشعُر بالخوف أمام احتمال تشكيل قائمتين تضمّان آلاف الأشخاص، من سكان إيبور أو سكان إيسني، بهدف الوصول إلى اسم واحدٍ مشترك

بين القائمتين. بالعكس... كان بيروز عنيداً بشكلٍ يقترب من الهوَس. يعيش وحده، بلا أبناء، غير مهتمّ بكرة القدم أو قراءة الروايات البوليسية أو حتى لعب الدومينو، كان يشغل لياليه بإعادة تجميع عناصر القضية، كما يشغل آخرون أنفسهم ببناء مجسّمات للقلعة البنديكتية باستخدام أعواد الثقاب.

كلّ هذا من أجل لا شيء...

لم يتمكّن بيروز من الوصول إلى هُوية القاتل، وهو ما فشل فيه النقيب غريما والرائد باستيني وخبيرة علم نفس الإجرام إيلين نيلسون.

أخذَت كارمن أفريل على عاتقها مهمّة تسيير جمعية الخيط الأحمر بعد وفاة لويز وشارل كامو، ولو أنّ نشاط الجمعية اقتصَرَ على إحياء ذكرى الضحيّتين كلّ سنة، محاوِلَة بثّ الروح في مكتب شبحي.

كارمن أفريل، والدة مورغان أفريل، الرئيسة.
فريديريك سان-ميشيل، خطيب ميرتي كامو، نائب الرئيسة.
أوسيان أفريل، شقيقة مورغان أفريل، السكرتيرة.
جانين دوبوا، جدّة ميرتي كامو، مساعدة السكرتيرة.
ألينا ماسون، الصديقة الحميمة لميرتي كامو، أمينة المال.

كانت تلك اللقاءات القليلة فرصة مناسبة لألينا للاقتراب من أوسيان. كلّ واحدة منهما فقَدَت توأم روحها، بالدم والقلب. فقدَتا

ذلك الجزء الذي لا يعوّض، وهو ما ساعدهما على التفاهم بسرعة، ولو أنّ أوسيان قد ورثَت عن والدتها وحادثة اغتصاب وقتل شقيقتها كراهية هائلة تجاه الرجال، وهو ما عبَّرت عنه بوضوح في محادثاتهما الليلية الطويلة. ولأول مرة، فتحت ألينا قلبها لصديقتها، وحدّثتها عن الشكوك التي تقضّ مضجعها منذ سنوات. انتبهت أوسيان لكلامها ولم تُخبر أحداً بما في ذلك والدتها، ثم نصَحَت ألينا بالتواصل مع رجال الشرطة الذين حققوا في قضية مقتل ميرتي، وبالأخصّ إيلين نيلسون، فخبيرة علم نفس الإجرام تعرف تفاصيل القضية كما يعرفها باستيني، لكنها قد تكون أقدر على التفهّم.

رفضت إيلين نيلسون التواصل مع ألينا ماسون، فقد تمّ إغلاق ملف أفريل-كامو منذ أربع سنوات، وهي مشغولة في الوقت الحالي بقضايا عاجلة أخرى أكثر أهمية.

لم تنجح عشرة اتصالات هاتفية في تغيير أيّ شيء.

تطلَّب الأمر المرور عبر بيروز الذي ضغط على القاضي لاغارد لدفع خبيرة علم نفس الإجرام إلى الموافقة على مقابلة نقيب الدرك وصديقة ميرتي كامو الحميمة، في عيادتها الباريسية بشارع أوبينيي بالدائرة الرابعة. عبَّر بيروز عن امتعاضه الشديد بعد ركوبه في المترو القذر الذي تفوح منه روائح كريهة، وكادَ أن يسقط في ساحة الكونكورد، ثم أرغى وأزبد وهو يدلف إلى المصعد الحديدي الصغير في البناية التي تضمّ عيادة نيلسون في الطابق الرابع، جنوباً مع إطلالة على نهر السين.

بقيت ألينا صامتة.

عندما فتحت إيلين الباب الثقيل بنفسها، مرتدية فستان رالف

لورين مكشوف الكتفين والرقبة، مظهِراً استدارات نهدين صناعيين حديثين، فكَّرت ألينا في الانسحاب.

هل ستكون هذه الخبيرة قادرة على تفهّمها؟

بقي بيروز مسمّراً أمام الباب، وقد بدا معجباً إلى حدٍّ كبير بقوام صاحبة الأصول السويدية، ليمنع ألينا من تحويل فكرتها إلى واقع.

جلسوا على أرائك جلدية مريحة، وأمامهم طاولة زجاجية قصيرة القوائم. وعلى الجدران صور جزيرة سان-لويس والسفن والمراكب المحيطة بها. شعرت ألينا بالدوار، كيف سيتمّ الوصول إلى الحقيقة من دون تلطيخ سمعة وذكرى ميرتي؟

فردت إيلين ساقيها الجميلتين وقطَّبت جبينها الناعم أكثر من اللازم.

- آنسة ماسون، قلتِ بأنكِ تريدين مقابلتي، أليس كذلك؟

لم تجد ألينا بدّاً من الارتماء في الفراغ.

- لعلَّكِ تذكرين، قالت بعد تردّد كبير، اللقاء الذي جمعنا أول مرة في مقرّ شرطة كاين، مباشرة بعد مقتل ميرتي. يومها طرحت أنت سؤالاً مفاجئاً للغاية.

- أي سؤال؟ قالت إيلين التي بدا واضحاً أنها لم تُراجع تفاصيل الملفّ، بخاصة بعد مرور ستّ سنوات كاملة.

- لقد. . . لقد طرحتِ يومَها سؤالاً عن سرّ ارتداء ميرتي لملابس مثيرة في اليوم نفسه الذي تعرَّضَت فيه للاغتصاب. . . فستان قصير لونه أزرق سماوي تزيّنه ورود الخبازى، مع أطراف أرجوانية اللون، وهو ما يختلف بشكلٍ تام عن الملابس المعتادة لمسؤولة ترفيه في مخيم للمراهقين.

- ممكن، لقد راجعنا كلّ الاحتمالات وقتئذٍ. . .

- ما الذي كنتِ تفكِّرين فيه وقتها؟ قالت ألينا بإصرار.

بدا أنّ إيلين تبذُل كلّ ما في وسعها لشَحذ ذاكرتها، قبل أن تُجيب بنوع من الضجر:

- لم يكُن شيئاً محدّداً، أذكر أنّ باستيني كان يفضِّل التركيز على الجاني، لا الضحايا، كان محقّاً، يبدو أنّ القاتل اختار ميرتي كامو ومورغان أفريل بشكلٍ عشوائي.

تثاءب بيروز.

- سألتك، واصلت ألينا كلامها، لأنني فكرت طوال السنوات الماضية في ملاحظتك، أو بالأحرى لم أتوقّف عن التفكير فيها، كنت محقّة، لم تكن ميرتي ترتدي مثل هذه الملابس في المعتاد.

- لكنها قُتِلَت يوم عطلتها! حسبما أذكر، كنتما تسيران ذلك المخيم في إيسني، وأنتِ التي قلتِ يومها بأنه كان يوم عطلتها.

- حتى لو كان يوم عطلتها، لم تكن ميرتي لترتدي ملابس من ذلك النوع.

قطبت إيلين جبينها أكثر فأكثر.

- ما الذي تقصدينه بالضبط يا آنسة ماسون؟ أنّ ميرتي لم تُقتَل على يد متسكّع اختارها عشوائياً؟ أنها كانت تعرف مغتصبها؟ أنها... أنها كانت على موعدٍ معه، هذا قصدكِ؟

تردَّدت ألينا. على الجدار صورة عملاقة يحيط بها إطار زجاجي، تظهر امرأة عارية وهي تجلس راكعة على ركبتيها، وقد أخفى ملامحها شلال من الشعر الأشقر.

إيلين؟

كل شيء يقود إلى اليقين بأنها هي.

- نعم، قالت ألينا أخيراً. كانت ميرتي على موعدٍ مع رجلٍ، قاتلها بلا شك.

- ألم تكُن مخطوبة لعازف الغيتار؟

اكتسَبَ وجه ألينا لوناً وردياً، لقد صمتت لسنوات طويلة فقط لهذا السبب. أن تحمي ميرتي، لن تشوّه تلك الصورة التي يعرفها الجميع عنها.

الجميلة، الوفية، العاشقة...

- بلى...

- شيشين، شيء من هذا القبيل.

- شيشين مجرد لقب، اسمه فريدريك سان-ميشيل.

كانت تلك أوّل مرّة تنحني فيها خبيرة علم نفس الإجرام نحو الملف المستقرّ فوق الطاولة أمامها. تصفّحته لبعض الوقت قبل أن ترفع عينيها.

- كانت ميرتي ضحية شخص ما قام بإغوائها أو شيء من هذا القبيل؟ شخص ما استطاع السيطرة عليها؟ قناعتك يا آنسة ماسون مطابقة تماماً للفرضية التي وضعها النقيب غريما، لم تكُن مورغان أفريل ضحية متسكّع هاجمها بشكلٍ مفاجئ، بل شخص أوقعها في حبائله.

أومأت ألينا برأسها إيجاباً من دون أن تعلّق بكلمة، هي على علمٍ بذلك...

- لكن هذا لن يغيّر شيئاً في العمق، متسكّعٌ أو شخص أوقعها في حبائله، هل سيساعدنا ذلك على الوصول إلى الهُوية الحقيقية للمجرم؟ إلّا إذا تمكنّا من الوصول إلى هوية الشخص الذي كانت ميرتي على موعدٍ معه. هل تملكين فكرة عنه، آنسة ماسون؟

- لا . . .

- ماذا لو كان هو أوليفييه روي، الشاب صاحب قبعة الأديداس، الذي اختفى بعد وقوع الجريمة ببضعة أشهر؟

تكلّم بيروز لأوّل مرة، فاستدارت إيلين نحوه متفاجئة، كما لو أنها نسيت وجوده.

- مستحيل! يملك أوليفييه إثباتاً قوياً يُبعده عن مكان مقتل مورغان أفريل في تلك الليلة، كما أنّ بصمته الجينية لا تُطابق بصمة المغتصب. . .

- هذا صحيح، قالت خبيرة علم نفس الإجرام، وهذا ما أوصَلَ تحقيق باستيني المسكين إلى طريق مسدود. طيب، مع مَن كان هذا الموعد؟

- لا أدري، قالت ألينا.

تلألأت الدموع في جانبَي عينيها، فأخرجَت منديلاً ورقياً من جيبها. استغرقَت مراجعة إيلين للملفّ وقتاً طويلاً. تأمَّلَت الصورة الضخمة ثم أزاحت ذرّة غبار وهمية استقرت فوق صدرها.

- وجب الاعتراف بأنّ بعض التفاصيل بقيت محيّرة رغم مرور كلّ هذه السنوات، هذا الفستان المثير الذي ارتدَته ميرتي بعيداً عن المألوف على سبيل المثال، دفتر مذكراتها الأزرق السماوي الذي لم يتمّ العثور عليه أبداً، في الوقت الذي يؤكّد فيه الجميع أنّ ميرتي كانت تحرَص على تدوين كلّ مذكراتها وأسرارها في هذا الدفتر، وربما ذكرت فيه هُوية الشخص الذي كانت على موعد معه، هذا المدعو أوليفييه روي الذي اختفى رغم كلّ مذكّرات البحث التي صدَرَت بحقّه، وقضية التبّان أيضاً.

قفزت ألينا كالمصدومة.

- التبان؟

أدارت خبيرة علم نفس الإجرام رأسها بين ألينا وبيروز.

- هذا مجرّد تفصيل تعرفونه، لم نَجِد أثراً للمنيّ في مهبل ميرتي كامو، لكننا وجدناه على تبّانها الذي تمّ العثور عليه على بُعد مئات من الأمتار من مكان الحادث.

لا، لم تكُن ألينا على علمٍ بالأمر، أمّا بيروز فيَعرف ذلك بلا شك، هو الذي غرق من جديد في تفاصيل الصورة العملاقة.

- كيف فسّر الخبراء هذا الأمر؟ قالت ألينا بإصرار.

- ببساطة شديدة، قالوا بأنّ المغتصب أراد إنهاء العملية الجنسية قبل بلوغه نشوته، فقذف في تبان ميرتي. فقمنا بطرح سؤال بسيط: لماذا قرّر فعل ذلك إن لم يكُن يعلم أنّ منيّه قد يقود إلى التوصّل إلى هُويته الحقيقية؟

- القصد أنّ بصمته الجينية قد تكون مسجّلة في الملف الوطني للبصمات الجينية ككلّ المجرمين؟

- أو أنّ بصمته غير مسجَّلة...

خفض بيروز بصره ثم قال:

- ربما اعتقد المغتصب بأنّ مقتل ميرتي كامو لن يرتبط بجريمة اغتصاب وقتل مورغان أفريل.

- احتمال غير موثوق، علّقت إيلين. سيكون من الصعب عدم الربط بين الجريمتين، وإن كانت البصمة الجينية للمغتصب غير مطابقة. فتاتان مغتصبتان ومشنوقتان في المنطقة نفسها، وبنوعية الوشاح نفسها...

قال بيروز بتذمّر:

- نحن نواجه مختلّاً نفسياً. . .

- أو، قالت ألينا بصوت مرتجف، قد نكون أمام فرضية ثالثة، إذا كان الدي إن آي سيوقِع بالمجرم، فهل يعني هذا أنه يعرف ميرتي؟

انتظرت إيلين نيلسون ثانية واحدة قبل أن تجيب:

- هذا ما فكرنا فيه منذ اللحظة الأولى، لقد حصلنا على البصمة الجينية لألف وخمسمئة شخص، عائلة ميرتي كامو، أصدقاؤها، سكان إيسني، سكان إيلبوف والنواحي، بلا استثناء. كلّ من يمتّون لها بصِلَة، وكلّ هذا بلا طائل!

صمتَت ألينا.

لماذا تعمَّد إخفاء الدي إن آي، قال ذلك الصوت في أعماقها، إن لم يكُن القاتل يعرف ميرتي؟ هل يعرف مورغان أفريل أيضاً؟ صارَ كلّ شيء ضبابياً، الفستان الممزّق، أوليفييه روي الذي يحوم حول صديقتها الحميمة في شاطئ غرانكامب-ميزي وساحل جزر سان-ماركوف، دفتر المذكرات المولیسكين الأزرق السماوي، القصيدة المُرسَلَة إلى فريدريك عندما كانت في المخيم، بتوقيع M2O، الزواج يوم 2 أكتوبر. . .

- وفرضيتك حول المجهول المزدوج؟ تساءلت إيلين. هل من تقدُّم ملموس؟

لم تُجِبْها ألينا الغارقة في أفكارها.

- تقدُّم بطيء، قال بيروز، لسنا متعجّلين، أمامنا حياة بكاملها. . .

- ليس إلى تلك الدرجة، صحَّحت إيلين. إذا لم يظهر أيّ دليل

مادّي ملموس بعد مرور عشر سنوات على وقوع الجريمة، سيتمّ إغلاقها بالتقادم، ما يعني إفلات المغتصِب من قبضة العدالة. . .

- إذاً؟ تساءلت ألينا وهما داخل المصعد.

كانت قد التصقت بجدار المصعد منعاً لأيّ اتصال مع جسد بيروز الضخم.

- إذاً، كرَّرَت قائلة. فيمَ تفكِّر؟

- ليست هي، أجابها بيروز.

- ليست هي؟ ماذا تقصد؟

- ليست صاحبة الصورة! تلك الشقراء العارية ليست نفسها خبيرة علم النفس. إنها تسخَر منّا.

فيما بعد، وفي أثناء ركوبهما في المترو، بين الباستيل وسان-بول، محاصَرين بمجموعة من الأطفال الذين يرتدون قبعات متشابهة، وجدت ألينا نفسها مجبَرَة على الالتصاق ببيروز بفعل الازدحام، فهمَسَ في أذنها قائلاً:

- لقد لمحتُ ابتسامتكِ الخفيَّة قبل قليل، بإمكانكِ عدم تصديق فرضية القاتل المزدوج، لكن الشيء الأكيد هو أنّ القاتل وجد في إيبور يوم 5 يونيو 2004 وإيسني بعد ثلاثة أشهر. . .

أحدَثَ الأطفال جلبة، فاضطرَّت ألينا لرفع صوتها:

- مثل عدّة آلاف آخرين، لقد تمكَّن القاتل من القدوم بطريقة معيّنة، على متن سيارة أو راجلاً، من دون أن ينتبه أحد لقدومه أو ذهابه، ولم يظهَر اسمه في أيّ مكان.

هزّ بيروز كتفيه.

اللوفر.

تابع بناظريه لوحة إشهارية لماركة ديور، تظهر تشارليز ثيرون[1] شبه عارية، ما ذكّره بالصورة العملاقة في عيادة الخبيرة النفسية.

- أعلم ذلك، اعترف بيروز، لكنّ البحث عن هذا الرابط سيمنع كارمن وابنتها من الارتماء في أحضان الجنون. الانتظار والتمنّي، هذا ما تبقّى لهما.

الكونكورد.

اختفى الأطفال المحاطون بمعلّمتين بعد مغادرتهم للمترو، فتراجعت ألينا بخطوة لتترك مسافة متر بينها وبين النقيب.

- انتظار ماذا؟ تساءلت. أن يُعيد المغتصِب الكرَّة من جديد؟ مضَت ست سنوات على مقتل ميرتي.

- فات الأوان، أجابها بيروز. لن يُعيد الكرة من جديد. . .

الشانزيليزيه.

ظهرت لوحات إشهارية أخرى لتشارليز ثيرون، بطول أربعة أمتار وعرض ثلاثة أمتار، فبدا بيروز مستمتعاً بما يراه.

عضَّت ألينا شفتها السفلى. أهكذا تُستثار الغرائز؟

- لن يُعيد الكرة من جديد، أكّد بيروز مرة أخرى، منشغلاً بتفحّص بشرة ثيرون البيضاء بعد تكبيرها ألف مرة.

لا بل سيُعيدها، فكرت ألينا مستسلمَة لحَدْسِها.

---

(1) تشارليز ثيرون (1975-): ممثلة وعارضة أزياء أميركية. -المترجم-

36

أهكذا تُستثار الغرائز؟

تجاوزت نهر السين عبر جسر بروتون حوالي الساعة الواحدة صباحاً، ثم أكمَلت الطريق بالتناوب بين طرق وطنية وأخرى فرعية. تتابعت أسماء المدن النورماندية التي دلّت عليها لوحات أضاءتها مصابيح سيارة الفيات، بون-أودمير، بوزفيل، بون-ليفيك.

أصرّ ذهني على استعادة محتوى الصفحات التي قرأتها، متمسّكاً بذلك اليقين حول وجود هوية القاتل ذي الوشاح الأحمر بين مجموع التفاصيل والمعلومات المتعلّقة بمَقتل ميرتي كامو. والتي لم يقُم المجهول بإرسالها اعتباطياً، الدلائل على براءتي موجودة بين ثنايا هذه الأوراق.

وَهم؟ وَهْم آخر؟

هل لهروبي الأخير إلى إيسني-سور-مير أيّ معنى؟

رنّ الهاتف في جيبي قبل دخولي إلى تروارن، وقد اقتربت الساعة من الإشارة إلى الثانية صباحاً.

إنه بيروز بطبيعة الحال. . .

لم أجِبْه، لقد تسلّم بيروز ملفّ القضيتين، وهو ما تعمَّدت الرسالة الأخيرة إبلاغي إياه، لقد انتهى المطاف بهذا الدركي الوحيد والمهووس إلى العثور على المذنب الذي يبحث عنه منذ سنوات.

أنا!

مضت بضع ثوانٍ قبل أن تشير رنّة سريعة إلى توصّلي برسالة، فأمسكتُ بالهاتف مواصِلاً القيادة في الوقت نفسه.

وقد كادت المفاجأة أن تُجبرني على التخلّي عن عجلة القيادة.

كنت مخطئاً!

لم يكن المتصل هو ذلك الدركي الغبي الذي يلاحقني، بل أوفيلي. غمرني شعور جميل بالدفء. لقد أرسَلَت لي مراهقة مؤسسة سانت-أنطوان صورة قامت بانتزاعها غالباً من مجلّة للموضة، شخص بعينين زرقاوين ووجه وسيم وقميص أبيض مفتوح وابتسامة مشرقة.

20 /20؟

انتزع مني هذا التعليق المقتضب ابتسامة، فكتبتُ الجواب بسرعة وأنا أواصل القيادة.

وسيم أكثر من اللازم، احذري المظاهر.

أجابتني بعد أقل من دقيقة.

أبله!

وماذا عنك؟ أين وصلت علاقتك بجميلتك ذات الشعر الأحمر؟

انقبض قلبي.

جميلتي ذات الشعر الأحمر.

مونا.

تراقصت أمام عيني صورة جسدها الدافئ الملتصق بجسدي.

جسدها الذي يلفّه الآن كيس بلاستيكي في الصندوق الخلفي لسيارة تابعة للشرطة متوجّهة إلى مستودع الأموات. قاومت تلك الرغبة في رمي الهاتف المحمول عبر النافذة، ثم الصراخ بكلّ قوّتي متحدِّياً صمت الليل، ومضاعفة سرعة السيارة للاصطدام بأوّل شجرة أقابلها في طريقي. انتهى بي الأمر إلى وضع الهاتف تحت فخذي ومواصلة الرحلة: أنا أقترب من كاين، وعليّ تحاشي عبور الطريق الدائرية.

دخلت سيارة الفيات 500 إلى بلدة غرانكامب-ميزي قبل الثالثة صباحاً بقليل.

«أوماها بيتش - طريق الحرية»، هذا ما أشارت إليه منذ عدة كيلومترات بعض اللوحات الإعلانية التي تدعو السيّاح إلى زيارة المعاقل الدفاعية القديمة وآثار حفر القذائف والمقابر والمتاحف التي تخلِّد عبور النورماندي الشهير.

«**طريق الحرية**»، أعدت قراءة الاسم الذي قد يستغربه هارب بلا أملٍ مثلي.

أوقفت السيارة في موقف الكنيسة، ثم فَرَدْتُ خريطة طرقية لمنطقة النورماندي. توجد إيسني-سور-مير على بُعد ثلاثة كيلومترات من شاطئ غرانكامب-ميزي، لكنني أبحث عن موقع أكثر دقّة، غراند

كاريير، وهو المكان الذي تمّ العثور فيه على جثة ميرتي كامو يوم 26 أغسطس 2004 كما تقول تقارير الشرطة.

حدَّدتُ النقطة بأصبعي، ثم شربتُ فنجاناً آخر من القهوة وأنا أرفع عيني نحو الكنيسة، المَعلَمَة الوحيدة المُضاءَة في عموم البلدة.

غريبة بحداثتها، فقد دمّرت في يونيو عام 1944، ثم أعيد بناؤها بسرعة، مكعّب إسمنتي على شكل جرس ومدخنة رمادية تخترقها فتحات الرمي.

حتى في لاكورنوف فقدت الكنائس روحها.

حتى في لاكورنوف...

ثم تذكرت أمراً مهماً عَبَرَ خاطري كفيلم هولوغرامي من صنعي.

لقد رأيت هذه الكنيسة من قبل!

طوال الطريق وأنا أستعيد بعض الذكريات البعيدة، اسم هذه البلدة، غرانكامب-ميزي، تلك المناظر الطبيعية والمنازل الحجرية في كاين، الأسقف الأردوازية وتخليد عبور يونيو 1944 في كلّ شارع، وإن قاومت ذاكرتي للاحتفاظ بهذا الماضي في غرفة زجاجية مظلمة.

غرفة حطّمها هذا الجرس بشكلٍ مفاجئ.

لقد رأيت هذه الكنيسة من قبل، مرة واحدة، قبل زمن طويل.

واستعدتُ الآن كلّ تفاصيلها.

كان ذلك في فصل الصيف، أدير -ككلّ سنة- مخيماً في كليسي بمنطقة سويس النورماندية، بالقرب من فاليز، على بعد مئة كيلومتر من غرانكامب-ميزي. تسلق وقوارب شراعية ورحلات سيراً على الأقدام... نوعية الأطفال نفسها القادمين لمركز الترفيه، أبناء لاكورنوف وأوبيرفيليي وفيلتانوز، خمسمئة طفل تقريباً يتمّ توزيعه

على عددٍ من المخيمات في عموم فرنسا، اثنان في منطقة النورماندي، أحدهما في كليسي والثاني بالقرب من شاطئ غرانكامب-ميزي. لم أكُن من محبّي الشواطئ لكن زميلاً لي كان بحاجة إلى يوم إجازته للمشاركة في جنازة جدّته أو شيء من هذا القبيل. أتذكر كيف بذلَ جهداً كبيراً للعثور على مَن يعوّضه ذلك اليوم، وكيف تمّ إلصاق المهمة بي لأنني كنت قليل الخبرة. لم يحدث شيء ذو أهمية في غرانكامب-ميزي. سباحة في تلك المياه الباردة، ومواعدات بين المراهقين من مرتادي الشاطئ. لقد نسيت هذه التفاصيل التي تسرَّبت من ذهني منذ سنوات، ولولا هذه الكنيسة ما كنت لأتذكّرها مرة أخرى.

أغمضت عيني. يستحيل تذكر التاريخ الدقيق لمروري من هذا المكان. كان الطقس جميلاً لأنّ الشاطئ كان ممتلئاً بالمصطافين، وكان ذلك نهاية فصل الصيف، قبل عشر سنوات تقريباً.

ضغطت أصابعي على الخريطة.

نهاية أغسطس 2004؟

الخميس 26 أغسطس إن تحرّينا المزيد من الدقة؟

في اليوم الذي لقيت فيه ميرتي كامو مصرعها؟

مستحيل!

لقد قام رجال الشرطة بتطويق المكان بعد العثور على الجثة، كما هرع الصحافيون إلى المكان، إذا ما كنت موجوداً بغرانكامب نهاية أغسطس 2004، على بُعد كيلومترات قليلة من المكان الذي عثر فيه على الفتاة مقتولة بعد تعرّضها للاغتصاب، فإنّ الموضوع سيتحوّل إلى محطّ اهتمام للمراهقين، وكنت سأتذكّر الأمر بكلّ تأكيد.

فتحت عينيّ ثم تابعت تفاصيل الخريطة مركّزاً على المباني، فوجدت أربعة مربعات سوداء.

لم تتحوّل جريمة قتل كامو إلى قضية عامة إلّا في اليوم الموالي لوقوعها، كما انتظر رجال الشرطة أربعاً وعشرين ساعة قبل إبلاغ وسائل الإعلام. لم أقضِ ليلتي في المكان نفسه، بل عدتُ إلى منطقة سويس النورماندية بعد ظهر ذلك اليوم. ربما انفجرت قضية هذا الاغتصاب ساعات قليلة بعد مروري من غرانكامب، وربما لم أنتبه لها ولم أسمع عنها أيضاً، كنت في كليسي وكنّا شبه مقطوعين عن العالم الخارجي، بلا صُحف أو تلفزة...

واجهتني الكنيسة الإسمنتية الضخمة باتّساعها وهيبتها المخيفة والشبيهة ببرج مراقبة في معسكر للاعتقال.

هل هذا ممكن؟

حاولت يداي المرتجفتان إعادة طيّ الخريطة الطرقية.

أيُعقَل أن أكون قد قابلتُ ميرتي كامو في اليوم نفسه؟ على طريق إيسني بالقرب من غراند كاريير؟ كنت أقود غالباً سيارة المخيم، شاحنة صغيرة من طراز رينو ترافيك.

رميتُ الخريطة وراء ظهري بحركة عصبية.

أيُعقَل أن أكون قد اغتصبتها وخنقتها ثم قامت ذاكرتي بمَسح كلّ آثار الجريمة من ذهني؟

شربتُ المزيد من القهوة، من الكظيمة مباشرة هذه المرة، ثم أعدتُ تشغيل محرّك السيارة.

تجاوزت أوسمانفيل ثم دخلت إلى الطريق المؤدية إلى مزارع

كارير. تركتُ على يميني مبنى نورمانديّاً كبيراً، قبل المواصلة عبر الطريق الترابية.

يقين جديد.

لم يسبِق لي أن وصلت إلى هذا المكان من قبل.

أضاءت مصابيح الفيات 500 كلّ ما يحيط بها، فأخذت الوقت الكافي لتفقد كلّ التفاصيل التي قد أتذكّرها، أي دليل قد يؤكد هذا الجنون.

لقد جئت إلى هذا المكان قبل عشر سنوات، وتركت فيه جثة شابّة في العشرين من عمرها بعد اغتصابها وقتلها.

أين بالضبط؟

في هذه الحفرة؟ بين أشجار الجوز؟ نحو الغرب بالقرب من هذه الكنيسة الصغيرة التي تحيط بها أغصان شجرة معمرة؟ على بعد أمتار أخرى في هذه الأحراش؟ أو وصولاً إلى قناة فيرال على بُعد كيلومترين من إيسني–سور–مير؟

بدت البلدة النائمة من خلال أضواء السيارة شبيهة بمشهدٍ كنائسيّ، لكن من دون صلاة تبشير ملائكية ومن دون أدعية أو قرويين مستيقظين في الفجر لأداء الصلوات. لا شهود باستثناء بعض الأبقار البيضاء والسوداء، التي وُجِدَت هنا منذ عشر سنوات ربما، مستمرة في اجترار العشب، صامتة ولا مبالية.

أوقفت السيارة تحت عمود الإنارة الوحيد في القرية، على بُعد خمسين متراً تقريباً من الحقل، ثم غادرتُ الفيات، منتظراً أن تلتفت إليّ إحدى البقرات وتتعرَّف عليّ وتحدجني بنظرة اتّهام.

سأجنّ.

لم أتذكّر شيئاً.

تقدّمت إلى الأمام شاعراً بالبرد وإن لم تكُن هناك رياح قوية تقريباً. لم أفهم في البداية سبب توجّهي نحو الغابة في اليمين، وقد خيِّل إليّ بأن ذاكرة شبحية تقودني، وأن قدميّ ويديّ ستُعيدان إنتاج الحركات التي يرفض وعيي الإقرار بها.

ثم رأيتُ الومضة، أو الومضتين إن تحرّيت المزيد من الدقّة.

شعلتان أسفل شجرة جوز.

ثم رأيت بساطاً من الورود أسفل الشعلتين.

ثم رأيت ظلّ اللافتين المثبتتين على جذع الشجرة.

كانت قراءة المكتوب مستحيلة من تلك المسافة، فاقتربتُ أكثر.

كوبان خزفيّان ممتلئان غالباً بسائلٍ غير قابلٍ للاشتعال يسمح بمواصلة الشعلتين لاتّقادهما، كما تمّ استخدام أوراق شجرة تفاح لرسم شكلِ جسدين ممدَّدين على الأرض.

رفعت عيني نحو الجذع، وإن كنت متأكّداً من طبيعة ما سأقرأه.

مورغان أفريل 1983-2004

ميرتي كامو 1983-2004

تسمّرت في مكاني، دون أن أشغِّل ذهني بالتفكير في هُوية الفاعل الذي أعدّ هذا المشهد الجنائزي، والوقت الذي استغرقته الشعلتان لمواصلة اتّقادهما، أو حتى الطريقة التي تمّ اعتمادها للمحافظة على بتلات أزهار شجرة التفاح في هذا الوقت من فصل الشتاء، ومغزى الرسم بدرجة أقل.

بقيت فقط متسمّراً في مكاني.

شعرتُ بتعبٍ وتراخٍ شديدَين، كما لو أنّ ذراعيّ وفخذيّ وساقيّ أُفرغت من قوتها. قاومت تلك الرغبة في التمدّد على بساط الورود والنوم ملء جفوني إلى الأبد.

كان كلّ شيء شفافاً.

مورغان أفريل 1983-2004
ميرتي كامو 1983-2004

لقد قتلت هاتين الفتاتين، وعندما حاصَرَتْني الشرطة انفجَرَت ذاكرتي، لقد دخلت مرحلة الهذيان لأحمي نفسي، فتخيلت حادثة انتحار وشهوداً ومطاردة بلا نهاية، قمتُ بتوريط مونا في هذا الجنون فدفعت حياتها قبل ساعات قليلة ثمناً لذلك، وقد يموت أبرياء آخرون إذا واصلتُ رفضي للإقرار بالمنطق.

تراقَصَ الاسمان أمام ضوء الشعلتين.

مورغان أفريل 1983-2004
ميرتي كامو 1983-2004

لم أستطِعْ مَنع عينيّ المتعبتين من مواصلة التحديق في الاسمين، وقد تحوّلت ساقي إلى ما يشبه العمود الزجاجي القابل للانكسار. سأبقى هنا منتظراً قدوم رجال الشرطة.

لم يعُد عقلي قادراً على التحمّل، لم أنَمْ تقريباً منذ ثلاثة أيام، ولم يكُن التعب وحده هو الذي قذفَ بي في ثقبٍ بلون القطن

الأبيض. لكنه أيضاً انهيار الحاجز الأخير في ذهني، أو هي دفقة الدم الأخيرة نحو خلايا دماغي، وكنت مستعداً لذلك.

أخرجتُ مسدس الكينغ كوبرا من جيبي، ثم وجَّهته نحو صدغي لعدّة ثوانٍ.

تجمّدت أصابعي المحيطة بمقبض المسدس، من دون أن أجدَ القدرة على ثنيها.

ثم رميتُ المسدس على بساط أزهار شجرة التفاح.

سأنتظر محاكَمَتي.

سيُخبِرني الآخرون عن مدى التوحّش الذي بلغته.

بالكاد سمعتُ صوت المقتربين خلف ظهري، خطوات ظلال توقّفت على بُعد عشرة أمتار مني. تكلّم أحد الظلال بصوتٍ أقرب لهمس مرتادي الكنائس. أعرفُ الصوت وقد سمعته منذ ساعات قليلة، لكنني عجزتُ عن معرفة صاحبه.

- كانتا في العشرين من عمرهما. كانتا جميلتين جداً.

صوت امرأة. استدرتُ لأجد كارمن أفريل خلفي. كانت ترتدي سروالاً وسترة سوداء اللون، يزيّنها شريط أحمر مثبت إلى العروة. وقد احتضَنَت أصابع يدها زهرة شجرة تفاح، قبل أن ترميها نحو بساط الزهور الأيمن بحركة بطيئة.

- كانت الحياة والمستقبل كله أمام مورغان، فقط لو أنها لم تقابلكَ في تلك الليلة... فقط لو أنها...

صمتَت، كما لو كانت عاجزة عن التفوّه بكلمة إضافية، ظهرَت آثار أقدام على العشب عن يساري. تقدّم ظلّ آخر تحت شجرة الجوز

يرتدي هو الآخر سترة سوداء لكنها قصيرة، فوق فستان من المخمل، مع خيطٍ أحمر مثبت جهة القلب.

إنها أوسيان.

وقد سالت الدموع على خديها بغزارة.

- كان عليك أن تقتلني أيضاً في تلك الليلة، همسَت الشابة. كنتُ أنا ومورغان روحاً واحدة، شقيقتان بقلبٍ واحد.

وضعت زهرة شجرة التفاح بالقرب من ألسنة اللهب المتقدة.

- نعم يا جمال سلاوي، كان عليكَ أن تقتلني، حتى أسوء الصيادين يحرصون على إنهاء عملياتهم، الحيوان الجريح لا ينسى أبداً.

تقدّمت نحو الغابة من دون تفكير، كما لو كنت منوماً. بالكاد استطاعت قدماي الطبيعية والاصطناعية حملي، كنت مجبَراً على الاستناد إلى جذوع الأشجار، لكنني واصلتُ التقدّم رغم ذلك، كسكّير تتقاذفه طاولات الحانة. لم تلحَق بي كارمن أفريل أو ابنتها أوسيان. خيِّل إليّ أنني أرى نوراً في الطريق نحو القناة.

تجاوزتُ آخر حاجز من الأشجار.

بضع عشرات من الأمتار أمامي، وظلّ امرأة في الحقل وهي تُلقي نظرة على مصبّ النهر وتحمل في يدها اليمنى شمعداناً خماسياً تتحدّى أنواره الضعيفة رياح الساحل.

هو ظلّ أعرفه. . .

تجمَّدَت الدماء في عروقي.

- كانت ميرتي صديقتي الحميمة، قال الصوت بهدوء.

تطايرت الكلمات في الهواء، متوجِّهة نحو الأفق.

مزّقت أصوات النوارس الصمت المحيط بنا.

- كانت ميرتي ملاكاً، لماذا حرَمْتَ هذا الملاك من حياته يا جمال؟

استدارت ببطء، فتعرَّفتُ على وجه هذه الفتاة التي كادَت عيناها المبلّلتان بالدموع أن تقتلاني من شدّة الألم. ألمٌ بلا كراهية أو رغبة في الانتقام، فقط عجزٌ عن فهمِ هذا الشرّ المطلق.

- لماذا يا جمال؟ كرَّرت.

ثم رسمَت مونا على وجهها ابتسامة حزينة معناها أنها لم تعُد قادرة على مساعدتي بشيء.

سقطتُ على الأرض، يداي وركبتاي في الوحل. بقيتُ على هذا الوضع لعدة ثوان، أنتظر أن يبتلعني الوحل الأحمر، أو أن تأتي واحدة منهم للإجهاز عليّ.

أوسيان، كارمن.

أو شبح مونا.

دقّت أجراس الكنيسة لعدّة ثوان، فنهضتُ بحركة غريزية، متعَباً، قذراً، شاعراً بأنّ الطين الجافّ قد قلّص من حجم أطرافي، ثم تقدَّمتُ نحو ظلّ الكنيسة الصغيرة بجدرانها المبنيّة بصخور الشست، التي تبعُد عن يساري بحوالي خمسين متراً.

الغريب أنني كنت متأكّداً من يقظتي، رغم توالي الأحداث غير المفهومة. لقد تخلّت روحي عن الأمل في أن أستيقظ في فراشي بالغرفة رقم 7 بفندق لاسيرين والعرق يغمُر كلّ جسمي، أو أن أجد نفسي مصطدِماً بعجلة قيادة الفيات 500.

أنا أعيش هذه الأحداث واقعياً، وهي الأحداث الأخيرة بلا شكّ في حياتي.

انفتح باب الكنيسة بحركةٍ مفاجِئة، أضاءَت مصابيح نيونية الداخل، كانت الإنارة قويّة إلى حدّ إجباري على إغماض عينيّ. واصلتُ المشيَ محتمياً بيدي، فتبيَّن لي وجود أزهارٍ ذابلة على المكان المخصَّص للصلاة بالقرب من صحن الكنيسة. اقتربتُ أكثر فوجدتُ مقاعد خشبية خالية وُضِعَت عليها كتب حمراء، غالباً أناجيل أو كتب مخصَّصة للأدعية والصلوات.

دقّ الجرس مرة أخرى فأزحتُ يديّ الملطختين بالوحل عن عيني.

- كان من المفترض أن نتزوّج يوم 2 أكتوبر، تردَّد صوتٌ داخل المكان. كان كلّ شيء جاهزاً. وكان من حقّ شارل اصطحاب ابنته إلى مذبح الكنيسة، وكان من حقّ لويز أن تحملَ بين ذراعيها طفلي المستقبلي أنا وميرتي، فقط لو أنها لم تلتقي بكَ.

تردَّد صوت خطوات القادم. ليظهر ببذلة الزواج والخيط الأحمر بالقرب من عروته، ثم ملامح وجهه.

الملامح التي أعرفها جيداً.

تطلَّع إليّ وجه كريستيان لوميديف القاسي، ثم كرّر بالنبرة نفسها:

- السيدة ميرتي كامو-سان-ميشيل، كان ليكون اسماً بلحنٍ جميل، أليسَ كذلك؟

حاولتُ الهرب وأنا أسمع كلماته:

- فقط لو كنتُ هناك لتمكَّنت من حمايتها.

توجَّهت نحو الضيعة القريبة التي رأيت علاماتها الأولى وأنا أحاول اختراق طريقي المسدود، سأطرق الباب بكلّ قوّة وأصرخ

وأتوسّل لقاطني الضيعة كي يفتحوا الباب ويسمحوا لي بالدخول وإغلاق الباب لمَنع الأشباح التي تُطاردني من اللحاق بي.

لا وجودَ لكائنٍ حيّ في الضيعة، ولا حتى ديك لتبديد كلّ هذه الكوابيس.

سمعتُ صوت النباح بعد ذلك، نباح سخيف لكلبٍ صغير لا علاقة له بما يفترض أن يكون حارساً لضيعة واسعة. ثم شعّ النور القادم من مكانٍ ما وظهرت كتلة الفرو كالسهم لتقف أمام قدميّ الملطّختين بالوحل.

- أرنولد؟ صرختُ متسائلاً.

كان الشي تزو يرتدي سترة بلونٍ بنيّ فاتح مخطَّطَة بالأحمر، السترة نفسها التي كان يرتديها صباح اليوم الذي انتحرت فيه ماغالي فيرون.

- أرنولد، كرّرت.

رفض الكلب التعرّف على اسمه. كان يتطلّع إليّ بنظراتٍ متحدّية، مكشِّراً عن أنيابه كردّ فعلٍ على أيّ حركة منّي.

وجَّهتُ نظرات يائسة نحو النوافذ المغلقة في منزل الضيعة باحثاً عن مساعدة لن تأتي أبداً، ثم قرّرتُ المواصلة، مادّاً يدي الملطخة بالطين نحو الكلب الذي انقبضَت عضلاته وفتَح فمه مستعدّاً لعضّ معصمي.

- كفى! صرخَ صوت في الجانب الآخر من الممرّ.

تردَّد الكلب للحظة، قبل أن يتراجع عن عزمه متوجّهاً نحو مصدر الصوت، ليقفز بعد ثانيتين نحو ذراعَي صاحبته. تخلَّت دنيز جوبان عن العكاز في يدها اليمنى لتحتضنَه.

التقت نظراتي بنظرات العجوز الصارمة، فدرتُ حول عقبي مرة

أخرى، إذ لم يعُد أمامي سوى الهربِ عبر طريق القناة، فقد حاصَرَت الأشباح كلّ المنافذ الأخرى.

خيِّلَ إليّ أنّ رأسي انفجر آلاف المرات بعد انقطاع خيط الحماية الأخير. حتى ذراعي وساقي وأصابعي تخلّت عني، لقد تباطأت الدماء في رحلتها نحو دماغي، كمحرِّك يتحشرَج في البداية قبل توقّفه بشكلٍ تام.

يجب عليّ أن أقاومَ للحظاتٍ أخرى إضافية.

سأبتعد، سأبتعد، سأهرب من هذه الأشباح التي تلاحقُني.

ثم ظهر رجلان ببذلة زرقاء خلفي.

- لا تتحرّك يا سلاوي.

بيروز...

طبعاً... لقد أتى هو لإكمال جوقة الموتى-الأحياء الذين يطاردوني.

استدرتُ محاولاً الحفاظ على توازني بصعوبة بالغة.

عجزتُ عن مواجهة الضوء الساطع أمامي، لكنني تبيَّنتُ بين الظلّ والضوء خيال النقيب وهو يوجِّه مسدّسه نحوي. ما فعله مساعده نفسه المفتقِر كالعادة لاقتناعه بجدوى ما يحصل.

تراجَعتُ بثلاث خطوات، لم تكُن القناة بعيدة سوى ببضعةِ أمتار.

- توقف يا سلاوي، توقف. لقد وصلنا إلى نهاية السباق هذه المرة.

رفعتُ يدي بحركة ميكانيكية ثم تراجعتُ بمترٍ إضافي.

- لم ينتهِ حديثنا بعد يا سلاوي. هل تذكره؟ لقد طرحت عليك

سؤالاً قبل يومين. قبل أن تهشّم مجسّم نجمة عيد الميلاد على رأسي.

وجهت بصري ناحية اليمين، نحو أضواء إيسني.

تربط القناة بين الميناء والبحر، كبالوعة كبيرة مكشوفة نحو السماء.

- لآخر مرّة يا سلاوي، هل قمتَ باغتصاب وخنق مورغان أفريل وميرتي كامو قبل عشر سنوات؟

أغمضتُ عينيّ شاعراً بانهيارِ آخر حاجزٍ في ذهني، تتابَعت عشرات المشاهد، يدي المسيطرة على جسد امرأة تحاول التملّص منّي بهستيرية، قبل أن أخنق العنق الأبيض بوشاحٍ من الكشمير الأحمر، طويلاً، وبقوة، ليستكين الجسد أخيراً. ثم كرَّرت الفعل مرّة ومرتين أمام نظرات مونا الباكية.

تراجعتُ خطوة أخرى، وعندما صرختُ، طارت ثلاثة غربان نحو النوارس.

- نعم يا بيروز! لقد ربحت. لقد اغتصبتُ الفتيات الثلاث ثم قمتُ بخنقهن...

ثم أظلمت الدنيا أمام عينيّ بعد ارتمائي في الفراغ متوجّهاً بجسدي نحو مياه القناة.

III

حكم

روسني–سو–بوا، 3 أغسطس 2014،

من السيد جيرار كالميت، الوحدة الدركية المكلّفة بتحديد هوية ضحايا الكوارث (UGIVC)، مؤسسة البحث الجنائي التابعة للدرك الوطني (IRCGN).

إلى السيد الملازم بيرتراند دونابيو، الدرك الوطني، السرية الإقليمية لضاحية إتروتا، سين–ماريتيم.

سيادة الملازم،

أعود إليكم تبعاً لمراسلتي السابقة بتاريخ 22 يوليو 2014، المتعلّقة بالعثور على ثلاثة هياكل عظمية في شاطئ إيبور، سين–ماريتيم، يوم 12 يوليو 2014.

وكما هو متَّفق عليه، فقد قمنا بإجراء اختبارات معمَّقَة على مجموع العظام المتوفّرة، بخاصة ما يتعلّق ببصمتها الجينية.

وقد نجحنا في كشف غموض سبب الوفاة، وهو السبب المتطابق

فيما يخصّ المجهولين الثلاثة، الذين أطلقنا عليهم -كما تذكر- أسماء مؤقتة، هي على التوالي: ألبير، برنار وكلوفيس.

لقد تعرَّض ألبير وبرنار وكلوفيس للتسميم. إذ تحتوي عظام الثلاثة على آثارٍ لمادّة الموسكارين، السمّ المستخلَص من الأمانيت، وبنسبةٍ لا تدَع أيّ مجالٍ للشكّ في فَهم الدوافع الإجرامية للوفاة. تجدُر الإشارة هنا إلى أنّ الموسكارين مادّة سامة يصعب كشفها إذا ما تمَّت إضافتها إلى الطعام، وتسبِّب شللاً تامّاً للجهاز العصبي المركزي، ثم تباطؤاً حتمياً في معدَّل ضربات القلب.

أذكِّركم هنا بأن ألبير وبرنار وكلوفيس قد لقوا حتفهم خلال فترات زمنية متباعدة، ألبير صيف عام 2004؛ برنارد بين خريف 2004 وشتاء 2005؛ وكلوفيس سنة 2014، بين شهرَي فبراير ومارس. الاحتمال الأكثر ترجيحاً هو أنّ الثلاثة قد قُتلوا على يد شخص واحد، وبالطريقة نفسها، مع فارقٍ زمنيّ يمتد لعدّة سنوات. لكننا لا ننفي هنا وجود فرضية أخرى مفادها إقدام كلوفيس على تسميم ألبير وبرنار قبل وضعه حدّاً لحياته، أو حتى قيام ألبير بقتل برنار وتعرّضه هو الآخر للقتل على يد كلوفيس.

هكذا وصلنا في بحثنا إلى نقطةٍ يصعُب أو ربما يستحيل تجاوزها.

مسألة أخرى، قد تكون هي الغرض الرئيس من مراسلتنا هذه، هي التقاطع بين دي إن آي ألبير، برنار، كلوفيس، والوثيقة الوطنية الإلكترونية للبصمات الجينية، الذي لن يكشف هوية الأشخاص الثلاثة فحسب، بل سيُساعدنا على حلّ قضية قديمة، هي مقتل مورغان أفريل وميرتي كامو (أو ما يُعرف بقضية الوشاح الأحمر)، التي يدفعنا العثور على الهياكل العظمية الثلاثة في جرف شاطئ يبورت إلى التفكير فيها.

سأكون أكثر دقّة في كلامي وأقول بأنّ التقاطع بين البصمات الجينية لبرنار وكلوفيس والوثيقة الوطنية الإلكترونية للبصمات الجينية كان سلبياً. ما زالت هُويتهما مجهولة لدى المصالح الأمنية.

حتى البصمة الجينية لألبير غير متطابقة مع أيّ من الملفات المتوفرة لدى الوثيقة الوطنية الإلكترونية للبصمات الجينية، لكن دي إن آي المعنيّ بالأمر ليس مجهولاً إنْ صحَّ التعبير، بل سأضيف بلا مبالغة بأنه إحدى أكثر البصمات الجينية شهرة في إدارتنا، طوال السنوات العشر الماضية. الواقع أنّ دي إن آي ألبير يُطابِق من دون أدنى ذرّة شك دي إن آي آثار المنيّ الذي وُجِدَ على جثّتي مورغان أفريل وميرتي كامو. يقدَّر تاريخ وفاة ألبير بين شهرَي يونيو وسبتمبر 2004، ونعلم أنّ ميرتي قد تعرَّضَت للاغتصاب يوم 26 أغسطس 2004، نستنتج إذاً، وبيقينٍ لا يقبل الشكّ، أنّ ألبير قد لقِيَ حتفه أياماً أو ربما أسابيع قليلة بعد الجريمة الثانية. وهذا يفسِّر عجزنا عن الوصول إلى المغتصِب اعتماداً على بصمته الجينية، رغم الاختبارات الكثيرة التي أجريت للكشف عن دي إن آي أقارب الضحية وسكان المنطقة. لكن كلّ هذا لن يقودنا إلى معرفة هويته أو أسباب وفاته.

ومع ذلك، فقد قمتُ بإرسال كلّ هذه المعطيات إلى القاضي بول-هيغو لاغارد، الذي سيقدِر بمعرفته إن كانت هذه المعلومة كافية للدحض الكلي أو الجزئي للرواية المعلِنة عن الهوية الحقيقية لمرتكب جريمتَي القتل بحقّ الفتاتين، الذي تمّ التوصل إليه بشكلٍ رسمي يوم السبت 22 فبراير 2014.

لا أدري، سيادة الملازم، إن كانت العناصر الجديدة ستُساعدكم على تسليط الضوء أكثر على هذه القضية. يواصل رجالنا عملهم الدؤوب لفكّ شفرة هذا اللغز المحيِّر. ربما لم تقُل الهياكل العظمية لألبير وبرنار وكلوفيس كلّ شيء بعد، وقد باشَرنا نحن مجموعة من الاختبارات التكميلية للعيّنات المتوفرة. كما أؤكِّد لك بأننا جاهزون

لإجراء المزيد من البحوث والاختبارات التي قد ترونَ بأنها كفيلة بدفع التحقيق إلى الأمام.

في انتظار التوصّل إلى حلٍّ نهائيّ لهذه القضية الغامضة، تقبَّلوا مني، سيادة الملازم، أصدق عبارات الاحترام والتقدير.

جيرار كالميت، مدير UGIVC

37

الأمل في أن أستيقظ؟

تراقصت الأضواء أمام عيني، أضواء اصطناعية، تشبه نظيرتها المنبعثة من سمكة فلورية تسبَح في أعماق محيطٍ مظلم، نقطة صغيرة مشعّة، تضخّمت شيئاً فشيئاً، قبل أن تشغل مساحة رؤيتي بالكامل.

لم أعُد أرى سوى مربعٍ أبيض اللون.

يتعلّق الأمر بلوحة مدرسية من النوع الذي تتمّ الكتابة عليه بحبر قابلٍ للمسح أو أحرف مغناطيسية.

تمَّ تثبيت بطاقة حمراء أعلى اللوحة، وقد تمكَّنت من قراءة المكتوب.

كارمن أفريل، والدة مورغان أفريل، الرئيسة.

فريديريك سان-ميشيل، خطيب ميرتي كامو، نائب الرئيسة.

أوسيان أفريل، شقيقة مورغان أفريل، السكرتيرة.

جانين دوبوا، جدة ميرتي كامو، مساعدة السكرتيرة.

ألينا ماسون، الصديقة الحميمة لميرتي كامو، أمينة المال.

ظهرت كارمن أفريل أمامي، كفنانٍ يقفُ على خشبة المسرح بعد إزاحة الستار الأسود. فتحَت فمها، فدوّى صوتها في أعماقي، كما لو أنّ أفكارها تقطع حبل أفكاري.

- لم تكُن المسألة بتلك الصعوبة المتوقّعة يا سلاوي، أن تحرم أحدهم من قدرته على السيطرة على نفسه وتدفَعه إلى حافة الجنون. أن ترمي بكلّ اليقينيات إلى العدم. جمعية صغيرة تكفي للقيام بذلك، خمسة أشخاص على الأكثر، شرط تحلّيهم بالعزم والإصرار والتعاون لتحقيق الهدف نفسه، الهدف الجوهري الأسمى، **لن ننسى أبداً**.

تقدّمَت بخطوة إضافية، أو هكذا خيِّل إليّ وأنا أرى اكتساب وجهها لحجمٍ أكبر، كما يحصل عند اقتراب الممثّل من عدسة المصور. وازدادت نبرة صوتها حدّة، لتطرق جمجمتي بكلماتٍ متشنّجة بدا كما لو أنها تتلاطَم بين جانبَي رأسي.

- عندي خبَران جيّدان لك يا سلاوي، أنتَ لستَ مجنوناً، ولم تمُت. وعندي خبر سيئ أيضاً. نحن، أعضاء جمعية الخيط الأحمر، نتّهمك بارتكابِ جريمَتَي القتل بحقّ مورغان أفريل وميرتي كامو.

ذابَ خيال كارمن أفريل في الظلام، وبالطريقة المفاجئة نفسها، لتظهر دنيز، فلفتت انتباهي وقتها تلك الأحرف المغناطيسية الملوّنة الملتصقَة باللوحة البيضاء. ثلاثة عشر حرفاً بالضبط.

D.E.N.I.S.E J.O.U.B.A.I.N

ألقت دنيز نظرة عليّ، أو ناحيتي على الأقل، فقد كنتُ عاجزاً

عن الإتيان بحركة، أو حتى تأكيد وجودي هنا أمامها، أو الجزم بامتلاكي جسداً أصلاً.

بدا صوتها المرتجف مرعِباً وهي تقول:

- كما ترى يا بني، لستُ الوحيدة التي فقدَت ذاكرتها.

D.E.N.I.S.E J.O.U.B.A.I.N

امتدّت يداها المجعّدتان إلى اللوحة، وبحركةٍ بطيئة جداً، مُعيدة تحريك الأحرف المغناطيسية لتشكيل اسم جديد.

J.E.A.N.I.N.E D.U.B.O.I.S

قالت بالنبرة المرتجفة نفسها:

- أنت تعلم كلّ شيء الآن يا بني، أتمنّى بدوري الوصول إلى الحقيقة قبل وفاتي. الحقيقة الكاملة. الكلمات الأخيرة، النفس الأخير لحفيدتي. لا أعتقد بأنك ستحرمني من هذه الأمنية.

اختفَت فجأة، كما لو أنّ مُخرِجاً سينمائياً قام بحذف اللقطة خلال عملية المونتاج. ما زالت اللوحة البيضاء في مكانها، ولكن الحروف تغيّرت. ستة عشر حرفاً هذه المرة.

C.H.R.I.S.T.I.A.N L.E.M.E.D.E.F

ظهر العاطل المكتئب أمام اللوحة، وبالطريقة المفاجئة نفسها، كما لو أنّ الظلام لفظه هكذا، على حين غرّة.

ظهر شبح ابتسامة على شفتيه.

لم تتحركا، لكنني سمعتُ نبرة صوته المتحشرج تنفذ إلى رأسي، كما لو كان قادراً هو الآخر على قرصنة خلايا دماغي.

- بين رجل في الخمسين، كهل، وحيد، وآخر في الأربعين، يعيش قصة حبّ رائعة مع عاشقة في العشرين من عمرها، تفصلهما بضعة أشهر عن تكوين أسرة، أسرتهما، أكثر من مجرّد حرف واحد يا سلاوي، توجد حياة كاملة، حياة سرَقْتَها أنتَ منّي.

حرَّكَت أصابعه الطويلة الأحرف المغناطيسية التي تشكِّل اسمه.

C.H.R.I.S.T.I.A.N L.E.M.E.D.E.F

لتصنع اسماً آخر.

F.R.E.D S.A.I.N.T-M.I.C.H.E.L

- لوميديف، قال الصوت المكسور. كان عليّ اختراعه، أليس كذلك؟ أن تطلق اسم لوميديف على شخصٍ عاطل... كان ذلك مغرياً جداً، منطقياً جداً، محفوفاً بعدّة مخاطر أيضاً... لكنك صدَّقتَ الكذبة، حتى النهاية... رغم أنّ الحقيقة كانت هنا، أمام عينيك، عظيم!

قالها ثم اختفى بدوره.

لم أكُن سوى روحٍ نقيّة، هادئة، كما لو أني مقيَّد إلى حلم من قطن، عاجزاً، وقد حُكِم عليّ بمتابعة هذا الاستعراض أمام اللوحة البيضاء، دون أن أملك القدرة على تحريك رأسي أو رفع ذراعي،

هذا إن كنتُ أملكها أصلاً، أو أنها ضاعت، في مكانٍ ما بين ثنايا ذاكرتي المغتصَبَة.

اللوحة البيضاء نفسها.

حروف أخرى.

M.O.N.A S.A.L.I.N.A.S

ظهرت مونا من مكانٍ ما، جُحر فئران بلا شك.

نظرة خجولة، نبرة صوت ضعيفة، أقرب ما تكون إلى الهمس، وإن نجحت في النفاذ إلى أفكاري.

- شكراً جمال. لقد تعاطَفْتَ مع قصّتي المؤثرة، واعترفتَ لي بذلك. أتمنى الاستماع إلى قصّتكَ أنت، القصة الحقيقية يا جمال. لا أريد كذبة جديدة، لا أريد هروباً آخر.

M.O.N.A S.A.L.I.N.A.S

نزعت الحرفين الأول والأخير من الاسم العائلي، ثم قامَت بدمجهما في اسمها الشخصي...

A.L.I.N.A M.A.S.S.O.N

- لم نكذب يا جمال، كنت تملك كلّ الأدلة، كلّ الأسماء، كلّ الأحرف، كلّ المفاتيح، أمام عينيك. أن تضع كلّ شيء في مكانه الصحيح. لكنك لم ترَ شيئاً...

ثم اختَفَت بدورها.
لقد تخلّصت أخيراً من كلّ هذه الأشباح.

وَمْضَة جديدة.
اللوحة البيضاء.
ستّة أحرف.

A.R.N.O.L.D

كان الشي تزو نائماً على الأرض، تحت اللوحة البيضاء.
امتدّت يد مجهولة أمام ناظري لتغيير ترتيب ثلاثة أحرف.

R.O.N.A.L.D

فتح الكلب عيناً واحدة، ثم عادَ إلى نومه.
ظلام تام.

38

القصة الحقيقية؟

اهتزّ جسدي بعد استيقاظي مرة أخرى. ما زال ظلام الليل مهيمناً على المكان. خيّل إليّ لوهلة أنني لقيت حتفي غرقاً، وأن جثتي تتقاذفها التيارات المائية في أعماق المحيط، وإن بقيت محتفظاً بوعيي بمعجزة ما.

ثم لامَسَت يدي اليمنى هذا العمق الدافئ والرخو والمريح.

فراش...

كنت ممدّداً على السرير.

واصلتُ اكتشاف المكان ببطء، وقد بدا أنّ السرير مثبّت بدعامات خشبية. حاولتُ النهوض، لكن ذلك مستحيل، فقد أحاطَ قيدٌ بمعصم يدي اليسرى، معلّقاً بدوره إلى الجدار.

قمتُ بمدّ ذراعي لتفقّد المكان وسط الظلام، فاصطدَمَت يدي بسقفٍ خشبيّ فوقي بما يقلّ عن متر واحد.

يحيط بي الخشب من كلّ جانب.

تابوت؟

كانت الأخشاب متحرِّكة.

تابوتٌ داخل صندوق عربة الموتى؟

ارتعدت فرائصي بعدما أدركتُ بأنني مجرَّدٌ من كلّ ملابسي. إذا استثنيتُ ذلك الحلم الذي شهدَ مرور عدد من الأشباح أمامي، فإنّ آخر ما أتذكّره هو الماء المثلج في قناة إيسني البحرية. يبدو أنّ المنقذين الذين أخرجوني من الماء قد قاموا بانتزاع ساقي الاصطناعية، كما لو أنّ القيود لم تكُن كافية...

غيَّرتُ وضعيّتي، فجلستُ القرفصاء. لامسَت يدي قطعة قماشٍ سميكة ثم انزلَقت فوقها، قبل أن تُلامس أصابعي الزجاج البارد.

نافذة؟ ستارة؟

دفعتُ قطعة القماش فكان البريق الواهن كافياً لأفهم كلّ شيء.

المياه التي ترشّ الزجاج.

كنت محتَجَزاً في قمرة سفينة!

فيما بعد، في جوف الليل الذي أناره ضوء القمر، سمعت طرقات على الباب.

لم ينتظر الزائر دعوة للدخول، فقد ضغط على زرّ الإنارة ثم أغلَقَ الباب خلفه. كادَ الضوء المفاجئ يعمي بصري، لكنني تعرَّفتُ بسرعة على النقيب بيروز الذي يحمل قنينة كالفادوس وكأسين وورقة ملفوفة على شكلِ أنبوب، يحيط بها شريط أحمر.

- هذه هدية، قال بيروز بصوتٍ منخفض.

لم أحتج إلى تأكيدٍ منه حتى أفهم بأنّ زيارته الليلية سرّية. تطلَّع إليّ بصفاقة رغم عريي، ثم بدا عليه الاشمئزاز بعد رؤيته لساقي المعطوبة.

- أن ترتمي في القناة، يا لها من فكرة! اللعنة، لقد اضطررنا للغطس أيضاً حتى نُخرِجك منها. لم تكُن درجة حرارة المياه تتجاوز العشر درجات. ستعذرنا بعد اضطرارنا لنزع ثيابك، خشية انخفاض حرارة جسمك...

انكمشتُ وقد شعرتُ بالخجل من منظري.

- وجب الاعتراف، تابع بيروز، بأنّ جرعة الستيلنوكس[1] التي وضَعَتها ألينا في القهوة كانت قوية بعض الشيء.

- ألينا؟

- نعم... هل تذكُرها؟ إنها الجميلة ذات الشعر الأحمر التي لم تتردَّد في معاشرة معوّق مثلك! أعتقد بأنك لا تعرفها إلّا باسم مونا، أليس كذلك؟

مونا، ألينا...

تراقصت أشباح غراند كاريير أمام عيني مرة أخرى، ضبابية وغير مؤكّدة. اختلَطَت أجراس الكنيسة بنباحِ الشي تزو. غالباً بسبب جرعة الستيلنوكس في القهوة. حاولتُ التخلّص من كلّ هذه الهلوسات والتركيز على اللحظة الراهنة.

- أينَ أنا؟

- أعتقدُ بأنك علمتَ بوجودك على متن مركب. إنها سفينة **البارامي** الهولندية التي رمَّمها البروتونيون. إنها الخامسة فجراً، وقد غادرنا إيسني بعد انتشالك.

---

(1) الستيلنوكس: هو الاسم التجاري لمهدئ الزولبيديم المستخدم لعلاج الأرق، يحذّر الأطباء من وجود بعض الأعراض الجانبية كالإدمان والهلوسة. -المترجم-

صمتَ قليلاً، ثم وضع القنينة والكأسين على الطاولة الصغيرة بالقرب من السرير، ليشرح كلامه من دون أن أطلب منه ذلك:

- سنتّجه إلى سان-ماركوف! ربما علمتُ في الأيام القليلة الماضية بوجود هذا الأرخبيل اللعين، الجزر الوحيدة في المانش دو كونتوتين وصولاً إلى الحدود مع بلجيكا. اطمئن، فالرحلة لن تكون طويلة، سبعة كيلومترات تقريباً، لكننا خفَّفنا من سرعتنا حتى لا نصلَ قبل شروق الشمس.

بحثتُ عن غطاء لأتدثّر به، لكن من دون جدوى، فهتفت قائلاً:

- ماذا سنفعل في سان-ماركوف؟

صبّ بيروز شراب الكالفادوس في الكأسين بهدوء.

- هي أشبه ما تكون بالمحاكمة، جلسة استماع وتحقيق، ثم إصدار للحكم النهائي، لكنني أعتقد بأنهم سيسرِّعون من وتيرة هذه الإجراءات. يبقى هدفهم الأساسي إنهاء كلّ شيء بعد حركة مدّ وجَزر واحدة.

- مَن هم؟

نزع غطاء القنينة بيدٍ واحدة وهو يتأمّلني.

- لم تفهَم بعد؟ لقد قاموا بعرض شريط فيديو أمامَك لوضع النقط على الحروف، ووضعوا السماعات على أذنيك، لكن يبدو بأنك لم تكُن قد تخلَّصتَ من تأثير المخدّر. سأشرح لكَ بوضوح أكبر، لنقل بأنك في مواجهة مجموعة من الممثلين المنتمين إلى الفرقة نفسها، الخيط الأحمر، هل يذكِّركَ هذا بشيء ما؟ بعضهم قاموا بلعب أدوارهم، وآخرون تقمصوا شخصيات وهمية، لكنهم اتفقوا على هدف واحد: الإيقاع بك!

الإيقاع بي؟

توالت أحداث الأيام الثلاثة الأخيرة أمام عيني: الصدف، الحوادث غير المنطقية، الشهادات المتناقضة. . .

- توزيع جميل للأدوار، أليس كذلك؟ قال بيروز بإصرار. لعبَت كارمن وأوسيان دورهما الحقيقي، وهذا منطقي، ما دامت فرضية بحثكَ عنهما متوقّعة. اضطرّت ألينا للعب الدور الأصعب، دور مونا، الشابّة المنفتحة التي جاءت إلى إيبور، والمطالبة بحسب السيناريو بإغوائك وممارسة الحب معك إن اقتضى الأمر ذلك. . . أعترف لك بأنني أنا صاحب فكرة السيليس والحصى. مارتن دونان أستاذ الكيمياء الجزيئية تعرَّضَت فيلته في فوكوت للسرقة قبل سنة، فتدخَّلت للتحقيق في الأمر فجمعتنا علاقة صداقة، كما أبدى بعض الاهتمام بقضية مورغان أفريل، ولم يتوانَ عن تسليمي مفاتيح إقامته الثانوية لألقي عليها نظرة من وقت إلى آخر، وهذا ما منَحَنا مخبأ موثوقاً من دون الحاجة إلى أخذِ موافقة الباحث الذي لا يزور هذا المكان أبداً خلال فصل الشتاء.

لم تكُن مونا باحثة في سلك الدكتوراه.

لا وجود لمونا أصلاً. . .

لم تكن سوى تجسيد مركّبٍ من عدة قطع متناسقة، وقامت تلك الفتاة بتأدية دورها على أكمل وجه.

تابع بيروز اضطرابي بنظرات تملؤها السادية، ثم أكمل:

- لم تتطلّب الأدوار الثلاثة المتبقية القدر نفسه من الحميمية. ارتدى المسكين فريدريك سان-ميشيل، خطيب ميرتي كامو، ثوب الشاهد الأول، كريستيان لوميديف المكتئب. فيما لعبت جدّة ميرتي، مامي نينجا، دور الشاهدة الثانية، العجوز دنيز جوبان، وكلبها رونالد

بين ذراعيها، الكلب الذي اعتنت به بعد وفاة لويز وشارل كامو. لا أنكر بأننا وجدنا صعوبة في إقناع الممثل الأخير، جيلبير أفريل، شقيق كارمن، لكن العرض تطلّب وجود مساعِد لي. ويمكنني القول بأنّ تمثيل هذا الغبي لم يكُن مقنعاً.

ما إنْ فرغ من تعداد ممثّلي الفيلم حتى أجبته بلا تفكير، ومن دون حاجة مني إلى مراجعة ذلك الكمّ الكبير من الدلائل التي سمَحت لها بالمرور أمام عيني.

- اللعنة، أيّ سيرك هذا؟

قدَّمَ لي كأس الكالفادوس، فتشمَّمته بحذرٍ بالغ.

- قضَت جمعية الخيط الأحمر آلاف الساعات وهي تنقّب في هذه الفرضية، المجهول المزدوج، إلى أن توصلت إلى تحديد هوية شخصٍ واحدٍ وُجِد يوم السبت 5 يونيو 2004 في إيبور ويوم الخميس 26 أغسطس 2004 في إيسني-سور-مير. سنوات طويلة مرّت، جمعوا خلالها مئات الشهادات، وصولاً إلى سنة 2011 بالضبط، عندما ظهر اسم واحد فقط، اسمك أنت يا عزيزي! جمال سلاوي. حجزت غرفة في لاكايك ليلة 5 يونيو وقضيت يوماً في غرانكامب-ميزي، في المخيم الشاطئي، يوم 26 أغسطس. جمال، أنتَ مرتكب الجريمتين...

زفرتُ في ارتياح، شاعراً بأنّ ثقلاً كبيراً قد انزاح عن كاهلي.

كلّ هذا بسبب سوء تفاهم!

تراجعت في تلك اللحظة عن شرح التفاصيل لبيروز، لأقول بأنني لم أزُر إيبور أبداً قبل هذا الأسبوع، وبأنني ألغيتُ ذلك الحجز في أكواخ لاكايك بعدما اعتذرَت الفتاة التي كنت أنوي قضاء عطلة نهاية الأسبوع برفقتها عن مقابلتي، ما أجبَرَني على العودة عبر كليسي

غرانكامب من دون المرور عبر إيسني أو معرفة أيّ شيء عن مقتل ميرتي كامو.

- أنتم عصابة من المرضى! قلت بعصبية. وأنت يا بيروز، وافقتَ هكذا على المشاركة في هذه الحفلة التنكرية؟

أفرغ الضابط محتوى الكأس في جوفه مرة واحدة، ثم ابتسم قائلاً:

- لنقُل بأنّ كارمن أفريل هي صاحبة الفكرة. هي التي أقنعت الآخرين. ضَعْ نفسكَ مكانهم ولو للحظة واحدة. أنت المتّهم المحتمل الوحيد، لكن لا وجود لدلائل تُدينك باستثناء وجودك في المكانين. هذا ليس كافياً -بطبيعة الحال- لإقناع القاضي لاغارد بالتحرّك بعد مرور سنوات طويلة كهذه. صدِّقني، حاولتُ ولم أفلح. الأخطر من ذلك هو اقتراب تاريخ مرور عشر سنوات من دون جديد يُذكَر في القضية، ما يعني إغلاقها بشكلٍ رسمي...

ضع نفسك مكانهم...

بيروز ليس شريكاً لهم. تملّكني انطباع قويّ بأنّ النقيب لا يُشارك أعضاء جمعية الخيط الأحمر القناعات نفسها.

قلتُ بإصرار:

- لم تُجِبْني يا بيروز، منذ متى كان الدرك الوطني يشارك في مثل هذا الهذيان للإيقاع بمشتبهٍ به؟

لامسَت شفَتاه آخر قطرة من الشراب.

- لم يكن ذلك شريراً في بداية الأمر يا جمال. اقتصرَ الأمر على متابعة قدومكَ إلى إيبور ووضعكَ في الأجواء، ثم دفعكَ إلى استرجاع بعض الذكريات. كان من المفروض أن تستغرق التمثيلية

يوماً واحداً فقط، وبهدفين رئيسين من الزيارتين الأولى والثانية لسَرِيَّة الدرك، الحصول على بصمتك الجينية في الزيارة الأولى، المنيّ، الدم، الأظافر، وخصلة الشعر. وإلقاء القبض عليك في الزيارة الثانية ودفعك إلى الاعتراف بارتكابك للجريمتين، ليتوقف كلّ شيء بعدها. اعترافات وأدلّة وراثية! لكننا لم نحسب حساباً -أيّها الحقير- لتحطيمك مجسَّم نجمة عيد الميلاد ثم هروبك بعد ذلك. ابتداء من تلك اللحظة اعتمَدنا على الارتجال للمحافظة على تفوّقنا، وهو ما يعني بعبارة أخرى أوضح، دفعكَ إلى الجنون.

كان ينتظر منّي اعتذاراً مناسباً على تحطيمي لمجسَّمه التافه، لكنني لم أفعل. وضعتُ الكأس على الطاولة الصغيرة.

- اشرَب، قال بلهجة ناصحة. درجة حرارتك منخفضة، وقد تموت بسبب ذلك.

- لا بأس، سأبقى على قيد الحياة! بما أنّكم حصلتم على المنيّ وخصلة الشعر والبقية، فأمامكم الوقت الكافي لمقارنة بصمتي الجينية ببصمة القاتل ذي الوشاح الأحمر، أليس كذلك؟ (بذلتُ كلّ ما في وسعي لإضافة بعض السخرية إلى نبرة صوتي). أعتقد بأنكم ستعلنون عن وجود تطابقٍ تامّ بين البصمتين. ضربة موفَّقة! سيكون العكس في منتهى الغباء، أليس كذلك؟ كل هذه المجهودات من أجل لا شيء.

راقبني بيروز باستمتاع.

- أنت محقّ، على الأقل في هذه النقطة، أنا أملك نتيجة التحليل...

قالها وهو يهزّ قطعة الورق الملفوفة بشريط أحمر أمامي.

- تحتوي هذه الورقة على الدليل القاطع. واحدة من اثنتين، إمّا تصريحٌ بمغادرتك للمكان، أو ذهاب مباشر إلى السجن المؤبد... لكننا سننتظر قليلاً قبل الحصول على الإجابة.

تملّكني الشعور نفسه الذي راودني قبل قليل. بيروز غير مقتنع بفرضية ارتكابي للجريمتين، أو أنه يحاول ملاعبتي. لعبة القط والفأر.

صبَّ لنفسه كأساً من الكالفادوس.

- سأجيب في البداية عن سؤالك الأول، لماذا وافَقَ رجل أمنٍ مثلي على المشاركة في هذه الحفلة التنكرية، وصولاً إلى استدعائك إلى مقرّ سَرية الدرك الوطني في فيكامب من دون علم زملائي بالسبب الحقيقي لقدومك؟ سأقول يا سلاوي بأنني سأتقاعد بعد ثلاثة أشهر ما يعني عدم خشيتي من أيّ توبيخ أو مساءلة من قبل رؤسائي، بل إنني كنت مستمتعاً تقريباً بما يجري. كما أنني أعمل على قضية الجريمتين منذ عشر سنوات، ووجب الاعتراف بأنه لولا فكرة كارمن التي هدفت إلى إخضاعك لضغطٍ يكفي لدفعك إلى الاستسلام، فأنا لم أكُن أملك أيّ دليل كافٍ لدفع لاغارد إلى إعادة فتح الملف بشكل رسمي.

ضممتُ قبضتي بغضب شديد.

- هراء! لو سألتموني لما رفضتُ الإجابة عن تساؤلاتكم! أنا لم أغتصب الفتاتين! كنتُ سأسلّمكُم عيّنة من دمي وكان كلّ شيء سينتهي بسرعة وسهولة من دون الحاجة إلى كلّ هذه التفاهات. أضِفْ إلى ذلك أنّ الحصول على اعترافات بهذه الأساليب العنيفة لن يكون ذا قيمة تُذكر بالنسبة إلى أيّ قاضي تحقيق.

حدَجَني بنظراتٍ طويلة، كما لو أنّ سرعة بديهتي قد أدهَشَته.

- لن يكون ذا قيمة قانونية، معكَ حق. الواقع أنني وافقتُ على المشاركة في تمثيلية كارمن أفريل السخيفة لسبب آخر. سبب لا يعلمه أحد سواي. (رفع كأسه) ولكن، كما هو الشأن بالنسبة إلى نتائج الدي إن آي، أنتَ مطالَبٌ بالقليل من الصبر، حتى أشرَح لكَ كلّ شيء. هيا، في صحَّتكَ!

مكتبة
t.me/t_pdf

39

توزيع جميل للأدوار، أليس كذلك؟

أفرغَ كأساً من الكالفا في جوفه، ففعلتُ الشيء نفسه من دون تفكير. ألهَبَ الشراب الرديء حلقي فمسحتُ القطرات الباردة التي سالت على جانب فمي ثم قلت بصوتٍ حاولتُ أن أجعله مرتفعاً.

- خلاصة القول يا بيروز أنكم قمتُم بوضعي تحت سيطرتكم، راقبتني مونا ووزّعت الأظرفة البنيّة هنا وهناك، الأظرفة التي تفصح -بجرعات صغيرة متتالية- تفاصيل قضية أفريل-كامو. كما لعب معي فريديك سان-ميشيل والجدة نينجا لعبة الغميضة لدَفعي إلى الشكّ في كلّ شيء. قمتُم باختراع شخصية أطلقتُم عليها اسم ماغالي فيرون، واختلقتُم هُوية على الإنترنت ليكون التشابه مع مورغان أفريل مخيفاً، بما يدفعني إلى التفكير في مَزْجي بين الفتاتين. ولكن...

فجأة تشنَّجَت يدي المُمسِكة بالكأس الفارغة، بعدما قفزَت إلى ذهني صورة الفتاة بوجهها المتورّم والوشاح الأحمر الملفوف حول عنقها، هناك في شاطئ إيبور.

- ولكن، اللعنة يا بيروز، مَن التي ارتمت في الفراغ قبل ثلاثة أيام؟ مَن التي لقيَت حتفها صباح ذلك اليوم؟

- لا أحد يا سلاوي.

- اللعنة، هل ستعتبرني غبياً مرّة أخرى؟ لقد كنتُ هناك! لقد سقطَت أمام عيني.

وضَعَ بيروز كأسه بهدوء.

- هل شاهدتَ فيلم **فيرتيغو** لألفريد هيتشكوك؟

حرَّكتُ رأسي من دون أن أجيب عن سؤاله.

- **فيرتيغو**، هي قصّة محقّقٍ خاصّ تتمّ الاستعانة بخدماته لمراقبة زوجة أحد أصدقائه، التي تملك بعض الميول الانتحارية، وبالفعل، تضع حداً لحياتها أمامه بعد ارتمائها من أعلى قمة برج، هذا ما كان يعتقده على الأقل. الواقع أنها كانت حيلة خطَّط لها الزوج، وتمَّ رمي دمية مكان الزوجة، ولم يقَع الاختيار على هذا المحقِّق الخاص إلّا لسببٍ واحد: معاناته من الدوخة والخوف من الأماكن المرتفعة، ما يجعل قدرته على التأكّد من ارتماء الزوجة الجميلة في الفراغ محلّ شكّ كبير...

- وما علاقتي أنا بكلّ هذا؟

- ساقك الاصطناعية أيها الأحمق! ستمنعك من الاقتراب كثيراً من حافة المنحدر لمتابعة تحطّم جسد ماغالي فيرون، بخاصة عندما يتعلّق الأمر بصباحٍ باردٍ وبساطٍ من العشب المتجمِّد. يمكن القول إنّ فكرة كارمن قد وُلِدَت هكذا، من خلال الربط بين عدة تفاصيل، منحدر إيبور وإعاقتك...

- لقد رأيتها وهي ترتمي في الفراغ، وجثّتها المسجّاة فوق حصى الشاطئ بعد ذلك...

- بعد ذلك... كُن أكثَرَ دقة يا سلاوي. سبع وأربعون ثانية

بالضبط! وقتٌ كافٍ للركض نحو الشاطئ عبر شارع جان هيلي والنزول عبر درجات سلم الكازينو ثم الوصول إلى حاجز الأمواج. هي حسابات دقيقة قمنا بالتأكّد منها بعد تكرارها عشرات المرات. وهكذا، بمجرّد وصولك، وجدت أمامك شاهدَين لا يمكنكَ الشكّ في مصداقيتهما، وهما يؤكّدان رؤيتهما لجسد ماغالي وهو يصطدم بحصى الشاطئ.

تأمّلتُ بيروز عاجزاً عن فهم المغزى من كلامه. كان يتصبَّب عرقاً وقد بدا لي أنه لم يكُن مرتاحاً، وأنه يتردَّد في صبّ كأس أخرى لنفسه.

- على افتراض عدم بلوغي مرحلة الجنون التام، فأنا أعتقد بأنّ أوسيان أفريل هي التي لعبت دور ماغالي فيرون، لكنني لم أفهم تفصيلاً معيّناً حتى الآن، هو تفصيل واحد تافه. كيف وصلت أوسيان إلى الشاطئ بكلّ هدوء؟ هل نبَتَت لها أجنحة أم ماذا؟

- أوسيان فتاة لا مثيل لها! جميلة للغاية، رياضية، ومليئة بالعزيمة والإصرار. الإصرار على الانتقام لشقيقتها التوأم. فبمجرّد الاتفاق على تفاصيل الخطة قبل عام واحد تقريباً، بدأت تدريباتها استعداداً لليوم الموعود.

شعرت بحرارة غريبة تجتاح بطني بعد سماعي لما يقوله عن مميِّزات أوسيان. فكرت لوهلة بأنها النموذج الأمثل لفتاة أحلامي: الملاك القادر على الطيران.

- اللعنة، ما الذي تقصده بالتدريبات؟

- القفز القاعدي، يضمّ اتحاد الرياضة بضع مئات من الممارسين في فرنسا، وبضع آلاف حول العالم. باختصار شديد: القفز القاعدي رياضة تعتمد على القيام بقفزات قصيرة من نقطة ثابتة

كحافة منحدر أو سطح عمارة أو حتى جرس كنيسة. ألا يمارسون هذه الرياضة في تلك الضواحي التي تقطن بها؟

لم أجِبْهُ، منتظراً إتمامه لشرحه.

- إن كنت راغباً في فَهْم كلّ شيء يا سلاوي، سأقول بأنّ هذه القفزات تتطلّب علواً يتجاوز خمسين متراً على الأقل. يفوق ارتفاع منحدرات إيبور ما يقارب المئة وعشرين متراً، ما يعني أنّ أوسيان لم تكُن لتخشى شيئاً، وإن لم تكُن ممارِسَة محترفة لهذه الرياضة.

- لقد تابعتها ببصري وهي ترتمي في الفراغ. كرَّرتُ مرة أخرى. الوشاح الأحمر في يدها وفستانها ممزّق...

- هذه أبرز مميزات القفز القاعدي. تعتمد الرياضة على مظلة باراشوت دائرية صغيرة مطوية داخل محفظة مغلقة بواسطة فيلكرو. يطلقون عليها أيضاً اسم باراشوت حجم الجيب. داخل محفظة ظهر لا يتجاوز سمكها عشرة سنتيمترات، ما يجعلها غير مرئية تقريباً تحت سترة أو معطف.

- أو حتى فستان ممزق؟ أضفتُ بصوتٍ مرتجِف.

- تماماً يا بنيّ! ما اعتقدتَ أنتَ أنه فستان قامَ المغتصب بتمزيقه هو ثوب استغرقت منّا خياطته ساعات طويلة. كان المطلوب هو حياكة فستان مثير يمكنه إخفاء حزام المظلة المحيط بوسطها وفخذيها وكتفيها، بالإضافة إلى حقيبة الظهر الصغيرة بطبيعة الحال، والتي ستتحرَّر بعد قفزة أوسيان، الشابة التي أعترف بأنها ممثلة موهوبة جداً... وتملك كلّ المقوّمات القادرة على تحويل انتباهك عن تفاصيل كهذه، أليس كذلك؟

واصلتُ صمتي، عاجزاً عن تصديقه وغير قادرٍ على الإقرار بحقيقةٍ مخيفة كهذه.

لقد تأكّدتُ من هذا الكلام فيما بعد إثر مراجعتي لمئات المقاطع المصوّرة على موقع اليوتيوب، وقضيتُ ليلة كاملة مبهوراً وأنا أتابع هؤلاء المجانين في جميع أنحاء العالم، المستمتعين بالقفز نحو الفراغ انطلاقاً من أماكن قد لا يتصوّرها عقل، كاتدرائيات وجسور وأبراج استقبال. كما بحثت في الشبكة العنكبوتية عن مواقع مهتمة بالمعدات المستعمَلَة في هذه الرياضة وفهمتُ بأنّ بيروز لم يُجانِب الصواب في كلامه. يمكن شراء حقيبة الظهر الصغيرة المخصصة لمظلة الباراشوت هذه عبر المتاجر الإلكترونية، ولا يتعدّى حجمها حجم حقيبة يد صغيرة.

- يستغرق السقوط أقل من أربع ثوان، واصلَ بيروز كلامه. ربما انتبهتَ إلى وجود عشرات التجويفات في قاعدة المنحدر، هي كهوف متفاوتة الحجم، لكنها تكفي لدخول أحد ما إليها، حتى لو تعلق الأمر بامرأة قوية مثل كارمن! سبع وأربعون ثانية مدّة كانت أكثر من كافية لتقوم بوضع ماكياج بلون الدم على وجه أوسيان وتختفي في أقرب كهف ومعها حقيبة مظلّة الباراشوت.

تذكَّرت ركضي اليائس باتجاه الشاطئ ووصولي إلى موقع السقوط قبل كريستيان لوميديف ودنيز جوبان وعثوري على الجسد الممدّد.

- قامت أوسيان بتمثيل دور الميتة؟ اللعنة، كيف احتملت ذلك طوال تلك المدّة؟ لقد استغرق وصولكم بسيارة الدرك أكثر من عشر دقائق.

فشل بيروز في المقاومة أكثر من ذلك، فصبّ لنفسه كأساً أخرى من الشراب.

- لا تنسَ يا سلاوي بأنّ البرد كان قارساً ذلك الصباح، هل

تتذكّر أوّل ردّ فعلٍ قامت بها جانين، أو مَن اعتقدتَ أنتَ بأنها دنيز المجنونة؟

تذكّرتُ ردّ فعلها بسرعة. كان ذلك منطقياً. كيف بلغ بي الغباء مبلغاً كهذا؟

قال بيروز بنبرة ظافرة:

- لقد طلبَت سترتك لتقوم بتغطية وجه وصدر أوسيان! وهو ما سمحَ لها بالتنفس بشكلٍ طبيعي في الوقت الذي كاد فيه القلق أن يقتلكَ أنت!

لامسَت شفتاه الكأس ببطء كما لو كان يتعمَّد إطالة نشوته بمذاقِ الشراب.

- لكننا لم نحسب أيّ حساب لتفصيل جانبي، ويتعلَّق الأمر برميكَ للوشاح الأحمر -الذي قمنا بتثبيته في مكانه بعناية- نحو أوسيان. فارتجلنا ما وقع بعد ذلك. قفزت أوسيان ففكرت كارمن في لفّ الوشاح حول عنق ابنتها، بما يمنح التمثيلية بعض البهارات الإضافية، وهو ما نجح في خلط كلّ أوراقك، أليس كذلك؟

- أيها الحقراء!

ضحكَ بيروز.

- كم أنا سعيد بردّ فعلك!

احتسى شرابه ببطء من دون أن يجسر على إفراغه في جوفه مرة واحدة، فيما ركَّزتُ بصري على الورقة الملفوفة بعناية.

بصمَتي الجينية بعد مقارنتها ببصمة القاتل مرتكب الجريمتين.

الدليل القاطع على براءتي، وبأنّ كلّ هذا الهذيان كان من أجل لا شيء، إلّا إذا قام بيروز بالتلاعب بالنتائج، كما فَعَلَ مع دلائل أخرى.

- لقد بذلتُم مجهوداً كبيراً من أجلِ لا شيء، أجبته بنبرةٍ متفاخرة. مع احترامي لأحزان أولئك الحقراء في جمعية الخيط الأحمر، مع إشارة خاصة إلى تلك العاهرة المدعوّة مونا أو ألينا، سمِّها ما شئت، فقد راهنتم على الحصان الخاطئ، يؤسفني أن أخبِرُكم بأنني لستُ القاتل، هل ستقوم بإيصال الرسالة؟

قمت بمدّ يدي، كإشارة إلى بيروز لتحريرها من القيد الذي يحيط بمعصمي.

- أعتقد بأنك لم تفهم كلامي جيداً يا سلاوي، أن تكون أنت المغتصب أم لا، هذا لا يهمّهم في شيء، هم يبحثون فقط عن متَّهَم!

اعترت جسدي العاري رعشة قوية، من أعلى ظهري إلى ركبتي المقطوعة.

- اللعنة، ما هي خطوتهم المجنونة القادمة؟

- إجبارَك على الاعتراف ثم تنفيذ حكم الإعدام بحقّك. هم ينتظرون هذه اللحظة منذ عشر سنوات كاملة. عشر سنوات وكارمن تحلم بتمزيق القاتل الذي اختطف منها ابنتها الحبيبة. عشر سنوات وهي تشعُر بآلام ابنتها أوسيان كطعنة في قلبها، عشر سنوات وفريدريك سان-ميشيل ينتظر هذه اللحظة كطنجرة ضغط قد تنفجر في أيّ وقت، عشر سنوات وهو ينتظر ضرب معتقدات المسيحي الطيّب عرض الحائط ليخنق قاتل خطيبته بيديه العاريتين.

- أنا بريء يا بيروز!

قرَّبَ كأسه من كأسي، يريد ضربهما كما لو كان سيشرب نخباً! لم أصدِر أيّ ردّ فعل، فيما شرب هو ما تبقى من خمر في كأسه.

- أعلَم ذلك، قالها أخيراً.

شعرتُ بما يشبه التيار الكهربائي يسري في كلّ شبرٍ من جسدي.

هو يعلم ذلك؟

ما الذي يعرفه؟

بأنني لستُ القاتل؟

سحبَ نقيب الدرك الشريط المحيط بالورقة ببطء شديد، ثم سلَّمني إياها.

- هذه هديّتي لك يا سلاوي. لم يكُن ليُحزنني أن تكون أنت المغتصب. عربي مجنون بساقٍ واحدة، هذا سيجعل الأمور أكثر بساطة، لكنني مجبَر على الاعتراف بسُلطَة المنطق، لا علاقة لبصمتك الجينية ببصمة المغتصب. لستَ أنت القاتل يا عزيزي.

ألقيتُ نظرة على الورقة بحماسٍ بالغ، كانت تحتوي على متتالية لا متناهية من الحروف المشابهة لتلك التي وجدتها في ملف مورغان أفريل وماغالي فيرون. لا مصلحة لبيروز في الكذب عليّ هذه المرة.

أطلقتُ زفرة ارتياح، وغابَت نظراتي خارج زجاج النافذة، نحو الأمواج والليل الشاحب.

- منذ متى وأنت تعلم بهذه الحقيقة؟

- بعد ظهر اليوم، حوالي الساعة الخامسة مساء...

انفجرتُ في وجهه قائلاً:

- وما الحاجة إلى هذا السيرك إذاً ما دمتَ تملك دليل براءتي؟ ماذا عن إطلاق النار السخيف بالقرب من محطة القطار القديمة؟ والتمثيلية السخيفة في غراند كارير إيسني؟ ولماذا هذه الرحلة البحرية المتوجِّهة إلى سان-ماركوف؟

أخذ بيروز الورقة التي تحتوي على تحليل الدي إن آي ثم أعاد لفّها من جديد.

- لا تتسرّع يا سلاوي، كنْ صبوراً. قوات الأمن في صفّك ومتأكِّدَة من براءتك وتحميك. لا تخَفْ.

أشرتُ إلى معصمي المقيّد.

- فُكّ قيدي إذاً. . .

- قلتُ لكَ اهدأ، سأكون صريحاً أكثر وأقول: نتيجة التحاليل لم تفاجئني، لكنني لن أصرِّحَ بذلك أبداً أمام كارمن أفريل، فهي تملك القدرة على انتزاع عينيّ من محجريهما، لم أصدِّق أبداً نظرية القاتل المزدوج الغامض، كما لم أصدِّق أن احتمال وجودك في إيبور وإيسني على السواء سيكون كافياً لاعتباركَ متّهماً رئيساً. لنقُلْ بأنّ اشتغالي الطويل على هذه القضية مكّنَني من الاشتغال على فرضية أخرى، فرضية شخصية أكثر، إنْ صحّ التعبير. . . لكنها أكثر تعقيداً.

- هيّا، قُلْ ما لديك، ما زال أمامنا متّسَع من الوقت في هذه الليلة الطويلة.

- وسيكون أمامنا متّسَع من الوقت مع المدّ البحري صباح الغد، سترى. باختصار شديد، عندما عرضت عليّ كارمن أفريل فكرتها المجنونة حول الإيقاع بكَ ضحية تمثيلية يشارك فيها كلّ أعضاء جمعية الخيط الأحمر، قمتُ بانتهاز الفرصة.

- لا تغيِّر دفّة الحديث يا بيروز.

سعَلَ النقيب، لم يكُن مرتاحاً تماماً.

- لم تفهم بعد؟ سأوضح أكثر، لقد استخدمتكَ كطعم! لقد سايرتُهُم وقمتُ بتحويل أنظارهم. لأنني. . .

سعَلَ مرة أخرى، فتذكَّرتُ محتوى الأظرِفَة البنيّة وتقدّم التحقيق حول القضيتين، وشكوك مونا أو ألينا. كانت ميرتي كامو تعرف مغتصبها، هي ومورغان أفريل كانتا ضحيتين لشخصٍ قام بمغازَلَتِهِما، كانتا على موعدٍ معه. . .

رفعتُ صوتي.

- لأنك توصلت إلى الهوية الحقيقية للقاتل؟

أشارَ بيده لأخفضَ صوتي، فواصلتُ حديثي بنبرةٍ أقلّ حدّة:

- هل أعرفه؟ لقد راجعَت الشرطة كلّ البصمات الجينية لأقارب مورغان أفريل وميرتي كامو. يستحيل أن يكون المغتصب واحداً من هؤلاء!

طرحتُ سؤالاً آخر بعد برهة من الصمت:

- وما علاقة معضلة السجينين بكلّ هذا العبث؟

أجابني بيروز بابتسامة غامضة.

- ستفهم كلّ شيء بعد ساعات قليلة، كلّ شيء مخطَّط له، كلّ شيء في مكانه، ثِقْ بي. لن أطلبَ منكَ سوى خدمةٍ واحدة: العَبْ لعبتهم! لقد تلاعبوا بكَ بما يكفي طوال الأيام الماضية، ألن تكون قادراً على التلاعب بهم لساعات قليلة؟ لا تحدِّثهم عن حوارنا هذا صباح الغد، لا أحدَ منهم على علمٍ بالحقيقة. ستبقى براءتك طيّ الكتمان لساعات أخرى إضافية، فهذه هي الوسيلة الوحيدة لدفع المجرم الحقيقي إلى الوقوع في الفخ.

- قد تعرِّضني خطتك الغبية لخطرٍ حقيقي.

فَتَحَ زجاجة الكالفا ليصبّ لنفسه كأساً رابعة.

- في صحّتك يا سلاوي، سينتهي كلّ شيء بعد ساعات قليلة، ستكون أبيض كالثلج، وستمارس الحب مع ألينا كما تريد.

قرَّبَ كأسَ الشراب منّي لكنني لم أتحرَّك قيد أنملة، فهزّ كتفيه بلا مبالاة.

- لقد وقعَت في غرامكَ يا عزيزي، كلّما قابَلَتْكَ إلّا وضعف يقينها من ارتكابك للجريمتين. اسمَع نصيحتي يا سلاوي، يمكنك اعتبارها -إلى جانبي طبعاً- حليفتك الوحيدة على ظهر هذا المركب.

مونا؟

حليفتي الوحيدة؟

لم يكُن يعتريني سوى شعورٍ هائلٍ بالغضب والكراهية تجاه هذه الفأرة المخادعة.

وَهم، خيانة، خيبة أمل.

حتى أوفيلي منَحَتها نقطة 21 على 20 مع هذه الملاحظة:

لا تتركها، هذه هي فتاة أحلامك.

فتاة أحلامي؟

حليفتي الوحيدة؟

لم أكُن أدري إلى أيّ مدى كان بيروز ومعه أوفيلي مخطئين في كلامهما.

عندما غادر بيروز القُمرَة ومعه الورقة وزجاجة الخمر والكأسان، مترنّحاً بعض الشيء، شعرتُ بحرارة قوية تغلّفني وتكادُ تخنقني، كما لو أنني داخل حمّام ساونا. لا أدري لماذا تذكَّرت اليوم الذي دخَّنتُ فيه أول لفافة، وكان مساء يوم سبت، في مدرسة لويز-ميشيل، فشعرتُ بأنني أحلّق في السماء.

كنتُ خفيفَ الروح، أنا بريء، والدليل على براءتي بحوزة رجال الشرطة.

لا ينتظرني سوى توديعِ جيشِ الأغبياء الذي أوشَكَ على دفعي إلى الجنون.

باستثناء أوسيان... ربما...

40

العَبْ لعبتهم؟

أيقظتني أصوات طيور الغاق والنوارس، كما لو أن آلاف الطيور البحرية قد اجتمعت في إحدى وسائل التواصل الاجتماعي استعداداً لاستقبال مركب بارامي القادم إلى سان-ماركوف. طلع الفجر بالكاد، ركّزت الشمس الخجولة أشعتها الشبيهة بعيون حمراء على وسط الكوة، عيون مُحاطة بهالة من الدموع الزبدية.

ارتجَّت الجدران الخشبية فجأة. صرخات رجالٍ هذه المرة، فأدركتُ بأنهم يحاولون ربط مركب بارامي. انفتحَ باب القمرة في اللحظة الموالية، فظهرَت كارمن أفريل بحجمها الضخم المثير للانتباه. كانت ترتدي لباساً مشمعاً بنفسجي اللون.

- لقد حان الوقت! صرخَت قائلة.

تفحَّصَت جسدي العاري بتقزُّز، ثم تأمَّلَت ركبتي اليسرى طويلاً. هي تنظر بعين الازدراء لوحشٍ أو مخلوقٍ معوّق ومنحرف. نادرة هي المرات التي ميّزتُ فيها مزيجاً من الافتتان والكراهية في أعينِ مَن ينتبهون لإعاقتي الجسدية.

قاتل ابنتها الحبيبة، أو مَن تعتقد أنه هو. . .

تمدَّدت على الفراش محرِّكاً فخذي بما يشبه التفاخر.

أنا بريء! رجال الشرطة ليسوا في صفّها هي، بل في صفي أنا.

- قُمْ بارتداء هذا، قالت كارمن بصوتٍ يشبه الخوار وهي ترمي كومة من الملابس على فراشي.

وبحركةٍ سريعة وجَّهَت نحوي قضيباً حديدياً كانت تخفيه خلف ظهرها، شبيه بالقضبان التي يحركون بها جمرات المدفأة، وإنْ كان أكثر طولاً ومتانة، بطول مترٍ واحد وقُطر سنتيمترين تقريباً.

تراجعتُ إلى أقصى نقطة في الفراش بحركةٍ غريزية، أنا بريء، لكنني مقيَّد وعار وبلا حماية، في مواجهة مجنونة هيَّأت انتقامها طوال السنوات العشر الماضية. أمسكَت كارمن أفريل بالقضيب الحديدي بحركة متوازنة، ثم قرَّبَته من وجهي.

توقَّف الزمن من حولنا، بلا نهاية.

تراخت أصابعها في النهاية لتسمح للقضيب بالسقوط على الأرض، فتردَّد الصدى في أرجاء القُمرة.

- يمكنكَ استخدامه كعكّاز.

لم تُضِفْ كلمة أخرى وهي تضع مفتاحاً صغيراً على الطاولة المجاورة، مفتاح قيودي بلا شكّ، ثم غادرت القمرة.

بمجرّد ظهوري على ظهر مركب بارامي وأنا أرتدي بذلة النيوبرين التي سلَّمَتها لي كارمن حتى اصطدمتُ بفريدريك سان-ميشيل الذي احتفظ بصمته وهو ينزل إلى الجزء السفلي من المركب. لم أكُن أملك الوقت الكافي لشتمهم والقول بأنه من المذلّ بالنسبة

لي أن أصعد درجات السلم وأنا أعرج، ثم أحاول الحفاظ على توازني على هذا المركب، وبساقٍ واحدة، مستعيناً فقط بقضيبِ حديد.

عاد فريدريك سان-ميشيل إلى ظهر المركب حاملاً القيود في يده، ثم أشارَ إليّ حتى أسلِّمه معصمي.

سان-ميشيل... أتاراكس الغبي! لقد تركَت الضربة القاسية أثَرها على ملامحه رغم مرور عشر سنوات. لا أثر لتلك الوسامة التي أوقعَت الفتيات في غرامه...

تذكّرت نصائح بيروز.

كلّ شيء مخطَّط له.

كلّ شيء في مكانه.

العَبْ لعبتهم.

تركتُ قضيب الحديد ثم فَردتُ ذراعي إلى أعلى وقفزتُ وصولاً إلى صندوقٍ عند قدم المتراس لأتّخذه مقعداً للجلوس.

يدان مقيَّدتان وساق واحدة. هل اعتقدوا بأنني قادرٌ على الوصول إلى اليابسة سباحة؟

كان مركب **بارامي** متوقفاً بالقرب من جزيرة دولارج، إحدى الجزيرتين اللتين تشكلان أرخبيل سان-ماركوف. جزيرة صغيرة بطول مئة وخمسين متراً وعرض ثمانين متراً، ولا تضمّ سوى قلعةٍ قديمة، فتذكّرت برنامج مسابقات **قلعة بويار**(1) الذي مثَّل خوفي الأول من

(1) قلعة بويار: برنامج مسابقات فرنسي أنشأه جاك أنطوان، بدأ بثه عام 1990 قبل أن يحظى بشهرة عالمية جعلت عدداً من الدول تصوّر نسخاً خاصة بها، =

الأقزام والنمور والعناكب، وأيضاً افتتاني بأجسادِ ونهود النجمات المشاركات في المسابقة.

كان الجزء الأوسط من القلعة القديمة على شكلِ مدرَّج، تحيط به خنادق وجدران قوية تغطّيها الطحالب وآثار مياه البحر، فالواضح أنّ هذه المياه تغمر جزءاً كبيراً من القلعة في أثناء المدّ البحري، وحده الحاجز الذي توقَّف عنده مركب بارامي هو الذي بدا حديثاً بعض الشيء.

تسمَّرَت كارمن أمامي.

- لا تعوِّل على عملية إنقاذٍ يا سلاوي. الرسوّ على جزيرة دولارج ممنوع منذ سنوات، لأسباب متعلِّقة بالسلامة. وحدَها الجمعية التي تقوم بأعمال صيانةٍ في القلعة، وذلك بعد حصولها على تصريحٍ خاص، حتى المتطوعون لا يعمَلون في فصل الشتاء... ولا وجود لمراكبَ شراعية في المانش.

لم أجِبْها، وقد وجَّهتُ انتباهي إلى طاولة تكدَّسَت فوقها الفناجين وكظيمة قهوة وبعض المعجنات والهلاليات.

استدار فريدريك سان-ميشيل نحوي وهو يحمل في يده فنجان قهوة وهلالية.

- هل تريد فنجاناً من القهوة؟ قال بنبرة كئيبة لا تُوحي باللطف أو حتى النفور.

لا أعتقد بأنه كان بحاجة إلى بَذل جهدٍ في تجسيد دوره،

= في القلعة نفسها الواقعة بين جزيرتَي إيكس وأوليرون في فرنسا. تعتمد المسابقة على خضوع المشاركين لمجموعة من الاختبارات البدنية والفكرية للحصول على الكنز. -المترجم-

فملامحُ وجهه الكئيب لم تكُن تختلف في شيء عن شخصية كريستيان لوميديف.

- لا شكراً، أجبتُه بصوتٍ مرتفع حتى تسمعني مونا. (كم أحتاج من الوقت حتى أتعود على مناداتها بألينا؟) لقد أصابني الفنجان الأخير بالغثيان.

لم ترفَع عينيها نحوي.

كانت واقفة بالقرب من مقدِّمة المركب، متوجِّهة ببصرها نحو الجزيرة الصغيرة الثانية، جزيرة دوتير. وقد تطايرت خصلات شعرها الأحمر وارتطمت بقوة بوجهها المحمرّ بفعل برودة الطقس، وربما أيضاً بفعل الدموع الجافة حول جفنيها المنتفخين. إلى جانبها دنيز جوبان التي وضعت يداً على الحاجز، فيما أمسكَت يدها الأخرى بكلبها الشي تزو، كان أرنولد مشغولاً بالتهام خبزٍ بالشوكولاتة كما لو كان يمزِّق فريسة حيّة.

رأيتُ جيلبير أفريل خلف زجاج قمرة القيادة، مشغولاً بمراقبة جهاز قياسات بحرية لا أدري ما وظيفته.

أعتقدُ بأنه الأقلّ اقتناعاً من أعضاء المجموعة، ولو تعلَّق الأمر بمسافةٍ لا تتعدى سبعة كيلومترات، أو بمركبٍ متوقف، أو أجواءٍ هادئة، أنا متأكِّد من أنه سيبحث عن تبريرات تسمَح له بالبقاء في مكانه وترك مهمة القيام بالأعمال القذرة للآخرين.

مرَّت كارمن أمامي وملأت لنفسها فنجاناً من القهوة، ربما لتدفّئ أصابعها، ثم مرّت أمام أوسيان ومنحتها ابتسامة مشرقة.

تواطؤ اللواتي نجحْنَ في بلوغِ مُرادهنّ بعد بذلهنّ مجهودات كبيرة.

المكافأة، الشعور العظيم بالانتصار.

أمسكَت أوسيان بسيجارة بين أصابع يدها التي يغطيها قفاز بنفسجيّ غير مكتملٍ، وقد عقدت خصلات شعرها بمشابك من اللون نفسه. كانت تسريحة تُظهِر ملامح وجهها بوضوح أكبر، أمّا عيونها داكنة اللون فقد منحتها جاذبية وأناقة ممثلة أميركية. الحسناء المستندة إلى حاجز سفينة انطلقت من نيويورك لإغواء رجال باريس.

لم تهرب من نظراتي، عكس الآخرين، بل ركَّزت بَصرها عليّ، لم يكُن يفصل بيننا سوى دخان السيجارة الذي تتلاعب به الرياح من حين إلى آخر.

كنت محتمياً بحجابٍ رقيقٍ من الغموض، قد أكون معوّقاً، وبساقٍ واحدة، لكنني شعرتُ بأنني إنسان لا يُقهَر.

لأنني بريء!

تتفرَّس أوسيان في ملامحي، هي مهتمّة بأمري، وربما تتساءل في أعماقها عن حقيقتي. كانت الفرصة جميلة تقريباً، لولا هذا الاحتقار وسوء الفهم لما انتبهت لي فتاة بهذا الجمال الأخّاذ.

كلّ شيء مخطَّط له، قال بيروز.

كلّ شيء في مكانه.

العَبْ لعبتهم.

وحده هذا العجوز السكّير الذي لم يكُن مستنداً إلى حاجز المركب، قد يكون منشغلاً ببرميل النبيذ، في انتظار توصّله إلى الفرضية المضادة.

تناهى إلى مسامعي صوت فريدريك سان-ميشيل الأجشّ.

- هل سننُهي الموضوع؟

وضعَت كارمن فنجان القهوة.

- معكَ حق، لن نضيِّع المزيد من الوقت، ما زال المدّ البحري مستمراً منذ ما يقارب الساعتين.

لم أفهم ما علاقة المدّ البحري بموضوعنا.

- ألينا، قالت بلهجةٍ آمرة. قومي بتشديد المراسي.

أطاعَتْها مونا بطريقة ميكانيكية، فحرّكت ذراعيها ببطء نحو العوامات البرتقالية المثبتة بين مركب **البارامي** والحاجز في جزيرة دولارج، فيما أبعَدَت دنيز كلبها أرنولد عن المكان.

- أيّ واحدة؟ تساءلت كارمن وهي تتفحَّص طوب الحائط.

- الثالثة انطلاقاً من الأعلى، أجابها فريدريك سان-ميشيل وقد وجَّه ناظريه نحو الموقع نفسه.

الثالثة؟ ماذا يقصدون بكلامهم؟

لم أجد شيئاً على الجدار، باستثناء الطحالب اللّزِجَة التي غمرت بعضها المياه، فيما بقيت الأخرى جافة، ولو لدقائق إضافية معدودة.

- الأقل تعرّضاً للصدأ، قالت كارمن مشيرة بأصبعها.

كانت تقصد حلقة نحاسية مختومة في الحائط، تبتعد عن مستوى المياه بما يقارب المتر، لكن هذا العلو لن يتجاوز خمسين سنتيمتراً في حال وصول المياه إلى مستواها الأقصى، بالنظر أيضاً إلى الرطوبة الدائمة التي تسبِّبها الرغوة المتراكمة.

فهمتُ عندئذٍ سبب ارتدائي لبذلة النيوبرين...

إنهم يخطِّطون لتقييدي وربطي بهذه الحلقة! ثم انتظار صعود مستوى المياه.

شعرتُ بحبّات العرق التي بلَّلَت جلدي ثم لامَست البذلة.

ما هو هدفهم؟ دفعي إلى الاعتراف بجرائم لم أرتكِبْها؟ انتزاع

الاعترافات ثم تسليمي إلى الشرطة؟ أو احترام منطقهم حتى النهاية، وهو ما يعني موتي هنا؟

تذكَّرتُ نصائح بيروز.

كلّ شيء مخططَّ له. كلّ شيء في مكانه.

أتمنى ألّا يكون ضابط الدرك مخطئاً.

الضابط الذي لم يستيقظ بعد.

رمَت أوسيان بقايا سيجارتها في الماء، ثم ركَّزت بصرها عليّ من جديد. نظراتها عميقة يصعُب فَهمها...

تقدَّمت كارمن نحوي.

- أعتقد بأنك قد فهمت كلّ شيء الآن يا سلاوي. يرتفع مستوى المياه بما يقارب سنتيمتراً واحداً في الدقيقة... معك ما يفوق الساعة لتحكي لنا عن الجرائم التي قمتَ بارتكابها.

ابتلعتُ ريقي.

العَبْ لعبتهم...

حاضر يا بيروز، لا خيارَ أمامي، ولكن تحرَّك، افعَلْ شيئاً.

- وماذا بعد ذلك؟ قلتُ متسائلاً.

- هل تريد مني أن أقدِّم لك لائحة المحلّفين؟ ستتّخذ الهيئة قرارها بعد انتهاء جلسة الاستماع. هذه محاكمة شعبية، وأنتَ مجبَر على إقناعنا.

العَبْ لعبتهم.

- أنتُم مجانين. قلت بعصبية.

تحمَّلت كلامي برزانة.

- اذهَبْ للبحث عن بيروز! صرخَت موجِّهة كلامها لفريدريك.

سنكون بحاجة إلى رجلٍ آخر حتى نقوم بتعليق سلاوي، ما دام جيلبير رافضاً لفكرة تلطيخ يديه.

لم يعلّق جيلبير أفريل على كلامها، أو أنه لم يسمع ملاحَظتها التي حجَبَتها أصوات الطيور البحرية المتجمِّعَة فوق سقفِ قُمرة القيادة.

نزل فريدريك إلى الجزء السفلي من المركب، فيما واصَلَت مونا تشبُّثها بحبال التثبيت التي يضربها زَبد البحر بقوّة. ابتلعَت السُّحُب شمس الفجر، وبدا أنّ درجة الحرارة لا تتجاوز خمس درجات على أبعد تقدير، لا داعي عندئذٍ لتخيّل درجة حرارة المياه.

أشعلت أوسيان سيجارة أخرى، فيما صبَّت كارمن لنفسها فنجاناً ثانياً من القهوة.

- ما الذي يفعله هذا الغبي؟ غمغَمَت متحدِّثة عن سان-ميشيل الذي لم يعُد بَعد.

عاد أخيراً، وآثار الصدمة بادية على وجهه.

- بيروز غير موجود في قمرته، قال بعد صمتٍ طويل.

شعرتُ بأني على وشك السقوط في هوّة بلا قرار، يبدو أنّ القدر يستمتع بالتلاعب بي، وقد خيِّلَ إليّ بأنّ آلاف الطيور البحرية تصيح بلا انقطاع فقط لتعبِّر عن عَدَم اهتمامها بأمري.

- هل بحثْتَ في أماكنَ أخرى؟ سألَتْه كارمن بإصرارٍ شديد. قد يكون في المرحاض؟ أو ربما في الحمام؟

لم يُبْدِ فريدريك أيّ حركة تدلّ على الانزعاج، واكتفى بتمرير يده على لحيته المبعثرة.

- اللعنة يا كارمن، طول هذا المركب هو ثلاثون متراً، قلتُ لكِ بأنه غير موجودٍ في الجزء السفلي!

لم يتفوّه أحد بكلمة إضافية. نزلَت كارمن، وتبعتها أوسيان، ثم دنيز، وتفقَّدوا كلّ ركنٍ في **البارامي**.

بلا جدوى.

لم يعثروا على أيّ أثرٍ لضابط الشرطة.

هل شرب بيروز كثيراً ثم سقط في الماء بلا وعي منه؟ أم أنه ارتمى في المياه الباردة إرادياً، مستعيناً بقاربٍ منفوخ بحثاً عن وسيلةٍ ما لإنقاذي؟ أم أنّ أحداً ما أسكته لأنه يعرف معلومات أكثر من اللازم ولأنه لم يكُن حذراً بالشكل الكافي؟

قام جيلبير أفريل -تحت ضغط كارمن- بِعَدّ سترات الإنقاذ المتوفرة في **البارامي**، فيما تذكّرتُ كلمات بيروز مرة أخرى.

لا أحد منهم على علمٍ بالحقيقة. ستبقى براءتك طيّ الكتمان لساعات أخرى إضافية.

لا أحدَ منهم على علمٍ بالحقيقة.

أعادَ جيلبير أفريل السترات إلى الصندوق.

لقد بقيَ عددها كما هو، بلا زيادة أو نقصان!

تطلَّعتُ إلى الحلقة النحاسية المثبَّتَة على الجدار برعبٍ حقيقي.

كان مستوى المياه قد ارتفعَ بما يُقارب عشرة سنتيمترات.

41

لا أحد منهم على علم بالحقيقة؟

«لقد حاصرنا الأسطول، لكن الأبله العجوز أمَرَنا بالتقدّم».

لا أدري لماذا تردَّدَ في ذهني صدى هذه الأنشودة القديمة لغرايم أولرايت التي كنّا نغنّيها في المُخيم أيام الطفولة.

كانت كلماتها استحواذية فعلاً.

كانت ربما طريقة معيّنة استخدَمْتُها للهروب ممّا يُحاصرني. وصلَت المياه إلى منتصف فخذي، لم أكُن أشعر بالبرد، أو أنني لم أشعر به بعد لأنّ رداء النيوبرين يحميني. الأكثر إيلاماً هو أثر الحلقة على ذراعي.

مرَّت عدّة دقائق جرّبت خلالها عدة وضعيات، باستخدام يدٍ واحدة، واليد الأخرى، ثم اليدين، لتجنّب تحميل كتف واحدة وزن جسدي كاملاً. كنت أعلم بأنّ صعود مستوى المياه واستسلام جسدي للمياه يعني أنّ معاناتي ستقلّ.

قبل أن تتوقَّف معاناتي إلى الأبد...

أعتقد بأنّ جيلبير أفريل قد ساعَدَ كارمن وسان-ميشيل على

إنزالي من المركب وربط قيودي بالحلقة النحاسية المثبتة على الحائط. كان مزاجه سيئاً، وقام باستعارة سيجارة من أوسيان، قبل أن يرميها بسرعة وهو يغمغم بين أسنانه «يا لها من سخافة» ويكرِّرها عدة مرات، قبل عودته إلى قمرة القيادة في **البارامي** بعد التأكُّد من صلابة أغلال عذابي.

لم أقاوِم، تردَّدتُ وأنا أتخيَّل قدرتي على تعقيد مهمّتهم، أن أصرخ وأتلوى كدودةٍ مبتورة، أن أضيف الشعور بالإهانة إلى كلّ ما عانيته طوال الفترة الماضية...

كان ذلك رهاناً خاسراً...

كانوا ستة، يحمل فريدريك سان-ميشيل وأوسيان أفريل مسدَّسَين في جيبيهما، بطريقة استعراضية تسمَح لي برؤيتهما. أنا وحيد ومعوّق، وقد لا يكونان بحاجة إلى تهديدي بسلاحيهما، إذ يكفيهما إغراقي في المياه الباردة وأنا مقيَّد حتى أتوسَّل إليهما للسماح لي بالتشبُّث بأيّ أملٍ ضعيف يُبقيني على قيد الحياة.

كما كان متوقعاً، وبدقّة تشبه دقّة ساعة سويسرية، صعدَت المياه بمعدَّل سنتيمتر واحد في الدقيقة. كان البحر هادئاً، بما لا يمنع الأمواج الصاخبة من الاصطدام بجدران قلعة سان-ماركوف بقوّة. ارتطمت المياه بعيني وفمي من دون أن أملك القدرة على مسحهما للتخفيف من أثر التهيّج الذي خلفته الأملاح على وجهي. ارتفَعَ جسدي مع ضربات الأمواج، ليلتصق بالجدار الذي غطّته الطحالب اللزجة. صرتُ أشبَه بغصنٍ تتقاذفه الرياح قبل سحقه.

استندت دنيز إلى حاجز مركب **البارامي** برفقة أرنولد، فيما جلس باقي أعضاء فرقة التعذيب على متراس القلعة، على بُعد خمسة

أمتار مني. ولم أكُن أرى من موقعي ذاك سوى الجدار والمنطقة الوسطى العلوية للقلعة ببرج مراقبتها.

أملي الأخير...

راودتني تلك الفكرة عندما قاموا بتقييدي. لا أعتقد بأن بيروز ذهب إلى الساحل، بل اختبأ في الجزيرة، منتظراً الساعة المناسبة للظهور، مرفوقاً ربما بعددٍ من رجال الشرطة المتحفّزين للانقضاض.

كانت مونا -التي توقَّفت عن التفكير فيها بعدما اقتنعت باسمها الحقيقي ألينا- أكثر حمقى جمعية الخيط الأحمر بُعداً عني، باختيارها لأقصى نقطة في المتراس للجلوس.

هل كان ذلك عمداً؟

التصقت ساقاها بالجدار في ردّ فعلٍ عصبيّ واضح، كما لو كانت تشعر بأنّ الوقت يمضي ببطء شديد. لعبت خصلات شعرها المتطاير دور ماسحات الزجاج أمام عينيها الغائمتين. جلس سان-ميشيل القرفصاء بجانبها، لكنه انشغل بالنهوض كلّ ثلاثين ثانية، في تعبيرٍ عن نفاد صبره. أمّا كارمن الواقفة باعتدال فقد منحتها بنيتها القوية سيطرة واضحة على الآخرين. لم تفكّر أبداً في الجلوس، ولم تحرِّك عينيها إلّا لإلقاء نظرات سريعة على ساعة يدها.

- أمامك أقلّ من ساعة يا سلاوي إن أردتَ منح القضاة وقتاً كافياً للتداول قبل إصدار الحكم النهائي، أنصحكَ بالتخلّي عن صمتكَ.

ارتطم الزبد بوجهي.

وحدها أوسيان التي بدت أكثر هدوءاً من الآخرين، مرتدية معطفاً طويلاً، كانت تدخّن وهي تراقبني بنظراتٍ لا أثرَ للعداء أو

حتى للشفقة فيها، بل مجرد فضول طفل يراقب حشرة تلتهم أخرى في الحديقة، دون أن يكلِّف نفسه عناء إنقاذها، بل يعتبرها مجرد فرصة لفَهم مدى وحشية هذا العالم.

كانت رائعة الجمال.

- أتخلّى عن صمتي لأتحدَّث عن ماذا؟ صرختُ بعدما اصطدَمَت بي موجتان بحريّتان.

لم يُجِبْني أحد، كنتُ مُطالَباً بالاعتراف دون أن يساعدني أحد على البحث عن الأجوبة.

اللعنة، ماذا ينتظر هذا الأحمق بيروز؟

صعدت المياه بما يقارب ثلاثين سنتيمتراً إضافية، لتُحاصر صدري كسياجٍ من الرذائل.

كلّ شيء مخطَّط له، كلّ شيء في مكانه، هكذا تردّد صوت نقيب الدرك الوطني داخل جمجمتي.

ولا أثرَ له حتى الآن.

- أمامك أقلّ من نصف ساعة يا سلاوي، أعلنَت كارمن.

يمضي الوقت بسرعة فائقة، كساعة رملية مغشوشة، أو حلقة **قلعة بويار** تمّ التلاعب بمجرياتها.

لفظتُ مزيجاً من اللعاب والمياه المالحة.

- حسناً، سأعترف بكلّ شيء!

لم يعُد أمامي الكثير من الوقت، فكَّرت في أنه لم يعُد هناك أيّ داعٍ للالتزام بتوجيهات بيروز. لا يمكنني الانتظار أكثر من ذلك. كان على هذا الدركي السكير أن يكون أكثر وضوحاً ويُطلعني على تفاصيل تدخّل الشرطة في الوقت المناسب.

صرختُ محاوِلاً التغلّب على صخب الأمواج:

- أنتم مخطئون منذ البداية، أنا لم أقتل مورغان وميرتي! بيروز يعلم ذلك أيضاً، وقد أطلَعَني على التفاصيل ليلة أمس.

قلتُها ثم أخبرتهم بكلّ ما قاله بيروز، مُنهِياً كلامي بالحديث عن الورقة التي تضمّ نتيجة الكشف عن اختبار الدي إن آي، والموجودة -بلا شك- في قمرة بيروز، أو في أيّ مكان آخر، وعليهم أن يَجدوها قبل فوات الأوان!

- تأكّدا من الأمر، قالت كارمن مخاطِبَة أوسيان وسان-ميشيل.

نهضا بلا تردّد.

واصلتُ دفاعي عن نفسي، متحدِّثاً عن إيبور التي لم أزُرْها أبداً رغمَ كلّ المظاهر، ورغم وجود ذلك الحجز القديم اللعين الذي لم يتمّ في نهاية المطاف، كما قلتُ بأنّ مشاهداتي في هذا الجانب من منطقة النورماندي قد اقتصرت على الكنيسة القديمة غرانكامب-ميزي ذات يوم، دون أن تقودني قدماي إلى غراند كاريير أو إيسني-سور-مير أبداً.

لم تلتفت مونا نحوي، فهي تعرف هذه الرواية. ضربَت موجة عالية وجهي بكميّة من المياه المالحة ابتلعتها مرغماً، لتُفقِدني ما تبقّى من معلوماتٍ أدليتُ بها.

كنتُ على وشك الموت غرقاً.

لم أضِفْ شيئاً، وقد قرّرتُ عدم الحديث عن لعبة بيروز المزدوجة وهدفه الحقيقي باستخدامي طُعماً للكشف عن المجرم الحقيقي.

شخص ما على متن هذا المركب؟

«لقد حاصرنا الأسطول، لكن العجوز الأبله أمرنا بالتقدم».
هكذا تكرَّر صدى أغنية غرايم ألورايت داخل جمجمتي.

ظهرت أوسيان ومعها سان-ميشيل بعد عشر دقائق، بأيدٍ فارغة وهم يهزّون رأسهم نفياً.

لا شيء. لقد بحثوا عن الورقة في كلّ أرجاء المركب.

لا وجود لأيّ تحليل دي إن آي. لقد اختفى بيروز من دون أن يفكّر في حماية الدليل الوحيد على براءتي. لم يكُن هذا الدركي سوى وغدٍ منعدم الكفاءة!

التهبَت عيناي بسبب المياه المالحة.

- انتظروا، اللعنة! صرختُ وقد امتلأت حنجرتي بمزيج اللعاب والزبد. لقد أطلعني بيروز على هذه الورقة بالأمس. تمّ إجراء هذا الكشف بواسطة المصلحة الجهوية للهُويات الجنائية في روان. اتصلوا بهم، وسيؤكّدون كلامي.

جلست أوسيان وهي تُشعل سيجارة جديدة بلا مبالاة واضحة، فيما تقدم سان-ميشيل نحو القلعة.

- لا تحاول كسب وقتٍ إضافي يا سلاوي، أجابتني كارمن. أصلاً لم يعُد بحوزتكَ الكثير منه.

عشرون دقيقة ربما...

على الأكثر.

وصلت المياه إلى أعلى كتفي، صارت وضعيتي أكثر احتمالاً، وبتّ قادراً على مدّ جسدي والمحافظة على توازنه، كما أصبحتُ قادراً -بمساعدة ساقي الاصطناعية- على استباق الأمواج الأكثر خطورة. كانت حصّة التعذيب التي تخيَّلَتها كارمن وأصدقاؤها ذات

فعالية مخيفة، فمع اتّساع هامش الراحة، كانت مواجهتي مع الموت تقترب ثانية بعد أخرى.

وبقيَ الأفق فارغاً.

ظهرت بعض السحب، وهطلت أمطار خفيفة على سان-ماركوف. إنها العناية الإلهية!

اتّسعت عيناي، وبقي فمي مفتوحاً، فلعقتُ المياه العذبة التي سالت على وجهي. احتمى العم جيلبير ومعه دنيز وأرنولد بقُمرة القيادة في مركب البارامي، ثم اختفوا خلف زجاج النافذة التي حجب الضباب ما يجري خلفها.

رفعَت كارمن غطاء معطفها، فيما فتح سان-ميشيل مظلّة سوداء بدا أنها لن تصمد طويلاً أمام قوة الرياح، ثم اقترب من مونا لتحتمي بدورها من أثر الأمطار، لكنها لم تُصدِر أي حركة لتعبِّر عن امتنانها أو حتى انزعاجها.

وحدها أوسيان التي واجهت الأمطار.

غطت القطرات وجهها، لتمحو بذلك أثر المكياج البنفسجي حول عينيها وصولاً إلى خدّيها وفمها، فبدت أجمل بكثير من السابق، كأيقونة شرقية منسيَّة تحت الأمطار، غسلتها الألوان الذهبية والبنفسجية لتشكِّل أعجوبة ربانية.

بقيت عيناي موجّهَتين إليها، كنت أغرق في حبّها بغباء لا علاقة له بوضعي الحالي وأنا على وشك الموت غرقاً. كنت منجذباً بشكلٍ لا يصدَّق إلى هذه الفتاة التي لا تتمنى -بلا شك- سوى موتي. إنها حالة أعتقد بأنّ الخبراء النفسيين في المؤسسة التي أعمل بها سيكونون سعداء بتحليلها، فلا يمكن تفسير ما يجري سوى بأنني

بدأت أفقد جزءاً من اتّزاني النفسي.

ضغطتُ على الحلقة لأرفع جسدي خارج المياه ولو للحظات قليلة، ثم صرخت في مواجهة صوت الأمواج والنوارس والأمطار.

- لقد توصَّلَ بيروز إلى تحليل مختلف! هو يريد الإيقاع بالمجرم الحقيقي.

عادَ جذعي للارتطام بالمياه الباردة.

- لستُ أنا. صرختُ بأعلى صوتي. لستُ أنا المجرم الذي تبحثون عنه!

شهقة أخيرة قبل أن أقول:

- إنه واحد منكم!

لم يَصدر عنهم أيّ ردّ فعل، وحده أرنولد الذي لحق بطائر بحري بعدما سمحت له دنيز ببعض الحرية في التنقل.

- كلام فارغ يا سلاوي، علَّقَت كارمن. أمامك ربع ساعة للاعتراف.

«لقد وصلت المياه إلى صدري»، ردَّد غرايم في أغنيته.

«كلّ شيء مخطَّط له، كلّ شيء في مكانه»، يجيبه بيروز.

الأوغاد!

أي خطة تلك التي رسمها بيروز؟ لماذا هنا في سان-ماركوف؟ لأنّ ميرتي كامو أمضَت يوماً هنا قبل مقتلها بفترة؟ أيّ علاقة بين هذه الخطة وشكوك صديقتها الحميمة ألينا؟ ميرتي التي ارتدت فستاناً مثيراً يوم عطلتها، ميرتي التي كانت على موعد مع مغتصبها، ميرتي التي منحَت كلّ أسرارها لدفتر مذكراتها الأزرق السماوي، الذي لم يرَه أحد بعد وفاتها.

ميرتي وتوقيع القصيدة الذي أثار حفيظة ألينا. M2O.
هي تعلم إذاً بأنني لستُ قاتل صديقتها.
ألينا، أو مونا المكلَّفة بمهمة إغوائي، هي حليفتي الوحيدة هنا، هذا ما أكَّدَه لي بيروز.
ألينا المجهولة، ومونا الخائنة.
تخلَّت عيناي -بنوعٍ من الحسرة- عن أوسيان، لتركِّزا على تلك التي لم أستطِعْ مناداتها باسم آخر غير مونا، وقد احتمت بمظلة سان-ميشيل.
كانت نظراتي متوسِّلة.
أخبريهم بكلّ شيء يا مونا، أخبريهم بكلّ شيء. بسرعة.
خيِّلَ إليّ أنها سمعتني من دون أن أفتح فمي، وفهمتني من دون حاجة إلى الكلام، فوقفت فجأة، ثم أزاحت مظلة سان-ميشيل بحركةٍ حازمة.
- هذا يكفي، قالت بصوتٍ منخفضٍ سمعته بالكاد.
وجَّهَت كلامها إلى كارمن.
- كما ترين، لن يقول شيئاً، سواء كان بريئاً أو مذنباً، لم يعُد أمامنا مجال لاتخاذ أيّ قرار، سنفكّ قيوده ونسلّمه للشرطة.
- سيُطلقون سراحه، قالت كارمن. لن يعترف وسيطلقون سراحه.
بقيت مونا صامتة.
- لقد قرَّرنا تشكيل هيئة قضاة، وستّتخذ هذه الهيئة قرارها، سنتّخذ قرارنا بالإجماع، هذا ما فعلناه دائماً.
تجاوَزَت المياه كتفي.
بسرعة، اللعنة...

- حسناً، قالت كارمن، فليرفع يده مَن يريد إخراج هذا الحقير من المياه.

لم يسمَع جيلبير ومعه دنيز كلامها وهما داخل قمرة قيادة المركب، أو ربما تظاهرا بذلك، فيما انشغلت أوسيان بإشعال سيجارة جديدة من دون أدنى اهتمام بكلام كارمن.

تنقّلت مونا ببصرها بين أعضاء جمعية الخيط الأحمر، قبل أن ترفع يدها.

- بربّكم، قالت، ألا ترون بأنّ بعض الشكوك حاضرة، تعلمون جميعكم بأنّ هذه الشكوك موجودة، لا يمكننا ترك الشاب يموت هكذا، فقط لأننا لم نجد شخصاً آخر ننتقم منه...

قالتها ثم استادرت نحو سان-ميشيل.

ثلاثة سنتيمترات إضافية، كانت المياه المثلجة أشبَه بشفرة حادة تضغط على تفاحة آدم في عنقي.

لم يرفع سان-ميشيل يده.

- اتفقنا، قالت كارمن، صوت واحد لإنقاذ سلاوي، وخمسة أصوات ضدّ ذلك. آسفة يا ألينا...

انتهى كلّ شيء، لقد حكموا عليَّ بالإعدام.

«لقد وصلت المياه إلى عنقي»، تردَّد صوت غرايم أولرايت الساخر.

ارتطمت الأمواج بفمي فأجبرتُ على ابتلاع كمية كبيرة من المياه المالحة فسعلتُ ووجدتُ صعوبة كبيرة في التنفس.

كلّ شيء مخطَّط له، قالها بيروز. **كلّ شيء في مكانه.**

الوغد!

اختبار الدي إن آي دليل قاطع على براءتي، دركي يؤمن بها أيضاً، لكن أعضاء جمعية الخيط الأحمر لا يبالون بذلك، هم يبحثون عن تنفيذ حكم الإعدام على شخص ما، لأنّ أحد أقاربهم لقيَ حتفه.

حياة مقابل أخرى.

هي دورة الموت.

اختفى عنقي بعد تصاعد مستوى المياه.

ثم سمعت فجأة نباح أرنولد القوي وهو واقف بالقرب من حافة البارامي، نباح أطول وأقوى من المألوف.

استداروا جميعهم، فيما اتسعت عيناي في ارتياع.

كانت جثة طافية على سطح المياه.

جثة بيروز.

لم يسقط من المركب إثر إفراطه في الشرب، ولم يذهب للبحث عن النجدة، كانت الجثة طافية وقد استقرَّت قطعة حادة في قلبه.

سكين بلا شك.

مات مقتولاً.

كلّ شيء مخطَّط له، كلّ شيء في مكانه، هذا ما أكّده لي.

كلام فارغ!

كان صوتنا أعلى بكثير من اللازم ليلة أمس، لم يكن بيروز حذراً بما فيه الكفاية. لقد سمعنا القاتل الحقيقي، فقامَ بإسكاته.

مَن؟

هذا لا يهمّ حالياً، هذا اليقين هو المهم.

لا أحدَ منهم على علمٍ بالحقيقة.

لقد مات الشخص الوحيد الذي يحمل دليل براءتي، وهذا يعني صدور الحكم النهائي بإعدامي.

تابع كلّ أعضاء جمعية الخيط الأحمر جثة بيروز الطافية والمنتفخة بنظراتهم المذهولة.

كلهم باستثناء أوسيان أفريل.

وحدها أوسيان التي انشغلت بنقطة أخرى على بعد بضعة أمتار منها، على الجدار، تحت قدم مونا.

أدرتُ رأسي بحركةٍ غريزية وأنا أبحثُ عن فَهم ما يجري.

لم تتمكَّن عيناي من قراءة المكتوب فوراً بفعل أثر المياه المالحة، بعدما استغرقَ مني ذلك وقتاً، كان النظر ناحية المكان الصحيح كافياً.

كانت أوسيان مندهشة مثلي.

فعلى قطعة الطوب بالجدار دُوِّنَ بشكلٍ شبه باهتٍ حرفان ورقم واحد، كتلك الحروف الأولى التي يكتبها العشاق لتخليد حبهم إلى الأبد.

M2O

42

واحد منكم؟

M2O

تفحّصتُ قطع الآجر بنظرات متشكِّكة.

كان الحرفان والرقم على شكل خطوط رقيقة بيضاء منحوتة في الأحجار الطينية، كما لو أنّ ميرتي كامو قد عادت قبل أيام قليلة إلى سان-ماركوف لنحتها، أو أن أحداً ما قد اعتنى بها بإخلاص، طوال السنوات العشر الماضية.

اصطدم وجهي بدفقة من المياه، فاضطررتُ لبصق مزيجٍ من الزبد البارد والملح.

في وضعنا الحالي، لا تهم الطريقة التي ظهر بها هذا النقش القادم من الماضي، بل معناه المنطقي بعد ظهوره بطريقة عنيفة، شبيهة بستارة جرى تمزيقها لتكشف عن الحقيقة القاسية.

M2O لا تعني «زواج 2 أكتوبر» كما اعتقد الجميع.

M2O تحمل معنى آخر، وبمنطقٍ أكثر قسوَة.

مثل الحروف الأولى التي يخلدها العشاق، فكرت مرة أخرى.

ميرتي تحب أوليفييه

M.M.O (Myrtille aime Olivier)

M2O

كانت ميرتي مغرَمَة بأوليفييه روي، الشاب الوسيم الذي كان يُطاردها في مخيم إيسني، أو سان-ماركوف أو حتى شاطئ غرانكامب-ميزي، إنّه الشاب الذي يعتمر قبعة أديداس تجمع بين اللونين الأبيض والأزرق، الذي بحثت عنه المصالح الأمنية التابعة للرائد باستيني، قبل أن يتمّ الإعلان عن اختفائه منذ يوم 6 أكتوبر 2004.

لقد أخطأت ألينا عندما قدَّمت شهادتها لرجال الشرطة. لم يكُن أوليفييه روي يطارد ميرتي كامو باعتباره شاباً منحرفاً يبحث عن فريسة محتمَلَة... لا! السبب أكثر بساطة: كانت تربط بينهما علاقة عاطفية، كانا يعيشان قصّة حبّ صيفية، ولم تجرؤ ميرتي على مصارحة صديقتها بما يجري وهي على بُعد أشهرٍ قليلة من حفل زفافها... راودت الشكوك ألينا طوال هذه السنوات، لكنها لم تَبلُغ حدّ الاعتراف بتلك الحقيقة.

أغرقَت مياه البحر ذقني، وارتجف جسدي من شدّة البرد والإثارة، فيما ضاعف الأدرينالين من سرعة تفكيري. استعادَ ذهني كلّ المعلومات التي قرأتها في الأيام الماضية في تحقيقات الرائد باستيني وإيلين نيلسون.

M2O

ميرتي تحب أوليفييه.

تراقصت بعض الأبيات أمام عيني...

سأضع الحواجز في كلّ أرجاء الكون
حتى أمنَعه من التفريق بيننا

سأطلب من الحياة أن تمنَحنا أسرة
حتى أمنَعها من إصابتنا بالملل

سأبني حولنا قلعة شاهقة
وسأدافع عنها

M2O

هذا توقيع القصيدة التي كتبتها ميرتي لأوليفييه روي، لا فريدريك سان-ميشيل...

ضغطتُ على ذراعي بحركة يائسة في محاولة للارتفاع قليلاً عن مستوى المياه. ملأتُ رئتي بالهواء قبل أن أصرخ.

- هنا!

ورافق إصبع أوسيان المدبَّب صرختي.

تسمَّر كلّ أعضاء جمعية الخيط الأحمر في أماكنهم. جنحت جثة الضابط بيروز التي غمرتها المياه إلى الحاجز في قلعة سان-ماركوف، قبل أن ترتطم بالجدار أكثر من مرّة بفعل الأمواج، ولم يجسر أحد على التطلّع إليها.

استندت مونا إلى الحافة، ثم مدَّت يدها نحو الصخرة المنحوتة من دون انتظار تفسيرات إضافية، متر واحد فوق مستوى البحر. لم تكُن قطعة الطوب مثبتة على الجدار.

قامت مونا بإزاحة الصخرة عن مكانها بهدوء، كاشفة عن مخبأ صغير لا يتجاوز عشرة سنتيمترات. مالت أكثر لتبحثَ داخل المساحة الفارغة في الجدار، قبل أن تستخرج كيساً بلاستيكياً شفافاً.

لامست المياه شفتي السفلى، ما يعني تجاوزها لفمي بعد دقيقة واحدة على الأكثر. ضربت موجة أخرى وجهي، ميّزتُ المستطيل الأزرق السماوي تحت السيلوفان، ففهمت طبيعة اكتشاف مونا.

مفاجأة بيروز؟

كلّ شيء في مكانه، هذا ما أكده لي.

هل قام بتحضير هذا المشهد؟ هل ترَكَ النقش على الصخرة وأخفى الكيس؟

مزّقَت مونا الكيس بأسنانها، فتطايرت بعض البقايا الشفافة بفعل رياح المانش، فيما توترت أصابعها الممسكة بالمذكّرة الصغيرة بلونها الأزرق السماوي.

مفكّرة موليسكين، التي دوّنت فيها ميرتي ذكرياتها وعواطفها الأكثر حميمية.

عندما استرجعت تفاصيل ما جرى فيما بعد، قمتُ بجَمع كلّ الصدف، والموقف الدقيق لكلِّ عضوٍ من أعضاء جمعية الخيط الأحمر وموقعه الصحيح على حاجز مركب **البارامي** أو على متراس قلعة جزيرة دولارج، فوجدتُ تفسيراً منطقياً لكلّ ما يجري. كان ذلك متنفّساً لا يمكنني إغفاله، وإن تطلَّب مني انتظاراً طويلاً، في الوقت الذي كانت فيه أعماقي تصرخ بعبارة واحدة:

أسرعي يا مونا!

تسرّبت المياه إلى أنفي، فيما أحرَقَ الحمض اللبني عضلات كتفي، لكنني حاولتُ رغم ذلك أن أمدّ عضلاتي الدالية لأتجاوَزَ مستوى المياه ببضعة سنتيمترات، ثم تراخيت بعدما أصبح الألم رهيباً، فالتقطتُ نفساً عميقاً ثم غمرتُ رأسي في المياه لعدّة ثوانٍ أرحتُ فيها عضلاتي، قبل العودة إلى سطح الماء مرة أخرى. إلى متى سأبقى قادراً على تحمُّل هذا الوضع؟

انهمَكَت مونا في قراءة محتوى المفكّرة، ثابتة بلا حراك، باستثناء حركة شفتيها، وقد بدا أنّ خيالها منفصل عن السماء البيضاء.

– ماذا إذاً يا ألينا؟ صرَخَت فجأة دنيز الواقفة على ظهر المركب.

أيَّدها أرنولد بنباحه.

دسّ فريدريك سان–ميشيل يده في جيب سترته.

أمّا كارمن وأوسيان فقد اقتربتا من بعضهما، لتشكِّل بذلتاهما المتطابقتان غطاء بلاستيكياً بنفسجيّ اللون، وقد بدا أنهما عاجزتان عن فَهم التسلسل المنطقي لما يجري من أحداث.

غمرتُ رأسي في الماء مرّة أخرى، ثم قمتُ بالعدّ حتى الرقم ثلاثين.

كدتُ أنفجر بعد عودتي إلى السطح.

رفَعَت مونا عينيها، ثم وجَّهَت ناظريها إلى فريدريك سان–ميشيل، فبدا صوتها بعيداً وشبه وهميّ، خاضعاً لتأثير عدّة لترات من ماء البحر.

- كانت ترغب في تركِكَ يا فريدريك لأنها لم تعُد مغرَمَة بك. . .

- كلام فارغ! أجابها سان-ميشيل صارخاً.

تقدَّمت كارمن بخطوة إلى الأمام، لكن أوسيان أوقفتها بحركةٍ من يدها، فيما واصلت مونا قراءة محتوى المفكرة، مستغرقة وقتاً طويلاً في تقليب الصفحة.

مونا، أتوسل إليكِ!

ابتلعتني أمواج بحر المانش مرة أخرى، فغمرتُ رأسي في الماء لعشرين ثانية قبل العودة إلى سطح الماء من جديد، مثبتاً إلى الحلقة النحاسية ومقيَّد المعصمين، ملأتُ رئتي بالأوكسجين حتى كادت تنفجر.

ابتعد صوت مونا شيئاً فشيئاً.

- كانت قد التقَت بشخصٍ آخر يا فريدريك، الشخص الذي ساعَدَها على فتح عينيها وأعطاها الشجاعة الكافية لمواجهة أقاربها، شارل ولويز وأنا. الشجاعة التي ستمكِّنها من رفض كلّ ما ينتظره الآخرون منها. . .

- هراء! صرَخَ سان-ميشيل بصوته الأجشّ.

انحرفت جثة بيروز، وأصبحت طافية على بُعد مترين مني. تأمَّلتُها خائر القوى. اصطدَمتُ بموجة جديدة فتسرَّبَت كمية أخرى من المياه إلى جوفي، حتى خُيِّل إليّ أنني أبتلع المحيط بكامله.

أنا أغرق، وأصبحتُ عاجزاً عن التفوّه بكلمة، من دون أن يعيرني أحد أيّ اهتمام.

كلهم مشغولون بما ستقوله مونا.

- هذه كلماتها الأخيرة يا فريدريك، آخر ما دوَّنَتْه في مفكرتها.

تحوَّلَت كلماتها إلى ما يشبه الدوامة في رأسي. التصقَت ساقي -العضلة الوحيدة القادرة على المقاومة- بالجدار في حركة يائسة، وبحثت أصابع قدمي عن فجوة بين الطوب.

البحث عن دعامة تسمح بالحفاظ على توازني للحظات إضافية، وهو ما قد تدمّره موجة أخرى بسرعة.

سبحَت ساقي في الفراغ من دون أن تجد ما كانت تبحث عنه.

صار إخراج رأسي من الماء مستحيلاً.

أغمضتُ جفنيّ وفمي، ثم حبستُ أنفاسي إلى الأبد، على بُعد سنتيمترات قليلة من السطح، كما لو كنتُ داخل فقاعة، مستمعاً لقراءة مونا.

- «25 أغسطس. الثالثة صباحاً. سيأتي فريد يوم غد. يوم عطلتي. لقد أصرَّ على المجيء. يرفض الاعتراف بأنّ كلّ شيء قد انتهى بيننا. لقد ضربتُ له موعداً في مكانٍ سرّي، بالقرب من مزرعة غراند كاريير في إيسني. أتمنى أن يتفهّم موقفي هذه المرة، الشيء نفسه بالنسبة إلى بابا وماما وألينا. أتمنى ألّا أخيّب ظنهم. أتمنى أن يمضي كلّ شيء بسرعة، كم اشتقتُ إليك يا أوليفييه».

فتحتُ عيني. كان قفصي الصدري على وشك الانهيار. لم أتبيَّن سوى بعض الظلال الضبابية عبر الماء.

تقدَّمت مونا بخطوة نحو سان-ميشيل.

- كنت في إيسني يا فريدريك؟ في غراند كاريير؟ في اليوم نفسه الذي قُتِلَت فيه ميرتي؟

خيِّل إليّ أنّ سان-ميشيل يمدّ ذراعه نحوي قائلاً:

- اللعنة، هذه مؤامرة، هذا هو القاتل، إنه هو!

أدركتُ متأخّراً بأنّ سان-ميشيل يمسك بمسدسٍ، مستعدّاً لإطلاق النار عليّ.

استسلمتُ للمياه، لكن معصميّ المقيدان إلى الحلقة لم يسمَحا لي بذلك.

كنت هدفاً مناسباً. . .

ثم حَدَث كلّ شيء بسرعة.

- إلى الجحيم! صرخ سان-ميشيل.

ثم سمعتُ صرخة أوسيان، «لا!»، وبعدها صوت إطلاق النار، موقناً بأنّ الرصاصة ستخترق جسدي.

لم يحدث شيء من ذلك.

ثلاث طلقات أخرى، اندفع بعدها جسد سان-ميشيل عبر حافة المركب، على بُعد خمسة أمتار مني، وسط صرخات أوسيان.

فهمتُ أنها كانت الأسرع، بعدما سبَقَتْه إلى إطلاق النار، لقد أجهَزَت على قاتل ميرتي كامو، قاتل شقيقتها مورغان.

ثم اصطدمَت دفعة أخرى من المياه بوجهي.

كانت تلك قفزة مونا.

شعرتُ بجسدها الملتصق بجسدي، وقبلاتها التي منَحَتني جرعات إضافية من الأوكسجين، كانت تغطس ثم تصعد أكثر من مرة، وقد تمسَّكَت أصابعها بالحلقة النحاسية.

ثم تناهى إلى مسامعي صوت المفاتيح والقيود التي انفتحت أخيراً.

كنت حراً! حيّاً، وبريئاً. . .

رمى جيلبير نحونا عوّامتين برتقاليتين، وقد احتفظَ بجمود ملامحه.

كانت أوسيان مرتمية في أحضان كارمن وهي تبكي، وقد بدَت الأخيرة أشبه بعملاق غطى القلعة بجسده.

كانت ملابس مونا مبلَّلَة بالكامل، وقد حاولَت تقبيلي من جديد، لكنها لم تلامس بشفتيها سوى ذلك المزيج من خصلات الشعر والطحالب.

أشحتُ بوجهي، بعدما تحوَّلت إلى قطعة خشب باردة تتحاشى سيلاً من الأكاذيب.

مونا مجرَّد خائنة، ولم تكُن هي السبب في إنقاذي.

صعدتُ عبر سلم الحبال المتدلية من السفينة، ثم وجهت ناظري إلى أوسيان التي شجَّعَتني بنظراتٍ مماثلة.

النظرات نفسها التي رمَقَتْني بها هناك، في قمَّة المنحدر، منذ بضعة أيام، قبل ارتمائها في الفراغ.

إنها أوسيان، حسناء الأعماق.

استقرَّ المسدس عند قدميها، على ظهر المركب.

لقد أقدَمَت أوسيان على قتل إنسان، لكي تُنقِذَ حياتي أنا.

43

اللعنة، هذه مؤامرة؟

ما زال شاطئ غرانكامب-ميزي بعيداً بما يقارب الكيلومتر، لكنني تمكّنت من رؤية الواجهات الصافية للمنازل القريبة من الشاطئ، والمتراصّة كالأسنان البيضاء في ابتسامة كبيرة.

اتصلت كارمن أفريل برجال الشرطة الذين كانوا بانتظارنا في الميناء، بعدما أكّدوا وصولهم قبلنا، وإن لم يكُن عبور سان-ماركوف يستغرق سوى دقائق معدودة. بالتأكيد سيجنّدون كلّ فرقهم لاستقبالنا. كانت جزيرة دولارج قد اختفت من خلفنا بفعل الضباب الصباحي، وحدها الطيور البحرية المحلقة فوقنا التي ذكّرتنا بأننا كنّا هناك.

كنت جالساً على صندوق، ولم يفكِّر أحد منهم في إعادة ساقي الاصطناعية. كانت أوسيان تبكي وهي ملتصقة بي، لقد سلَّمتني كارمن -المشغولة بالهاتف- ابنتها دون أن تترك لي أيّ خيار آخر. كنت مبلَّلاً، واندسّت المياه المجمدة بين بدلة النيوبرين وجلدي، وقد ضاعفت الرياح التي تضرب وجوهنا من برودتها.

وما كنت لأغيِّر مكاني، مهما حصل.

لن أقومَ بأيّ حركة لأحتمي من التيار الهوائي أو أجفّف جداول المياه الباردة التي أغرقت صدري وذراعي وساقي، لن أتزحزح قيد أنملة ولن أفسد هذا التوازن الإعجازي الرائع.

رأس أوسيان المستند إلى كتفي، وذراعها المحيطة بظهري، والدموع الساخنة المنهمرة على عنقي، كقطرات ملتهبة على نهر متجمِّد.

كانت منهارة.

لم ترَ جيلبير وكارمن وهما يرفعان -بعد مجهودٍ استغرق دقائق طويلة- جثَّتَي بيروز وسان-ميشيل، قبل أن يتولى جيلبير مهمة إنزالهما إلى الجزء السفلي من المركب، من دون التفوّه بكلمة واحدة، مكتفياً بسيجارة مارلبورو المثبتة بين شفتيه.

«كنتُ أعلم بأنّ هذه القصة في منتهى الغباء»، غمغَمَ موجِّهاً كلامه لشقيقته، قبل العودة إلى قمرة القيادة لمتابعة الرحلة.

لم تُجِبْهُ كارمن، وقد التصقت أذنها وشفتاها بهاتفها المحمول، يتعلق الأمر غالباً برجال الشرطة، ولا أعتقد بأنها ستجد الوقت الكافي لشرح اصطحابنا لجثتين على ظهر المركب.

شرطي وسفاح.

كانت مونا جالسة بالقرب من الحاجز، تتطلّع إلى السماء باتّجاه أبراج كنيسة غرانكامب بعينين حمراوين. جلسَ أرنولد عند ركبتَي دنيز، التي مرّرت يديها على رأسه. أعتقد بأنّ مونا بحاجة ماسة إلى بعض الوقت، لقد قُتِلَت صديقة عمرها على يد رجل تعرفه منذ

سنوات طفولتها الأولى، الرجل الذي اختاره والدا صديقتها ليكون سبباً في السعادة الدائمة لابنتهما.

كلّهم ذهبوا، كانوا ضحية انهيار جبلٍ من الأكاذيب.

كلهم ذهبوا، وبقيَت هي.

تمايل السفينة يهدهد أوسيان، لم يسبِق لي احتضان رضيعٍ صغيرٍ بين ذراعي، لكنني أتفهم الأمّهات القادرات على حَمل الأطفال الملتصقين بصدورهن لعدّة ليال. أتفهَّم هذا الشعور الرائع بالمسؤولية الذي يساعدهن على البقاء لوقتٍ طويل بلا حراك، فقط للاعتناء بفلذات أكبادهن.

كنتُ أفكِّر بسرعة، في انتظار وصولنا إلى ميناء غرانكامب، تلاشَت أفكاري في الفراغ. لم أفهم شيئاً، سوى أنّ فريدريك سان-ميشيل هو المغتصِب والقاتل ذو الوشاح الأحمر الذي تبحث عنه الشرطة منذ عشرة أعوام، والذي كشفه بيروز فنصبَ له فخّاً محكماً.

تابعتُ ببصري، على طول الحاجز الإسمنتي الذي يفصل شاطئ غرانكامب عن البلدة، ثلاث سيارات تابعة للشرطة وهي تتقدّم نحو الميناء.

الأكيد أنهم متحمّسون بعد الذي سمعوه من كارمن عبر الهاتف.

عشر سنوات من الانتظار، قبل أن تتلاحق الأحداث بسرعة كبيرة بعد ذلك.

وهذا ما لم يكُن أحد منّا على علمٍ به وقتئذٍ.

أنهى رجال الشرطة -قبل متمّ ظهر اليوم- تحليلهم الأوّلي للمفكرة التي تمّ العثور عليها خلف قطعة الآجر في جزيرة سان-ماركوف، وأكَّدوا بأنها تعود بالفعل لميرتي كامو التي دوّنت فيها مذكّراتها قبل عشر سنوات. كما راجعَ فريق آخر جدول أعمال فريدريك سان-ميشيل يوم 26 أغسطس 2004. وقد تذكّر أحد الموظفين في بلدية إلبوف أنّ مدير مركز الترفيه في بوشو قد ألغى مواعيده مع الآباء، معلناً ذهابه إلى المواقع المستقبلية لمخيمات الاكتشاف والقواعد البحرية وأندية الفروسية المخصّصة للأطفال، يوماً واحداً قبل مقتل خطيبته، ولم يتأكّد أحد وقتها من صحة هذه المعلومات.

يتعلق الأمر إذاً بقاتلٍ متسلسِل. مَن كان يتوقع أنّ فريدريك سان-ميشيل سيقوم برحلة ذهاب وعودة من إلبوف إلى إيسني، أي ثلاثمئة وستين كيلومتراً، بهدف اغتصاب وقَتل زوجته المستقبلية؟

حوالي الحادية عشرة مساء، قام رجال الشرطة، الذين توصّلوا بتصريحٍ من القاضي لاغارد، بتفتيشِ شقة فريدريك سان-ميشيل في شارع سانت-سيسيل، وقد فوجئوا بعثورهم هناك على حقيبة يد مورغان أفريل، فاتصلوا بالقاضي ليؤكّدوا -ولأوّل مرة- وجود رابط قوي بين قضيتي أفريل وكامو.

بعد منتصف الليل، وفي اتصال مع الضابط هاشاني، قالت ساندرا فونتين، مسؤولة الترفيه السابقة في مركز بوشو والعاملة حالياً معلمةً في تويت سيمر بالقرب من إلبوف، إنها تتذكر حديثها مع مدير مهرجان ريف أون كليف، عن مجموعة مارّة من إيبور في ذلك

المساء، تستهدف إعادة تقديم أغاني ريتا ميتسوكو[1]، لم تكُن ساندرا فونتين على علمٍ بقدومِ مديرها إلى الاحتفال، لكنها تتذكّر بشكلٍ دقيق حوارها معه في ريف أون كليف في اليوم الموالي عندما جمعهما فنجان قهوة. تحدّثَ الجميع يومها عن الفتاة التي تمّ العثور عليها مقتولة ومغتَصَبَة ومرميَّة من أعلى منحدر إيبور.

في الواحدة ليلاً، قضى فريقٌ من ثلاثة رجال شرطة، تابعٌ للمصالح الأمنية في روان يقودهم الرائد ويسمان، ما تبقّى من ليلتهم في إعداد تقريرٍ أوّلي. يبدو أنّ فريدريك سان-ميشيل قد شارك في احتفال ريف أون كليف، فأعجب بمورغان أفريل التي أشعلت الأجواء في حلبة الرقص، وربما استسلمت بسرعة لمحاولات سان-ميشيل لإغوائها، فغادرا الملهى الليلي، قبل أن تنحرف الأمور عن مسارها الطبيعي، فاغتصَبَها فريدريك ثم خنَقَها، وعادَ بعد ذلك إلى إلبوف ومعه حقيبة اليد التي بحثَ عنها رجال الشرطة بلا جدوى.

ما الذي جرى إذاً بعد مرور بضعة أشهر، عندما ضربت له خطيبته ميرتي كامو موعداً في غراند كاريير لتُعلن عن قرارها بالتخلي عنه؟ نوبة غضب جديدة؟ خطّة ماكيافيلية جرى الإعداد لها بدقّة شديدة؟ هذا ما لن نعرفه أبداً، المهم أنّ فريدريك سان-ميشيل قد اتّبع الخطوات نفسها التي ميَّزت جريمته الأولى. فستان ممزّق، خنق الضحية باستعمال وشاح أحمر بربري، مراوغاً بذلك شكوك رجال

---

(1) ريتا ميتسوكو: مجموعة غنائية فرنسية ظهرت عام 1979 واشتهرت خلال فترة الثمانينيات، لتضع حداً لنشاطاتها عام 2007 بعد وفاة فريد شيشين أحد أبرز أعضائها. -المترجم-

الشرطة الذين اعتقدوا بأنّ القاتل متسكّع منحرف، ولا يمكن أن يكون أحد أقارب الفتاتين. . .

في الثالثة صباحاً، منح الرائد ويسمان قسطاً من الراحة لأعضاء فريقه، وحاول الاتصال بالرائد ليو باستيني، المتقاعد منذ أزيد من خمس سنوات بالقرب من أمبيرت في بوي-دو-دوم، ليُخبِره بآخر المستجدات في قضية أفريل-كامو، إلّا أنّ باستيني أغلق الخط في وجهه قبل إكماله عشر كلمات كاملة، لكن الوضع كان مختلفاً مع إيلين نيلسون، التي تمكّن ويسمان من ربط الاتصال بها بعد دقائق معدودة.

في السادسة صباحاً، قدّمت خبيرة علم النفس الإجرامي تصريحها الأول لقناة إ-تيلي. بتسريحة شعر غير متناسقة، كما لو أنّها نهضت من فراشها للتوّ، كما خلا وجهها من التجاعيد والمكياج المبالَغ فيه، فيما أوشكَ صدرها العامر على تمزيق قميصها الشفاف الذي ارتدته بسرعة. وقد أكّدت للصحافي، المنشغِل بتأمّل ساقيها العاريتين، أنها كانت متأكدة من أنّ ميرتي كامو تعرف قاتلها، لكنها -وللأسف الشديد- كانت الوحيدة التي آمنت بهذه الفرضية.

في العاشرة صباحاً، تلقّى قطاع الاتصالات في المصالح الأمنية بمدينة روان خمس شهادات جديدة من مسؤولات ترفيه سابقات في دراب دور ودار الثقافة والشباب في إلبوف، قلن فيها بأنّ سان-ميشيل الوسيم كان منجذباً بشكلٍ كبير للمتدرّبات الصغيرات والجميلات، وأنه يملك تاريخاً حافلاً بالعلاقات العابرة معهن، وإن بلَغَ فارق العمر سبعة عشر أو عشرين عاماً، وقد اعترفت عدّة فتيات باستسلامهن لإغواء عازف الغيتار الذي يتغيّر بمجرّد وصوله إلى

مبتغاه، متحوّلاً إلى عشيق متذمّر ومتعجّل لا يملك أدنى ذرّة شفقة تجاه عشيقاته. لكن رجال الشرطة لم يكتشفوا وجود أيّ فتاة مرَّت من فراش سان-ميشيل بعد صيف 2003، تاريخ ارتباطه بعلاقة رسمية مع ميرتي كامو. هل عثر على حبّه الكبير؟ الحبّ الكبير الذي لن يتحمّل فرضية فقدانه؟

تحكّم جيلبير أفريل بعجَلَة القيادة، فانحرف مركب **البارامي** باتجاه الميناء، نحو الرصيف الإسمنتي بمدخل القناة. تجمهَر العشرات من المتسكّعين وسكان المنطقة والتجار أمام الحاجز، رغم الساعة الصباحية المبكرة، غالباً بعدما أثار انتباههم وجود سيارات تابعة للدرك والشرطة.

تطلّعوا إلينا بنظرات متسائلة وهم يوجّهون أصابعهم نحوَنا، وربما تبادل بعضهم الهمسات والضحكات، ثم سطعت أضواء آلات التصوير.

أدارت أوسيان ظهرها نحوهم، مواصِلَة الاحتماء بصدري. تهادى **البارامي** على المياه الهادئة بهدوء، فتوقّعت بأن العاصفة ستبدأ بمجرد وصولنا إلى اليابسة.

سيعتني رجال الشرطة بكلّ عضوٍ من أعضاء جمعية الخيط الأحمر على حدة.

اقتيادهم إلى مخفر الدرك القريب، ثم استجوابهم بشكلٍ منفصل، في الوقت الذي يتجمَّع فيه بعض الصحافيين أمام المخفر.

قمتُ باستغلال ثواني الهدوء الأخيرة لوضع قائمةٍ بالشكوك التي لم يكُن موت سان-ميشيل كفيلاً بإنهائها.

مَن الذي نقل مذكّرات ميرتي كامو إلى جزيرة سان-ماركوف؟

هل هو بيروز الذي هدف إلى الإيقاع بسان-ميشيل؟ ولكن على افتراض وضعه اليد على دليل قوي كهذا، لماذا لم يتّهم سان-ميشيل مباشرة؟ لو أنّ بيروز توصّل إلى المعنى الحقيقي لتوقيع M2O لماذا وافقَ على المشاركة في هذه المكيدة المجنونة التي دبَّرها عقل كارمن أفريل، وصولاً إلى هذه النهاية المروعة في جزيرة سان-ماركوف؟

كلّ شيء في مكانه، هذا ما أكده الضابط المقتول.

ما الذي توصل إليه بيروز قبل مقتله على يد سان-ميشيل؟ ما علاقة هذه القصة بنظرية معضلة السجين التي أولاها الضابط اهتماماً كبيراً؟

اقتربَ المركب من حاجز الميناء، في الوقت الذي أشارَ إلينا شخص يعتمر قبعة بَحرية بيده، وهو يحمل آلة تصوير. **الغبي!**

استدرتُ بحركة غريزية في محاولةٍ لإخفاء وجه أوسيان عن عيون الفضوليين.

اشتغَلَ عقلي مرّة أخرى بسرعة البرق.

لقد أقدَمَت أوسيان على قتل شخص قبل دقائق معدودة، فريدريك سان-ميشيل مذنبٌ بلا شك، وإن كان. . .

بقي تفصيل أخير، وقد يكون التفصيل الأهم الذي يفسِّر عدم الاشتباه بسان-ميشيل قبل الآن.

الدي إن آي!

كما هو الشأن بالنسبة إلى كل أقارب ميرتي كامو، قام رجال الشرطة بالتأكّد من البصمة الجينية لفريدريك سان-ميشيل، التي لم تُطابق آثار المنيّ في جثّتَي ميرتي ومورغان. هل كان عازف الغيتار الوسيم هو الآخر ضحية مصادفات غير متوقعة، وتسلسل أحداث

جَعَلَ منه المتَّهم المناسب؟ أم أنّه تمكَّن من ابتكار مراوغات شيطانية أبعدَت عنه كلّ الشبهات منذ البداية؟

هذا ما كنّا نجهله وقتئذٍ، لكن رجال الشرطة سيتمكَّنون من الوصول إلى الحلّ في اليوم الموالي، على الساعة الواحدة بعد الزوال.

كان حلاً بسيطاً ومنطقياً في الوقت نفسه...

44

هل عثر على حبّه الكبير؟

توصلت المصلحة الجهوية للهُويات الجنائية في روان بثلاثة وستين كيساً بلاستيكياً مختوماً قبل منتصف الليل، تحتوي على فناجين وقنينات وسكاكين وشوكات وفرشاة أسنان ومماسح وملابس وأحذية ونظارات وقفازات ومناديل وأقلام ومفاتيح أدوات الغيتار وسماعات إم بي 3...

أطاعَ رجال الشرطة في سريّة إلبوف أوامر الرائد ويسمان بالحرف، فاختاروا بدقّة كلّ متعلّقات فريدريك سان-ميشيل التي قد تحتوي على بصمته الجينية.

وبحلول الفجر، عثروا وسط هذه الكومة من المتعلقات على زجاجة عادية بين شامبو وسائل استحمام، تحتوي على آثار قديمة للمني. ليقدّم الحاسوب النتيجة بعد بضع ساعات.

راجع رجال الشرطة كلّ حرف وكلّ رقم لعدة دقائق، كلاعب اللوتو الذي لم يصدّق بعد إمساكه بالورقة الرابحة. كانوا ينتظرون هذه النتيجة منذ عشرة أعوام...

ثم انفجروا فرحاً.

المنيّ الموجود في الزجاجة مطابق تماماً للمنيّ الذي تمّ العثور عليه في جثّتي مورغان أفريل وميرتي كامو!

راسَلَ ويسمان القاضي لاغارد مقدِّماً تقريراً نهائياً: حصل فريديريك سان-ميشيل على مني مجهول لإبعاد الشبهات عنه. وبذلك يُساهم هذا اليقين في إغلاق القضية وإن جعلها أكثر قذارة من عاشقٍ وسيمٍ قلق أمام تغيّر عشيقتيه، إلى قاتل ساديّ أعدّ لجريمتيه عن سبق إصرار وترصّد. ورغم حديث الدكتور كوراد، وهو طبيب شرعي، عن استحالة إدخال المني إلى مهبل مورغان أفريل بشكلٍ مفتعل، لم يتوقّف أحد عند هذا التفصيل، فقد اعتبر الجميع بأنّ فريدريك سان-ميشيل ينتمي إلى قائمة القتلة المكيافيليين، رغم أنّ حياته انتهت بثلاث رصاصات في بطنه.

دخل مركب **البارامي** إلى ميناء غرانكامب-ميزي، متجاوزاً بعض سفن الصيد الملونة المتهادية ببطء أمام الرصيف، فيما اصطفّ رجال الدرك فوق شباك الصيد كما لو كانوا سيشاركون في المَزاد العلنيّ المخصّص لبيع الأسماك.

رَمَت دنيز حبلاً نحو أقرب دركي، ليلتصق مركب **البارامي** بالرصيف الحجري.

- يريدون التحقيق معك، همست كارمن في أذن أوسيان. سيكلّمون كلّ واحدٍ منّا على حِدَة، لكن التحقيق سيبدأ معكِ أنتِ.

بدا القلق على صوتها وقد التصقَ الهاتف المحمول بيدها.

انتقلت نظرات أوسيان الغائمة من والدتها إليّ، أغرقَت الدموع

عينيها. هي مطالَبَة بشرح موقفها أمام رجال الدرك، فقد قتلت رجلاً بإطلاق ثلاث رصاصات على جسده قبل أقلّ من ثلاثين دقيقة.

لتنتقم.

لتُنقذني...

امتدّت يدها لتلامسَ ذراعي.

- سامحني يا جمال، قالت. سامحنا، كان ذلك...

- إنهم بانتظاركِ، قالت كارمن بإصرار.

نهضت أوسيان وقد خيّل إليّ أنني أرى علامات الحسرة والندم في عينيها.

- سأتّصل بك فيما بعد، همسَت قائلة.

سأتصل بك فيما بعد.

اختفت كارمن وأوسيان داخل سيارة رينو تابعة للدرك، أمام مركب البارامي الذي صعد إليه رجال الدرك وقد ارتدوا قفازات ومعاطف بلاستيكية شفافة. كنت جالساً على الصندوق المقفل، وبدا أنني لم ألفت انتباه أحد منهم. وأمام ناظري رأيت مونا وهي تكلِّم دركياً تقدَّم نحوها.

لم أسمَع شيئاً لأنهما كانا بعيدين عني.

هزَّ الدركي رأسه ثم ابتَعَد، لتقف مونا أمامي بعد لحظات قليلة.

- مرحباً جمال، لا أعتقد بأن الظروف قد سمحت بتجاذبنا لأطراف الحديث منذ «موتي» بالقرب من محطة القطار القديمة في إيفز.

بدت ضحكتها مفتَعَلَة، أو جوفاء إنْ صحّ التعبير، لكنني لم أصدر أيّ ردّ فعل.

عضّت شفتها السفلى، فيما تلاعبت الرياح بخصلات شعرها الأحمر داخل غطاء معطفها الشتوي.

- آسفة جداً يا جمال، لم تكُن تربطك أيّ علاقة بهذه القضية، لقد أخطأنا فعلاً.

سالت المياه الباردة تحت سترتي. لم أكُن أرغب في شيء سوى الانتهاء من الموضوع بسرعة، بتوقيع إفادتي لرجال الدرك والذهاب بعيداً عن هذا المكان.

- أعلم بأنك لن تهتم بكلامي، واصلت مونا. لم أكُن متّفقة معهم منذ البداية، لكنني لم أملك خياراً آخر.

أدرتُ رأسي بعيداً عن عينيها، كانت كارمن قد غادَرَت السيارة مرفوقة بموظفة تابعة للدرك، فيما بقيت أوسيان داخل السيارة.

- كانت كارمن أفريل على حقّ في نهاية المطاف، وربما بيروز أيضاً. لا بد من تحريك الماضي لإجبار الحقيقة الغارقة على الصعود إلى السطح.

تحريك الماضي؟

إجبار الحقيقة الغارقة على الصعود إلى السطح؟

توجد جثّتان متعفّنتان على سطح المركب، لم يتوقع أحد أن تكونا المعنيّتين بهذه الخطّة الشيطانية منذ البداية.

تقدّم رجل درك نحونا، وقد التصقت قبّعته برأسه كما لو جرى تثبيتها بمسامير قوية، فقاطعته دنيز بتسليمه كلبها أرنولد. الظاهر أنّ مونا قد فاوضت للحصول على هدنة تسمَح لها بمحادثتي.

ما الذي ترجوه مني؟

أشعرتها خصلة نافرة بالانزعاج، فأزاحَتها بحركةٍ سريعة. لم تكُن تشبه في شيء تلك الفأرة المذعورة التي عرفتها في السابق.

- لقد أدركتُ بأنك بريء، وبسرعة فائقة للغاية...

سرعة فائقة؟

وضّحي كلامك أكثر يا جميلتي...

بمجرّد ممارستنا للحب أول مرة؟ قبل ذلك؟ بعد ذلك؟ في أثناء ذلك؟

انتبهتُ إلى وجود دركي رابع على متن المركب.

- كنتُ مطالَبَة بلعب دوري حتى النهاية، قالت مونا مدافِعَة عن نفسها. إكراماً لذكرى ميرتي... ومعها لويز وشارل... كان الأمر خيالياً إن صحّ التعبير. أنت تذكر ليلة الأمس في سيارة الفيات بفوكوت عندما قرأت محتوى الظرف البني، ومصير الطفلة الصغيرة في بوشوت وصديقة طفولتها. ميمي ولينا، والحياة الحزينة لطفلة تبكي بجانبكَ وأنت تقرأ هذه الرسالة المجهولة...

ليلة أمس، مضت عشر ساعات فقط، وقد خيِّل إليّ أن عاماً كاملاً قد مضى.

فوكوت، سيارة الفيات، الظرف البني...

«هل كان ذلك عاطفياً؟» سألتني. «شكراً»، أضافت.

لم أفهم شيئاً.

أجبتُها بكلمات مسمومة.

- أذكر ذلك. لقد سخرتِ مني.

- لا يا جمال...

- نعم.. أرفَع لكِ القبعة، أنتِ ممثّلة بارعة.

تلاعبت بخصلة حمراء بين أصابعها، ثم وقفت كتلميذة خجولة والتقطت نفَساً عميقاً.

- لا يا جمال، كنتُ صادقة بخلاف كلّ المظاهر. كنت صادقة للغاية. لن تصدّقني يا جمال إن قلتُ لك إنه بخلاف كلّ ما يتعلق بجريمتَي القتل، لم. . .

ثم أنهت إعلانها بصعوبة.

- لم أكن صادقة في علاقتي برجلٍ ما كما حدَثَ طوال الأيام الماضية.

اصطدَمَت ابتسامتها الباهتة بوجهي.

صادقة؟

بخلافِ كلّ ما يتعلّق بجريمتَي القتل؟

ربما باستثناء الأظرفة البنية أيضاً. . .

باستثناء الزيارة الليلية لمنزل لوميديف، باستثناء زيارة غرفة الأطفال المرضى بالقرب من محطة القطار القديمة في إيفز، باستثناء الحياة المتخيّلة لماغالي فيرون، باستثناء الحياة المتخيلة لفتاة تُدعى مونا ساليناس، المشتغِلَة على أطروحة دكتوراه حول حصى الشاطئ، الطالبة المفضَّلة لمشرفٍ يُدير أكبر مختبر للكيمياء التجريبية في فرنسا ويفتح أبواب فيلته الشاطئية لها، لماذا ستحرمين نفسك من تلك المتعة يا مونا؟ لعب دور فتاة ذكية ومتعلّمة وجميلة. . . لإغواء الجالس أمامها على طاولة في مطعم فندق لاسيرين. . .

- لا شيء حقيقي، همست، لا شيء.

- لا شيء حقيقي ولا شيء مزيف. . . كنّا نتخيل ونؤلّف الحكايات!

انفجَرَت صرخة مكتومة داخل جمجمتي.

- لا تسخري مني!

انشغل جيلبير بالشجار مع دركي حاول إبعاده عن عجلة القيادة، حلّقت النوارس فوق المركب بجنون.

تجاوزت نظراتي كتفَي مونا.

- لا، أنا صدقتكِ.

صمتنا.

تابعتُ مغادرة أوسيان لسيارة الدرك، يحيط بها دركيان، قبل أن يختفوا من جديد داخل سيارة أخرى.

شعرتُ بثقلٍ يجثم على صدري، فأدرتُ بصري نحو مونا.

- لقد صدَّقتكِ يا مونا، كررتُ قائلاً. كما ترين، ما زلت أناديك «مونا». هذا سخيف، أليس كذلك؟ لا وجود لمونا سالِيناس! لم تكُن موجودة أبداً. أنت... أنت مجهولة بالنسبة لي!

تطايَرَت خصلات شعرها حولها لتزعجها كما لو أنّ الأمر يتعلق بسربٍ من بعوض المستنقعات.

- إن كنتَ تعتقد ذلك... قالت بعد صمتٍ طويل، لا تختلف ألينا عن مونا كثيراً، إنها الفتاة نفسها يا جمال، يكمن الاختلاف في ترتيب حروف الاسم فقط، لم نلعب سوى أدوارِنا الحقيقية في نهاية المطاف.

تقدَّمَت أكثر لتقبِّلَ وجنتي، كانت ترتجف وهي تُجبِر نفسها على الابتسام.

- من حقّكَ أن تغضب، لكنني لا أريد منكَ أن تحقد عليّ، إذاً...

لم أصدِر أيّ ردّ فعل، ولم أعلِّق على كلامها. كان التصنّع في لهجتها المرحة واضحاً للغاية.

- هل تذكر لقاءنا الأول يا جمال؟ العشاء الثنائي في مطعم لاسيرين. عندما سألتك إن كنت ستهديني واحدة من تلك البطاقات التي توزّعها على الجميلات في الشارع؟

- كنتُ قد أجبتك بنعم.

- هذا صحيح، ولكن، هل تذكر ماذا أضفت أنا؟

لا أملك أدنى فكرة.

ألقيت نظرة أخرى على الرصيف الفارغ بعد رحيل السيارة التي توجد فيها أوسيان.

- قلت: «أنا متأكّدة ما أن كلّمتك، ستسلمني بطاقتك، يبدو واضحاً تفضيلك للفتيات الرومانسيات الحالمات، اللواتي يتمتعن بجمال خارق، لا حاجة لك بالفتيات المباشرات مثلي. (مرَّرَت مونا أصبعها البارد على خدي) أعتقد بأن هذه هي نقطة ضعف خطتكَ، أنتَ تبحث عن الشكل الخارجي وتجمع الصور كألبومات بانيني وهذا يعني أنك لن تعثر أبداً على الفتاة التي تناسبكَ أنت!».

أثارني ضوء آلة تصويرٍ استخدمها دركي لتصوير المركب، ربما للبحث عن النقطة التي قام سان-ميشيل من خلالها برمي بيروز.

لم يأبَه بنا أحد.

تسلَّلت كلمات مونا إلى رأسي.

يبدو واضحاً تفضيلك للفتيات الرومانسيات الحالمات، اللواتي يتمتّعن بجمالٍ خارق.

لن تعثر أبداً على الفتاة التي تناسبك أنت.

تذكرتُ الآن كلماتها، تلك الكلمات التي لم أعِرْها أيّ اهتمام وقتئذٍ.

- بلا أحقاد، أكَّدتُ بصوتٍ عالٍ. كنتِ محقّة يا مونا، أنا أنجذب إلى النجوم.

اجتازت يدي الفضاء الفارغ تحت ركبتي اليسرى.

- النجوم التي أتطلع إلى الوصول إليها! القمم المستحيلة. الصعود إلى قمة مون-بلان وكل هذه التفاهات. أنا أتدرب بشكلٍ متواصل من أجل ذلك.

- أعلم ذلك، أعلم ذلك منذ البداية. إلى اللقاء يا جمال، فرجال الدرك بانتظارنا. أعتقد بأننا سنكون قادرين على دفن شخصية مونا إلى الأبد، إذاً. . .

تحاول إلصاق اسم ألينا برأسي.

بذَلَت جهداً كبيراً لإخراج شيء ما من جيب سروالها الجينز.

- بالعودة إلى موضوع قممكَ المستقبلية، لقد وضعتُ هذه على مقدمة سيارة الفيات بالقرب من محطة القطار القديمة في إيفز، لكنها انزلقت بعد محاولتكَ الهروب من بيروز، وربما داستها السيارة. . .

دست في يدي نجمة الشريف الصفراء، منبعجة تغطيها بقع سوداء.

- لقد أهدَيتها لي. ابحَث عن حارسة أخرى إذاً.

رفعتُ عينيّ نحو السماء التي ظهر من خلالها شعاع شاحب.

- شكراً مونا، لكنني لم أعُد بحاجة إليها.

تأملت السماء لبعض الوقت، ثم التقطتُ نجمة الشريف بين إبهامي وسبابتي ورميتُها نحو أبعد نقطة ممكنة في البحر.

طارت القطعة المذهّبة للحظات، قبل أن ترتطم بصفحة المياه.

- ما كان عليكَ القيام بذلك، قالت مونا محتجّة، كانت تعويذتك. . .

غاصَت نجمة الشريف في الماء ببطء شديد.

- تميمة حظّكَ، أضافت.

ابتعدت، ولم تكد تنزل ثلاث درجات للوصول إلى الرصيف حتى أخرَجَ أحد رجال الدرك يديه من جيبه لمساعدتها على النزول.

حمل أربعة دركيين آخرين جثّتي بيروز وسان-ميشيل بعد إدخالهما في كيسين بلاستيكيين معتمين.

استدار دركي نحوي وتطلَّع إليّ بلا مبالاة، ربما كان ينتظر مني مساعدتهم في نقل الجثث.

أغمضت عيني، مستسلماً لاهتزازات المركب.

تراقَصَت خمسة أفعال في رأسي.

خمسة توجيهات.

سأصبح... أول رياضي معوّق يشارك في سباق مون-بلان الكبير.

سأمارس... الحب مع امرأة أجمل مني.

سأنجب... طفلاً.

سأكون... سبباً في بكاء امرأة بعد وفاتي.

سأدفع... دَيني قبل وفاتي.

لم أكذب أمام مونا هذه المرة.

لم أعُد بحاجة إلى نجمةٍ تقودني، فقد اقتربت من ملامسة أهدافي بيدي، الهدف الأول لم يعُد سوى مسألة تدريب متواصل، والثاني لم يعُد قمة إيفيرست مستحيلة.

أوسيان...

لم أشعر مثل الآن بالرغبة في أن تساعدني امرأة واحدة على تحقيق ثلاث أمنيات. أمّا فيما يخص الهدف الخامس، فقد أتعبتني مواجهة الموت أكثر من مرة خلال الأيام القليلة الماضية، سأقوم بتأجيله لبعض الوقت...

لا أدري كم من الوقت بقيت جالساً على الصندوق، غارقاً في أفكاري، قبل أن يقترب مني دركي شابّ ومبتسم خُيِّل إليّ أنه متدرب، سلَّمني غطاء وسألني إن كنتُ أرغب في تغيير ملابسي.

أومأتُ برأسي إيجاباً.

- اتبَعْني...

نهضتُ وحاولتُ التقدّم بساقٍ واحدة، فاستدار الدركي بانزعاج كما لو كان يبحث عن النصف الآخر من ساقي الناقصة، أو عن تمساح جائع متحفِّز لقَضم ساقي الثانية.

ثم تحوَّل انزعاجه إلى ضيق وهو يتأمَّل وجهي المشبوه.

ربما وجَدَ هو الآخر صعوبة في تصديق براءة العربي المعوّق من هذه الجرائم. لا دخان بلا نار... ففي نهاية المطاف، قامت جمعية الخيط الأحمر بجمع الأدلة، وكنت المجهول المزدوج، الشخص الوحيد الموجود في أسوء وقت ممكن بالمكانين اللذين وقعت فيها جريمتا قتل مورغان أفريل وميرتي كامو. كنت آخر مَن تحدّث مع بيروز قبل مصرعه... نعم.

بعد كلّ هذا، ما زال ملفّ سان-ميشيل محاطاً بالكثير من الغموض.

بعد كلّ هذا، كنت أصلح ككبش فداء مثالي.

بعد كلّ هذا، ربما كنت كاذباً منذ البداية.

مددتُ يدي إلى كتف الدركي الشاب ليُساعدني على المشي.

أين أخفى ملاعين جمعية الخيط الأحمر ساقي الاصطناعية؟ أعتقد بأنني سأكون مطالَباً خلال الساعات القادمة بإعادة عرض تسلسل ما جرى طوال الأيام الستة الماضية.

وربما كتابته أيضاً، حتى لا أنسى أيّ شيء.

الجيد كما السيئ.

السيئ خلفي، والآتي أفضل.

تذكروا، كان ذلك أوّل مشهد في هذا النص. أتناول عشائي في منزل أجمل فتاة في العالم.

لقد ارتدت فستاناً أزرق، يتراقص نهداها تحت الثوب الذي أملك حريتي في متابعته بعينيّ كيفما أريد.

يمكنني الآن الكَشف عن اسمها.

أوسيان.

أنا على وشك مطارحتها الغرام.

كانت هذه سطور نصّي الأولى، وستكون الأخيرة أيضاً.

معذرة يا عشاق روايات التشويق والإثارة...

ستكون النهاية سعيدة هذه المرة!

45

الآتي أفضل؟

شامبانيا بيبر-هايدسيك، خمر سنة 2005.

كأس.

قطعُ خشبٍ في المدفأة، أمام طاولة قصيرة داكنة اللون، مصنوعة من خشبٍ غريب لا أعرف اسمه، باهظ الثمن بلا شك.

أجلس على أريكة من الجلد المشابه للذي تُصنع منه مقاعد الهارلي وأحذية الغاوتشو وقبعات تيكسانز.

يبدو أن مهنة اختصاصيّة أمراض النساء والتوليد تدرّ على صاحبتها أموالاً طائلة!

أحدَثَت أوسيان جَلَبَة في المطبخ. كأس بيبر-هايدسيك على الطاولة، بالقرب من كومة من الأوراق، مئة وثلاث عشرة ورقة بالضبط. النص الذي أحكي فيه ما جرى طوال الأيام الستة الماضية. أقوم بتحرير السطور الأخيرة، وبعد دقائق أخيرة سأقرأ محتوى الأوراق أمام أوسيان قبل حفظها إلى الأبد.

مَن سيفتح الملف؟

مَن سيقرأ الأوراق؟

هل ستبقى على شكلِ استبطانِ حميمٍ منسيّ داخل دُرج مكتب؟

هل ستتحوّل إلى رواية تشويقية مذهلة أكونُ أنا بطلها الرئيس؟

وماذا عنكم أنتم الذين قرأتم محتوى هذه الأوراق؟

أواصلُ تسويد الصفحات الأخيرة مُحاطاً بكلّ هذه الشكوك.

أطلق رجال الشرطة سراح أوسيان مساء اليوم نفسه، وقد طمأنَها المحامي، بعد تأكيده بأنّ الأمر يتعلّق بدفاعٍ مشروعٍ عن النفس، وهو ما أيّده خمسة شهود. أرادَ فريدريك سان-ميشيل إطلاق النار عليّ، وكان سيقتلني لولا تدخّل أوسيان التي كانت أسرع منه. تواصل المصالح الأمنية تحقيقاتها حول دور بيروز في القضية. سيتمّ الاستماع إلينا مرة أخرى -أو عدة مرات بلا شك- كشهود، رأيت الشفقة في عيون الرائد ويسمان وثلاثة من مساعديه وهو يسألني إن كنتُ سأتقدَّم بشكوى.

أن أتقدم بشكوى. ضد مَن؟

لم يفهموا قصدي فتركوني لحال سبيلي. صحيح أنّ رجال الشرطة يعمَلون ويبحثون وينقِّبون منذ يومين، لكنني أعتقد بأنهم غير مهتمين الآن، بعدما وجدوا مذنباً ودافعاً قوياً لارتكاب الجريمتين وعدداً كبيراً من الدلائل التي تدينه.

فريدريك سان-ميشيل.

تمّ توقيفه، محاكمته، وتنفيذ الحكم بحقه.

تمّ حفظ القضية.

وصلتُ إلى العنوان المطلوب قبل أقلّ من ساعة، تُقيم أوسيان

في منزل صغير منعزلٍ في لوسي، على بُعد بضعة كيلومترات من نوشاتيل-أن-بري، يشبه منزلها الخشبي بجدرانه المجصّصة بيوت الدمى، القشّ والإيريس في السقف. بئر وبركة صغيرة ومتاهة من الصخور الرملية الصغيرة إلى جانب نباتات مقلّمة بعناية شديدة. يبدو أنّ كارمن تقضي ساعات إضافية في حديقة ابنتها.

استقبلتني أوسيان ثم قادَتْني إلى الأريكة الجلدية وسمحَت لي بفتح زجاجة الشامبانيا ثم استأذَنَتْني للصعود إلى الطابق العلوي لتغيير ملابسها. وعندما عادَت بعد دقائق قليلة كانت قد استبدلت سترتها وسروالها الجينز بفستانٍ بلون الخزامى.

انزلَقَ القلم من بين أصابعي، وقد خيّلَ إليّ بأنّ جلد الأريكة بدأ بالانصهار.

مالت نحوي وهي تسلّمني الكأس، ثم ابتعدَت لتذكّي نيران المدفأة، فخيِّل إليّ بأن تراقص خصلات شعرها ينافس تطاير ألسنة اللهب في الموقد.

كان جمالها أكبر بكثير من قدرتي على التحمّل.

تسارعت دقات قلبي فركّزت ناظري على منحيات فستانها لأمنعه من الانفجار.

تقدَّمَت نحوي بخطوات ثابتة.

- لا تعتقد بأنّ طيبتي مرتبطة فقط برغبتي في التمتّع بعفوك.

قالتها ثم ألصقَت شفتيها بشفتيّ لتمنعَني من الإجابة.

- لو رأيتَ ملامحَ وجهكَ عندما زرتَ عيادتي في نوشاتيل. كنتَ كالذي فوجئ برؤية شبحٍ مخيف.

- أو ملاك، قلت هامساً.

وضعت أصبعها على شفتي بدلالٍ وسخرية.

- ورعبك الجميل صباح ذلك اليوم عندما ارتميتُ في الفراغ من على قمة منحدر إيبور.

- ملاك، كرّرت.

قرَّبت كأس الشامبانيا من كأسي.

- هل تسمَح لي بذلك؟

لم تنتظر موافقتي عندما جلسَت على ركبتي بأناقة وخفّة طفلة صغيرة، فحبستُ أنفاسي، ربما لأنسى ساقي الاصطناعية...

- أنت...

وضعَت أصبعها على شفتي مرة أخرى.

- اصمُت...

حاصرَتني بعينيها السوداوين بلون الفحم.

- لَم تطرحي عليّ ذلك السؤال. همستُ في أذنها.

تأملتها وهي تحتسي الشامبانيا ببطء.

- أيّ سؤال؟

- السؤال الذي يطرحه الجميع عن ساقي. ما الذي حدَثَ لها؟ ما قبل أو ما بعد 2004؟

- هذا لا يعنيني في شيء يا جمال.

لم يسبِقْ لي أن حدَّثتُ شخصاً بالغاً عن حقيقة إعاقتي بجدية تامة، لكنني في هذه اللحظة بالذات شعرتُ بأنني لم أعُد راغباً في المراوغة أو الكذب، ففي نهاية المطاف، سأكتب في نهاية هذا النص كلّ كلمة من الحوار الذي جمعني بفتاة أحلامي. أعتقد بأن قرائي المستقبليين يستحقون أيضاً معرفة الحقيقة الكاملة قبل النهاية.

انزلقت يدي على ظهر أوسيان، قبل أن أتكلم بنبرة متآمرة:

- منذ ولادتي وأنا أخترع عشرات القصص المختلفة حول

حقيقة إعاقتي، رويتُ بعضها لأعضاء جمعية الخيط الأحمر، تحدّثت عن عمليات بطولية وحوادث بنهاية تراجيدية، ادّعيت كوني رجل إطفاء أو لصّاً سيئ الحظّ أو حتى ياماكازي قليل الخبرة والحذر. . . لكن الحقيقة أبسَط من ذلك بكثير.

وضعَت يدها على كتفي بحنانٍ بالغ، وأنا أتابع.

- يولد البعض ومعهم شقيق توأم، عندما تُضاعف الحياة كلّ شيء مرتين (ابتسمتُ وأنا أتأمّلها). العكس بالنسبة لي، لأنها قسمت كلّ شيء إلى قسمين ولم تمنَحْني سوى قسمٍ واحدٍ فقط. لقد وُلدت بكلية واحدة ورئة واحدة وساق واحدة وقلب واحد بطبيعة الحال، لكنه ضعيف جداً. كانت والدتي واسمها نادية، في السادسة والأربعين من عمرها عندما حملت بي، فيما تجاوز والدي سن الخمسين، فكنتُ أشبه بالمعجزة الصغيرة. في الخمسة عشر عاماً الأولى من حياتها كامرأة رُزِقَت بطفلٍ كلّ ثلاث سنوات، ولم تُرزق بأيّ طفلٍ في الخمسة عشر عاماً الموالية. . . إلى أن ولدتُ أنا. قضَت والدتي الخمس عشرة سنة المتبقية من عمرها في رعايتي. خضعت لثماني عشرة عملية حتى بلوغي سن المراهقة، وربما قضيتُ في المجموع أزيد من عشرين شهراً طريح أسرَّة المستشفيات. كبرتُ وأنا متأكِّدٌ من أنّ جسمي لن يكبر أبداً. لم أكُن أملك أعضاء جيدة تسمَح لمحرّكي بمتابعة سيره على الطريق إن صحّ هذا التشبيه. يمكن لهذا المحرّك أن يتعرّض للعطب في أيّ وقت ويتركني مرمياً على الطريق، وهكذا صنعتُ مستقبلي وقدري على طريقة آخيل، هل فهمتِ قصدي؟ أن أتقبَّل فكرة موتي صغيرَ السن، شرط استغلالي لكلّ لحظة من حياتي قبل موتي، لن أقوم بتعداد سنواتي المتبقية، بل الأهداف المسطَّرة التي أتمنى الوصول إليها.

- تملك عدداً كبيراً من الأهداف؟ همسَت أوسيان.

كان صوتها حنوناً للغاية، كما لو أنّ اعترافاتي جعلَتْها متيَّمَة بحبّي. فندمتُ على كلّ تلك القصص السخيفة التي ألَّفتُها منذ سنوات مراهقتي الأولى لأثير إعجاب الفتيات.

- خمسة... وهي التي تشكِّل نجمتي.

أمسكَت باليد التي تُداعب ظهرَها بهدوء، ثم ضغَطَت عليها برِفْق.

- رفضَت والدتي الاستسلام لقدر آخيل! يمكن العثور على كلية ورئة وقلب أقوى، وإن تطلَّب الأمر شراء كلّ هذه الأعضاء. وهكذا جابت كلّ مستشفيات فرنسا بحثاً عنها، وتحوَّلَت إلى ما يشبه الكابوس بالنسبة إلى أشهر جَرّاحي البلاد. فتمكَّنت من تأمين عدد من العمليات الجراحية التي تصل تكاليفها إلى ملايين اليوروهات بواسطة بطاقة التغطية الصحية. ثماني عشرة عملية، يمكنكِ تخيّل ذلك. منحتني رئة واحدة عندما صار حجم قفصي الصدري مقارباً لحجم قفصها، بعد بلوغي الخامسة عشر. كانت تلك آخر عملية، فقد اختطف الموت والدتي في الشتاء الموالي.

تشابكت أصابعنا.

- آخر عملية، كرّرت. كنت الرجل الذي تتجاوز قيمته ثلاثة مليارات. أو روبوكوب كما أطلق عليّ أصدقائي في كورنوف. جسدٌ جديدٌ باستثناء ساقٍ وقدم، الأعضاء البشرية التي لا يستطيع أيّ جراح في العالم توفيرها. لكن ساقاً واحدة لن تمنعني من المشي والركض مثل الآخرين، وربما أسرع منهم أيضاً. بدأتُ بالجري ليلة وفاة أمي، ولم أتوقَّف بعد ذلك أبداً.

- فهمت.

- يعرفني كلّ الجيران وسكان الحي الذي أقيم فيه، كان الاستعلام من سكان أيّ عمارة في كورنوف كافياً لتعلموا بأنني معوّق منذ ولادتي، ومن المستحيل أن أكون مغتصِبَ مورغان وميرتي.

- سامحنا.

- هل تعلمين بأنني كبرتُ يوماً بعد آخر وأنا أهرب من الموت، وأطلب من بابا نويل يوم 25 ديسمبر من كلّ سنة أن يمنحني عاماً إضافياً لأعيشه؟... حتى لو قمتُم بإغراقي في سان-ماركوف ما كنتُ لأندم على شيء...

- حتى الأهداف الخمسة التي تشكِّل نجمتك؟

تردّدتُ.

هل تغيَّرتُ؟ هل تخلَّيتُ عن قدر آخيل؟

نزَعتُ أناملي من يدها.

- ستحافظ النجمة على بريقها بعد وفاتي، أليس كذلك؟

ارتعَشَت أوسيان بعدما لحقت يدها بيدي، قبل أن ننزلق شيئاً فشيئاً نحو حافة العالم...

ارتدت أوسيان فستانها بحركة طبيعية، فغلَّفها الحرير كطبقة جلدية ثانية.

- أنا جائعة، قُمْ بإتمام نصّكَ الذي سيفوز بجائزة الغونكور(1)

(1) جائزة الغونكور: جائزة أدبية شهيرة مهتمة بالأدب المكتوب باللغة الفرنسية، تمنحها أكاديمية غونكور كلّ عام لعمل نثري غالباً ما يكون رواية، كما تضمّ فروعاً أخرى كجائزة غونكور للشعر، وجائزة غونكور للرواية الأولى، وجائزة غونكور للقصة القصيرة، وجائزة غونكور لأدب السيرة الذاتية، وجائزة غونكور لطلبة الثانوية بشراكة مع وزارة التربية الفرنسية وشركة فناك المتخصِّصة في تسويق الكتب. -المترجم-

في انتظار وضعي للمسات الأخيرة على وليمتنا!

هل تُتقِن أوسيان الطبخ أيضاً؟

تابعتها عبر البهو وهي تمسك بكأس الشامبانيا بحركة آلية وتختفي في المطبخ.

كان ذلك منذ بضع دقائق.

جلست على الأريكة وأنا أستعيد في ذهني كلّ كلمة، كلّ حركة، كلّ شعور انتابني في الساعة الماضية.

وهكذا انتهت كتابة هذا النص.

فبعد لحظات قليلة سأقوم بقراءته أمام أوسيان.

إنها حكاية جميلة، أليس كذلك؟ سينتهي المطاف بالمعوّق الصغير -الذي اعتقد الجميع بأنه مذنب- بين ذراعي فتاة أحلامه. ما رأيكم؟

نعم، هي نهاية وردية لا تصلح لرواية إثارة وتشويق، لكنها تصلح نهايةً لقصّة حبّ شعبية، **الجميلة والوحش**، لكن برواية أهل الضواحي...

رفعت عيني فوق خزانة نورماندية لأجد كوة دائرية تطلّ على السماء التي زيّنتها عشرات النجوم المتلألئة.

أيّ تلك النجوم هي نجمتي أنا؟

أيّ تلك النجوم هي النجمة التي ستوجّه قدري ومصيري؟

تذكرت حياتي السابقة، التي سأعود إليها يوم الاثنين القادم، في مؤسسة سان-نيكولا، إيبو الذي سيعتقد بأنني مجنون، وأوفيلي

التي جمعَت ربما عدداً آخر من صور المراهقين والشباب، وجيروم بينيلي الوغد الذي سيقتله الحسد.

أوسيان تغني في المطبخ، أعتقد بأنها أغنية **إلى ما فاتنا من أفعال** لغولدمان[1] وإنْ كنتُ غير متأكّدٍ من أنها هي.

تباطأت حركة القلم على الورقة البيضاء، أنا مطالبٌ باختيار الكلمات الأخيرة لنصّي بعناية شديدة.

هل ربحت؟

هل استسلم الموت أخيراً وتخلّى عن مطارَدَتي بالشراسةِ نفسها؟

أمسكتُ بالقلم لعدّة ثوان، حتى أجبرني صوت باب الفرن على الالتفات، عندما ظهرت أوسيان مرة أخرى وهي تحمل قماشة لغَسل الصحون في يدها، فيما داعبت أنفي رائحة قوية، صلصة الصياد التي لم يكُن مسموحاً لي بتذوّقها في المطعم المدرسي، وتتكوّن من الفطر والكراث والكريمة والنبيذ.

- هل أنتَ متأكّد من أنك لم تُخبِر أحداً بوجودكَ معي هنا؟

- متأكّد من ذلك!

احترمتُ رغبتها ولم أخبِر أحداً بقدومي إلى منزلها. ربما تشعر ببعض الخجل من ارتباطها بعشيق معوّق وتخشى رفض كارمن أو جيلبير لهذا الارتباط، أو حتى ردة فعل مونا.

ليست مونا، بل ألينا!

غيرة؟

---

(1) جان-جاك غولدمان (1951-): فنان فرنسي حققت أغانيه شهرة عالمية. -المترجم-

كم أحببتُ مسحة الغموض هذه، أعتقد بأنّ سرّية هذا الحب ستمنحه نكهة إضافية.

وضعتُ قلمي على الورقة للمرة الأخيرة. أرغب في العثور على جملة أخيرة جميلة ومناسبة، بقيت متردّداً وأنا أعضّ غطاء القلم.

- العشاء جاهز! قالت بصوت مرتفع.

حسناً، سأذهب إلى الخيار الأسهل.

كانت هذه الكلمات الأولى في هذا النص، وستكون الأخيرة.

أنا شخص سيئ الحظ، وهذا معروف لدي منذ زمن طويل. كثيرة هي الفرص التي ضلّت طريقها إليّ.

سأكون أكثر صراحة وأقول بأنني ما زلت غير قادرٍ على تصديق تغيير هذا الحظ لمعسكره ووقوفه أخيراً إلى جانبي.

IV

تنفيذ

روسني-سو-بوا، 10 أغسطس 2014

من السيد جيرار كالميت، الوحدة الدركية المكلّفة بتحديد هُوية ضحايا الكوارث (UGIVC)، مؤسسة البحث الجنائي التابعة للدرك الوطني (IRCGN).

إلى السيد الملازم بيرتراند دونابيو، الدرك الوطني، السرية الإقليمية لضاحية إتروتا، سين-ماريتيم.

سيادة الملازم،

أوجّه إليكم هذه المراسلة المقتضَبَة لأشارككم تساؤلاً خاصّاً يتعلّق بقضية الهياكل العظمية الثلاثة التي تمّ العثور عليها يوم 12 يوليو 2014 في شاطئ يبورت. أذكّركم بإيجاز شديد بأنّ الأشخاص الذين أطلقنا عليهم أسماء مؤقتة تسهِّل عملية التحقيق، ألبير وبرنار وكلوفيس، قد لقوا حتفهم خلال فترات زمنية متباعدة، ألبير خلال صيف 2004؛ برنار بين خريف 2004 وشتاء 2005؛ وكلوفيس بين شهرَي فبراير ومارس 2014، كما أنّ التفسير الأقرب لسبب الوفاة هو التسميم عن طريق

الموسكارين، وبجرعة يقول الخبراء إنها قتلت الثلاثة بالسكتة القلبية، في أقلّ من ثلاثين دقيقة بعد تجرّع هذا السم.

لكن مواصلة البحث وضعَتنا في مواجهة تفصيل غريب، ما أجبرني، سيادة الملازم، على طرح سؤالٍ أرجو أن تقبل اعتذاري المسبق إنْ لم تكُن طريقة صياغته مناسبة.

هل أحجَمَت مصالحكم الأمنية عن إرسال عنصر إضافي في هذا التحقيق؟ سأقول، بعبارة أخرى، إن هذا البازل تنقصه قطعة واحدة، لذا أطلب منكم مراجعة كلّ عناصر الملف بتدقيقٍ أكبر.

لأوضح كلامي أكثر، سأقول بأننا استطعنا إعادة تشكيل الهياكل العظمية لألبير وبرنار اعتماداً على العظام التي قُمتم بإرسالها، ويتعلق الأمر هنا بعملٍ دقيق ينجزه خبير الحفريات، وإن كانت هذه العملية مألوفة جداً بالنسبة إلى إدارتنا.

من جهة أخرى، ورغم المجهود الكبير الذي بذلناه، فقد فشلنا في إعادة تشكيل الهيكل العظمي لكلوفيس، الذي أذكّركم بأنه الاسم المؤقت للشخص الذي لقي حتفه مؤخراً، أيّ في شهر فبراير 2014، أياماً قليلة بعد حلّ قضية مقتل أفريل-كامو بوفاة القاتل المفترض، فريديريك سان-ميشيل. وقد تعمَّدتُ استعمال تعبير «مفترض»، لأنني أشرتُ في مراسلتي السابقة إلى أن دي إن آي ألبيرت الذي تعرَّض للتسميم صيف عام 2004، يُطابق نظيره في آثار المنيّ الذي عثرنا عليه في جثَّتَي وملابس مورغان أفريل وميرتي كامو. لم أتوصل إلى غاية اللحظة بأيّ ردّ من القاضي لاغارد، الذي بعثتُ إليه بنسخة من المراسلة السابقة.

يعود الهيكل العظمي لكلوفيس لرجلٍ لم يبلغ عامه الثلاثين بعد، متناسق بشكلٍ تام، لقي حتفه منذ ستة أشهر، وبلغ درجة متقدِّمة من

التحلل. وعندما حاولنا تجميع العظام التي قمتم بإرسالها، وجدنا أنفسنا أمام نتيجة غريبة، رغم كلّ المجهودات التي بذلناها.

هيكل كلوفيس تنقصه ساق واحدة.

في انتظار توصّلنا من مصالحكم الأمنية بتفسيرٍ مقنِع يوضِح حقيقة ومصير هذه القطعة الناقصة أو المفقودة، تقبّلوا مني، سيادة الملازم، أصدق عبارات الاحترام والتقدير.

جيرار كالميت، مدير UGIVC

46

هل ربحت؟

ضرَبَت أوسيان باب الصندوق الخلفي في سيارتها أودي Q3 دون أن تلقي نظرة على جثّة جمال. تأكَّدَت من عدم وجود مَن يراقبها وسط الظلام المخيِّم بالحديقة. الضوء الوحيد القريب من المكان قادم من مصباح الشارع الذي لا يضيء سوى مساحةٍ ضيقةٍ محيطةٍ به.

كان الطقس بارداً، انهمرت ندف ثلج صغيرة ورطبة على أسقف المنازل ورصيف الشارع. لن يفكر أحد في مغادرة منزله هذه الليلة. سيكون المجال مفتوحاً أمام أوسيان لنقل الجثة إلى المكان نفسه الذي يضمّ باقي الجثث.

دخلَت إلى الكوخ باحثة عن بعض الدفء.

تردَّدَت أوسيان كثيراً قبل إقدامها على قتل جمال سلاوي، وهذا مقارنة بباقي الشبان من دون اعتبار لحالة بيروز الخاصة، فقد قامت بالتخلص منه لأنه فهم كلّ شيء وكان على وشك جمع كلّ الأدلة، لذلك طعنته في بطنه ثم رمته خارج المركب عندما كان ثملاً. لم يستغرق منها ذلك سوى دقيقةٍ واحدة.

تقدمت نحو المدفأة، حيث التهمت ألسنة اللهب الأخيرة ما تبقى من حطب.

أمّا فيما يخصّ جمال سلاوي، فالأمر مختلف جداً. الواقع أنه لم يكُن يستحق الموت. كان ضحيّة مثلها. ضحية للنظام، ولحُكم الآخرين وعنفهم التقليدي. هو مجرد كبش فداء بالمعنى الدقيق للتعبير. مجرد بريء تمّ تحميله وزرَ الأخطاء التي ارتكبَها الآخرون.

كلّ الرجال الآخرين.

جمعت أوسيان كلّ أوراق جمال التي بقيت فوق الطاولة، حوالي المئة ورقة، ثم ألقَت بها في المدفئة. لم يحدث شيء في البداية، قبل أن تتعالى ألسنة اللهب وتلتهم الهرم الورقي بسرعة.

كان من الممكن أن يتوصل جمال سلاوي إلى الحقيقة كاملة.

لقد حدَّثَه بيروز عن معضلة السجين، وقام جمال بتدوين كلّ شيء في مذكراته. صحيح أنه لم يفهم كلّ شيء، لكن قارئاً فطناً آخر قد يتمكّن من إعادة تجميع الأدلة التي أهمَلَها جمال، وقد تدفعه التناقضات في الرواية الرسمية إلى التساؤل، وربما الفهم...

نزعت أوسيان فستانها وبقيت للحظات طويلة عارية أمام المدفأة، تاركة حرارة ألسنة اللهب تلفح بشرتها. كانت تستمتع بهذه اللحظات التي يستحيل فيها أن ينظر أيّ رجل إلى جسدها ويشتهيها كلعبة يريد امتلاكها، محاولاً الوصول إليها بشتّى الطرق.

لن يفرّق أيّ فتى بيننا أبداً.

تردَّد صوت مورغان الهامس في رأسها. كانت شقيقتها في السابعة من عمرها، وقد تسلَّقتا شجرة التفاح القريبة من منزل

والدتهما. كان ذلك في فصل الربيع، تساقطت بتلات الورود على رأسيهما وكتفيهما، لتبدو شبيهة بأمطار وردية في قصص الجنيات.

لن يفرّق أيّ فتى بيننا أبداً.

تعاهدتا على الوفاء بذلك العهد. لن تكونا بحاجة إلى فارس أحلام أو أمير أو حتى ملك لتصبحا أميرتين. كانتا شقيقتين، توأماً، تخدم كلّ واحدة منهما الأخرى، دون أن تسمحا لأحدٍ بالتسلل بينهما.

حتى لو تعلّق الأمر ببتلة وردة...

خفَّت حدّة النيران التي التهمت كلّ شيء باستثناء بعض بقايا أوراق مذكّرات جمال، التي تطلَّب احتراقها وقتاً أطول، فمالت أوسيان نحو الرماد لإعادة تجميعه بما يسمح باحتراق ما تبقى في أسرع وقت ممكن. عليها أن تحافظ على حذرها، كما فعلت طوال الأعوام العشرة الماضية. صحيح أنّ جمال الطيب والمُطيع لم يُخبر أحداً بأنه كان على موعدٍ معها، لكن رجال الشرطة سيستجوبونها عندما ينتبه الجميع لاختفائه، وعليها أن تمحو كلّ آثار وجوده هنا، بما في ذلك مذكراته.

تعوّدَت هي ومورغان على تسلّق شجرة التفاح حتى عامهما الثامن عشر، مجدِّدَتين العهد كلّ ربيع، وقد ازداد تقاربهما، وتضاعفت قوتهما، وجمالهما أيضاً، سنة بعد أخرى.

لن يفرّق أيّ فتى بيننا أبداً.

كانتا شبيهتين ببياض الثلج ومرآتها، أميرتان سياميتان، قلبان لكن بدمٍ واحد.

كانت والدتهما بقلبٍ واحد، ولم تكُن بحاجة إلى رجلٍ أبداً. لقد أسَّست أسرتها وحدَها وبَنَت بيديها أجمل منزل في نوشاتل-أن-بري، ووصلَت إلى المجلس البلدي وجمعية النهوض ببيي دو بري وحدها، ولم يوجد أي رجل أبداً بينها وبين ابنتيها.

انطفأت النيران، فسمحت أوسيان لتيار الهواء بدغدغة بشرتها، قبل أن تصعد إلى غرفتها وترتدي سروال جينز أسود وسترة داكنة اللون. حان وقت نقل جثة جمال سلاوي إلى المكان الذي ستجاور فيه الجثتين السابقتين.

كانت شوارع بيي دو كو فارغة تماماً. بلَّلَت الأمطار أوراق وجذوع الأشجار. لا يوجد أي خطر قد يهدِّد بإلقاء القبض على أوسيان. مَن هذا المجنون الذي سيغامر بالخروج في الثالثة صباحاً والتجوّل في شوارع تحاصرها الرياح ورذاذ الثلج؟ أشار ضوء المصابيح الأمامية إلى وجود لوحة إرشادية تقول بأن إيبور على بعد عشرة كيلومترات.

تردَّد وعد مورغان الهامس في أذنها مرة أخرى.

لن يفرّق أيّ فتى بيننا أبداً.

كاد صوت الغيتار ليلة 5 يونيو 2004 أن يفجِّر دماغها. تتابعت مشاهد تلك الليلة أمامها، يرافقها صوت موسيقى صاخبة. تلك الرحلة إلى إيبور رفقة كلارا ونيكولا وماتيو ومورغان، الليلة في سيا فيو وحلبة الرقص.

تحركت ماسحات الزجاج بوتيرة مشابهة لتتابع دقات قلبها، لتمحو آثار قطرات المطر التي تضاعفت قوتها أكثر فأكثر.

لن يفرِّق أيّ فتى بيننا أبداً.

كرَّرَتها أوسيان على مسامع شقيقتها أكثر من مرة، همست بها في أذنها وهما في سيارة كليو التي يقودها نيكولا، بخاصة عندما لاحظَت أنّ مورغان قد غيَّرت ملابسها في المقعد الخلفي، وارتدت فستاناً يُظهر بوضوح مفاتنها. وصرخت في وجهها عندما دخلت إلى حلبة الرقص وأبعدت عنها جيشاً من الرجال بعيونهم الشبيهة بعيون ذئاب متحفِّزَة للانقضاض عليها. كانت موسيقى التيكنو صاخبة، لم تسمعها مورغان الغارقة في نشوة الاستمتاع بالألحان. لم تسمَعْها ولم تأبَه لوجودها أيضاً.

لكنها وعَدَتها أكثر من مرة...

كان نيكولا وكلارا جالسَين على الأريكة يتبادلان القبل. حتى هذا الوغد المدعو ماتيو جرَّب حظّه معها. هل يعتقد الأبله بأنها ستخون العهد من أجل صرصار مثله؟ انهمَكَ هو في شرب الفودكا البرتقالية، هي أيضاً شربت الكثير، وربما أكثر من اللازم، أكثر ممّا شربته طوال سنوات عمرها.

ثم لحقت بهم.

اختارت مورغان أحد الذئاب المتربصين بها، لم يكُن قائد مجموعة، بل مجرَّد ذئب صغيرٍ بأسنانٍ لبنية، يرتدي قميصاً مفتوحاً يظهر صدراً تمت إزالة شعره، ووشاحاً سخيفاً أحمر اللون.

شاهدتهما أوسيان وهما يتبادلان القبل في موقف السيارات، وراقبتهما محتمية بظلام المنحدر وهما يركضان ضاحكين نحو مياه البحر.

لقد وعدتني! صرخ ذلك الصوت داخل رأس أوسيان، **أيّ فتى، أبداً**. عندما قاما بارتداء ملابسهما من جديد (من دون أن

تكلّف مورغان نفسها عناء ارتداء تبانها)، تبعت أوسيان مترنّحة شقيقتها والمجهول الذي يلفّ الوشاح الأحمر حول عنقه وصولاً إلى المعقل الدفاعي القديم. مَن منهما كان صاحب تلك الرغبة في الإمساك بيد الآخر والصعود لرؤية البحر والمنحدر إلى الأبد؟ لم تتمكن أوسيان من معرفة الجواب عن هذا السؤال.

خيِّل لأوسيان -تحت تأثير الكحول- أنّ أسطُح المنازل في إيبور قد تحوَّلت إلى ما يشبه الأمواج الرمادية اللون. بعد مرور دقائق طويلة وابتعاد الذئب الصغير أخيراً، اقتربت أوسيان. كانت مورغان تلفّ حول عنقها وشاح الشخص المجهول.

- لقد أهداني أليكس هذا الوشاح.

اسمه ألكسندر، ألكسندر دا كوستا.

- هذا هو رباطنا. خيطنا الأحمر. سنلتقي مرة أخرى. هو ليس مثل الآخر...

لم تعُد ماسحات الزجاج الأمامي قادرة على محو آثار الأمطار القوية، فخفَّفت أوسيان من سرعتها ثم توقَّفت على جانب الطريق، قبل التقاطع المُشير إلى اتجاه بينوفيل. كانت المشاهد قوية للغاية، ضبابية، وقد تداخلت ببعضها.

تلك الصرخات الليلية، وابتسامة مورغان.

هذا ليس من حقكِ. لقد وعدتني. هذا ليس من حقك.

ضحكات مورغان.

لن يفرِّق أيّ فتى بيننا، أيّ فتى، أبداً.

ضحكاتها المتحدية.

تذكرت أوسيان نفسها وهي تمزّق بأصابعها فستان شقيقتها

لإيقافها، ويديها وهما تضغطان على الوشاح لإسكاتها، ثم دفعها إلى البكاء والتوسّل ثم التشبّث بها.

حتى لا يتسلّل أي رجل بينهما.

تذكرت أوسيان عينَي مورغان الجميلتين وهما تتحجران، وجسدها يسقط فوق العشب الرطب بلا حراك، قبل أن ينزلق عبر المنحدر ويرتمي في الفراغ.

أدارت أوسيان محرِّك سيارتها مرة أخرى، تذكرت آلاف المرات نظرة مورغان التي غاصت في عينيها قبل أن تغيب إلى الأبد. مَن التي لقيت حتفها تلك الليلة، الأميرة أم مرآتها؟

ولا واحدة منهما؟ كلتاهما؟

لم يفهم رجال الشرطة شيئاً. اكتشفوا جثة فتاة جميلة على الشاطئ، مختنقة وفستانها ممزق، توجد آثار مني في مهبلها، آثار اتصال جنسي حديث وعنيف، دقائق قليلة قبل مقتلها: لم تذهب استنتاجاتهم الذكورية سوى باتجاه فرضية الاغتصاب! لم تشعر أوسيان سوى بالازدراء أمام عجزهم الواضح.

تجاوزت السيارة بينوفيل. كانت المدينة نائمة، وقد لا تستيقظ طوال فصل الشتاء. أشارت علامة تحذيرية إلى أنّ الدخول إلى وادي كوري الصغير ممنوع، لكن أوسيان تجاهلتها. كان عليها الدخول لبضع مئات من الأمتار، فوق أرض ترابية موحلة. مَن سيبحث عن جثة جمال سلاوي هنا؟ لا أحد. الشيء نفسه بالنسبة إلى الجثتين السابقتين قبل عدة أعوام. كما ستتولى الأمطار مهمة محو آثار عجلات السيارة صباح اليوم التالي.

لم تبذل أوسيان جهداً كبيراً في العثور على ألكسندر دا كوستا. كان مختبئاً في بلونفيل-سور-مير، في إقامة ثانوية يملكها والداه اللذين حصلا على تقاعد مبكر ويقضيان تسعة أشهر من السنة في أنتيل بسان-فانسنت-إي-لي-غرونادين. كان غبياً، لكنه فهم رغم ذلك بأنه المشتبه به الأول في اغتصاب وقتل مورغان أفريل، كما أنّ وجود منيه وآثار حمضه النووي ووشاحه الأحمر سيُلقي بالقضية كلها على رأسه، إن كَشَفَ عن نفسه ولو للحظة واحدة.

لم تجد أوسيان أيّ عناء أيضاً في إغواء الشاب. اتصلت به وادَّعت أنها توصَّلَت برسالة نصية قصيرة من شقيقتها قبل مقتلها، تكشف من خلالها عن اسم حبيبها: ألكسندر دا كوستا.

لقد اعتقد هذا الوغد بأنّ شخصاً ما قام بمهاجمة مورغان بعدما تركَها وحدها، ربما لأنه كان يريد سرقة حقيبة يدها.

حدَّدَت له أوسيان موعداً في إيفتو، ذات ليلة، في نزل فورمولا 1 الذي لا يوجد فيه أي موظف، ولا توجد فيه سوى آلات توزع كلمات سرّ للدخول ووجبات مجمّدة أو قهوة. قالت أيضاً بأنها لم تُخبر رجال الشرطة بأمر هذه الرسالة لأنها متردّدة... وتفكّر في مقابلته قبل القيام بذلك. قالت بأنها ترغب في فَهم ما جرى وأخذ صورة شاملة عن آخر لحظات شقيقتها قبل وفاتها. صدَّقها الأبله ووافَقَ على عرضها بسرعة.

صعقه جمالُ أوسيان، وصرَّحَ الوحش بأنها أجمل بكثير من شقيقتها. وعندما توقّف قلبه عن الخفقان في تلك الغرفة، تحت تأثير سمّ الموسكارين الذي دسَّته في تلك الوجبة التي تناولها، قامَت أوسيان بالتقاط العازل الطبي بحرصٍ وأفرَغَت محتواه في زجاجة

صغيرة، ثم دسَّت الجثة في الصندوق الخلفي لسيارتها حوالي الثالثة صباحاً.

«لن يفرِّق أيّ فتى بيننا أبداً»، هذا ما قالته وهي ترمي الجثة في ذلك المكان.

استغرق الأمر عدة أشهر قبل أن يبلِّغ والدا ألكسندر دا كوستا عن اختفاء ابنهما الذي يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً، والذي تعوَّد على ربط الاتصال بهما مرة واحدة أو مرتين كلّ سنة. كانا يجهلان حتى مكان إقامته الأخير، فهُما يملكان إلى جانب منزل النورماندي منزلين آخرين في فرنسا، واحد في كوت دازور والآخر في جزيرة ري، كما يملكان منزلاً آخر في جزيرة كريس الكرواتية وشقّة في باليارس. علمت أوسيان بأنّ عدد المختفين في فرنسا يقدَّر بحوالي خمسة وستين ألف شخص سنوياً، تفشَل المصالح الأمنية في العثور على عشرة آلاف منهم. . .

لن يتمكَّن أحد من الوصول إلى علاقة تربط بين القضيتين. . .

تبذُل أمّها كلّ ما في وسعها للوصول إلى هُوية قاتل ابنتها، بلا جدوى. لقد مات، وانتقمت أوسيان لشقيقتها. فمصيرُ الرجل الذي حاولَ أن يفرِّق بين الاثنين، وربما الثلاثة إن أضافَت والدتها، هو أن يرقد إلى الأبد في حفرة منسيَّة بقعر المنحدر.

أوقفت أوسيان سيارتها أودي Q3 خلف أجمة، منتبهة لعدم وجود متسكِّع (إن وُجِدَ أصلاً في مثل هذا الوقت من الليل وفي مكان مماثل) لتبدأ المهمة الأصعب، وهي حَمل الجثة على كتفيها من دون ترك أي أثر أو بصمة أو شعرة أو قطرة عرق، والمشي

لمسافة تقدَّر بمئة وخمسين متراً، غرب الوادي الصغير في كوري.

قبل عشر سنوات، في يونيو 2004، وقبل أن تحدِّد موعداً مع ألكسندر دا كوستا في فندق فورمولا 1 الاقتصادي، قضَت أوسيان أياماً طويلة وهي تتجوَّل بين المنحدرات، وقد اعتقد المارة ورجال الشرطة أيضاً بأنها تفكِّر في الانتحار للّحاق بشقيقتها التوأم. مَن الذي سيفكِّر بأنها تبحث بين المنحدرات عن أفضل حفرة أو بئر طبيعية تسمَح بإخفاء جثة، أو ربما عدّة جثث؟ بئر واسعة قد تسمَح بدفن نصف البشر الموجودين على سطح الكوكب داخلها.

عثَرَت عليها أخيراً، شرق بينوفيل، في منطقة منسيّة بين الأعشاب التي لا تعرفها سوى الأبقار ولم يجرؤ أحد النورمانديين على الاقتراب منها.

حبست أوسيان أنفاسها وهي تفتح الصندوق، كانت قد لفَّت جثة جمال بغطاءٍ ستحرقه فور عودتها إلى نوشاتيل.

كانت تلك ثالث مرة تتوقّف فيها سيارتها في هذا المكان.

ثمّ جاء الخبر الصاعق يوم 27 أغسطس 2004. تم العثور على فتاة ميتة بعد اغتصابها وخنقها بوشاح أحمر بربري في منطقة نورماندي. فتاة تدعى ميرتي كامو. أصيب الجميع بالفزع. لقد عاد القاتل المتسلسل من جديد، وقد ينفِّذ جرائم أخرى. . .

قامت والدة أوسيان بجمع أعضاء جمعية الخيط الأحمر في اليوم نفسه، في قاعة المطعم المدرسي بمدرسة غرانكامب-ميزي التي ساهم رئيس البلدية في توفيرها للحضور. كانت ترغب في مقابلة أقارب ميرتي، والداها وجدّتها وصديقتها المقرَّبة وزوجها المستقبلي. يمرّ الوقت بسرعة، ويجب إيقاف القاتل قبل إفلاته أو

تمكُّنه من تنفيذ جريمة جديدة ومحو كلّ دليل قد يوصِل إليه. كان خطاب الأم راديكالياً، لم يعُد هنالك أيّ مجالٍ للثقة في رجال الشرطة الغارقين في مشاكلهم، وأجورهم المتدنية، وتمسّكهم برغبةٍ واحدة، هي العودة إلى منازلهم في أسرع وقت ممكن، ونسيان كلّ ما يتعلق بهذه القضية المعقّدة.

ضمَّت الطاولة ثمانية أشخاص، باحتساب جيلبير شقيق والدة أوسيان، ثلاثة من جانب أفريل، وخمسة من جانب كامو.

انشغل العم جيلبير -في الطريق من نوشاتيل إلى غرانكامب- بشتم الباريسيين الذين يملؤون المكان في تلك الفترة من شهر أغسطس، فيما كرَّرت والدة أوسيان أكثر من مرة: «لقد عاد، سنُمسك بالحقير هذه المرة، لقد عاد»، أمّا أوسيان فقد شكَّلَت قناعتها الخاصة: القاتل يعرف ميرتي كامو! بل هو واحد من أقاربها وأوّل شخص قد يشكّ فيه رجال الشرطة. وإلّا لماذا قام بتكييف مسرح الجريمة وظروفها لتتحوَّل الأنظار نحو قاتل تبحث عنه الشرطة النورماندية، قاتل يغتصب ضحيته ثم يخنقها باستخدام وشاح بربري أحمر اللون؟ لماذا يكلِّف نفسه كلّ هذا العناء لدفع الجميع إلى الاعتقاد بأنّ الأمر يتعلق بقاتل متسلسل؟

قاتل متسلسل لا وجود له! هذا سرّ لا يعرفه سوى اثنين: قاتل ميرتي كامو... وأوسيان.

عندما أوقَفَ العم جيلبير سيارته الميرسيدس E العتيقة في موقف السيارات بمدرسة جان ماريون في غرانكامب-ميزي، كانت أوسيان تبذُل كلّ ما في وسعها لإخفاء انفعالها، هل يوجد قاتل ميرتي كامو بين أقاربها الخمسة الحاضرين؟

أسقَطَت أوسيان جثة جمال بعدما آلَمَها ظهرها. فثلاثون متراً كانت كافية لتشعر بالتعب. لن تتمكَّن من حَمل الجثة على ظهرها وصولاً إلى تلك الحفر الطبيعية الشبيهة بالآبار. فكَّرَت لبعض الوقت فتبيَّن لها أنّ جره هو الحلّ الأمثل. جرّه ثم تنظيف الآثار بعد ذلك. تنهَّدَت بعمق.

انتقل تفكيرها -رغماً عنها- إلى غرانكامب-ميزي، ليلة اكتشاف جثة ميرتي، وذلك الاجتماع مع عائلة كامو في قاعة المطعم المدرسي. ارتكبَت خطأ تلك الليلة، هو الخطأ الوحيد طوال السنوات العشر الماضية. خطأ كان سيكلِّفها الكثير.

بمجرد دخولها إلى قاعة المطعم المدرسي وتطلّعها إلى وجوه الأشخاص الخمسة الجالسين خلف الطاولة ثمانية الأضلاع، اتّجهت شكوكها نحو إقدام فريدريك سان-ميشيل على قتل خطيبته، وبدا لها بأنّ والدَي الضحية وصديقتها المقرَّبة بعيدون عن ارتكاب مثل هذه الجريمة. وهكذا راقبَت فريدريك طوال الأمسية وحلَّلَت كلّ حركاته وتصرّفاته وارتعاشاته وردود أفعاله.

ساعة واحدة كانت كافية لتتأكّد قناعتها. فريدريك سان-ميشيل هو قاتل ميرتي كامو.

لكنها نسيت تفصيلاً جوهرياً.

يمتلك قاتل ميرتي كامو نقطة التفوق ذاتها، هو يعلم بأنّ القاتل المتسلسل مجرّد وهم تخيّله رجال الشرطة، وربما يشكّ هو الآخر في وجود قاتل مورغان أمامه في القاعة نفسها.

عندما التقت نظراتهما أخيراً، فهما بعضهما من دون أن يتبادلا كلمة واحدة. أوقَعَت أوسيان نفسها في الفخّ بعدما راقبته بإصرار ملحوظ. مَن الذي سيشك فيه؟ مَن سيشكّ في فرضيّة وجود قاتل

متسلسل أو أنّ مورغان لم تُقتَل على يد متسكّع يرتكب جرائمه بشكلٍ عشوائي؟

مَن، باستثناء قاتلها؟

لقد جمع بينهما اتفاق صامت.

كانت تفكّر في الطريقة الأمثل لجرّ جثة جمال، لكنها لم تتخلّص رغم ذلك من الذكريات المرتبطة بتلك النظرية التي قام بيروز بنبشها، معضلة السجينين، الشريكان وإمكانية خيانتهما بعضهما لبعض، وبالتالي فقدانهما لكلّ شيء، أمّا إذا صمَتا وتعاوَنا فسيفوزان معاً، إلى أن يتأكّد أحدهما من قدرته على خيانة شريكه قبل تمكّنه من الردّ. الربح الأقصى بحسب النظرية. كان بيروز أقلّ غباءً من الجميع، وتمكّن من اكتشاف الحقيقة، لكن صوته كان أعلى من اللازم بعد إفراطه في الشرب، فسمعَت كلامه خلف جدران قمرة مركب البارامي.

انتهى اجتماع جمعية الخيط الأحمر الذي عُقِدَ في المطعم المدرسي ليلة مقتل ميرتي كامو حوالي منتصف الليل. عادَ الجميع إلى سياراتهم ثم فنادقهم بأعينٍ محمرّة. قبل المغادرة بقليل، ذهبت أوسيان إلى المراحيض الملاصقة لقاعة المطعم المدرسي، فلحقَ بها فريدريك سان-ميشيل شاحبَ الوجه.

«كانت حادثة، تمتَم بنبرةٍ مضطربة، حادثة، لم أكُن أنوي خنقها، كنا سنتزوّج، كانت تحبّني، ولم تكُن ستتخلى عني. كانت مجرّد نزوة عابرة، لم يكُن ذلك الشاب ذا أهمية بالنسبة لها. كانت ميرتي مغرَمَة بي، وقد مارسنا الحب آخر مرة قبل أن. . .

- باستخدام الواقي الذكري، أليس كذلك؟».

تأملها سان-ميشيل للحظات، لا يختلف في شيء عن الآخرين. فكَّرت أوسيان منذ تلك اللحظة في التخلّص منه، مثل الآخرين. وستفعل ذلك متى ما أتيحت لها الفرصة، بعد انحسار كلّ الأخطار الممكنة.

«نعم، قال باستسلام.

- طيب، سأمنحكَ هدية قيمة!».

أخرجت أوسيان الزجاجة من جيبها، وبدا أنّ سان-ميشيل لم يفهم شيئاً ممّا تقصده.

«لقد حصلتُ عليه من الشخص الذي قام باغتصاب شقيقتي، قالت أوسيان موضِحَة. بعض الثرثرة ضرورية في حالات كهذه».

أمسكت يدا سان-ميشيل بالزجاجة وهو يتكلَّم مدلياً باعترافاتٍ كما لو كان واقفاً أمام كاهن في كنيسة، عندما ماتت خطيبته قام بإخفاء جثَّتها تحت نباتات السرخسيات في غراند كاريير، راجياً عدم تمكُّن أحدٍ ما من اكتشاف الجثة قبل عودته، وعندما أدرك بأن الشكوك ستتّجه نحوه، فكَّر في اتباع الخطوات نفسها المتعلِّقة بجريمة إيبور التي تحدَّثَت عنها وسائل الإعلام لعدة أشهر. ذهب سان-ميشيل إلى دوفيل ودلف إلى محلّ بربري واشترى قميصاً بمئة وخمسين أورو لعدم إثارة انتباه موظّفات المبيعات في أثناء دسّه لوشاحٍ أحمر اللون داخل معطفه، ومرَّ في أثناء عودته بشاطئ مقفر في أسنيل، وملأ وعاء بماء البحر ليرشّ به جَسَد ميرتي. وهكذا بعد عودته إلى غراند كاريير قام بسرقة حقيبة يدها وتُبانها، مكرِّراً بذلك الشيء نفسه الذي قام به قاتل مورغان أفريل. مع غياب تفصيل مهمّ

هو دفتر مذكّرات ميرتي الذي دوّنت فيه أدقّ أسرارها، الذي لم يعثر له على أيّ أثر في حقيبة يدها.

تناهى إلى مسامعهما صوت والدة أوسيان في نهاية الممرّ.

- أوسيان! هيا بنا!

- أنا قادمة يا أمي.

سلَّمَت أوسيان الزجاجة لسان-ميشيل.

تعاون - تبادل.

هو عرض بسيط، لكنه يبرِّئ كليهما.

صباح اليوم التالي، عثَرَ رجال الشرطة على تُبان ميرتي كامو معلَّقاً على شجيرات العليق، على بُعد مئات الأمتار من غراند كارير، ملطَّخاً بمني المغتصِب، والمطابِق تماماً للمني الذي وُجِدَ في مهبل مورغان أفريل.

كان ذلك دليلاً قاطعاً على وجود قاتل واحد فقط.

قاتل متسلسل يختار ضحاياه عشوائياً.

انقطعت أنفاس أوسيان من شدّة اللهاث، فقد قامَت بجرّ جثة جمال لعشرات الأمتار. بقي عشرون متراً تقريباً، قبل أن ينتهي كلّ شيء. أضاءَ المكان قمرٌ شاحبٌ وبعض النجوم المتناثرة. تضاعفَت قوّة زخات المطر، بما سيُساهم في إخفاء كلّ الآثار. ما يعني أنه مع حلول صباح اليوم الموالي سيختفي كلّ شيء. رفعَت أوسيان غطاء معطفها، وفركَت يديها ببعضهما، ثم واصلت العمل.

رنّ جرس حظ أوسيان بعد ظهر يوم 6 أكتوبر 2004، في هاتفها المحمول المستقر في جيبها. كانت وقتئذٍ سكرتيرة في جمعية

الخيط الأحمر، وقد انشغلت والدتها بتوزيع إعلانات تدعو من خلالها كلّ الشهود الذين لم يجدوا الشجاعة الكافية للحديث مع رجال الشرطة إلى التواصل مع الجمعية.

كان صوت أوليفييه روي خجولاً.

«أنا هو الشابِ الذي يبحث عنه الجميع، قال بصوتٍ مختلط ببكاءٍ طفولي. الشاب الذي يرتدي قبعة أديداس الذي لاحقَ ميرتي لبعض الوقت. الشاب الذي تبحث عنه الشرطة...».

أمَرَته أوسيان بالصمت، وعدم إفشاء سرّه، أرادَت تحديد موعدٍ معه في فندق فورمولا 1 بإيفتو في الليلة ذاتها، لكنه رفض. بعيد جداً، متأخّر جداً، وخطير جداً. لكنها تمكَّنَت من إقناعه باللقاء في مكانٍ معيّن على بُعد بضعة كيلومترات من مكان إقامته، جنوب إيسني، بالقرب من مجرى مائي في كارنتان.

«لم أقتلها يا سيدتي، واصَلَ بصوته الباكي عبر الهاتف. كلّهم يعتقدون ذلك لكنني لم أقتلها، كنت أحبّها، وكانت تخطّط لتَرك خطيبها، كانت تكتب بعض القصائد من أجلي. كانت تكتبها في دفتر مذكراتها.

- الدفتر معك؟

- نعم، ولكن...

- قُمْ بإحضاره معك.»

اعتقد أوليفييه روي -مثل الآخرين- بأنّ ميرتي كامو كانت ضحية أحد المتسكعين، لم يكن يملك أيّ سببٍ يدفعه إلى الشك في غريمه سان-ميشيل. وقد منعه التردُّد من تسليم نفسه لرجال الشرطة، فقضى أياماً طويلة داخل غرفته، أو متجوِّلاً في بعض الأماكن

المقفرة. هو يدرك بأنّ إثبات براءته سهل للغاية، لكن رجال الشرطة يبحثون عن مشتبهٍ به يحمِّلونه وزر الجريمتين، كما قاموا بتوزيع صورة تقريبية له في كلّ مدن وبلدان المنطقة، سيحيطون معصميه بالأغلال قبل أن يجد الفرصة لشرح وجهة نظره. لذلك فكَّر في الاتصال بأعضاء جمعية الخيط الأحمر التي تملك غالباً خطوط اتصالٍ مع المحامين، وربما تعرف بعض تفاصيل التحقيق في القضية، سيستمعون له، ويوجِّهون له بعض النصائح، وربما يشرحون له كيفية التعامل مع رجال الشرطة.

التقى أوليفييه بأوسيان، وسلَّمَها كلّ ذكريات ميرتي، دفتر مذكّراتها، رسائلها، قصائدها، وقد ارتسمت علامات الارتياح على وجهه، عكس أوسيان التي فكَّرت في أنّ وصول روي إلى رجال الشرطة يعني تحوّلِ الشكوك نحو فريدريك سان-ميشيل، وإذا سقَطَ هذا الأخير، فستسقط معه...

لن يفرّق أيّ فتى بيننا أبداً.

يومها قامت أوسيان بفتح حقيبتها، كان الجو صحواً والساعة تُشير إلى حوالي الثانية عشرة. وُجِدت طيور البط بكثرة في المجرى المائي، وبدا أنّ أوليفييه روي بطبيعته الرومانسية الميّالة إلى الاكتئاب قد أعجِبَ بالمنظر. أخرَجَت أوسيان زجاجة كوكا كولا وقطع بيتزا وبعض الحلويات الشرقية، فوافق أوليفييه على مشاركتها الطعام. شعَرَ في البداية بأنها أكثَرَت من البهارات، لكن نظراته تثاقَلَت، وارتخت عضلاته قبل أن يسقط بلا حراك ككلب صيدٍ، وبالفعل، توقّف نبض قلبه بعد دقائق قليلة.

في اليوم الموالي، توصَّل سان-ميشيل في صندوق بريده بقصيدة كتبَتْها خطيبته الراحلة. لقد لعبت أوسيان لعبتها.

تعاون - تبادل.

كان سان-ميشيل ذكياً، لذلك استعانَ بالقصيدة في أثناء تحقيق الرائد باستيني معه ليحمي نفسه. في الوقت الذي انشغَلَت فيه ألينا الصغيرة بعدّة تساؤلات، عطفاً على ما كانت تعرفه عن الأيام الأخيرة لصديقتها الحميمة.

تقدَّمت أوسيان بحذر، لم تعُد تفصلها عن الحفرة سوى أمتارٍ قليلة، وقد حرصَت على إزاحة ثمار العلّيق التي قد تلتصق بأيّ شيء. صحيح أنّ رجال الشرطة عميان، لكنهم مهووسون أيضاً، قد تكون قطعة ثوب صغيرة ملتصقة بشوك الثمار كافية لمعرفة هوية مَن أتى إلى هنا للتخلّص من «النفايات».

باختفاء أوليفييه روي، انكمَشَ التحقيق بشكلٍ ملحوظ، تخلّى رجال الشرطة عن القضية متجاهلين غضب والدة أوسيان، وقاموا بتسليم الملفّ لدرك فيكامب، وبالتحديد الضابط بيروز.

وهذا يعني العودة إلى نقطة البداية.

تمسكت والدة أوسيان بفرضية القاتل المزدوج، الشخص الذي وُجِدَ في إيبور وإيسني. . . ولم تعترض أوسيان بطبيعة الحال. سيمنع ذلك -على الأقل- ارتماء الأم في أحضان الجنون. استمرّ الوضع على ما هو عليه لعدّة أعوام. تقرَّبَت أوسيان من ألينا ماسون، صديقة ميرتي كامو الحميمة، وتمكَّنَت شيئاً فشيئاً من زرع الشكّ داخلها، لتهيئتها لليوم الذي ستتخلّص فيه من سان-ميشيل، الفيروس، أو حصان طروادة في القرص الصلب لدماغها، والسؤال المغري.

ماذا لو أنّ ميرتي لم تُقتَل على يد متسكع؟

ماذا لو أنّ ميرتي تعرف قاتلها؟

وذات يوم جميل من شهر مارس 2013، ظهر اسم جديد: جمال سلاوي. المسكين سيئ الحظ الذي ظهَرَ في المكان السيئ، وفي أسوء وقت ممكن. لكنها معلومة لا يعرفها سوى سان-ميشيل وأوسيان.

عندما وضعت كارمن خطّتها المجنونة، تلك التمثيلية المعقَّدة للإيقاع بسلاوي، وافقَت أوسيان على الفور. كان كلّ شيء في مكانه. وكانت تلك فرصة مثالية للتخلّص من سان-ميشيل. فتصوَّرت نهاية غير اعتيادية في سان-ماركوف، وعرَضَت فكرتها على والدتها. ثم تولَّت أمر بعض التفاصيل الصغيرة قبل بدء الخطّة، كنزع قطعة طوب في جدار القلعة وإخفاء مذكّرة ميرتي كامو خلفها، ثم كتابة M2O على قطعة الطوب، ومساعدة ألينا على كتابة محتوى الأظرفة التي سيتمّ إرسالها إلى جمال سلاوي، لربما فَهِمَ هو الآخر في الوقت المناسب... هذا قبل المرور إلى فريدريك سان-ميشيل واستعمال نسخة مقلَّدة من مفاتيحه التي سُرِقَت بعناية في واحدة من الاجتماعات الكثيرة لأعضاء جمعية الخيط الأحمر، وإخفاء حقيبة يد مورغان -التي احتفَظَت بها أوسيان طوال تلك المدة- داخل شقته، ودسّ زجاجة تحتوي على بقايا مني ألكسندر دا كوستا داخل درجٍ منسيّ في حمّام الشقة. طبيعي ألّا يكون سان-ميشيل غبياً إلى هذه الدرجة حتى يحتفظ هو بمثل هذه الأدلة في منزله.

صباح اليوم التالي، قامَت بالقفز من على قمة المنحدر، أمام عيني جمال سلاوي، ومن علوّ يُقدَّر بحوالي مئة وعشرين متراً، مع الاستعانة بمظلّة هبوط صغيرة. وبذلك انطلق الوحش الآلي ولم يعُد

أحد قادراً على إيقافه، حتى لو كان بيروز نفسه. لقد حارَبَ جمال سلاوي وحشاً آليّاً كان سيسحقه عاجلاً أم آجلاً.

لقد أخطأ هذا الخبير الاقتصادي الذي يُدعى أكسيلرود عندما عرض أسلوبه لحلّ معضلة السجينين.

تعاون - تبادل - تسامح.

لن يحدث هذا إلّا إذا التقى الشريكان بعد مغادرة السجن ورغبتهما في التعاون من جديد، أو ربما الانتقام. الطريقة الأمثل هي ألّا تحدث الخيانة سوى مرة واحدة فقط، وبشكلٍ نهائي.

ضربة بضربة. مَن سيُطلق النار أولاً.

تعاون - خيانة - عقاب.

أصبحت جثة جمال قريبة جداً من الحفرة التي قدَّرت أوسيان عمقها بحوالي ثلاثين متراً، وربما أكثر إذا أخذنا بعين الاعتبار تلك الأنفاق الموجودة تحت الكلس. طبيعي أن يأتي بعض القرويين إلى المكان، غالباً للتخلّص من بعض المتلاشيات، لن يفكّر أحد بطبيعة الحال في النزول إلى قعر الحفر.

في أفضل الأحوال، قد يعثر خبير آثار على الهياكل العظمية الثلاثة بعد خمسين عاماً، وسط مخلفات الكلاب والتلفزات القديمة وآلات التصبين الصدئة، وربما بعد مئة عام، أو حتى غداً، أيّ علاقة سترتبط بين الهياكل وأوسيان؟ حتى إذا تمّ تحديد هُوية الموتى والتعرّف على تاريخ الوفاة وطريقتها -وهو ما سيتمكّن رجال الشرطة العلمية من كشفه- لا شيء، أي شيء، سيربطهم بها أو يمكّنهم من إدانتها.

كانت حذرة للغاية، وتُقنِع نفسها بأنهم هم الذين اندفعوا إلى شبكتها العنكبوتية، من دون أن تكلّف نفسها عناء جذبهم.

كرَّرَت للمرة الأخيرة، كما لو أنّ الأمر يتعلق بتعويذة: «لن يفرِّق أيّ فتى بيننا أبداً»، وهو ما تحوَّل الآن إلى ما يُشبه اليقين. لقد دفع كلّ هؤلاء الرجال الثمن، كلّ الرجال الذين اقتربوا منها لقوا حتفهم.

فكَّت الأربطة ونزعَت الغطاء فانزلقَت جثة جمال ببطء كما لو أنّ الأمر يتعلّق ببساط أحمر جرى فرده أمامه ليتقدَّم نحو حفلته الأخيرة، وبالفعل، اندسَّ جسده داخل الحفرة من دون أن يُصدر أيّ صوت.

انتهى كلّ شيء.

كانت أوسيان متحمِّسَة للعودة إلى نوشاتيل-أن-بري، لكنها مطالَبَة بالحذر والتأكُّد من عدم تَركها لأيّ دليل قد يقود إليها، حتى لو تعلّق الأمر بالمصباح اليدوي الصغير الذي استعانَت به لمعرفة الطريق.

كم هي متحمِّسة للعودة إلى منزلها.

كم هي متحمِّسة لرؤية والدتها.

تطلَّعت أوسيان إلى الخيال الشاحب لشجيرات الكستناء التي استسلمت للرياح.

كم هي متحمِّسة لرؤية شجرة التفاح القديمة وهي تُزهر من جديد مع حلول فصل الربيع.

V

مراجعة

فيكامب، 13 أغسطس 2014.

من السيد الملازم بيرتراند دونابيو، الدرك الوطني، السرية الإقليمية لضاحية إتروتا، سين-ماريتيم.

إلى السيد جيرار كالميت، الوحدة الدركية المكلّفة بتحديد هُوية ضحايا الكوارث (UGIVC)، مؤسسة البحث الجنائي التابعة للدرك الوطني (IRCGN)، روسني-سو-بوا

سيادة المدير،

جواباً على مراسلتكم بتاريخ 10 أغسطس 2014 المتعلّقة بتحديد هُوية الهياكل العظمية التي أطلقنا عليها توالياً أسماء ألبير وبرنار وكلوفيس، التي تمّ العثور عليها في شاطئ إيبور يوم 12 يوليو 2014، ورداً على قلقكم بشأن «قطعة البازل الناقصة»، أطمئنكم بداية، وأعلمكم بأنّ ساق المسمى كلوفيس ليست ضائعة، ولم تهملها إدارتكم أو مصالحنا الأمنية، ولم تبتلعها أمواج البحر بعد انهيار الجرف.

بعد اطّلاعنا على مراسلتكم، قمنا بإجراء مقاربة سريعة مع عنصر

أساسي في قضية أفريل-كامو، يتعلّق الأمر بجمال سلاوي، شاب تمّ الاشتباه في كونه مغتصب وقاتل الفتاتين. ستفهمون أسباب استنتاجنا بيُسر. عانى جمال سلاوي من إعاقةٍ أجبَرَته على تعويض القسم السفلي من ساقه اليسرى ببدلة ساقٍ اصطناعية. كما أنه اختفى عن الأنظار منذ ستة أشهر، أياماً قليلة بعد حلّ لغز قضية أفريل-كامو. ومن دون سبب واضح، ومن دون تفسير مُقنِع.

الواقع الذي لا يمكننا إنكاره هو أنّ اكتشافكم هذا قد أعادَ فَتح القضية من جديد، ومن المنطقي القول إنّ جمال سلاوي قد قُتِل، ولسببٍ مجهول.

سأكون أكثر صراحة سيادة المدير، وأقول إنه بغياب علامات أخرى، باستثناء الهيكل العظمي، ما كنّا لنصلَ إلى مخرج من دوامة هذا التحقيق، وإنْ حامَت الشكوك حول الاستنتاجات النهائية لقضية أفريل - كامو. يصعب علينا إذاً اتهام فريديريك سان-ميشيل بتسميم جمال سلاوي وقد قُتل ثلاثة أيام قبل اختفائه! لم يكُن أحد ممّن تربطهم علاقة بهذه القضية، لا من قريب ولا من بعيد، مناسباً لإيقاظ شكوكنا حيال الموضوع. وبغضّ النظر عن هويته الحقيقية، فإنّ الشخص الذي قامَ بتسميم الرجال الثلاثة، الذين عثرنا على هياكلهم العظمية، قد تصرَّف بطريقة دقيقة ومنهجيّة حذرة.

دفعتنا مراسلتكم إلى إعادة فتح ملف اختفاء جمال سلاوي من جديد، التي تولّى أمرها في تلك الفترة الدرك الوطني في فيكامب وشرطة مدينة روان. قُمنا باستجواب كلّ أقارب سلاوي وأصدقائه، وكلّ مَن تربطهم علاقة بقضية أفريل-كامو، وأعضاء جمعية الخيط الأحمر المنحلة، وزملاء سلاوي في مؤسسة سانت-أنطوان. لم يكن أحد على علمٍ بشيء. كان جمال سلاوي شاباً كتوماً، انطوائياً، بنى قوقعة لم يكن

يَسمح إلّا للقلة القليلة باختراقها. رئيسه المباشر، جيروم بينيللي قدَّمَه على أنه أقرب ما يكون إلى الكآبة. وصولاً إلى احتمال تسميم نفسه بالموسكارين ورمي نفسه في الهوة إلى جانب الجثتين السابقتين، وصلنا إلى ما يمكن اعتبارها خطوة لم نستطِعْ تجاوزها.

كنّا على وشك مغادرة مؤسسة سانت-أنطوان وحفظ القضية، عندما قدَّم شاهد أخير نفسه بطريقة عفوية. يتعلق الأمر بفتاة أرادت «التحدّث مع رجال الشرطة» بأيّ ثمن، كانت تصرخ في الممرات، لكن المربين المعتادين على صخبها قاموا بعزلها في غرفتها طوال فترة زيارتنا.

نجحت الفتاة في مسعاها عندما قامت بمناداتنا من نافذة غرفتها في الطابق الثالث وكنّا نستعد للعودة إلى سياراتنا. هي مراهقة في الخامسة عشر من عمرها، نزيلة في المؤسسة العلاجية من الاثنين إلى الجمعة، وتخضع لعلاج مضاد الاكتئاب 24 ساعة على 24. يقول موظفو المؤسسة بأنّها غير متّزنة نفسياً وتُعاني من اضطراباتٍ جنسية مرتبطة بطفولتها الصعبة. حالة كلاسيكية في مؤسسة كهذه على حدّ قولهم. كانت متيّمة بجمال سلاوي وتَطلَّب الأمر توجيه عدة تحذيرات للشاب حتى يحافظ على مسافة مناسبة في علاقته معها ويفسح المجال للاختصاصيين في تعاملهم معها. على هذا الأساس، كانت شهادة أوفيلي بارودي، وهو اسم المراهِقَة، ذات مصداقية ضعيفة نوعاً ما.

حاول أحد المربّين جرّ الطفلة لإبعادها عن النافذة، لكنها تشبَّثت بالحافة، ثم الستارة، ثم سترة المربي الذي أوسَعَته ركلاً. كانت في حالة هستيرية.

أعلنت رغبتي في الاستماع لما تريد الطفلة قوله. سأكون صريحاً وأقول بأنّ أوفيلي لم تكُن تملك شيئاً لتقوله...

كانت تملك شيئاً ما لتُريه لنا!

استعادت هدوءها عندما وقفت أمامي أنا ومساعديَّ الاثنين، كانت

تلهث، كغزالة أفلتت من الضباع، واكتفَت بدسّ هاتفها المحمول في يدي.

وجدتُ على الشاشة رسالة نصية قصيرة.

قرأتُ الاسم.

اسم جمال تؤطره علامتان مبتسمتان.

أثارت انتباهي ساعة وتاريخ الإرسال.

25 فبراير 2014. التاسعة مساء وثماني عشرة دقيقة.

اليوم نفسه الذي اختفى فيه سلاوي. لم يرَه أحد بعد ذلك اليوم، ولم يظهَر إلّا بعد ستة أشهر، جثةً متحلِّلة. لم تكُن الطفلة تهذي. كانت آخر من اتّصل بسلاوي.

خفضتُ بصري لأقرأ محتوى الرسالة. كانت قصيرة ومقتضبة.

20/20؟

كان من الممكن أن تكون الرسالة بلا معنى، لو لم تكُن مرفوقة بصورة. صورة مسروقة، مركّزة على ظهر وجانب وجه شابة ترتدي فستاناً بلون الخزامى الزرقاء وتحمل قماشة في يدها، منشغلة في غرفة لا يمكن إلّا أن تكون مطبخاً.

شابة جميلة جداً.

لم يكن من الصعب التعرّف عليها، وإن كانت الصورة ضبابية. لقد أخرَسَتْني هُويّتها الحقيقية.

أوسيان أفريل.

إنها شقيقة الضحية الأولى، كنت قد استجوبتها أكثر من مرة مستفسراً عن اختفاء سلاوي، من دون أن أشكّ ولو للحظة في هذه الفاتنة الذكية القوية رغم التجارب القاسية التي تمكّنَت من تجاوزها.

سيادة المدير، أنت على علمٍ بكلّ شيء الآن.

أجريتُ اتصالاً بالدرك الوطني في نوشاتيل-أن-بري، وتمّ الاتصال

بأوسيان أفريل في عيادتها المتخصِّصة في توليد النساء بعد دقائق قليلة. هي محتجَزَة حالياً في مركز اعتقال في فينييت بفال-دو-روي، ويمكن القول بأنّ تقارير الأطباء النفسيين الأولية تُدينها بشدّة.

منذ ذلك الحين، أجرينا بحثاً معمّقاً، وتمكّن خبراء المعلوماتية من العثور على أثرِ نصٍّ كتبه جمال سلاوي في حاسوبه المحمول، في الأيام القليلة التي تلت الحلّ المفتَرَض لقضية أفريل-كامو. لقد قرأت النص، وهو رائع للغاية. يتقاطع هذا المخطوط مع مراسلاتنا سيادة المدير، ليقدِّم لنا قصَّة سيتصارع عليها الناشرون. وأعتقد بأنّ سلاوي يستحقّ أن ينال هذا الحظ.

لن أمنع نفسي من توضيح عنصر أخير سيادة المدير، وإن لم يكُن ليُضيفَ شيئاً للقضية. ردَّت أوفيلي بارودي بسرعة على رسالة جمال سلاوي. وتشير تقديراتنا إلى أن سلاوي قد تجرع الموسكارين وقتها، وكان موته بعدها مسألة وقت لا أكثر.

كان الردّ مختصراً، مماثلاً لرسالة نصّية بعثها جمال لأوليفييه قبل بضعة أيام. ولو أردتَ رأيي الشخصي، لقلت بأنني أتجاهل كلّ ما يقوله الخبراء في مؤسسة سانت-أنطوان وأعتبر أن هذه المراهقة غير المتّزنة أبعد ما تكون عن الغباء. كان ردّها على صورة أوسيان أفريل والسؤال المطروح، «20/20؟»، مقتضباً وفي سطرين.

جميلة أكثر من اللازم. احذَرْ المظاهر.

كنتُ أفضِّل ذات الشعر الأحمر.

تقبَّل، سيادة المدير، خالص عبارات الاحترام والتقدير.

بيرتراند دوناديو،

السرية الإقليمية لضاحية إتروتا.

بعد 18 يوماً، 31 أغسطس 2014

فتح إميل قمرة التلفريك رقم 22 في جبل منتصف النهار بحركة شبه ميكانيكية، ليسمح بخروج ستين سائحاً صينياً ارتجفت سيقانهم، بعد رحلة اعتمدَت في توازنها على سلك واحد، على شفا ألفي متر.

تقدّم ثلاث خطوات، ثم أشعل سيجارة مارلبورو.

اعتاد على الركوب في مترو الثامنة مساء، ثم النزول في المحطة، واحتساء الجعة في حانة شوكاس.

لكنه لن يفعَل ذلك اليوم.

انتظرَت صاحبة الشعر الأحمر مرور الصينيين ثم تقدَّمت نحوه. يرافقها عملاق ضخم الجثة، وسيم كصيّاد أرانب، مع سمرة خفيفة، ويرتدي معطفاً أبيض كالثلج تزيِّنه الشرائط وشعارات النبالة.

أناقة لا تغفلها العين، هو الشخص العامل في إدارة القضايا الجنائية بلا شك، فكّر إميل.

مدَّ يده إلى الفتاة، التي بدا وجهها أشبه بوجه طفلة صغيرة وهي محتمية بدفء معطفها.

- الآنسة ألينا ماسون؟

صافحته الفتاة بيدها الصغيرة.

- لا، ساليناس. مونا ساليناس.

هزَّ إميل كتفيه، لا يهمّه إن كانت المصالح المعنية قد أخطأت في إملاء الاسم. سلَّمَه الضخم بعض الوثائق والتصاريح التي يزيّنها الشعار ذو الألوان الثلاثية الزرقاء والبيضاء والحمراء. قذف إميل بالسيجارة بعيداً، ثم أشارَ إلى الباب الجرار لقُمرة التلفريك.

- هيا بنا، إنها الرحلة الأخيرة... سأرافقكما هذه المرة، أعتقد بأنّ ما تطلبينه يا آنسة غير مألوف.

اهتزّ التلفريك، وبدت حزم الأسلاك سوداء اللون كخدوشٍ تشوّه الجبل، وصولاً إلى القمة المغطّاة بالثلوج، بعلوّ ثلاثة آلاف متر. احتضنت مونا كنزها الصغير، فيما احتفظ هيرفي، موظف إدارة القضايا الجنائية ببرودة أعصابه.

- أعتقد بأنها فكرة مجنونة، تابع إميل في محاولة منه لاختراق جدار الصمت.

تمتم الضخم بنبرة هامسة تشبه تراتيل الرهبان:

- وصل التصريح مباشرة عبر الوزارة. أنت على علم بتفاصيل الموضوع، لا، ألا تعتقد بأن تلك الحكاية مؤثِّرة للغاية؟

لم يُجِبْه إميل، مكتفياً بالتطلع إلى الجبل الأبيض.

مؤثرة؟

هل سيشرع موظفو الوزارة الأشداء في البكاء أم ماذا؟

- نظراً إلى حيثيات الموضوع، تابع هيرفي شرحه، كان من الصعب على الوزارة أن ترفض هذا الطلب الرمزي الذي قدَّمته الآنسة ماسون.

- كنت أعتقد بأنّ اسمها ساليناس، قال سائق التلفريك الملتحي متذمّراً.

تابعت المركبة رحلتها إلى أقصى الشمال. تركت أشعة الشمس الأخيرة أثرها الذهبي والوردي على السفح الأبيض.

قام إميل بتشغيل جهاز الاتصال.

- هدفنا الوصول إلى المحطة القادمة! محطة النجمة!

توقف التلفريك بعد لحظات. ابتسمت مونا موجِّهة ناظريها إلى السماء. جلس إميل القرفصاء على أرضية المركبة وبدأ في فكّ مسامير فتحة الإغاثة.

بطول وعرض ثلاثين سنتيمتراً.

أربعة مسامير ملولبة.

وتحت أقدامهم أكثر من خمسة آلاف متر.

ألقت مونا نظرة على سفح شامونيكس.

- أين يمرّ المتسابقون؟ تساءلت.

- هناك، أجابها هيرفي بصوت هادئ. خلف قمة بيوناساي، ذلك الهرم الأبيض على خط القمة. سيجتازون تريكوت باتجاه الأسفل. لقد شاركت في سباق النورث فايس مرتين، وربما تمّ تكليفي بهذه المهمة لهذا السبب. لقد انطلق المتسابقون قبل ساعتين تقريباً، سيصل الأوائل إلى إيطاليا قبل حلول الظلام، لتنتظرهم خمس عشرة ساعة أخرى، بالنسبة إلى الأكثر سرعة.

تنهَّد إميل، كما لو أنّ المجهود الذي يبذله المشاركون في سباق الجبل الأبيض لا يساوي شيئاً أمام ما يبذله لفكّ البراغي التي يبدو أنها لم تُنتَزَع من مكانها منذ فترة طويلة.

فتحت مونا غطاء الجرّة ببطء شديد.

لمع فينوس فوقها.

خمسة أحلام...

فتحت يدها اليسرى على أصابعها الخمسة ثم تلتها كمناجاة أخيرة.

خمسة أحلام. سيتمكن جمال من تحقيقها كاملة.

سأكون سبباً في بكاء امرأة بعد وفاتي، همست مونا.

سالت الدموع على خديها. ثنت إبهامها. سلَّمها هيرفي منديلاً لكنها رفضته.

سأدفع دَيني قبل وفاتي.

ثنت سبابتها، وهي تتذكر إلقاء القبض على أوسيان أفريل، المتّهمة بقتل ستة أشخاص، ثلاث جثث تمّ العثور عليها في المنحدر، بالإضافة إلى الحقير سان-ميشيل، الضابط بيروز، ومورغان، شقيقتها التوأم... لقد توصّل جمال إلى كشف الحقيقة، الحقيقة التي عجزَ ألف شرطي عن الوصول إليها طوال عشرة أعوام. أغمضَت عينيها، مستعيدة ذكرى أرجوحة في حديقة الألعاب المقفرة فوق شاطئ إيبور. أوّل مرة تسمع عن أوفيلي. تحدثا كثيراً عن جمال. ففي أوّل مرة، وافقت مؤسسة سانت-أنطوان على السماح للمراهقة بقضاء يومين معها في إلبوف.

استقرّت ثلاثة مسامير على أرضية القمرة. شعر إميل بالفخر لإنجازه هذا، أصدَرَت الرياح صفيرها خلف الصفيحة المعدنية.

- بمجرد تمكّني من انتزاع المسمار الأخير، ستهتزّ الأرضية بعض الشيء.

اعترت مونا رعشة قوية.

سأمارس الحب مع امرأة أجمل مني.

ثنت أصبعها الأوسط، وقد تتابعت أمام ناظريها ذكريات ليلتهما الأولى في لاسيرين. الغرفة رقم 7. وصوت الحصى الذي تتقاذفه الأمواج. عندما تُلامس جسديهما. بلا وعي، ومن دون عازل طبي.

اخترق الهواء البارد قمرة التلفريك، وقد أمسك إميل بالصفيحة المعدنية بين يديه.

- ألينا، قال هيرفي. علينا إنهاء المسألة الآن.

كانت نبرة صوته أكثر حزماً.

ثنت مونا بنصرها.

سأنجب طفلاً.

لامست يدها بطنها المنتفخة، في الوقت الذي ظهَرَ فيه المتسابقون.

ستة أشهر منذ ليلة لاسيرين.

جلست على ركبتيها بحركة بطيئة، وأمسك هيرفي بكتفها، وإن لم يكُن في تصرّفها ما يهدِّد سلامتها، فالفتحة أضيق بكثير من أن تتسبَّب في سقوط أحدهم.

أمالت الجرة نحو الفراغ.

سأصبح أول رياضي معوّق يشارك في سباق مون-بلان الكبير.

ثنت خنصرها، ثم سكبت محتوى الجرة عبر الفتحة.

تناثر الرماد وقد قادته الرياح إلى الجبل الأبيض وباقي القمم، عالياً، عالياً جداً، بسرعة وعلوّ لن يبلغه أيّ متسابق من الذين وصلوا بملابسهم الرياضية الملوّنة إلى منحدر بوسون أسفل الجبل الأبيض.

مكتبة
t.me/t_pdf

t.me/t_pdf

ميشيل بوسي

لن ننسى أبداً

«فكّر للحظة قصيرة بأنه أمام أجمل فتاة يراها في حياته، وقد تمكّن من إنقاذ حياتها.

لحظة قصيرة، لكنها كانت كافية ليفقد تركيزه.

جرّت الفتاة الوشاح ناحيتها بحركة مفاجئة، وهو ما لم يتوقّعه جمال أبداً.

كانت حركة مباغِتة وسريعة.

انزلق الوشاح من بين يديه.

أمّا ما جرى بعد ذلك فلم يستغرق أكثر من جزء من الثانية.

تجمّدت نظرات الفتاة، ثابتة لا يمكن محوها أو نسيانها، نظرات فتاة تطلّ من نافذة قطار متحرِّك.

نظرات منكوبة.

- لاااا! صرخ جمال.

كان وشاح الكشمير الأحمر الذي يرفرف بين أصابع الفتاة آخر ما رآه جمال، فقد سقطت الشابة في الفراغ في اللحظة الموالية.

حياة جمال هي الأخرى سقطت في الفراغ، لكنه لم يكُن مدرِكاً في تلك اللحظة حقيقة ذلك».

❖ ❖ ❖

لن ننسى أبداً هي ثالث رواية لبوسي تُترجم إلى اللغة العربية، وقد اختار كاتبنا الموهوب في هذا العمل الجميل أن يكون بطله عربياً، كاشفاً لنا الأفكار المسبقة السائدة في المجتمعات الغربية، وذلك بدءاً من التفاعل مع الاسم العربي، كما جاء على لسان البطل في تعريفه عن نفسه:

«اسمي جمال. جمال سلاوي. لا أعتقد بأنه اسم قد يجلب الحظ لصاحبه».

ISBN 978-9953-68-937-1
9 789953 689371

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

تصميم الغلاف: © Marion Tigréat